الموسوعة الغزالية
فى التصوف والصوفية
(الكتاب التاسع)

تأملات غزالية فى القضايا الصوفية

تأليف
أ.د / محمد حسينى موسى محمد الغزالى
أستاذ العقيدة والفلسفة بجامعة الأزهر
وعميد المركز الثقافى الإسلامى بالشرقية

الطبعة الأولى
١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

دار الصواف للطباعة ت: ٠٥٥/٢٣١٣٦٩٠

الموسوعة الغزالية
في
التصوف والصوفية
(الكتاب التاسع)

تأملات غزالية
في
القضايا الصوفية

تأليف

أ.د/ محمد حسيني موسى محمد الغزالي
أستاذ العقيدة والفلسفة بجامعة الأزهر
وعميد المركز الثقافي الإسلامي بالشرقية

الطبعة الأولي
١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

بسم الله الرحمن الرحيم

إهــــــداء

إلــــى :

- الأصــــل الطيـــــب.
- النبــــت الزاكـــــي.
- العبيـــر الذكـــــي.

ابنـي

الدكتور / بدر الدين محمد حسيني موسى محمد الغزالي

وعروســه الريحانة الكريمة

ابنتـي

الدكتورة / أسماء محمد فتحي عبد الرحمن

متمنياً التوفيق في المقصد

والسلامة مع سداد الطريق

والدكم

أ.د/ محمد الغزالي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــة

الحمد لله رب العاملين ، حبب أولياءه إليه ، وبين أنهم أحبابه جل علاه ، يحبهم ويحبونه ، يأمرهم فيسارعون ، وهم إليه طائعون ، وهم فــوق ذلــك اصطفاهم الله من غيرهم(١) ، وصفاهم من أنفسهم ، فباتوا من أهل الصــفاء وفيهم مظاهر الصفاء .

وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، خص بعض العباد بــالتلقي عن رب العباد وجعلهم من وسائل المعرفة التي تنصلح بهــا أحــوال العبــاد والبلاد ، فهم المتلقون من فيوضات الرحيم الرحمن ، وهم ممن يبلغون عــن الملك الديان فجمعوا بين التلقي والتلقين ، وكانوا في الأمرين مجيدين(٢).

وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم أدبه ربه ، وفي الكائنات ولاه ، وجعله رحمة للخلائق باقية مهداه ، فحاز المقامــات العليــا ، والأحوال المثلى ، فهو صاحب موضع الولاية الربانية ، وترتيب المقامــات ، والأحوال العلوية(٣).

اللهم صلى وسلم وبارك على الرحمــة المهــداة ، والنعمــة المســداه ، والسراج المنير ، طب القلوب ودواؤها ، وجلاء الأبصار وضــياؤها ، ونــور العيون ومرآة أبصارها ، وتهذيب النفوس وكمالها . قال فيه رب العالمين مما قال : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (٤).

---

(١) الله تعالى صافاهم،وهم صافوه،أحبهم وأحبوه،وذلك معيار الصفاء،ومظهر من مظاهر كمال الرجاء

(٢) الإجادة المرادة هنا ما يتعلق بقضية التوفيق الإلهي لهم ، فكل ولي إنما هو متابع لأنوار النبي ، وبالتالي قال الصوفية الأعلام أعلى مقامات الأولياء ، هو بداية منازل الأنبياء .

(٣) كل من الخرقة والتلقي الروحي والعلمي يمهد للولاية الربانية ، ومن ثم فكل مقام إنساني باقي معه حال رباني ، والمقامات مكاسب إنسانية ، والأحوال مواهب ربانية ، وكل توفيق للخير إنما هو من عند الله جل علاه .

(٤) سورة الأنبياء الآية ١٠٧ .

وارض اللهم عن آل بيته الطاهرين ، قال فيهم رب العالمين ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾[١] ، وارحم اللهم أصحابه الغر الميامين ، وأكرم اللهم التابعين من العلماء العاملين ، الذين مازالوا من خشية ربهم مشفقين ، وارحم اللهم والدينا ومعلمينا ، وأزواجنا وأولادنا وذرارينا ، وأكرمنا بشفاعة الحبيب المصطفى يوم الدين ، إنك يا مولانا على ما تشاء قدير .

أما قبل ...

فإن الحياة الروحية في الإسلام، تمكنت من عقول المسلمين ، كما أنسابت داخل قلوبهم ، وسيطرت على جوانحهم ، وتناجت أفئدتهم بأنا صافينا أنفسنا لله رب العالمين ، فمن الله علينا ووقانا عذاب الجحيم ، إذ الولي الرباني هو من والى الله تعالى بالمزيد من الطاعات ، فوالاه الله تعالى بالكرامات تفضلاً ورحمة من بارئ الأرض والسماوات[٢] .

كما أن هذه الحياة الروحية قامت على أصول شرعية من الكتاب الحكيم ، والسنة النبوية المطهرة الصحيحة بجانب إجماع علماء الأمة ، ومن ثم بقيت حية بمالها من مصدر صحيح ، وتوظيف سليم ، بجانب فوائد عملية تطبق على أرض الواقع براء وذلك مما يشهد لها بالثبات في نصوصها ، والثبات في أدائها ، مع المرونة من ناحية استيعابها لكافة المستجدات على النواحي التي تجئ فيها، أو يقع لها التوجه نحوها.

وباتت الحياة الروحية في الإسلام، ذات نظام ثابت، ومنهج محدد، مما جعل القضايا التي تدور حولها ذات قيمة عالية بالنسبة للتراث الصوفي الإسلامي

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٣٣ .

(٢) التصوف الإسلامي يدور محوره الأصلي حول تصفية العبد قلبه وعقله وجوارحه لمولاه بحيث لا يكون في المقام العالي سوى صاحب العزة والكبرياء والرفعة وهو الله جل علاه .

على وجه الخصوص ، والتراث الإنساني المنهجي على وجه العموم ، ومن ثم فقد صارت المسائل الصوفية ذات تأثير فعال، متعدد الجوانب، متنوع الغايات ، متحصن الأهداف[١] .

بيد أن الحياة الروحية في الإسلام ، قديمة قدم الدين الإسلامي نفسه ، والمظاهر التي تدل عليها ، هي ذاتها التي قام الرسول صلى الله عليه وسلم ، والصحابة الكرام ، والتابعون والأئمة الأعلام ، وهذا مما يؤكد أن تاريخها قديم ، وأصولها صحيحة ، ومظاهرها سليمة ، ونتائجها ذات نفع عظيم [٢].

ومن ثم فإن تناول القضايا التي تعبر عن الحركة الداخلية للحياة الروحية من التلقي الروحي والعلمي،والعلاقة بين الشيخ والمريد، بجانب دور الخرقة في تربية المريدين ، مما يعبر عن تفاعل ذاتي ، وتواصل تربوي وذلك مما تتميز به الحياة الروحية والعلمية في الإسلام ، التي عمادها التلقي السليم للأصول الصحيحة ، ثم الممارسة العملية المشروعة [٣].

بل إن الولاية والولي من القضايا الأساسية في الحياة الروحية نظراً لارتباطها بالنصوص الشرعية من ناحية وآثارها التطبيقية ، والعملية من ناحية ثانية ، ومن ثم كانت الأهمية واضحة والضرورة قائمة لتناولها في صورها المتعالية[٤] .

وهذا مما جعل الحديث عن المقامات والأحوال ذا أهمية في البناء الصوفي

---

(١) التصوف الإسلامي يقوم على قضايا وآداب ، كما يعتمد على مصادر ومقدمات ، ثم تأتي معه نتائج عملية ، ومن ثم فلا توجد فيه مشكلات ، وإنما الذي يدعي وجودها أو يزعم هم خصوم التصوف الإسلامي ، وخصوم الصوفية الأعلام .

(٢) الواقع الحياتي للدعوة الإسلامية من أكثر الشواهد على أن الحياة الروحية في الإسلام ذات خصوصية ثابتة .

(٣) سمات التصوف الإسلامي أنه يمتلك الحركة الذاتية التي تظهر لها آثار في الحياة العملية ، بحيث تحقق ألواناً عديدة من النفع المتواصل الفعال في حياة الناس أجمعين .

(٤) عماد الولاية الربانية قائم في أن العبد هو الإنسان الواعي الذي والى الله بالطاعات فوالاه الله بأنواع الكرامات ، راجع كتابنا كرامات الأولياء بين المثبتين والنافين حيث بينت ذلك في شكل تفصيلي.

كما برز دورها في التربية الصوفية من خلال ما يقوم به الصوفية أنفسهم مع المريدين وغيرهم.

وفي نفس الوقت فإنه من الضروري تقديم أمثلة تطبيقية من حياة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحياة الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ، ففي ذلك خير كثير، ودليل عملي واقعي على أن الحياة الروحية في الإسلام ستبقى ما بقي الإسلام نفسه ، لأنه الذي جاء بها ، ونبه إليها ، وحث عليها ، وطالب بها، وذلك مما تضمنه هذا الكتاب من موسوعتنا الغزالية في التصوف والصوفية [١].

غير خاف أن كل عمل بشري يأتيه الخطأ أكثر مما يجيء من ناحية الصواب ، فإن أكن وفقت فهذا من فضل الله رب العالمين ، وإن أكن قصرت فإني خطاء ، وخير الخطائين التوابون ، كما أني فيما قمت به مجتهد يدور أمري بين الأجر إن أخطأت ، والأجرين إن أصبت ، ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشدا .

المؤلف
محمد حسيني موسى محمد الغزالي
فجر الثاني عشر من ربيع أول ١٤٣١م
٢٦ فبراير ٢٠١٠م
غزالة الخيس مركز الزقازيق شرقية

---

(١) هذه المؤلفات تحت عنوان الموسوعة الغزالية في التصوف والصوفية ، وقد صدر منها : ١ـ أوراق مطوية في التصوف والصوفية ، ٢ ـ المقدمات في التصوف الإسلامي ٣ ـ التصوف المفترى عليه ٤ ـ التصوف الإسلامي بين الأنصار والخصوم ٥ـ أنسام حيية في الأفكار الصوفية ٦ ـ أبجديات التصوف الإسلامي ، ٧ـ كرامات الأولياء بين المثبتين والنافين ، ٨ـ الفراسة بين الدين والفلسفة ، ٩ ـ تأملات غزالية في القضايا الصوفية وهو الذي نحن بصدده .

الفصل الأول

التلقي الروحي والعلمي
في
الفكر الصوفي

تمهيـــد :

حاول الكثيرون معرفة العلاقة بين الشيخ والمريد في الفكر الصوفي، غير أن البعض لم يكن صوفياً بحيث يأخذ عنهم ، وتكون مصادره هي سلوكياتهم ، كما لم يكن لديه استعداد لتحمل مشقة البحث الموضوعي ، ومن ثم أسرع إلى إعلان نتائج لم تقم على أسس سليمة(١)، كما لم يكن للمنهج العلمي فيها نصيب ، وكان لذلك أثره السلبي على القضية برمتها ، وبخاصة ممن لم يعرفوا عن التصوف سوى ما يسئ إليه .

وفريق آخر دخل إلى المسألة وهو معبأ بأفكار سابقة ، ونتائج أمكن تعبئتها في قوالب بذاتها، فصار كذات عارفة ، والموضوعات المعروضة للمعرفة كلها معبأة بالأفكار السبقية ، التي هي في الأصل قد صيغت بغرض النيل من التصوف ذاته ، بل ومن الصوفية أيضاً ، دون استماع إلى أصحاب القضية أنفسهم(٢) ، فصار هؤلاء بمثابة الحكم والخصم معاً .

بينما وقف فريق ثالث أمام الممارسات الظاهرية ، التي تتم باسم التصوف مع أن من يقومون بها لا علاقة لهم به ، إنهم مجرد أفراد أو جماعات انتسبوا للتصوف والصوفية لأغراض في أنفسهم ، بعضها يتعلق بتحصيل المنافع ، وآخر يتعلق بدفع المضار(٣)، وكلها في الأصل يجب أن تحسب على أصحابها لا على الصوفية ، ولا على التصوف .

---

(١) أكثر من قام بهذا الدور هم المستشرقون ، وبخاصة الذين جاءوا من إيطاليا في الزمن البعيد بغية النيل من الإسلام والمسلمين . على أية ناحية راجع كتابنا تقييم جهود المستشرقين الأمريكيين في دراسة السيرة والسنة النبوية ص ٧٧ / ٩٥ .

(٢) وفي الحكم القديمة السارية مسرى الأمثال قولهم ، إذا كان الحكم خصماً عليك ، فلن يقبل منك الشهود .

(٣) هذا الفريق ما يزال له وجود في حياتنا اليومية ، من حيث عمليات الانتساب إلى القوم مع أنه ليس منهم ، بل ولا معرفة له بهم ، وفوق ذلك فربما كان بالأمس القريب خصماً لهم ، أو عيناً عليهم .

فإذا حصرنا المواقف في المسألة بان لنا موقف رابع جمع من كل ما سبق ، لفق أو سعى لإشاعة هذه وتلك على التصوف والصوفية ، وقدم ذلك كله في قوالب مضغوطة تحت أسماء ومسميات أحكام شرعية ، ومن ثم انتهى إلى الحكم على التصوف الإسلامي بأنه دخيل ، وعلى الموصوفين به بأنهم مبتدعة.

بل ربما غالى فأصدر عليهم أحكام الكفر ، وكأنه نائب عن الله تعالى في أرضه ، مع أنه ليس نبياً ولا رسولاً[١]،وإنما هو مقحم نفسه على قوم لم يكونوا على استعداد لتقبله أو استقباله.

والحق أن بحث هذه العلاقة من الناحية الموضوعية لابد فيه من أمور:

الأول : المعايشة العملية :

المعروف أن من جهل شيئاً عاداه ، ومن عادى قوماً من غير أن يعايشهم كان كالأعمى الذي يقذف الحجارة في الطريق، وهو مرغم على المرور بها، ومن ثم فالمعايشة العملية لحياة هؤلاء تجعل الرأي مدروساً،والمقدمات مصقولة بحيث تأتي النتائج حاملة أفضل الملامح الحقيقية ، فإن لم تكن هي الحقيقة بذاتها[٢] ، فعلى الأقل تكون قريبة من الحقيقة أو في نطاقها.

الثاني : إدراك المصطلحات العلمية :

من الثابت معرفياً أن كل قوم أو جماعة لهم اصطلاحاتهم الخاصة بهم ، ولذا يعرف الاصطلاح من الناحية العلمية بأنه اتفاق جماعة بذاتها ، في علم من العلوم ، أو فن من الفنون، على استخدام لفظ أو ألفاظ بذاتها في معنى أو معان بذاتها، بحيث يكون هذا الاصطلاح خاصاً بهم[٣].

---

(١) ذلك ما سوف أعرض لبعض نماذج منه إن شاء الله تعالى ، إن لم يكن في هذه الطبعات ففي طبعات أخرى أو أجزاء أخرى إن شاء الله تعالى .

(٢) في الأثر الكلمة الحكمة ضالة المؤمن ينشدها أنى وجدها ، لا يبالي من أين جاءت . راجع للشيخ على بن محمد البهنساوي " من هدي السنة المطهرة " ، ص ١٣٧ .

(٣) راجع كتابنا حصاد الاقتصاد في الاعتقاد ، الجزء الثاني ، ص ٣٦ / ٣٧ .

فإذا نقل هذا الاصطلاح بحيث يستخدم لدى جماعة أخرى، فلابد من تأكيدهم على أنه اصطلاح منقول ، حتى يكون التعامل معه في ذات الحدود ، بعيداً عن القلق والاضطراب ، وبالتالي يتم التعامل مع ذات المصطلح من خلال قاعدة ثابتة ، وأساسية هي أنه لا مشاحة في الاصطلاح.(١)

وكثيراً ما رأينا خلافات تنشب ، ونزاعات تمتد ، أعقبتها أحكام فيها من القسوة ما فيها ، نظراً لعدم تحديد المصطلح المستعمل بين المتنازعين ، وانعدام الاتفاق بشأنه فيما بينهم ، ولو تم تدبر الأمر ، لتبين أن الخلاف في اللفظ(٢)، وأن المعنى المشترك يمكن الوصول إليه ، والاستفادة منه ، على ناحية توظيفية سليمة .

الثالث : استبعاد التعبئة اللاشعورية :

من المؤسف له أن أغلب الخلافات القائمة بين أصحاب المذاهب الفكرية في الجانب الإسلامي أساسها التعبئة اللاشعورية بالأحكام المسبقة دون مراجعة الواقع، مع التصديق بتلقي هذه الأحكام ، رغم ما فيها من قسوة. وما تحمل من جنايات، والكل يجري في هذا الاتجاه كأنه مرغم عليه ، رغم أن ظاهره الإرادة الحرة ، والاختيار التام ، وكأني أصرخ به من أعماقي أين عقلك !(٣).

ومن الأدلة على ذلك ، ما نراه في كثير من المستويات حيث يقوم البعض باتهام الفلاسفة المسلمين بالكفر، تحت مزاعم أنهم قالوا بقدم العالم ، وأنكروا علم الله بالجزئيات ، كما أنكروا حشر الأجساد ، وهي مزاعم اعتذر عنها الإمام

---

(١) لا مشاحة في الاصطلاح معناه أنه لا يقع أي تنازع فيه ، مادام قد استعمل على الناحية التي وضع فيها ، بالنسبة لمن كانوا أول واضع أو مستعمل له .

(٢) راجع كتابنا الفكر الإنساني أصوله ومستوياته ، ص ٩٩ / ١٠١ .

(٣) مع أن الله تعالى حذر من إشاعة هذه الأحكام واعتبرها من الفواحش ، قال تعالى : " إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ". سورة النور الآية ١٩.

الغزالي نفسه ، ومع هذا مايزال البعض يرددها غير هياب بما هو مترتب عليها[١].

بل أن عملية التعبئة اللاشعورية بالعداء على العلماء في كل فن قد بانت من العادات القائمة رغم أنها غير مقبولة ، ومع هذا فالكثيرون يمارسونها على أنها من أنواع القربات حيث يزعمون أنها تقربهم إلى الله تعالى ، مع أنها طعن في الأبرياء[٢] ، ومحاولة للنيل من أهل العلم ، وكأن الأمور تسير في اتجاه مغاير تماماً لحركة الحياة .

الرابع : إلغاء التعصب المذهبي :

وقد نبه الإمام الغزالي إلى أن تعصب العَالِم بات أصعب من تعصب العامي لأن العامي ربما يعذر بجهله، أما العالم فما هو عذره ، ويذكر على سبيل المثال أنك لو عرضت قضية بأدلة صحيحة ، قال بها أشعري وكان العرض على معتزلي ، ولم تذكر له أنها من بنات أفكار الأشعري استحسنها ، وتمسك بها ، ودافع عنها نظراً لقيامها على أدلة صحيحة في العقل مقبولة[٣] .

فإذا قلت له أن هذه المسألة التي عرضت عليك ، واستحسنتها بأدلة عقلية قال بها أشعري ، فإنه ينقلب مكذباً بما كان قد صدق به ، منكراً لما كان قد اعترف بوجوده ، وربما اتهمك بأنك أضللته ، ولو عكست الأمر مع أشعري لكان حاله كحال المعتزلي في التصديق أولاً ، ثم التكذيب ثانياً[٤] وهي آفة من آفات التعصب للمذهب .

---

(١) عرضت هذه المسألة قدر طاقتي وبان أنهم ليسوا كفرة ، وأنهم في كل ما صدر عنهم لم يخرجوا عن أصول الدين ، وما هو معلوم من الدين بالضرورة . راجع كتابنا أوراق منسية في النصوص الفلسفية ، حيث تناولنا هذه كلها بالشرح والتعليق .

(٢) دليل ذلك ما هو قائم حتى اليوم بين خصوم التصوف وأنصاره على سبيل المثال ، وبين الفقهاء والمتكلمين ، والحال سيء جداً ومؤسف للغاية .

(٣) هذا مما يجب أن ينظر إليه ، ويتم العمل على تعديله ، والخروج منه ، إذ ليس من المعقول أن نظل أسرى حروب لا ناقة لنا فيها ولا جمل .

(٤) راجع للإمام أبي حامد الغزالي " الاقتصاد في الاعتقاد " القطب الثالث ، وكتابنا حصاد الاقتصاد في الاعتقاد ـ الأفعال الإلهية ص ١١٥ .

الخامس : تنقية المصادر الموجودة :

من المعلوم أن المؤلفات التي يتم التعامل معها بالنسبة للحياة الروحية في الإسلام ، تم طبعها أولاً بأيدي المستشرقين ، الذين حولوها من مخطوطة إلى مطبوعة ، نظراً لظهور آلة الطباعة في الغرب قبل الشرق .

وقد اختار المستشرقون هذا الجانب بالذات وابتدؤا العبث به كنوع من استرداد الكرامة السليبة، لأن الصوفية هم الذين استطاعوا تدبير وسائل فتح تلك البلاد، عن طريق الربط المشروعة تطبيقاً لقوله صلى الله عليه وسلم "إن لرباط يوم في سبيل الله ، خير من الدنيا وما فيها "[1].

كما أن الصوفية أصحاب اتجاه عملي وجداني وسلوكي ، وهذا مما ساعدهم على النفاذ للآخر في سهولة ويسر ، بجانب ما امتازوا به من عطف ومحبة ، وتواضع مع كرم، وعلم وقيم عالية رفيعة جعلت الآخرين ينظرون إليهم نظرة فيها الاحترام مع الإكرام والتبجيل ، وقد مكنهم ذلك من تقديم خدمات جليلة للإسلام [2].

فلما توجه المستشرقون إلى التراث الصوفي الإسلامي ، وقاموا بتحويله من صورته الوثائقية المخطوطة إلى صور مطبوعة ، أمكنهم أن يضعوا فيه ماشاؤا بغية تنفير الناس من الصوفية ، وبخاصة أن الذين مارسوا هذه الأفكار الدخيلة كانوا من ذوي الاتجاهات التي تملك قدراً من الثقافة[3]، كما هي متعبأة بالعداوة على الإسلام .

لقد نتج عن هذا وجود أفكار عديدة ذات جذور وثنية ، جاءت معبرة عن

---

(١) راجع للعلامة الشيخ محمد محمد أبو الأنوار الحميدي : أثر الصوفية في الفتوحات الإسلامية ص ١٣٣ / ١٧٥ .

(٢) راجع كتابنا " أنسام حيية في الأفكار الصوفية " ص ٤٩ ، ٥٠ .

(٣) راجع كتابنا تقييم المناهج الاستشراقية الأمريكية في دراسة السنة والسيرة النبوية ، ص ٨٨ / ٩١ .

ثقافة أولئك الذين دسوا في هذا التراث الإسلامي، وبعضها صورة للفلسفة التي كانت لها سيادة في اليونان القديمة ، وبلاد الصين والهند وغيرها مما هو بعيد تماماً عن الروح الإسلامية الخالصة،وقد تحقق لهم من النتائج بعض ما أرادوا.

إن الدارس للتراث الصوفي الإسلامي ، إذا لم يقف على الأصول التي قام فيها ذلك التراث ، ضل وغوى، كما وقع في الأبرياء وما اهتدى، وربما خاصم أقواماً كانوا في القرب إلى الله تعالى ، مما يباهي الله بهم ملائكته ، فماذا هو صانع معهم يوم لقاء الله تعالى ، وكأني بأبي العلاء المعري وهو يقول:

لا تظلموا الموتى وإن طال المدى ∴ إني أخاف عليكموا أن تلتقوا.

من ثم فإني أناشد كل مسلم ، بل كل باحث منصف ، التزام الموضوعية في الحديث عن أية جماعة مهما كان شأنها ، وبخاصة جماعة الصوفية الذين صفوا أنفسهم وقلوبهم وعقولهم لله تعالى ، وكانوا ومازالوا المصباح الذي ينير كثيراً من الظلمات ، فذلك خير وأهدى سبيلاً ، وأحسن وأقوم قيلاً .

أولاً : علاقة التصوف بالتلقي الروحي والعلمي:

من الشائع أن التصوف الإسلامي ، علم تعرف به أحوال تزكية النفوس ، وتصفية الأخلاق ، وتعمير الظاهر والباطن، لنيل السعادة الأبدية ، وموضوعه التزكية والتصفية والتعمير .

وغايته نيل السعادة الأبدية ، ومسائله التي تعبر عنها جزئياتها ، وهو علم الوراثة الناتج عن العمل ، المشار إليه بخبر من عمل بما علم ، ورثة الله علم ما لم يعلم(١).

والتلقي الروحي من مسائل التصوف الإسلامي التي ارتبطت بها جوانب

---

(١) راجع لشيخ الإسلام زكريا الأنصاري: " هوامش على الرسالة القشيرية، ص ١٢ ، ١٣ ، ط محمد علي صبيح .

عديدة ، وكلما كان القلب مشغولاً بالله تعالى ، مرتبطاً به جل علاه ، متفرغاً إليه وحده ، فإنه جل شأنه يفيض عليه من أنواره ، بما يجعله متلقياً للعلوم الربانية ، وذلك مما يعبر عنه مظهران :

أحدهما : الاستعداد القلبي النوراني :

ومعناه أن يتحول قلب العبد إلى وعاء نقي، يتلقى العلوم الإلهية، والمعارف الربانية ، من حيث أن الروح متى صفت عن كافة الشوائب ، ثم صقلها بنور الإيمان، وأفاض عليها ربها من أنوار الرحيم الرحمن ، ازدانت به .

وكلما تلألأت فيها الأنوار الإلهية بدرجاتها لعالية، اتسعت جوانبها، وتعددت خوافيها، وظهرت بواديها[(١)]، وباتت قادرة على القيام بالعديد من المهام المعرفية في وقت واحد .

الثاني : الاستفادة من المعارف الصحيحة :

ومعناه أن يتحول هذا القلب بما فيه من معارف عقلية ، إلى صياغتها من الناحية التوظيفية ، من حيث أن العقل كلما استنار بأنوار الله تعالى ابتعد عن المعاصي ، لأنه لا يجتمع حب الله تعالى ، وحب غيره في قلب عبد أبداً ، فإذا دخل نور الله خرج ما سواه[(٢)].

ومتى استنار القلب بأنوار الله تعالى ، فإنه يكون مستعداً لتلقي المزيد منها ، وهو المدد الإضافي ، ومتى انفرد العقل بالله تعالى، وانشغل به وحده بات القلب والعقل في حراك دائم نحو الملأ الأعلى ، وهذا مما يجعل القدرة على الاستفادة من المعارف الصحيحة تتم في أشكال إيجابية متعددة.[(٣)]

---

(١) من المعلوم أن الذي يعوق الروح عن الانطلاق العلوي ، والاتصال المتواصل بالملأ الأعلى هو البدن الجسماني الكثيف ، ومتى ثقل البدن ضعفت الحركة الروحية ، ومتى خف البدن قويت الحركة الروحية ، وهكذا يبقي الحال على الدوام .

(٢) راجع كتابنا أنسام حبية في الأفكار الصوفية ، ص ٧٧ ، الطبعة السادسة ، وكتابنا الموسوعة الغزالية في الأفكار الصوفية ، ج ٢ ، ص ٢٩٥ .

(٣) الذي يحول بين المرء والاستفادة من المعارف على ناحية سليمة ،هو انشغال القلب بما سوى الله ،حيث يوكل الله العبد لذات العبد

ومن المعلوم أن الله تعالى إذا تجلت أنواره للقلب الإنساني صار نورانياً ، وإذا انجلت بهذه الأنوار مرآة العقل صار ربانياً ، وبناء عليه فإنه تتوالى عليهما أنوار من كثرتها لا توصف، ومعارف من تنوعها لا تحد[1] فضلاً من الله ونعمة والله عليم حكيم .

ولما كانت عملية التلقي الروحي والمعرفي لابد فيها من إعداد واستعداد ، فقد باتت الحاجة إلى الشيخ واضحة، حتى يعرف المريد كيفية القيام بهذه الأمور كلها ، من تصفية النفس ، وتزكية للعقل ، وتدريب للقلب ، بجانب تقليم أظافر الشهوة ، بالبعد عن سيطرة الملاذ على القلب .

قيل للحسن البصري رضى الله عنه[2]: هل الفقيه هو الذي علم بالفقه أو عمله ، فقال إن الفقيه هو الزاهد في الدنيا ، القائم ليله ، الصائم نهاره ، الذي لا يداري ، ولا يماري ، ينشر حكمة الله بين الناس، فإن قبلت منه حمد، وإن ردت عليه حمد الله تعالي[3] ، وبالتالي فالفقيه هو في جميع حالاته يحمد الله جل علاه وها أنذا أعرض ما يلي :

ثانياً : العلاقة بين الشيخ والمريد :

يحرص الصوفية على إبراز هذه العلاقة بشكل قد لا يتوفر إلا عندهم ، من حيث أن الشيخ يعتبر المريد ولداً له في الطريق ، وله على شيخه حقوق

---

(١) ذلك ما يمكن التعرف عليه من المؤلفات الصوفية التي كتبها الأعلام في مؤلفاتهم العديدة راجع للعلامة الكلاباذي ـ التعرف على مذهب أهل التصوف ، وللإمام القشيري ـ الرسالة القشيرية..

(٢) هو الحسن بن أبي الحسن البصري ، الإمام أبو سعيد مولي زيد بن ثابت ، وأبوه يسار من سبي ميسان ، اعتقه الربيع بنت النضر ، ولد الحسن البصري في خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وسمع من عثمان ، وشهد الدار ، وهو ابن أربع عشرة سنة ، روى عن عمران بن حصين ، وأبي موسى الأشعري ، وابن عباس ، وجندب ، وروى عنه ابن عون ويونس وجمع كبير ، وهو من التابعين ، كان كبير الشأن ، رفيع الذكر ، رأساً في العلم والعمل ، مات في رجب سنة عشرة ومائة بعد أن قارب التسعين . راجع للذهبي الكاشف في معرفة من له رواية في الكتب الستة ج ١ ، ص ٣٢٢ رقم ١٠٢٢ ، وراجع تقريب التهذيب ج ١ ص ١٦٠ ، والطبقات ج ١ ص ١٥٠ .

(٣) راجع للشيخ زكريا الأنصاري هوامش على الرسالة القشيرية ، ص ١٣ .

الابن من الصلب متى كان طائعاً ، عدا الميراث والمحرمات[١]. في نفس الوقت فإن المريد هو الآخر، ينظر لشيخه على أنه الأب في الطريق الروحي الشرعي الذي منَّ الله تعالي عليه به ، وربما بالغ في إكرام شيخه وأعطاه من الحقوق ما قد يقصرعنها بالنسبة لوالده الذي جاء من صلبه، وبخاصة إذا اختلفت المشارب أو تباعدت الرغبات ، وحصل اختلال في العلاقات بين هذا الابن وأبيه[٢].

والسؤال الآن: من هو هذا الذي يحتل في قلب الفرد الواعي محل الأب، وربما زاحمه المنزلة ، وقد يبعده عنها ليبقى هو في ذات المنزلة.

وبعبارة أخرى من هو ذلك الشيخ الذي له كل هذه السلطات على قلب المريد وعقله وجوارحه ؟[٣]

والجواب : إن الصوفية الأعلام لم يفتهم التنبيه على هذه المسائل، وإنما تناولوها في شيء من التفصيل ، وهذا مما يستدعي بيانها على النحو التالي :

ثالثاً : تعريف الشيخ في المفهوم الصوفي :

أ ــ من هو ؟ في المفهوم الصوفي :

يذهب الصوفية إلى أن الشيخ هو الإنسان الواعي ، العارف بالله ، القائم على شرعه، العامل بأمره، الذي يحبب الخلق للحق ، من حيث أنه الذي يعرفهم به معرفة صحيحة ، ويدربهم على عبادته السليمة ، ويأخذهم لمكارم الأخلاق المستقيمة[٣] ، فهو معلم ومدرب وقدوة في الدعوة إلى الله تعالى.

---

(١) بعض الشيوخ كان يفرض على نفسه أن يكون المريد له كافة حقوق الابن من الصلب ، وربما زاد عليه في بعض الأحيان ، راجع للشيخ محمد صفي الدين البركوي قواعد شريفة في التصوف ، ص ١٣٤ ط دار الخلافة ١٣٠٤هـ .

(٢) الظواهر الحياتية عبرت عن هذه العلاقات في كثير من الصور الاستبقائية ، وبالتالي لم تعد خافية على أحد من الدارسين.

(٣) هذه التساؤلات مشروعة ، وترد في حياة الناس كثيراً ، بحيث لا يمكن تجاهل هذا الدور بالنسبة لأصحاب الطريق أنفسهم .

(٤) راجع للشيخ على بن أحمد المرصفي ، المشيخة الصوفية ، ص ٧ ، وراجع للشيخ عبد العظيم أبو الحسن الاتجاه الصوفي ، ص ٢٤ .

من ثم فالشيخ لقب يطلق على العالم العامل بالكتاب والسنة ، القائم على فهمهما بما يتفق مع روح الشرع الشريف، ويحقق أهداف وغايات الشريعة الإسلامية[١] كما يدور مع مقاصد الشريعة ، بحيث تؤدي في أتم الوجوه وأوفاها.

والصوفية يستدلون على تعريف الشيخ بما ورد عن الرسول صلي الله عليه وسلم في قوله عليه السلام " والذي نفس محمد بيده ، لئن شئتم لأقسمن لكم ، أن أحب عباد الله تعالى إلى الله ، الذين يحببون الله تعالى إلى عبـــاده ، ويحببـــون عبادِ الله إلى الله ، ويمشون على الأرض بالنصيحة[٢].

ثم أن الشيخ حين قيامه بهذه الوظائف من ناحية التربية ، أو المهام في البناء الصوفي من الناحية العملية ، فإنما يمارس ذلك كله على وجه يقيني ، لا يبتغي به سوى وجه الله تعالى ، لا طمعاً في الجنة ولا خوفاً من النار، وكانت السيدة رابعة العدوية شهيدة العشق الإلهي ، تقول :

كلهـــم يعبدونـــك خـــوف نـــارك ∴ ويرون النجـــاة حظاً جليلاً

أو لأن يحظـــو بقصـــور عاليات ∴ ويشربوا فيها عذباً سلسبيلاً

أنا ليس لي في الجنان والنار حظ ∴ أنا لا ابتغـــي بحبي بديـــلاً [٣]

كما كانت تقول : إلهي إن كنت أعبدك خوف نارك ، فاحرقني فيهـــا ، وإن كنت أعبدك طمعاً في جنتك فاحرمنيها ، وإن كنت أعبدك لذاتك فمتعني بالنظر فيها [٤].

---

(١) مقاصد الشريعة من الخلق خمسة ، هي : ١ ـ حفظ العقل. ٢ ـ حفظ الدين. ٣ ـ حفظ العرض ٤ ـ حفظ النفس . ٥ ـ حفظ المال . والخلاف بين العلماء في ترتيبها راجع للعلامة الشاطبي الموافقات في أصول الشريعة .

(٢) راجع للعلامة السهروردي : عوارف المعارف ص ٨٠ ، وهذا يمثل لهم أحد المصـادر الهامة، كما أن هذا الخبر يعتبر مصدرا مهماً في التعريف بالشيخ من ناحية المفهوم الصوفي

(٣) راجع كتابنا : أوراق مطوية في التصوف والصوفية ، ص ١٨٧ ، وكتابنا أنسام حيية في الأفكار الصوفية ص ٧٣.

(٤) راجع للشيخ السيد عبد الغني المتولي : نساء صوفيات ، ص ٧٣ ، وللشيخ زكريا محمود سليم " نساء عابدات ، ص ٩٤

ولما إشتد شوقها للجناب العالى ورؤية الملأ الأعلى ، فاضت مشاعرها ، فهتفت من أعماقها ، مناجية مولاها جل علاه قائله:

احبك حبين حب الهوى	وحباً لأنك أهل لذاكا
فأما الذي هو حب الهوى	فشغلي بذكرك عمن سواكا
وأما الذي أنت أهل له	فكشفك لي الحجب حتى أراكا
فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي	ولكن لك الحمد في ذا وذاكا [1]

إن الشيخ في الفكر الصوفي ، هو الذي يطبق الأحكام الشرعية علي نفسه أولا حتى يكون محل العمل وقدوه فيه ، فإذا انتهي من توطين نفسه علي القيام بهذه المهام والتكاليف ، واستطاع إقامة ذاته أمام هذه الوظائف طبقا لما جاء من عند الله تعالي ، فإنه يصح له أن يكون مصدراً علمياً وعملياً لغيره من المريدين[2] .

ثم أن الشيخ عندما يقوم بعمليه تحبيب الناس في الله تعالي ، فأنه في ذات الوقت يحبب الله في الناس ، ومن ثم فهو يقوم بعمليتين في وقت واحد، ضابطه تعريف الناس بالله وتحبيبهم فيه ، وبالمقابل يحبب الله في خلقه من الناحية التي يجيدها ذات الشيخ[3] ، وكل شيخ له طريقته ومنهجه ، الذي يتخذه سبيلاً لتحقيق تلك الغاية.

لا يعتبر الشيخ قد أدى تلك الوظائف بالنسبة للمريدين وغيرهم،إلا إذا قام بها في أتم الوجوه وأوفاها ، بل إنه لا ينال هذا التشريف العظيم الذي جاء به

---

(١) راجع للشيخ السعيد محمود بن على القصري : شعراء الصوفية، ١٣٣ ، المطبعة العلوية ١٣١٧هـ .

(٢) يعول الصوفية على السلوك تعويلاً قويا يدل على مدى حبهم للممارسة العملية بجانب الترقية البدنية والقلبية ، وهو ما يطلق عليه نظرية القلب والقالب ، أو العقل والجسم .

(٣) من هنا جاء أصل الجملة كل شيخ وله طريقه ، من حيث أن الطريقة هي المنهج الذي يقوم عليه ، حتى يبلغ درجة محبة الله للخلق ، ومحبة الخلق للخالق .

الخبر السابق ذكره ، ما لم يحقق ذلك في الواقع العملي ، لأن التصوف علم وعمل ، فكر وممارسة .

ب ـ ما المشيخة ؟ وشروط الشيخ وآدابه :

الواضح في المؤلفات الصوفية أن المشيخة رتبة صوفية ، ومنزلة تبليغية ، حتى قال الكثيرون أنها من أعلى الرتب ، وأرفع المنازل في المفهوم الصوفي لأنها نيابة عن النبوة في الدعاء إلى الله تعالي ، وتبليغ شرعه إلى خلقه[1]. ولا يكون المرء الواعي موصوفاً بالمشيخة ، إلا إذا تكاملت فيه جوانب أساسية من أبرزها :

١ ـ العلم اليقيني بالله رب العالمين :

ذلك أن معرفة الله تعالى هي رأس الأمر كله ، ويستدل عليه بما ورد في الخبر من أن رجلاً جاء يسأل الرسول صلى الله عليه وسلم قائلاً: يا رسول الله علمني غرائب العلم ، فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم: " هل عرفت رأس العلم حتى تعرف غرائبه، فقال الرجل: وما رأس العلم. فقال صلى الله عليه وسلم: رأس العلم معرفة الله تعالى ، بما له من صفات الجلال ، والجمال ، والكمال والإكرام [٢].

إن العلم بالله تعالى لا يكون إلا على وجه يقيني وهو ما يتناسب مع ذاته جل علاه من التوحيد الخالص والتنزيه الكامل ، فليس كمثله شيء ، ولا يعزب عن علمه شيء ، توحيد خالص من التعطيل والتشبيه ، بحيث لا يكون في عقل العبد وقلبه إلا نور الله جل علاه .[٣]

---

(١) يعتقد الصوفية أن الشيخ كمبلغ عن الله تعالى له من الله نيابة ، وله عن الرسول نيابة ، فهو نائب عن الله ورسوله في عملية التبليغ .

(٢) راجع كتابنا أوراق مطوية في التصوف والصوفية ، ص ٣١٥ ، راجع للشيخ محمد على النمكي التصوف الإسلامي ، ص ١٧٧ .

(٣) هذا الاعتقاد الصحيح يسعى الصوفية إليه،ولذا فهم يفاخرون بأن علمهم قائم على الكتاب والسنة

٢ ـ العبادة السليمة الكاملة :

إن الصوفية أصحاب أذواق وأشواق ، كما هم أصحاب مواجيد ، وفي ذات الوقت فإن ديدنهم عماده العبادة القائمة في صورها السليمة ، ومظاهرها الصحيحة ، بعيداً عن الرياء والنفاق، فهم فرسان العمل بالنهار، ورهبان العبادة بالليل والناس نيام[١].

كأن الواحد منهم يقول ربي عرفتك حق معرفتك ، فأعني على عبادتك بما يرضيك عنى ، وهو في كل أحواله لا يقصد بهذه العبادة إلا وجه الله تعالى ، ولا يتوجه بها إلا إليه جل شأنه ، لأنه وضع نصب عينيه ما ورد به الخبر من قول رب العزة جل شأنه:"من عمل عملاً أشرك فيه غيري، تركته وشركه" [٢].

٣ ـ التزام الأخلاق العالية :

جاء الدين الإلهي بمكارم الأخلاق، التي تجعل الفرد الواعي في مأمن من الظلم والحسد ، كما تعرفه عن القهر وتبعده عن التلويح بالإرهاب ، أو ممارسة العنف ، ومن ثم فقد أخذ الصوفية على عاتقهم التزام هذا الجانب ، بما فيه من النصيحة والمحبة والتواضع ، إلى غير ذلك مما هو داخل في نطاق مكارم الأخلاق ومعاليها[٣].

وهم يستدلون عليه بالخبر الوارد في قوله صلى الله عليه وسلم " إن من أقربكم مني مجلساً يوم القيامة ، أحاسنكم أخلاقاً ، المواطئون أكنافاً الذين يألفون ويؤلفون[٤].

---

(١) متمثلون قول الحبيب المصطفي : " أيها الناس أفشوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصلوا الأرحام ، وصلوا بالليل والناس نيام ، تدخلوا جنة ربكم بسلام " .

(٢) راجع الاتحافات السنية بالأحاديث القدسية ، والحديث ظاهر من حيث إعلان بطلان أعمال الرياء والنفاق ، وما كان من هذا القبيل فإنها مردودة على أصحابها ولا يقبلها الله تعالي منهم .

(٣) راجع للعلامة ابن مسكويه تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق ، وكتابنا تأملات غزالية في الأخلاق النظرية ، ص ٥٣ ، ٥٤ الطبعة الثانية .

(٤) راجع للشيخ حسن فتح الله من هدي السنة في الأخلاق ، ص ٤٣ ، وراجع للإمام الغزالي أحياء علوم الدين .

ومن ثم فلابد في الشيخ أن يكون صاحب التزام خلقي على أعلى المستويات من التواضع والمحبة والصدق والنصيحة لقوله صلى الله عليه وسلم الدين النصيحة ، قلنا لرسول الله، قال صلى الله عليه وسلم، لله ولكتابه ولرسوله وأئمة المسلمين وعامتهم(١) بحيث تشمل الجميع .

٤ ـ ممارسة الدعوة إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة :

من المعروف أن الشريعة الإسلامية قد جاءت لمصالح العباد ،وهذا يستلزم عرض مصالح العباد بما يتفق مع إمكانيتهم في القبول ، بحيث يتم التقرب منها والاستعداد العملي لها ، يستوي في ذلك العمل والعلم والتبليغ والممارسة ، يدل عليه قوله صلى الله عليه وسلم خاطبوا الناس على قدر عقولهم ، أتريدون أن يكذب الله ورسوله(٢) .

كما لابد في الدعوة إلى الله تعالى من التزام الحكمة ، وهي العلم النافع ، والعمل المفيد ، لأن الحكمة في الأصل علم وعمل ، بما يتفق مع ذات العلم ، بحيث يكون تطبيقاً عملياً له(٣) ، فإذا خرجت عن العلم النافع والعمل المفيد لم تكن حكمة مشروعة .

في نفس الوقت فلابد مع الحكمة المشروعة ، من موعظة حسنة، بحيث تحمل الترغيب والترهيب معاً، وتقدم كلاً منهما بما يناسب المدعوين، ويحقق الأهداف مع المريدين ، لأن الداعي إلى سبيل الله ، السالك طريق التصوف إذا قدم الترغيب في مجال الترهيب ، أو جعل الترهيب في مكان الترغيب ، صد الناس عن سماع قول الحق ونفرهم منه ، فجعلهم صيداً سهلاً للشيطان(٤) .

---

(١) راجع لابن رجب جامع العلوم والحكم ، باب الدين النصيحة حيث ذكر آراء العلماء في المسألة .
(٢) المراد بالمخاطبة هنا ما يطلق عليه اليوم اسم تجديد الخطاب الديني ، بحيث تكون العبارات قريبة من الأذهان ، والأفكار قابلة للتطبيق ، كما تكون الحلول عملية .
(٣) لمعرفة ذلك تفصيلاً راجع كتابنا تعليل أفعال الله تعالى بين المثبتين والنافين ، ص ٧٤ .
(٤) من المؤسف له أن الكثيرين يلجأون إلى هذه الطريقة ، جهلاً منهم أو ظناً أن ذلك هو الطريق الأفضل ، وهم قد غابوا عن منهج الله تعالى القائم على ضرورة أن تكون الدعوة مقترنة بالحكمة والموعظة الحسنة .

أضف إلى ما سبق أن الشيخ السالك طريق التصوف في الدعوة إلـــى الله تعالى ، قد يلاقي الكثير من الصعوبات في طريقه الذي ليس معبداً على طوله ، كما أنه ليس مفروشاً بالورود في عرضه ، وإنما قد توجد فيه الأشــواك علـــى اختلاف ألوانها وأشكالها ودرجاتها ، ومن ثم كان الشيخ والمريد في سبيل تبليغ دعوة الله تعالى من علامات رسوخه في العلم ، وثبات قدمه من ناحية العمل(١).

ثم إن الموعظة الحسنة تأتي معها النصيحة الدائمة ، في حدود المعرفـــة المتاحة وعلى قدر الطاقة ، إذ ليس المطلوب فيه إقحام نفسه فيما يعرف وما لا يعرف ، والمسارعة إلى تقديم إجابات على مسائل ليس له بها دراية ، فإن فعل ذلك لم يكن شيخاً في المفهوم الصوفي ، وإنما حسبوه متنطعاً في دين الله .

ومن أقوالهم المشهورة: " من أفتى بغير علم صحيح ، فقد ذبح بغير سكين الفرخ الفصيح ".(٢) كما انه في نصحه لا يدخر جهدا، إنه كالنهر الجاري يروي كل ما يقابله بالماء العذب. ومن ثم فهو لا يري أمراً مشروع إلا نهض إليـــه ، ولا أمرا غير مشروعا إلا بادر بالإنصرف عنه ، لا يجادل ولا يماري(٣)، وإنما هو مسالم قائم بالحق وللحق ، وفي الحق .

٥ ـــ تحبيب الخلق في الحق :

وذلك إنما يقوم علي أساس أن الخلق متي عرفوا الله حق ألمعرفه ، وعبدوه أحسن ما تكون ألعباده ، واستقاموا علي منهج الأخلاق حسب ما يرضيه جـــل علاه، ثم تحصنوا بمقام الإحسان دخلوا في سرادق الحديث القدسي: (عبدي أني بحقك لك محب ، فبحقي عليك كن لي محباً)، كما أظلهم الحديث القدسي اطعني

(١) راجع كتابنا أوراق مطوية في التصوف والصوفية ، ص ٣١٥ ، ٣١٧ .
(٢) هذا من استعمالاتهم الرمزية إشارة إلي ما يرد علي السنة البعض في الأمثال العامية الفرخ الفصيح في البيضة يصيح ، راجع الرمزية في الفكر الصوفي .
(٣)من الأدله علي ذلك ما رأيناه من شيوخ التصوف الذين كانوا معمرين للقلوب والنفوس، حيث التواضع سمتهم والمحبة طبع فيهم .

تكن عبدا ربانيا ، تقول للشيء كن فيكون" [١].

ثم إن مقام الإحسان يجعل العبد قريبا من الله تعالي محباً فيه ، كما هـو محب له، والقاعدة أن العبد متى أحب سيده تفاني في خدمته كما سعي لإرضائه لا يبالي بالصعاب ، وان وقعت ، لأن محبته له جعلته يتناسى كل ما يجيء له ، والصوفية يرددون مقوله ، عمادها أن محبه الله للخلق ألهيه ، ويجب أن تقابلها محبه خلقيه[٢].

أضف إلي ما سبق ، انه متي أحب العبد خالقه جل علاه ، رضي بكل ما يجئ من عنده بناء علي قاعدة الابتلاء بالنعم ، التي تستوجب الشكر ، وقاعـدة الابتلاء في النعم التي تستوجب الصبر ، فنعمة المال تستوجب الشكر، ونعمـة الفقر تستوجب الصبر ونعمة الصحة زكاتها الشكر ، ونعمة المرض صـداقها الصبر [٣].

وفي الحديث الشريف من قوله صلي الله عليه وسلم: عجباً لأمر المؤمن أن أمره كله له خير ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء شكر ، فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر ، فكان خيرا له[٤] .

من ثم ، فإن الشيخ في الفكر الصوفي من وظائفه الأساسـية ، ومهامـه الضرورية ، العمل الدائم علي تحبيب الخلق للحق غدوة وعشياً ، ليلاً ونهاراً ، صباحاً ومساءاً ، سراً وعلانية ، لا يفترق أمره في حال من الأحوال ، ولا مقام من المقامات .

---

(١) راجع للإمام الشوكاني قطر الولي على حديث الولي ص:٣٢٥

(٢) هذا الاتجاه له وجود ثابت في الفكر الصوفي ، وبالتالي يتناوله الشيخ والمريد ، السالك ومن علي الطريق ، بناءً علي ان طريق الوصول واحد ولكن الذين يسلكونه هم الكثرة.

(٣) الصبر يكون في الضراء أو الشدائد ، والشكر يكون في السراء وكل ما هو خير .

(٤) القاعدة العامه أن المؤمن الواعي يدور أمره في الحياة علي نعمتي الصبر والشكر ، أما القنوط أو الفزع والجزع ، فذلك بعيد تماما عن هذه القاعدة التي يلتزم بها الصوفية .

٦ ـ تحبيب الحق عبادة :

الشيخ في الفكر الصوفي يدعو الناس إلى الله تعالى، ويعرفهم بأحب الأسماء إليه ، وأعظمها قرباً منه، كما يدربهم على دعائه في كل المواقف أجملها ، وأكملها وأجلاها بل أحلاها أيضاً.ومن ثم فمن تحققت فيه هذه الجوانب نال رتبة المشيخة وصار بين المريدين الذين تعلقوا به شيخاً لهم . ومن هنا تعدد المشايخ وبات لكلٍ الطريقة التي تجري على منهجه [١] .

يقول العلامة العز ابن عبد السلام : أعلم أن الله عز وجل يوصف بمحبة عبده ، والعبد يوصف بمحبوبه ، ومحبة الله لعبده هي مدحه والثناء عليه [٢].

لقد فصل العلامة السهروردي المسألة في جانبيها الأخيرين ـ محبة الله للخلق ، ومحبة الخلق لله فقال : أما وجه كون الشيخ يحبب الله إلى عباده فذلك ظاهر ، أما لماذا فلأن الشيخ يسلم بالمريد طريق الإقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومن صح إقتداؤه وإتباعه لرسول الله صلى الله عليه وسلم أحبه الله جل جلاله ، يدل عليه قول الله تعالى : " قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . قُلْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ فإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ "[٣] .

من ثم فإن طريقة تحبيب الله في الخلق إنما يسعى لها الشيخ في تأكيد عميلتي الالتزام والإتباع لله رب العالمين في كل ما جاء به رسوله الكريم ، وبناء عليه قالوا إن الإتباع طريق الحق ، والابتداع طريق من طرق الخلق[٤] ،

---

(١) كثرة الطرق لا يدل على وجود خلافات بينها مادامت طرقا صحيحة ، لأن الاختلاف في الطريق الموصل للغاية قد يطول أو يقصر ، لكن النهاية واحدة .

(٢) راجع للعلامة العز بن عبد السلام ، كتاب زبدة خلاصة التصوف ، ص ٣٣ ، تحقيق طه عبد الرؤوف .

(٣) سورة آل عمران الآيتان ٣١ ، ٣٢ .

(٤) راجع للشيخ محمد نور الدين القلشندي ـ الحقيقة والطريقة ، ص ٨٤ ، ٨٥ ، وراجع للشيخ السيد عبد العظيم : نظرات في الفكر الصوفي ص ٩٥ ، ٩٦ .

كما قالوا الإتباع طريق الرحمن ، والابتداع مسلك الشيطان.

أما وجه كون الشيخ يحبب عباد الله تعالى إليه، فهو أنه يسلك بالمريد طريق التزكية ، والمعروف أن النفس إذا تزكت انجلت مرآة القلب على أحسن ما يكون ، وانعكست فيه أنوار العظمة الإلهية ، ولاح فيه جمال التوحيد كما انجذبت أحداق البصيرة ، إلى مطالعة أنوار جلال القدم الرباني(١).

ومتى تحققت رؤية الكمال الأزلي، أحب العبد ربه لا محالة ، وذلك ميراث التزكية ، قال تعالى: " قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا . وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا "(٢) ، وفلاحها إنما يكون في الفوز بمعرفة الله تعالى حق المعرفة(٣) ، بحيث لا يبقى في القلب إلا هو جل علاه.

٧ ـ أهلية الإقتداء :

يعتقد الصوفية أن الشيخ لما وقع له الاهتداء ، والتزام ما جاء من عند الله تعالى ، فقد صار أهلاً لأن يقتدي به ، ومن ثم فالذي أهله ليكون شيخاً هو أهليته للاقتداء به ، من حيث أن القدوة ميزان ثابت، ومعيار قائم سليم . وكل من كان قدوة فإنه يقتدي به الآخرون ، حتى يكون كالبدر في الليلة الظلماء ، يبحث السالك الدروب عنه ، كما يتلفتون في كل اتجاه باحثين عنه(٤). ويقوم عمدة استدلال الصوفية على أهلية الإقتداء بما حكاه الرسول صلى الله عليه

---

(١) القدم الرباني من الصفات الدالة على أنه تعالى لا أول له ولا آخر ، وهو عند المتكلمين من الصفات التي يؤدي إثباتها إلى سلب ضدها عن الله تعالى ، وهي القدم والبقاء والمخالفة والقيام بالنفس والوحدانية .

(٢) سورة الشمس الآيتان ٩ ، ١٠ .

(٣) راجع للعلامة السهروردي ، عوارف المعارف ص ٨٠ ، حيث يقرر أن مرآة القلب إذا انجلت لاحت فيها الدنيا بقبحها وحقيقتها وماهيتها ، ولاحت الآخرة ونفاستها بكنهها وغايتها ، فتنكشف للبصيرة حقيقة الدارين ، وحاصل المنزلين ، فيحب العبد الباقي ويزهد في الفاني ، فتظهر فائدة التزكية ، وجدوى المشيخة والتربية ، فالشيخ من جنود الله تعالى يرشد به المرشدين ، ويهدي به الضالين .

(٤) راجع كتابنا أوراق مطوية في التصوف والصوفية ، ص ٣١١ حيث ألمحت إلى طبيعة السالك وهو الذات العارف ، وطبيعة المسلوك وهو الطريق ، وطبيعة المتدرب وهو المريد.

وسلم عن ربه ، في قوله إذا كان الغالب على عبدي الاشتغال بي جعلت همته ولذته في ذكري، فإذا جعلت همته ولذته في ذكري عشقني وعشقته[١]، ورفعت الحجاب فيما بيني وبينه ، لا يسهو إذا سها الناس ، أولئك كلامهم كلام الأنبياء أولئك هم الأبطال حقاً ، أولئك الذين إذا أردت بأهل الأرض عقوبة أو عذاباً ذكرتهم فيها فصرفته بهم عنهم[٢] .

إن عملية الإقتداء بالمشايخ في كل ما يقومون به بناء على أن التقليد أمر محمود عرفاً وعقلاً وشرعاً ، من حيث أن كل مقلد قام الدليل على صحة تقليده في العمليات أمر متقرر في الشريعة الإلهية ، ومن أبرز النصوص الدالة عليه قوله صلى الله عليه وسلم صلوا كما رأيتموني أصلي [٣].

ثم إن الخلاف بين العلماء بالنسبة للتقليد ، إنما هو في العقيدة وليس في العمليات ، لأن العقيدة الفطرية في القلب بديهية في العقل ، قائمه داخل الوجدان ومن ثم فالتقليد فيها لا يفيد ، ما لم يكن صاحبه قد لقن أصول الإسلام ثم مات وهو ما تدل عليه عبارات العلماء في حكم الإمام المقلد [٤].

أما ما يتعلق بالتكاليف العملية فإن التقليد فيها ثابت ، لأن المقلد إما أن يتبع إماما بدليله ، وليس بلازم أن يقوم كل فرد من أفراد الأمة الإسلامية ببحث

---

(١) هذا من باب المشاكلة اللفظية على مثال قوله تعالى : " يخادعون الله وهو خادعهم " ، وقوله تعالى : " ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين " .

(٢) راجع للعلامة السهروردي : عوارف المعارف ص ٨١ والألفاظ الواردة في جانب الله ليست على ظواهرها ، وإنما تحمل هذه الألفاظ من الظواهر ما هو دليل على تفويض الأمر في حقيقتها إلى علم الله جل علاه .

(٣) كل المسلمين يتعلمون الصلاة على سبيل التدريب العملي مع التلقين النظري ، فهي جامعة بينهما معاً ، ولا يعقل أن تتم هذه التكاليف العملية على سبيل التدريب والتلقين ثم يدعى أنها لا يصح معها التقليد الذي هو سمة أساسية فيها .

(٤) من أقوالهم في هذه المسألة (وكل من قال بالتقليد ، إيمانه لم يخل من ترديد) .
والآراء في إيمان المقلد متعددة راجع للعلامة السنوسي السنوسية الكبرى، والإمام الإيجي المواقف ، والإمام السعد التفتازاني شرح المقاصد، والإمام الآمدي أبكار الأفكار ، وللإمام الفخر الرازي مفاتيح الغيب ، والمطالب العالية .

المسائل العملية ، حتى يكون كالإمام أبي حنيفة ، أو الإمام مالـك ، أو الإمـام الشافعي ، أو الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنهم أجمعين[١]، وإنما يكفيه تقليد صاحب مذهب بدليله .

٨ ـ تحقيق الوقار الإلهي :

من المعروف أن المرء العامل بكتاب الله تعالى ، الملتزم ما جاء من عنده جل علاه ، تظله ملائكة الله ، ويجعل الله تعالى له في الناس مهابة ، ويحيط به الوقار من كل ناحية ، إنه أحب الله تعالى فأحبه الله ، ونصر دينـه فزكـاه الله وأعلى قدر شرع الله في قلبه فأعلاه الله ، وكل شيء قد تم له على مـراد الله ، ومن ثم تنزل عليه البركات، وتهبط فوقه الرحمات ، كما تظله ملائكة السماوات حتى تكون عليه هالة من الهالات[٢] ، التي يتحقق بها الوقار ، تفضلاً مـن الله ورحمة ، ولطفاً منه ونعمة .

والصوفية يستدلون على هذا الجانب بما ورد في الحديث القدسي ، يقـول رب العزة جل شأنه : " إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع بها لعظمتي، ولم يستطل بها على خلقي، ولم يبت مصراً على معصيتي ، وقطع نهاره في ذكري، ورحم الأرملة والمصاب ، ورحم المسكين وابن السبيل ، ذلك نوره كنـور الشـمس اكلؤه بعزتي ، وستحفظه ملائكتي ، وأجل له في الظلمة نوراً ، وفي الجهالـة حلماً ، ومثله في خلقي ، كمثل الفردوس في الجنة [٣] .

ثم إن الوقار الرباني الذي يفيضه الله تعالى علي هؤلاء المشايخ يجعلهم بين الناس كالنجوم الزواهر التي يسعى الحائرون حتى يهتدوا بها، وهذا مما يعطيهم

---

(١) هؤلاء أصحاب المذاهب المشهورة عند أهل السنة والجماعة ، أما عند الشيعة فهنـاك الزيدية ، الجعفرية ، والإمامية الاثنا عشرية ، بجانب الأباضية ، راجع للدكتور محمد مصطفى إمبابي الحركة الفقهية .

(٢) راجع كتابنا أنسام حيية في الأفكار الصوفية ، حيث ذكرت أن الوقار الإلهي من أنعم الله تعالى ، التي يفيض على بعض خلقه لحكم يعلمها جل علاه .

(٣) راجع الاتجاهات السنية في الأحاديث القدسية ، وراجع النفحات السلفية بالأحاديث القدسية.

مساحات واسعة في التربيه والتعليم ، بجانب التدريب. وما يستلزمه الانطلاق في الطريق الصوفي ، بدليل أن رتبه المشيخه من أعلي الرتب في طريق الصوفية [١]، واعتبارهم إياها نيابة ألنبوه في الدعاء إلي الله تعالى.

من جملة ما سلف ، يمكن إقامة الطريق الذي يعبر عن الشيخ ، وهذا جانب هام من الفكر الصوفي، إن لم يكن من أهم الجوانب في ذات المسألة ، ولذا كان حرص الصوفية علي تناوله ومتابعته خلال الكتابة عنه في مظاهره ووسائله .

ويعلل العلامة السهرودي وقوع ذلك علي الشيخ ، وله تعليل لا يخلو من تشبيه جميل ، واستفتاح مع براعة استهلال [٢]، حيث يقول أن قلب العبد متوسط بين الروح والنفس فهو ذو وجهين ، أحد وجهيه إلي النفس ، والأخر في الروح يستمد من الروح بوجهه الذي يليه ، ويمد النفس بوجهه الذي يليها حتى تطمئن النفس ، فإذا اطمأنت نفس السالك ، وفرغ من سياستها ، انتهي سلوكه ، وتمكن من سياسة النفس ، وانقادت نفسه وفاءت إلي أمر الله [٣].

٩ ـ حسن التأليف :

ومعناه أن الشيخ لما منحه الله تعالي القدرة على تلقي المنح الإلهية ، فقد صار قادراً علي أن يكون بين الناس قائدا، أما لماذا فلأن القلب لما كان فيه من التوجه ألي النفس بحيث يسمح باستخدامها، فقد تاقت نفسه للسياسة بهذا الاعتبار ومن ثم تقوم نفوس المريدين والطالبين والصارفين عنده مقام نفسه، في السياسة وحسن التأليف [٤] لماذا ؟ فلوجهين ، **احدهما** : وجود الجنسية في عين النفسية

(١)راجع كتابنا أوراق مطوية في التصوف والصوفية ص:٣١١

(٢)براعة الاستهلال هي أن يفتتح المتكلم كلامه، بما يدل علي موضوعه،وهو معني الاستفتاح وحسن الطالع .

(٣) هذا تصوير رائع لا يخلو من جده وطرافة ، وحسن استخدام ، وذلك كله مما يدل علي أن العلامة السهروردي هضم كل قضايا التصوف ومسائله ، ومن ثم فهو يعبر عنها من باب العلم تارة ، والمذهب الذي ينتمي إليه تارة أخري .

(٤) حسن التاليف هنا مصطلح يراد به القدرة علي جمع أصحاب النظرات المختلفة علي شئ بذاته واتجاه بعينة، ولذا فقد اعتبروه أمرا خاصا بالشيخ بل هو في شروطه أن كانت امتيازاته وظائف .

من وجه علي أساس أن الناس جميعا يجمعهم جنس الإنسان الذي هو نوع لدي الفلاسفة وجنس عند الصوفية وهذا عمل الإنسان [(١)].

وثانيهما: وجود التأليف بين الشيخ والمريد من الطريق الإلهي وهو عمل الإله جل علاه ويستدل عليه بقوله تعالي " وَإِن يُرِيدُواْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللّهُ هُوَ الَّذِيَ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ "[(٢)]

إن الشيخ يعينه الله تعالي ، حتى يسوى نفسه من ناحية ، ويؤلـف بـين قلوبهم بما رزقه الله تعالي، من حسن تأليف يقول الشيخ السهرودي ويكون في الشيخ حينئذ معني التخلق بأخلاق الله تعالي، من معني قول الله تعالي :

ألا طال شوق الأبرار إلي لقائي وأني إلي لقائهم لأشد شوقاً [(٣)]

من الواضح أن الشيخ يكون مع مريديه كالأب له ، والمريد هو جزء الشيخ كما أن الولد جزء من والده في الولادة الطبيعية ، أما ولادة الشيخ لذات المريد فإنها تكون ولادة معنوية .

والعلاقة بينهما تكون هي ذات الولادة المعنوية ، وما يرتبط بها علي أتم الوجوه وأوفاها ، ومن ثم كانت عناية الصوفية بالشيخ والمريد معاً ، وكـذلك الاهتمام بالعلاقة القائمة بينهما .

آداب الشيخ على وجه الإجمال :

ذكر أهل العلم جملة من الآداب التي يجب أن تكون موجودة في الشيخ الذي ينصب علي طائفة بعينها، أو جماعة بذاتها وسوف اذكرها علي سبيل الإجمال

---

(١) فكرة الجنس والنوع الصورية أو الفلسفية غير الجنس في الفكر الصوفي راجع اصطلاحات الصوفية لتري هذا الفرق بينهم على ناحية الإطلاق والاستعمال بجانب التوظيف .

(٢) سورة الأنفال الآية ٦٣ .

(٣) راجع العلامة السهروردي : عوارف المعارف ض:٨٢ حيث يقرر هذه الجوانب في أشكالها التفصيلية .

من خلال المجموعات التالية :

الأولي : الآداب الظاهرة ، ومنها الحديث في الأوقات الصافية ، وحسن الإقتداء مع المشاركة في الإيجابيات ، والتزام الجماعة مع التمسك بالمشروع من جهة الله تعالى كله .

الثانية : الآداب القلبية ، ومنها محبة المريدين ، ثم الخلوة الخاصة بجانب الستر علي ذوي الابتلاءات، وحفظ الأسرار ثم التواضع، وحفظ الحرمات .

الثالثة : الآداب العقلية ، ومنها مراعاة حال المريد ، وتكليفه بما يطاق ، ثم التدرج ، واستعمال الرخص في مظانها ، وممارسة الرزانة العقلية .

الرابعة : الآداب الخلقية ، ومنها العطف ، والتسامح ، والرفق به ، مع التبسط في موضعه ، ثم التبجيل والتعظيم للمشايخ ، والتنزه عن مال الفقير.

الخامسة : الآداب الوجدانية ، ومنها الإشفاق ، والدعاء له ، ثم الفرح به ، والتعطف علي الأصحاب ، وقضاء الحقوق في الصحة والمرض .

وهذه الآداب يمكن أن تنضم إلي الوظائف ، من حيث ارتباطها بالنتائج المترتبة عليها ، وهذا ما يدعو لمراجعتها في مصادرها ، ثم إعادة التناول لها من الناحية التفصيلية .(١)

رابعاً : المريد في المفهوم الصوفي :

أ ــ تعريفه : المريد في المفهوم الصوفي هو ، الذي ارتضى طريق التصوف ، أو بحث عن كيفيه الوصول أليه ، ثم انخرط في رفقه تسعي لذات الهدف، وتبحث في الوصول إلي ذات الطريق ودليله ما حكي عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلي الله علية وسلم يقول : من سلك

---

(١) إن شاء الله تعالى فإني عاقد العزم علي تناول هذه الآداب بشئ من العرض والتفصيل ، وبيان أثرها في البناء الصوفي سائلا الله تعالي أن يهيئ لنا من امرنا رشدا .

طريقا يلتمس به علما ، سلك الله به طريقا من طــرق الجنـــة ، وأن الملائكـــة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم ، وإن طالب العلم يستغفر له من في الســماء والأرض حتي الحيتان في الماء . (١)

وإن فضل العالم علي العابد ، كفضل القمر علي سائر النجوم ، وأن العلماء هم ورثه الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما ، وإنما ورثوا العلم فمن أخذ به أخذ بحظه ، أو بحظ وافر .(٢)

وذهب العلامة القشيري إلى أن المريد هو: من يسعى لتصحيح اعتقاده عن طريق شيخ عالم ، يأخذه إلى تصحيح اعتقاد بينه وبين الله تعالى ، صاف عن الظنون والشبه ، خال من الضلال والبدع ، صادر عن البراهين والحجج(٣).

وبالتالي فالمريد طالب تصحيح اعتقاد من شيخ عالم متمكن مدرك ما يجب عليه القيام به في دين الله،ومن ثم فالمريد طالب علم أيضاً ،من حيث أن صحة الاعتقاد يجئ معها كل من صحة العبادة ، وسلامة الأخلاق ، وهذا في حد ذاتة كاف للتأكيد علي أن المريد صاحب عقل سليم ، وقيم ايجابية متعالية، ولولا ذلك ما سعي لطلب العلم (٤).

كما أن المريد إنسان عاقل واع مدرك لمهام وجوده في الحياة ، بدليل إنه ينظر للدنيا علي إنها وسيلة تبليغ للآخرة ، ومن ثم فهو يحرص علي أن يتزود بالعلم النافع ، لأنه الباقي ، ولا يتزود من ملذات الدنيا الفانية ، بدليل أنـــه قـــد ينسي ذاتة بين يدي شيخه ، فلا يقوم من عنده إلا بعد أن يبلغ من زاد التقوى ،

---

(١)ذلك مما يبين منزلة طالب العلم ، فما بالك بمنزله من يعلمه ابتغاء مرضاة الله جل علاه .
(٢) راجع للشيخ محمد حسن الطويل (من هدي السنة المباركة ص:١٣٧) .
(٣) راجع للعلامة القشيري .الرسالة التفسيرية في علم التصوف ص: ٣١٣
(٤) في هذا رد بليغ علي من يزعم أن المريدين ما هم إلا قله ممن فقدوا عقولهم أو عاشوا حياتهم كالأنعام تسرح حيث المرعي، ولا علاقة لهم بشئ من العلم والفهم راجع للشيخ زكريا بن علي الأحنف موقفنا من خصوم الصوفية ص:٧٧ طبعة الدار العلمية .سنة ١٣١١

القدر الذي يعينه علي غايته (١) .

وفي تقديري أن المريد العاقل الواعي يمثل جماعه بذاتها ،ولـذلك أكـدت المؤلفات الصوفية علي وجود هؤلاء في كافه الطرق الصوفية ، كما بينت إنهم الجنود المنخرطون في سلك أهل الطريق ، المدافعون عنه في كل وقت وهـم القادة الميدانيون الذين تم تدريبهم علي العمل تحت أي ظرف من الظروف .

خامساً : شروط ـ آداب ـ المريد :

ب ـ آداب المريد :

الأدب رياضة محمودة تدفع المرء ليكون حسن المعشر ، حسـن المطلـع والمدبر، حسن الحديث والحوار ، حسن الكلام والطعام ، طيب الأقوال والأفعال ومن ثم جاء مدح المتأدبين في كل ما يقع عليه العقل الواعي ، مـع أن قـدوة الجميع في ذلك كله هو ، الحبيب المصطفي صلي الله عليه وسلم القائل : أدبني ربي فأحسن تأديبي(٢) .

ولما كان الأدب رياضه محمودة ، فإن الموصوف بهذه الرياضة المحمودة تقع له جملة من الملامح التي تميزه عن غيره ، كما ترتبط به مظاهر عديدة ، بحيث إذا بدت عليه أدرك المتعامل معه ، والناظر إليه انه من ذوي الرياضـة المحمودة ، والنفس الكريمة ، مع العقل الواعي ، والإيمان السـليم ، والعبـادة الصحيحة(٣) ، وقد قسم الصوفية المريدين إلي درجات ومراتب ، أو وظـائف ومقامات ، ومن أبرز هذه الآداب التي جعلوها للمريد :

١ – **التحلي بطلب الحق:** ذلك أن الشيخ الذي يجلس إليه المريد ويصاحبه، إنما

---

(١) المريد الواعي كالذهب الخالص ، يمكن الاستفادة منه في جميع الأحوال ، ولذلك تراه في الربط قائما عليه ، وفي طلب العلم سباقا إليه ،وعن ملذات الدنيا منصرفا، إلا بما يقيم أموره وتبقي معه حياته .

(٢) تمنيت لو فطن الناس إلي أن الأدب رياضه محمودة تعيش مع صاحبها فتكون دليلا علي قيمه وأخلاقه ،كما هي دليل علي سلامه عقله وصحة إيمانه .

(٣) من الواضح أن هذه المظاهر تكون بالنسبة له كالأعلام المنصوبة علي ميدان بذاته بحيث يشار بأنه فلان العاقل الواعي .

هو غواص في بحور المعاني ، والمريد طالب لما عند الغواص من لآلئ وأصداف ، والغواص في البحر يسعي لطلب الدر ، ويجمع الصدف[١] ، في مخلاته فيحصد الدر مع الصدف ، ولكنه لا يراه إلا إذا خرج من البحر بحيث يشاركه رؤية الدر من علي الشاطئ ، وبالتالي فالمريد في أولي مراحله إنما هو مشاهد للدر من علي الساحل بحيث يتعرف عليها ، ويدركها بعد ذلك [٢] ، استقلالاً من غير حاجة إلى الشيخ وهو الغواص .

كما أن طلب المريد هو تحصيل الحق ، وذلك مما سيكون مانعاً له من قبول ألآراء الضالة ، أو التي لم يقم دليل علي صحتها ، وفي هذا من الأدب الرفيع ، والمنزلة العالية ، بجانب التماس المعرفة الصحيحة ، الغاية العظمي ، والهدف النبيل ، لأن معرفه الحق لذاته داعية للتمسك به ، والدفاع عنه[٣] وهذا دور الإنسان الواعي بل وظيفة من وظائفه الإنسانية .

والمريد هنا يطلب الحق من شيخه ، لأنه مؤدبه فيه ومعلمه إياه ، وبدونه قد يصعب عليه الوصول إلية ، صحيح أنه صاحب عقل سليم ، وفكر منضبط ، ولكن ذلك كله يحتاج المعلم الماهر ، القادر علي توصيل الحق بالطرق المشروعة ، لأن الحق اسم شامل للعلم والأدب ، بجانب الفقه والتفسير ، بل وباقي العلوم الأخرى .[٤]

إن المريد بإرادته قد استسلم لشيخه حيث أختاره قدوة له ومعلماً ، وهو في ذات الوقت جلس إليه ، وتخلف عنده باختياره وإرادته لم يلزمه أحد بشيء منها

---

(١) الصدف جمع صدفه ، وهو نوع من الأحجار الكريمة التي توجد في باطن البحار والمحيطات وقريب منه في المقام فيروز الشطآن .

(٢) راجع كتابنا أوراق مطوية في التصوف والصوفية ص:٣٣٧ الطبعة الثانية .

(٣) طلب الحق ليس مقصورا علي الشخص بعينه ، وإنما هو واجب علي كل من لديه القدرة على التماسه فإذا قصر عنه حوسب عليه ، وعوقب بتقصيره فيه .

(٤) أدب التحلي بطلب الحق يفرض علي المريد عدم التسرع في قبول الآراء ، أو إصدار الأحكام ، وبالتالي يكون مثله مع شيخه كمثل الشارب مع الحالب فلا يستعجل الشارب الحالب حتي يفرغ من مهامه .

كما لم يدفعه إليه ، أو يفرضه فارض فوق عقله ، و ما دامت هذه الأمور كلها قد تمت بطلب منه واختيار ، فمن الأدب المحمود أن يظهر معه رغبه في طلب الحق بالدليل ، حتي وإن لم يفصح شيخه عن دليله (١).

يقول العلامة أبو النجيح : للمريد الحق في طلب العلم وتحصيل الحـــق ، وعليه التمهل في الوصول إليهما ، كما أن عليه التحلي بطلب الحق من شيخه ، الذي سلم أمره إليه ، بحيث يعطيه الفرصة لترتيب الأولويات ، وتقديم الأهـــم على المهم ، والتأكيد علي أن الحق واحد ، وإنما طلبه أو التماسه هو الذي يقع فيه التأخير والتجزئة.(٢) ومن ثم كان التحلي بطلب الحق علي أي وضع كان ، أو صوره جاء ، من آداب الصوفية الإعلام في تربيتهم للمريدين .

٢ـــ التقليد الممدوح: التقليد في المعني العام فيه معني المشابهة لشيء بآخر ولذا يقولون أن الرجل يقلد آباه وغرضهم منه أنه يشبهه أو يحاكيه ، وهو نوعان :

الأول : التقليد المشروع " الممدوح " :

وهو تقليد الفرد الواعي للعالم بدليله ، الذي استقام عنده في العمليـــات ، إذ ليس من المعقول أن يقوم كل فرد في الأمه الإسلاميه ببحث الأدلـــة الشـــرعية ومعرفة كيفية استنباط الأحكام منها ،لأن ذلك عمل العلماء ،وهو فرض كفايـــة فيما بينهم ، بحيث يعطي الفرصة للتخصص في سائر العلوم (٣) .

إذ ليس من الممكن أن يقوم الفرد الواعي بذاتة في فهم كافه العلوم بحيـــث يكون له بها المام كامل وإجتهاد خالص ، وإلا كان كل فرد بحاجه إلي أعمـــار

---

(١) عدم إفصاح الشيخ عن دليله أول الأمر قد يكون المراد به اختبار نفسيه المريد والتعرف علي إذا كان من اجل الجدل والشقاق ، أم لا ، وهو أمر يبدو كثيرا داخل الطرائق الصوفية .

(٢) راجع للعلامة الشيخ عبد الكريم محمود الكرماني (الشيخ والمريد والتربيه الصوفيه)ص ١٧١وهذا شكل من اشكال التربية، ومظهر من مظاهر السلوك الإنساني ذات الامتياز المتعالي

(٣) قد يكون فرض الكفاية فرض عين عندما يقف الأمر عنده وترتبط المسأله به ، وبالتالي الفروض العينيه ،والكفائية قد يقع بينهما التبادل الأواني لاعتبارات مختلفة راجع كتابنا أوراق منسية ص:٢٧ ـ ٣١ .

فوق عمره نظراً لتنوع العلوم ، وكثره المعارف ، وتعدد المصطلحات والمفاهيم ومن ثم كان التخصص في علم من العلوم ، أو بعض العلوم وسيلة دفع للعقـل حتي يقوم به علي الوجه الأكمل ،ونفع لمن يتعلق بطلب الفائده[١].

الثاني : التقليد المذموم "المنهي عنه" :

وهو تقليد العوام لأمثالهم في العقيدة والعبادة والأخـلاق ، وأتبـاع ذوي الهوي ،الذين لاهم سوى محاربة الله والرسول ، أو تبني الآراء التي لم يقـف الدليل معها ، فهو مذموم محرم شرعاً ، لأنه يمثل خروجاً عـن شـرع الله ، وتكذيباً لما جاء من عنده ، أو مجادلة بشأن محكم في كتابه ، أو قطعـي مـن ناحية تنزيله .[٢]

لقد باتت عمليات تقليد الآخرين في كل شيء حذو النعـل بالنعـل ، مـن العلامات التي تقض مضجع المفكر المسلم ، كما تدفع به إلي مراجعه أسـبابها ودواعيها ، وبخاصة أن نتائجها الخطيره راحت تأكل كل شئ تناله حتي تدمره، وذلك مما شكل خطراً كبيراً علي المجتمع المسلم في جميع أنماطه[٣].

إن الصوفية يركزون علي التقليد الممدوح شرعا، ويعتبرون ذلك من آداب المريد مع شيخه ، حتي إذا استوي فكره وتكاملت جوانبه المعرفية ، وصار له في العلوم تمكن ، فإنه يتحول تدريجيا من مقام الطالب إلي مقام المطلوب مـن مقام من يأخذ ويتلقى ، إلي مقام من يعطي من دائرة طلب العلم عن الشيوخ إلي دائرة بذل المعلم للمريد [٤]. ويؤكد الصوفية علي قضية هامه ،وهي أن الشيوخ

---

(١) يدل عليه وجود طائفه الفقهاء لإمتيازهم في الفروع ،والاصوليين لإمتيازهم في أصول الأحكام والمتكلمين لإمتيازهم في العقيدة والنحاة، والصوفية وغيرهم لإمتياز كل طائفه فيما هو متعلق بهم .

(٢) المسلم الواعي لا يجادل في قطعي الدلاله ، ولا محكم التنزيل ،وإنما يقول أمنا بما أنزل الله كل من عند ربنا ، وما يذكر إلا أولو الألباب .

(٣) من الشواهد عليه عمليات الأرهاب والعنف التي اتسمت بالتصفيات الجسديه وغيرها ،وقد تمارس باسم الوطنيه والأمن القومي ،وربما بأسم الدين .

(٤) هذا التحول يستغرق فترة زمنية قد تطول ،وقد تقصر طبقا لإدراك المريد نفسه ،وتقدمه في الميدان العلمي ،وإرتباطه بالعمل علي اساس أن العلم لابد فيه من عمل ،يكون هو التطبيق الميداني له .

بشر، ليسوا معصومين ، منهم من يكون لإجتهاده قوياً مفيداً ومؤثراً، ومنهم من يكون أقل أو أكثر ، وهذا التفاوت في الأدراكات والمدركات ، ربما جاء معــه تفاوت في فهم الدليل ، طبقاً لقاعدة الفروق الفردية ، والقدرات العقلية ، ومــن هنا نبهوا إلي ضرورة التعامل مع الشيوخ بهذا المفهوم ، بعيــدا عــن فكــرة العصمة [١].

يقول الشيخ القشيري ينبغي علي المريد أن لا يعتقد في المشايخ العصمة ، بل الواجب أن يذرهم وأحوالهم ، فيحسن بهم الظن، ويراعي مع الله تعالي حالة فيما يتوجه إليه من الأمر والعلم ، بحيث تكون كافية في التفرقة بين مــا هــو محمود وما هو معلوم.[٢]

وفي هذا دليل واضح علي أن الصوفية الأعلام ، كانوا يعودون المريدين علي تربية الضمير العلمي، بقدر ما يعلمونهم بناء الضمير الفردي الوافي القائم في كرامة الإنسان ، بحيث لا يزل أو يسقط ، إذ عليه الأخذ بالاسباب الممكنــة والمتاحة له في الأمور كلها ، وبالتالي فكل شخص يؤخذ منه ويرد عليــه ،إلا صاحب القبر المعصوم سيدنا محمد صلي الله عليه وسلم لأنه النبي الخاتم .[٣]

ثم إن المريد قد يقلد شيخه في مشيته ، أو لباسه ، أو عمامته ، وقد يكون ذلك التقليد في حديثه وكتابته ،أو خطوته وحركته ، وطريقه طعامه ، من باب التبرك به ، أو إنه رأى في ذلك مندوحة ، فهذا مما لا يضر به ، ولا يبعده عن دائره القبول ، على الرغم من أنه مقلد ، لأنه إنما يقلد في الهيئات والمظاهر ، ولا يقلد في الأصول والجواهر .[٤]

---

(١) الصوفية يرفضون فكرة عصمة الشيوخ ،ومع ذلك لايمنعون من وصفهم بالعلم الكامل .

(٢) راجع للعلامة القشيري ـ الرسالة القشيرية ص:٣١٩ ـ٣٢٠ .

(٣) العصمة في معناها الشرعي هي حفظ الله ظواهر الرسل وبواطنهم من التلبس بمنهي عنه شرعا ، ومن ثم فلا تكون إلا للنبي صلي الله عليه وسلم ، وهي تكون من الله تعالي وليست من الخلائق .

(٤) هذا التقليد في المظاهر لايمنع من القول بوجود شخصيه مستقله للمريد ، هي القادرة علي ممارسة ذات التقليد .

٣ ــ **التسليم والتفويض :** المريد اختار شيخه بإرادته ، ثم تابعه حتى يأخذ من علمه ويستفيد بأدبه ، وهو في ذات الوقت علي ثقة كبيرة من أن شـيخه لـن يضله أو يعرضه إلي السوء ، وإنما هو أخذ بيده لما فيه الخير لــه وللمجتمـع الإنساني وبالتالي فهو يسلم قياده إليه ، ويفوضه في الحديث عنه ، مـن بـاب الوكالة الذاتية [١].

ولذا جاءت عبارات القوم واضحة في أن المريد مع شيخه يكون مسـلوب الإختيار ، فلا يتصرف في نفسه وماله إلا بموافقة الشيخ وأمره[٢]، من حيث أنه سلم له قيادته ، وجعله صاحب رأي ومشوره فيما يتعلق به من كافه النواحي.

وقد فهم خصوم الصوفية أن المريد بهذا التسليم إنما هو توقيع عقد استعباد مع شيخه ، وقد ساعدهم على ذلك عبارة أن المريد يكون مع أستاذه كالميت مع مغسلة ، وهو فهم لا يستقيم[٣] ، أما لماذا ؟

١ــ فلأن مرادهم قائم في أن المريد هو الذي فوض شيخه في كل ما يعني لــه اعتقاداً منه في صحة رأيه ، وسلامة عقلة ، ونبل غرضه ، بجانــب خبرتــه المتزايدة في التعرف علي الأشياء ، والتعامل معها بما يحقق المصالح في أعلي صورها وأتم مظاهرها [٤] .

٢ــ أن المريد صاحب عقل واع وليس قاصرا ، أو مجنونا ، بل ربما كانت له من الخبرات الحياتية الكثير ، لكنه مع ذلك فوض شيخه ليكون وكيلا لــه ، أو نائبا عنه ، أو وليا له ، وهذا من حقوقه المشروعة ، ولن يفعل ذلك إلا إذا رأى

---

(١) من الواضح أن هذا كله يتم بناء علي رغبه المريد نفسه، بأنه الذي ذهب إلي ذات الشيخ وفوضه ،حتي وإن لم يكن التفويض مكتوباً .

(٢) راجع للعلامة السهرودي عوارف المعارف ص:٣٦٤ ،وللعلامة نجم الدين عبد الشافي (الطرق الصوفية) ,ص:١٦٧ .

(٣) راجع كتابنا أوراق مطويه في التصوف والصوفية ص: ٢٧٧ .

(٤) هذا مما يعبر عن نوع العلاقه الأمتيازيه بين المريد والشيخ ،ويدل في ذات الوقت علي انهما معا يسيران في اتجاه واحد .

فيما يفعل مصلحته ، وما دام غير واقع في نطاق المحجور عليهم ، فقد صار من حقه اختيار شيخه ، طبقا للمعايير التي ترتبط بها الحقوق المشروعة .[١]

٣ـ أن المريد حين يفوض شيخه فيما يخصه ، ويكون قد أخذ بالأسلم والأحكم حتي يتفرغ هو لتحصيل ما لم يكن قد حصل ، وتلك ميزه كبري وفائده عظمي يدل عليه ما حكي أن احد المريدين لما سألوه عن تسليمه لشيخه وتفويضه في أموره قال لقد مات أبي منذ فترة طويله ، والحمد لله أن رزقني الله والداً وأباً معاً ، حمل عني ما أجد نفسي عاجزه عنه، رغم حاجتي أليه[٢].وغايته من ذلك اعلان أمرين لا ثالث لهما :

الأول: أن والده الذي جاء من صلبه ، قد مات منذ فترة طويلة، ولو كان حيا الآن فربما تحمل عنه ما هو بحاجه إلي الإعانة فيه ، وذلك مما دفعه إلي إعلان الحاجة إلي من يقوم مقام الأب ، فيوليه العناية ، ويحقق له ما يتمناه .[٣]

الثاني: أن شيخه قام له مقام الأب ،فأغناه عن طلب الآخر ،وحقق له ما هو بحاجه إليه ،يدل عليه أن الشيخ عندما يتحدث مع واحد من مريديه ، فإنما يقول له يابني[٤]، يقصد بنوة الطريق، وهي تساوي بنوة النسب وربما زادت عليها.

٤ـ أن التصوف كله أدب ، في كل مقام أدب ، ولكل وقت أدب، وبكل حال أدب، فمن يلتزم الأدب يبلغ بين الناس مبلغ الرجال ، وعند الله ميزان الاعتدال ومن حرم الأدب ، فهو بعيد من حيث يظن القرب ومردود من حيث يرجو القبول [٥] .

---

(١) الذين يرفضون تفويض المريد لشيخه ،ويرفضون اصفاءه له لم تكن لديهم معلومات كافية حول طبييعة.

(٢) راجع للشيخ العلامة محمود بن سعد المنجي (الصوفية رجال وأفكار) ص:٢،ص:١٥٣ طبعه دار مراد سنة ١٣١٧ .

(٣) الأب دائما يتحمل عن أبنائه لأن محبتهم بالنسبه له فطريه ،ولذا لم يأمر الله الآباء بمحبة الأبناء ،أما محبة الآباء علي الأبناء فشرعية ، ولذا جاءت الأوامر الألهيه بإكرامهما علي النواحي المختلفة .

(٤) راجع للشيخ منصور حسن الطيب ـ قطب الأقطاب ص:١٧٧ مطبعه دار بشير سنة ١٣١٥ .

(٥) راجع للشيخ محمود المنجي (الصوفية رجال وأفكار) ص:١٦٢ ،وللشيخ عبد العظيم النوري (التصوف الإسلامي أصولة ومشكلاتة) ص:١٤٥،١٤٤ .

مما سلف بيانه إتضح أن المريد يكون مع شيخه كالإبن البار مع أبيه يفوض له أمره ويسلم بما يراه ، اعتقاداً منه أنه إنما يقوم بما فيه المصلحة ، ويحقق الشريعة ، كما تعبر عنه الحياة العامة وفي ذات الوقت يكون علي الحقيقة ، وهذه العلاقة بين الشيخ ومريديه ، قوية البناء محكمة العقد وثيقة العرى.

٤ ـ **لزوم الصمت وحسن الأصغاء :** المريد في حضرة شيخه ، كالتلميذ في مجلس العلم ، وطالما أن الشيخ يتكلم فالمريد يستمع ، واستماعه يحتاج منه التركيز ، وبالتالي فقد صار من آداب المريد التزام الصمت بحضره شيخه، فلا يتحدث مع أحد ، ولا مع شيخه حتي يفرغ الشيخ من كلامه ، أو يطلب الشيخ نفسه من المريد الكلام ، لأن الصمت في حضره الشيخ فيه بركة من حيث أن الساكت سوف يبلغ عقله كل ما يقوله شيخه [١] .

ومن كلام الإمام الشافعي رحمه الله :

عرفت الهدي فرأيته ظلا يقيني حر الهواجر
وعرفت الصمت متجرا فلزمته فإذا لم اربح فلست بخاسر [٢]

إن الصمت فضيلة عرفها أهل الأسلام أوائلهم والأواخر، بل ما بين الأوائل والأواخر، إتباعا لما شرع رسول الله صلي الله عليه وسلم، حيث سئل أو إنا لمؤاخذون بما تنطق به ألسنتنا ، فقال صلي الله عليه وسلم وهل يكب الناس في النار علي وجوههم أو علي مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم [٣] .

كما أن حسن الإصغاء إنما يعبر عنه عقل رشيد ، ونفس ذكية ، وقوي نفسية قائمة علي التوافق ، إذ معادن الرجال، ومعيار الناس في مايلقيه اللسان

(١) من الحكم الداله علي قيمه الصمت أو السكوت ، ما دام الأمر يحتاج ذلك قولهم إذا كان الكلام من فضه فالسكوت من ذهب .

(٢) يقول العلامة السهروردي ـ من أدب المريد في مجلس الشيخ أن يلزم السكوت ،ولا يقول شيئا بحضرته من كلام حسن إلا إذا استأمر الشيخ ،ووجد المريد من الشيخ فسحه له في ذلك راجع عوارف المعارف ص:٣٦٥ .

(٣) هذا الحديث مما يؤكد علي أساليب التربيه الراقيه بالنسبه للكلام قولا وأستماعا .

وما تصغي إليه الآذان ، وقديما قيل المرء مخبــوء تحــت طــي لســانه ، لا طيلسانه.(١)

كما أن الإصغاء فيه صورة من استهداف الرزق وطلبه ، بـل والتماســه أيضاً ، وكلما يصغي لما يقال إليه من شيخ عالم بالأحكام الشرعيه ، قائم عليها طبقا لما يجئ من رب البرية ، فأنه يكون مهيأ لقبول الرحمات ، كما يكــون مستعدا لتلقي الفيوضات ، إذ كل أدب حميد يتبعه رزق جديد (٢) .

يقول الشيخ السهروردي إن المريد في حضرة الشيخ مثل من هــو قاعــد علي ساحل بحر ، ينتظر رزقا يساق إليه ، فتطلعه إلي الاستماع وما يرزق من طريق كلام الشيخ، يحقق مقام إرادته وطلبه، واستزادته من فضل الله ، وتطلعه إلي القول في حضرته يرده عن مقام الطلب والاستزادة ، إلي مقام إثبات شــئ لنفسه ، وذلك جناية المريد(٣)، ثم أن الشيخ قد يكون من ذوي العلم اللدني مــن اللذين يعطيهم الله تعالي أياه من غير طلب منهم، وإنما يأتيهم عن طريق القذف في القلب النوراني ، وهذا العلم النوراني قد يتمكن الشيخ من التعبير عنه ، وقد يؤمر بعدم الإفصاح لفترة من الزمان ، وقد يؤمر بإلقائه كله ، المهم أن حبســه أو القاءه يرتبط بمصالح العباد (٤).

فإذا كان المريد منصتا لما يلقي إليه ،مصغيا بعقله وحواسه ناحية شــيخه فإنه تتحقق له بركات كثيرة ، وربما أمر الله الشيخ أن يبلغ ما اعطاه إياه مــن علم أو في ذات الوقت الذي تم فيه الإصغاء ، وبناء علية تــأتي هــذا المريــد

---

(١) طي اللسان هو الكلام الذي يمكن أن يخرج منه ،أما الطيلسان فهو الثوب الذي يغطيه .
(٢) هذا داخل في نطاق قوله تعالي (ولئن شكرتم لأزيدنكم)كما أن في الإصغاء السليم راحه للعقل والقلب والوجدان .بجانب الجوارح واللسان .
(٣) راجع للعلامة السهروردي (عوارف المعارف)ص:٣٦٥ .
(٤) العلم اللدني رحمه من الله تعالي وعلامة من علامات القبول الآلهي لذات العبد ،ويدل عليه قول الله تعالي(فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا)سورة الكهف الآية ٦٥ .

رحمات كما تهبط عليه تجليات ، وتفيض عليه بركات وأنوار غدواً ورواحا ، بكرة وعشيا[١].

كما أن الشيخ خبير بالكلام ومعانية ،والأوامر وما تجتليه ،فإذا ألقي كلاما خبره قبل إلقائه ، فما كان صالحاً حافظ عليه، ونبه إليه بل وتمسك به ، وطالب الاستمرار عليه، وبالتالي يحقق للمريد المصالح المتعلقه به ،لأن من مهام الشيخ تنقية بذر الكلام عن مختلطات الهوي ، من حيث أن الكلام كالبذر يقع في الأرض ، فإذا كان البذر فاسدا لاينبت ، وفساد الكلام بدخول الهوي فيه [٢] .

مما سلف بيانه إتضح أن مهمه الشيخ في هذه الحال هي تنقية بذر الكلام من شوائب الهوي ، ثم يسلمه لله رب العالمين ، وبعده يسأل الله تعالي المعونة والسداد ، فيكون كلامه بالحق من الحق للحق ، وهذا مما يحقق للمريد وغيره فوائد عديدة من العلم النافع ، الذي يرتبط به العمل الصالح[٣].

أضف إلي ما سبق اعتقاد الصوفية في أن الشيخ أمين علي مريديه، وبخاصة ما يتعلق بالإلهام ويقولون أن جبريل أمين الوحي ، فكما لا يخون جبريل في الوحي فلا يخون الشيخ في الألهام [٤]، وكما أن رسول الله صلي الله عليه وسلم لا ينطق عن الهوي ، الشيخ مقتد برسول الله ظاهراً وباطناً ، لا ينطق عن الهوي ، لا يتكلم بهوي النفس ، لأن الذي يتكلم بهوي النفس يقع في الضلال ، ثم أن هوي النفس من ناحية القول، إنما يقوم في أمرين:

احدهما: طلب استجلاب القلوب نحوه، وصرف الوجوه إليه ، وإطراء الناس

---

(١) راجع كتابنا(أوراق مطوية في التصوف والصوفية) ص:٤١١ / ٤١٥، وكتابنا (أنسام حبيه في الأفكار الصوفية) ص:٩٧ .

(٢) يدل عليه قول الله تعالي (لاَّ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتَغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا) سورة النساء الأيه ١١٤ .

(٣) إن الشيخ في هذه الحاله يشبه الصيرفي الذي ينقد الدنانير ،فما كان صالحا أبقاه، وما كان زائفا تركه .

(٤) القاعدة عند الصوفية أن من خان في الألهام حرم نعمة الفيض ، واحتبس عنده الكلام .

إليه ، إن همه من القول المدح الذي يمكن أن يأتيه، وهذا ليس من شأن شيوخ التصوف، وربما كان من عادات المنتسبين لهم،لكنهم لا يحسبون على التصوف ولا على الصوفية.[١]

ثانيهما: ظهور النفس واستعلائها علي الآخرين، باستحلاء الكلام والعجب، حتي يظن المتكلم إنه الأوحد ، وذلك خيانة عند المحققين ، إنما لماذا ؟[٢]. فلأن الشيخ في كل ما يجري علي لسانه ،راقد النفس ، تشغله مطالعة نعم الحق في ذلك ، كما أنه فاقد الحظ من فوائد ظهور النفس بالاستحلاء والعجب ،فيكون الشيخ لما يجري به سبحانه وتعالي مستمعا كأحد المستمعين[٣] ، ومن ثم فمن آداب المريد مع الشيخ لزوم الصمت ، بجانب حسن الإصغاء .

لقد إعتاد الصوفية تربية المريدين بما يتفق مع قدراتهم ، وتصح معه ملكاتهم وامكانياتهم من حيث أن الشيخ مع المريد كالطبيب مع المريض الذي يتفرس وجوه المترددين عليه ، حتي إذا بدت له منهم بواد أو ظهرت عليهم علامات لا تتفق مع التعاليم التي يقوم عليها ، فإنه يسارع بهم إلي العلاج .

وقد يبدأ بالعلاج الوقائي قبل الدوائي ما دام ذلك يتعلق بمصالح المريدين[٤] وهذا مما يكشف عن طبيعة الصوفية في التربية ، وقدرتهم من ناحية قراءة ما في نفوس المريدين من باب الكرامات ، أو من باب الفراسات ، وقد ذهبوا إلي أن الكرامة أمر خارق للعاده يجريه الله تعالي علي يد العبد الصالح إظهاراً لمنزلته عند الله تعالى [٥].

---

(١) هناك فرق بين الصوفي والمنتسب فالأول مشروع والثاني مردود ، راجع كتابنا (أوراق مطوية في التصوف والصوفية) ص:٢٣٩ .

(٢) المحققون المراد بهم الصوفيه أصحاب القول الفصل والعمل الإيجابي والاعتقاد الصحيح.

(٣) راجع للعلامة السهروردي (عوارف المعارف) ص:٣٦٦،٣٦٧ .

(٤) وهذا من بديع عمل الصوفية الأعلام ،ويعبر عن قدرتهم في أستكناه أغوار النفوس ومغيبات الأرواح ، والتعديل فيها بما يحقق المصالح المشتركة .

(٥) راجع كتابنا (الإيمان بالغيب وأثره علي الفكر الإسلامي).تحدد الباب الثالث أثناء الحديث عن علاقه الغيب بالسمعيات ،وراجع كتابنا (كرامات الأولياء بين المثبتين والنافين) .

كما عرفوا الفراسة بأنها أمر خارق للعادة يجريه الله علي يد العبد الصالح بحيث يتمكن من معرفة ما في قلوب وعقول الآخرين، وهي الفراسة الإيمانية[١] ومادام الشيخ قد بلغ درجة الولاية ، وجاءته الكرامات أو الفراسات فإنه يربي مريديه بناء علي ما لديه من كرامات وفراسات .

٥ ـ **أحكام العقود:** وهو المراد بضبط العلاقه بين المريد وربه وشيخه، والعقد مع الله تعالي قوامه العقيدة الصحيحة في الله تعالي ، بما يجب له من الجلال والجمال والكمال والإكرام ، وهذا العقد التوحيدي هو المشار إليه بقوله تعالي: "وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ أَوْ تَقُولُواْ إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ" .[٢]

والعقد مع الشيخ التزام ما يجب له من غير تطفل علي غيره ، أما أحكام العقد في العمليات فعماده أن يحصل من علم الشريعه ما فيه الكفايه له ،إما بالتحقيق أو بالسؤال عن الأئمة ، ما يؤدي به فرضة، وإن اختلف عليه فتاوي الفقهاء ، فإنه يأخذ بالأحوط ولا يقصد أبداً الخروج من الإخلاص، فإن الرخص في الشريعة إنما تكون للمستضعفين وأصحاب الحوائج والأشغال .[٣]

ثم أن احكام العقد بالنسبة للمريد مع الشيخ أمر قائم ، إذ يجب علي المريد أن يتأدب بشيخ فإن لم يكن له استاذ لايفلح أبداً ، ويستدلون علي ذلك بقول أبي يزيد البسطامي من لم يكن له استاذ فإمامه الشيطان[٤] .

---

(١) راجع كتابنا (الإيمان بالغيب) أثناء الحديث عن الفراسة وعلاقتها بالغيب ،وكتابنا (الفراسة) ففي كل منها تفاصيل عديدة.

(٢) سورة الأعراف الآيات ١٧٢،١٧٤.

(٣) وأحكام العقد مفيده في جميع الحالات ، لأن أفراد هذه الطائفة ليس لهم شغل سوي القيام بحقوقه سبحانه وتعالي،ولذا قيل إذا أنحط الفقير عن درجه الحقيقة إلي رخصة الشريعة فقد فسخ عقده مع الله تعالي ونقض عهده فيما بينه وبين الله تعالي.

(٤) الإمام القشيري : الرسالة القشيرية، ص:٣١٥ .

وكان الشيخ أبو علي الدقاق يقول أن الشجرة إذا نبتت بنفسها من غير غارس ، فإنها تورق ، لكن لا تثمر ، كذلك المريد إذا لم يكن له استاذ يأخذ منه طريقته نفسا فنفسا ، فهو عابد هواه ، لا يجد نفاذا .(١)

في نفس الوقت فإن تمام هذا العقد المشيخي لابد فيه من تربية وتجربة وإذا جربه شيخه ، فيجب أن يكون عن طريق تلقينه أحد الأذكار المناسبة له ، علي ما يراه شيخه ، حيث يأمره أن يذكر ذلك الأسم بلسانه ، ثم يجعل قلبه ولسانه فيه معاً(٢)، ثم يأمر الشيخ المريد الأستدامة علي هذا الذكر ، والثبات معه ، كأنه مع ربه بقلبه ، لا يجري علي لسانه غير هذا الأسم قدر طاقته، ثم تأتي المرحلة الأخيرة في هذا التدريب وهي:

أ ــ أن يكون المريد في الظاهر علي الطهارة أبداً .

ب ــ أن لا يكون نومه إلا غلبة .

ج ــ أن يقلل من غذائه علي التدريج شيئاً فشيئاً ، حتي يتمكن من ذلك كله ويمارسه في صوره عاديه(٣).

وحتي يتم تنفيذ العقد بين المريد والشيخ إلي آخر بند فيه ، فإن الشيخ يكلفه بإيثار الخلوة ، والعزلة القلبية والعقلية، وليست الجسدية ، بدليل أنه يأمره بأن يركز اجتهاده في نفي الخواطر الدنية ، وكذلك الهواجس الشاغلة للقلب ، وكلما رآي الشيخ من المريد التزاماً وكياسة ، فإنه ينزع معه إلي المريد من القضايا التي يكون بحاجه اليها (٤).

إن المريد في مرحلة أحكام العقود قد تبدو عليه الجوانب الفكرية والعقلية

---

(١) هذه الاقوال تنكر أن أحكام العقد للمريد لابد أن يقوم في هذه الجوانب الثلاثةعلي التوالي

(٢) لاشك أن عمليه التدرج هذه تعبر عن صورة التربية التي يقوم بها الشيخ مع المريد مرحلة مرحلة حتي يبلغ به المأمن .

(٣) هذه المراحل كل واحدة منها تجئ مع الأخري أخذه بعناقها ،وبالتالي فلا يمكن إتمام عملية الفصل بينها ، إلا من الناحية الذهنيه.

(٤) راجع للعلامة القشيري : الرسالة القشيرية ، ص:٣١٦،٣١٧ .

كما يكون بحاجة إلي ترابط الوجدانية مع السلوكية من الناحية التطبيقية علـــي أساس أن هذه المراحل والمراتب ، قد تستغرق وقتا من ناحية التدريب عليها ثم التجربة الذاتية ، بجانب ضرورة الوقوف في كل مرحله بما يتناسب معها ، ولا ينتقل منها إلي ما بعدها ، إلا بعد الإحكام التام للسابقة عليها [١].

يقول الشيخ الأرامكي حرص شيوخ الصوفية الأعلام في تربية المريدين ، وتدريبهم علي كيفية إحكام عقودهم ، لأنهم إذا تمكنوا من ذلك جاءت عمليـــات التدريب في صور متماسكة سليمة ، قابلة للتطبيق العملي من كافة النـــواحي ، وحققت تقدما مع المريد ، ومن ثم فكل شيخ أعلم بمريديه.

ولهذا قالوا أن المريد لطائفة بذاتها ، أو شيخ بعينه لا يصح له أبدا الإنتقال لغيره ، حتي يحكم عقده ويتولي أمره[٢]. وكما يكون إحكام العقود بالنظر العقلي والسلوك العلمي ، فإنه يكون أيضا بالعلوم والمعارف ، ومن أولاها علم أصول الدين ، وهو الفقه الأكبر ثم يتمم أصول الفقه من حيث إنه يقدم للمريد القضايا الكلية ، بحيث يتدرب علي كيفية الوصول إلي الأحكام الكلية [٣]. التي تطبق في الفروع كلها.

ثم إن إحكام العقود يعطي المريد نوعا من الحصانة المعرفية ، حتي إنه إذا أشكل عليه أمر من الأمور ، أو حال من الاحوال بالنسبة لتصرفات شيخه فإنه يتذكر بسرعة قصه نبي الله موسي عليه السلام الكليم مع العبد الصالح ، الـــذي كان يفعل أشياء أنكرها موسي الكليم أول الأمر ، فلما أخبره بسرها رجع عـــن

---

(١) هذا مما يؤكد أن عمليات التدريب التي يقوم بها الشيخ مع المريد إنما يلاحظ فيها القدرات العقلية والنفسية بجانب الفروق الفرديه ، لأن ما يصلح لفرد قد لا يصلح لغيرة ، وما يفيد مع مريد قد لا يكون مفيدا بالنسبه لمريد آخر.

(٢) راجع للشيخ محمد بن عبد العزيز الأرامكي ، (قواعد جليلة في التصوف والصوفية) الجزء الثاني ، ص :١٧٧ .

(٣) علم الفقة الأكبر هو علم العقيده ،وله أسماء كثيره منها علم التوحيد ،وعلم الكلام وعلم أصول الدين وغيرها راجع كتابنا (المدخل التام لعلم الكلام)ص:١٤،٣٥ حيث ذكرت ذلك علي وجه تفصيلي .

إنكاره، ومن ثم فإن المريد قد ينكر من شيخه أمراً يرجع لقلة علم المريد بحقيقه ما يوجد في عقل الشيخ وضميره ، وهذا مما يقدر به الشيخ .[١]

قال أبو عثمان رضي الله عنه ، صحبت أبا حفص ، وأنا غلام حدث ، فطردني وقال لا تجلس عندي ، فلم أجعل مكافأتي له علي كلامه إن أولي ظهري إليه ، فأنصرفت أمشي إلي الخلف ووجهي مقابل له حتي غبت عنه[٢].

لقد اعتقدت أن أحفر لنفسي بئراً علي بابه ، وأنزل وأقف فيه ولا أخرج منه إلا بأذنه ، فلما رأي ذلك مني ، قربني منه وقبلني وصيرني من خواص أصحابه ، إلي أن مات رحمه الله .[٣]

ثم إن أحكام العقود للمريد يمكنه من التصرف في نفسه بعيدا عن هواها ، لانه متي وثق عقده مع الله تعالي ، علي ناحية متواصلة فإن الله تعالي يفتح له من أبواب رحماته ، وهذا مما يدفعه إلي الدعاء ، ويقوده إلي التماس الرجاء قال تعالي : (وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ) .[٤]

ومتي وثق المريد عقده مع نفسه صدها عن غيها وقادها إلي اصلاح ذاتها، حيث تستقيم معه ، ولا تتمنع عليه ، وهذا مما يجعلها دائما في مقام الاطمئنان إلي جانب الله تعالي ، والتماس ما عنده ، كأنها تسمع النداء العلوي: (يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي)[٥] .

---

(١) الكثيرون من الشيوخ ينبهون إلي أن أحكام العقود مع المريد لا يعطيه الحق في الإعتراض علي شيخه ،وإنما يقبل ما يحصل منه ،ثم بعد ذلك قد يسأله فيما أشكل عليه .

(٢) لم يشأ المريد إظهار الفرح بطرد الشيخ له ، وإنما حاول إظهار التعلق بالشيخ والرغبة في العودة إليه ، يدل عليه ذلك التصرف الراقي منه .

(٣) العلامة السهروردي : عوارف المعارف ، ص : ٣٧١.

(٤) سوره غافر الآيه ٦٠ .

(٥) سوره الفجر الآيات ٣٠:٣٧ .

ثم إذا أحكم عقده مع شيخه نال الهام الوحي الإعلامي ، وربما صارت له أحوال ومعارف جديده ، لم يكن شيخه قد وصل إليها ، أو بلغها أو وقعت لــه الإستفاده بها ، ولكنه في هذه الحال يجب عليه مصارحه شيخه بما وقع له من أحوال ، وما جاءه من مواهب ، وما يظهر له من كرامات وإجابات.[١]

علاقة أحكام العقود بخوارق العادات :

إذا احكم المريد هذه العقود جميعاً علي وجه صحيح ، سار في الاتجــاه السليم ، حينئذ قد تأتيه الكرامات ، وتقع له الفراسات ، وربما جاءت من كــل منهما المعونات والمغوثات ، لأنها جميعا من خوارق العادات، التي تجئ للتأييد فضلا في الله ونعمته،وتفضلا منه تعالي ورحمه، ويكون ذلك كله بمثابه التطبيق العملي لمسأله احكام العقود ، إذ المعروف أن الخوارق للعادات ثلاثه أقسام :

أولاها ــ خوارق التأييد :[٢] وهي ست من حيث العدد.

١ــ المعجزات:

وهي أمر خارق للعاده ، يجريه الله تعالى علي يد مدعي النبوة ، تصديقا له في دعواه ، مع عجز جميع الخلائق عن الأتيان بمثله ، وإن يكون ذلك فــي زمن العادات القائمة ، وليس في زمن نقض العادات ، إذ لا تكليف في الناقض للعادات، نظرا لاختلال المعيار الكوني[٣]،والمعجزات منها حسيةً، ومنها معنوية قولية، ومنها عقلية، ومنها وصفية، ومنها جامعة بينها جميعاً وهو القرآن الكريم

---

(١) يقول الشيخ محمود بن علي البرماوي أن المريد إذا أخفي عن شيخه حاله أو ما يستحي من ذكره انطوي ضميره علي شئ غير مكشوف للشيخ تصريحا أو تعريضا ، وهذا مما يجعل باطنه فيه عقده من عقد الطريق ،فلا يقع له النفع الكثير ،أما إذا حدث شيخه بها فإن العقد تنحل وتزول ، ويأخذ في الترقي علي الدوام راجع للشيخ محمد بن علي البرماوي، في طريق التصوف، ص:١١٣ ـ ١١٥ ، طبعة دار فتح الله ، سنة ١٣٠٧هـ .

(٢) المراد بالتأييد انها تكون لصالح من جرت علي يديه، بحيث تؤديه أوتظهر قدرته ومنزلته بين الناس .

(٣) راجع للإمام الإيجي (المواقف)وللإمام السعد(شرح المقاصد)،وللعلامة الآمدي : أبكار الإفطار، وللعلامة الرازي(محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين)و(الأربعين في أصول الدين)

٢ـ الأرهاصات:

وهي أمور خارقه للعاده يجريها الله تعالى علي يد من سيكون نبياً ، بحيث إذا ادعي النبوه في المستقبل ، كانت الإرهاصات بمثابة التأسيس لها ، ومن ثم يري العلماء أن الارهاص تأسيس لدعوي النبوة ، وتمهيد لها ، كإظلال الغمام لنبينا محمد صلي الله عليه وسلم ، وكل الخوارق قبل اعلانه النبوة تدخل فـي نطاق الأرهاصات (١) .

٣ـ الكرامات:

وهي أمور خارقه للعادة يجريها الله تعالي علي يد العبد الصالح ، إظهاراً لمنزلته بين الناس ، ورفعاً لشأنه ، والتأكيد علي أنه متابع للنبي إذ في الأساس أن الكرامات توابع المعجزات ، ومؤكدات علي استمرارها ، فكل كرامة لـولي هي أمتداد لمعجزة النبي .(٢)

٤ـ الفراسات:

هي أمور خارقه للعادة ، يجريها الله تعالى علي يد العبد الصالح ، بحيـث يتمكن من الأطلاع علي ما في عقول الآخرين ، وقلوبهم بل ونواياهم ، وهـي فراسة إيمانية (٣) ، وفي الأثر أتقوا فراسة المؤمن فإنه يري بنور الله .

٥ـ المعونات:

وهي أمور خارقة للعادة يجريها الله تعالي علي يد العبد الصالح تخليصاً له من شدة ، وإنقاذاً له من كرب ، بحيث يستر الله حاجته ، ويـرد العـين عـن

---

(١) راجع كتابنا : الإيمان بالغيب وأثره علي الفكر الإسلامي ،وقد خالف ابن تنمية في التسمية وسماها جميعا براهين النبوه ،وله رأي يمكن الأخذ به من ناحيتة.

(٢) كقطع المسافات الطويلة في أوقات قليلة ، واسماع النداء من مكان بعيد ، كحال سيدنا عمر بن الخطاب مع سارية والجيش الأسلامي بنهاوند ، وراجع كتابنا : الإيمان بالغيب، أثناء الحديث عن خوارق العادات .

(٣) راجع للإمام القشيري (الرسالة القشيرية)ص:٥١،٥٢ .وهي غير الفراسه الرياضية والفراسة العلمية التجريبية.

ضعفه [١]، وفي الغالب لا يطلبها العبد الصالح ،وإنما تجئ من الله تعالي علـــي سبيل المنح الإلهية .

٦ــ المغوثات:

وهي أمور خارقة للعادة ، يجريها اللهِ علي يد العبد الصالح ، تخليصا لـــه مما يعاني ، ولا يمكن له دفعا ويكون ذلك علي سبيل الأستجابه له مما استغاث به ، تفضلا من الله تعالي ورحمه.[٢]

ثانيها ــ خوارق الأهانة والسخرية: وهي نوعان من حيث العدد.

١ــ الإهانة :

وهي أمر خارق للعادة ، يجريه الله تعالي علي يد مدعي النبوة الكــذاب ، علي غير مراده ، تكذيباً له ، وإهانة بين من أدعي فيهم أنه نبي ، كالحال مــع مسيلمة الكذاب ، والأسود العنسي ، وسجاح[١] .

٢ــ الإستدراج :

وهو أمر خارق للعادة ، يجريه الله تعالي علي يد من يدعي الألوهية من حيث أنه كذاب ، لأن الله تعالي واحد أحد فرد صمد ، وذلك علي غير مــراده بحيث تقوم كأدلة علي تكذيبه ، وذلك كفرعون موسي حيث إدعي الألوهيـــه ، وقال ما حكاه القرآن الكريم عنه ، قال تعالى : "وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَــا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْـأَرْضِ

---

(١) راجع كتابنا (الغزاليات في النبوات) وكتابنا (الغزاليات في السمعيات)حيث ذكرت الضوابط والأنواع بجانب الموضوعات .

(٢) راجع كتابنا (الغزاليات في النبوات)وراجع حاشيه الشيخ محمد بن محمد الأمير،وحاشيه الشيخ الباجوري علي شرح الجوهره ، (ونورا الظلام) شرح عقيدة العوام للعلامة محمد نووي الشافعي .

(٣) راجع كتابنا (الغزاليات في السمعيات)وكتابنا (تأملات غزاليه في النحل الشيطانية) أثناء الحديث عن البهائية.

بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ "(١). وقال تعالى : " فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ لَوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ " (٢) .

وقال تعالى : " وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ " (٣) .

ثالثها ــ خوارق التعلم والتعلم :

١ــ السحر :

وهو أمر خارق للعادة ، يقوم علي التعلم والتعليم ، ويعتمد فاعله على خفة اليد ، والقدرة علي إدهاش من ليس لهم بالسحر معرفة أو علم ، ويدل عليه ، قوله تعالي(وَجَاء السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالْواْ إِنَّ لَنَا لأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ قَالَ نَعَمْ وَإَنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ قَالُواْ يَا مُوسَى إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ قَالَ أَلْقُوْاْ فَلَمَّا أَلْقَوْاْ سَحَرُواْ أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ)(٤).

ومن ثم فإن المريد إذا أحكم العقود الثلاثه قد يصير مستعد التلقي فيوضات إلهية ، كما تجري على يديه ما كان يجري مع شيخه ، إن كان من أهل الولاية

---

(١) سورة القصص الآيات ٣٨ ـ ٤٢ .
(٢) سورة القلم الآيات ٤٤ ـ ٥٢ .
(٣) سوره الأعراف الآيتان ١٨٢،١٨٣ .
(٤) سورة الأعراف الآيات ١١٣،١١٦ .

وكلما تقدم في الطاعه والإجتهاد ترقي معارج القبول ، وربما سمع مما يسمعه الأولياء ، وبات من القرب بمكان ذلك الفضل من الله وكفي بالله عليماً.

والحق أن الآداب التي يجب أن يكون المريد ملتزما بها ، متعددة ومتنوعة ويمكن إجمالها في مجموعات على النحو التالي :

الأولي : الآداب الظاهرة : ومنها ألا يبسط سجادته ، مع وجود الشيخ إلا في وقت الصلاه ، وألا يرفع صوته ، ولا ضحكه ولا كلامه بحضرة شيخه.

الثانية : الآداب القلبية : ومنها بقاء قلبه مشغولا بالذكر ،مع إلتزام الوقار ، مراعاة الحرمات ، قال السهروردي : كنت يوما في البيت خالياً ، معي منديل وهبه لي الشيخ، وكان يتعمم به ، فوقع قدمي علي المنديل مصادفة ، فتألم باطني من ذلك ، وهامني الوطء بالقدم ، علي منديل الشيخ ، فأنبعث من باطني من الإحترام ما أرجو بركته.[١]

الثالثة : الآداب العقلية : ومنها التزام أقواله ، واحترام قضاياه ، والبعد عن الاعتراض عليه ، فمن قال لأستاذه لا ، فلن يفلح أبداً .

الرابعة : الآداب الخلقية : ومنها ضرورة الاستئذان عليه ، أو من عنده ، بجانب ستر أحواله ، ومراعاة خطراته ، وعدم أستحقار ما يراه.

الخامسة: الآداب الوجدانية : ومنها المحبه له، وعدم الخوض أمامه ، بجانب إجلاله لأن احترام العلماء توفيق وهداية، وإهمال ذلك خذلان وعقوق وسوء نهاية.[٢]

---

(١) راجع للعلامة السهروردي: (عوارف المعارف) ، ص:١١٣،١١٦ .
(٢) سوف أتناول هذه الآداب في مؤلف مستقل ، إن أمد الله في العمر ، ويسر في الأسباب وما ذلك علي الله بعزيز .

سادساً ــ طبيعة العلاقة بين الشيخ والمريد :

علاقة الشيخ بالمريد لها سمة خاصة، من حيث أن كلا منهما أختار الآخر بإرادته ، فالمريد عرف أنه بحاجة إلي هذا الشيخ ، فتقدم إليه بإرادته الحرة ، وأختياره التام ، بدليل أنه فضله علي غيره ، بغض النظر عن أصول عملية التفضيل ، المهم أنه اختاره له شيخا وموجها ، وأبا في الطريق الذي أراد أن يسلكه.(١)

كما أن الشيخ هو الآخر قد قبل أن ينضم ذلك المريد إلي طريقتة ، وكان يملك الرفض أو الإعتذار،،وكثيرا ما اعتذر الشيوخ عن قبول بعض الأفراد أو انضمامهم إليهم لاعتبارات في صدورهم ، وذلك مما تشهد به الوقائع الحياتية ، فهذا هو الشيخ أبو الفضل يسعي إليه بعض المنخرطين في طريقته ، حتي يكونوا من مريديه ، فيقول لهم بأدب كبير: "أنا غير قادرعلي التشرف بكم".(٢)

من ثم فكل من المريد والشيخ طالب ومطلوب ، المريد طالب الهداية ، والشيخ طالب من يسعي لهدايته ، والمريد مطلوب من الشيخ حتي يصل معه إلي طريق الثواب والرضوان ، والشيخ مطلوب من المريد حتي يدله علي طريقة ، وهذا ما عبر عنه لسان الحال حين قال :

أنا طالب أنا المطلوب	أنا محب أنا المحبوب
إن رمت السؤال عني	تراني واقفا بين الخطوب
فلا تدري أينا تري	الطالب ذاته ام المطلوب(١)

وقلت في هذا الباب :

---

(١) هذا الأختيار من المريد للشيخ تشهد به الوقائع الحياتية ، التي تؤكد أنه لم يقع عليه إكراه له ، أو إجبار عليه .

(٢) راجع للشيخ محمد بن زكريا العلواني : الصوفية مذاهب وطرائق، ص:٥٤،٥٣ ،وغرضه من ذلك ابعادهم عنه ،لأنهم يبغضون الصوفية ،وغايتهم الوقيعة بين افراد الطريقة ذاتها .

(٣) هذا من رمزياتهم التي عبرت عنها مؤلفاتهم ،وجاءت في إطار مصطلحاتهم التي إنفردوا بها وأستقلت بهم ،ومن ثم فكل من المريد والشيخ له علاقة بالآخر .

إن المريد وشـــيخه تآزرا وبالشرع الحنيف أمرهما جرى
تعاطيا المحبة ومن كأسها شـــربا وداً وخيراً وتســـامرا
إن ترى الشيخ في تجـــلته تـــرى المريـــد إليـــه بادرا
الحنان والحب في ودهما وصـــــفاء القلـــوب كما ترى
تخال المريد شـــيخا طوى بين جنباتـــه دهوراً وأعصرا
وترى الشيخ مريداً بحبـــه طلعـــــة النـــور باتت أقمـــرا
يا سائلي عن أمر علاقتهما كل الصـــــيد بجـــوف الفـــرا

سابعاً : مظاهر العلاقة بين الشيخ والمريد :

لاشك أن عمليات المتابعة والإحصاء التي قام بها أهل العلم ، أكدت أن طبيعة العلاقة بين المريد والشيخ ، لها مظاهر عديدة من أبرزها ما يلي :

١ـــ المحبة المتبادلة:

"المريد يكن لشيخه محبة الإبن البار «للأب الرحيم ، يقول رومان: قد كنت أري في شيخي ما أرآه في أبي «وكلما رأيته لم أتمكن من البعد عنه لقد كـــان قلبي مرتبطاً به ، وكم سمعته يتحدث إلي غيري فأجد لذة كلآمه في قلبي كأنـــه يحدثني أنا ، وأعظم مشاعري ارتقاء حينما كان يقول لي يا بني[1] أو يا أبنـــي يناديني بها.

لم تكن كلمة يابني أو يا إبني ذات قيمة ، إلا إذا خرجت من فـــم الشـــيخ لمريده ، حيث تجعله في منزلة الإبن الذي يستوجب المحبة والعطف ويستدعي حاله الترفق معه ، والاعتبار له ، وذلك من أبسط الملامح ، بل ومـــن ألطـــف المظاهر ، التي تبرز هذا الجانب في علاقة المريد بالشيخ [2].

---

(١) راجـع للشـيخ نصـر الـدين بـن صـابر البـرديس الحنفـي: التصـوف طريقـة وحقيقـة، ص:١٣٧،١٣٨ طبعة التقدم سنة ١٣٠٥ .

(٢) هذا مما تأتي به المظاهر الحياتية ، وتدل عليه في جمله من الدلائل ، أو من خلال العديد من المواقف .

كما أن الشيخ يولي المريد محبة الإبن المطيع ، بدليل أنه يوسع له في داره ويجعله أمينا علي أسراره ، بل ربما كان له بعض إطلاع علي أحوال الشيخ وخصوصياته ،بجانب إقامته وأسفاره ، وهذا لا يكون إلا للابن المطيع البار فإذا تمت مع المريد، فقد دل الأمر علي إرتقاء ذات المريد في محبة الشيخ [1].

٢ـ الرحمة والتوقير:

المريد ساع للهداية وقد يكون صغير السن ، وربما كانت قدراته العقليه عالية ، لكنه في طريق التصوف مستجد ، وقد تكون أحكام الطريقه عليه قاسية أول الأمر .

هنا تبدو رحمة الشيخ بالمريد، فلا يحمله ما لا يطيق وإنما ينظر إليه نظرة المبتدئ ، فلا يشغله إلا بما هو مستطاع له ، كما لا يأمره إلا بما يعدل في طبعه ، ويحقق جملة أهدافه ومصالحه ، حتى يكون سعيداً في الدنيا والآخرة ، تطبيقاً عملياً للأثر المحفوظ: " الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء "[2].

إن الرحمة اسم جميل ووصف جامع ، ومن أسماء الله الحسنى وصفاته العظمى ، الرحمن الرحيم، وكلما تراحم الناس فيما بينهم أظلتهم المحبة ، وسكن فيهم التعاطف ، واقترنوا بالسكينة ، والشيخ الواعي يكون مع مريديه مطبقاً الرحمة من كافة جوانبها ، طبقاً لقدراته البشرية ، وارتباطاته الإنسانية ، إقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال الله تعالى فيه، واصفاً إياه: " فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ

---

(١) راجع للشيخ محمد بن نعيم بن علي الأنطالي : (التصوف مدرسة روحية) ص:١١٣ ، طبعة أولي سنة ١٣١٤هـ .

(٢) راجع كتابنا أنسام حيية في الأفكار الصوفية ، لترى بعض النتماذج التي جاءت على نواح تطبيقية ، وهي في ذات الوقت توظيفية واستهدافية معاً .

فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ. إِن يَنصُرْكُمُ اللّهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكِّلِ الْمُؤْمِنُونَ"[١].

إن الشيخ والمريد يتبادلان كأس المحبة حباً بحب، ورحمة بتوقير ، ونصحاً ببذل ، ولذا فإن توقير المريد لشيخه يبلغ معه مداه ، حتى أن المريد ربما لم يتمكن من النظر إلى شيخه على ناحية الاستجلاء ، يقول الشيخ السهروردي : قد ينازل باطن بعض المريدين من الحرمة والوقار من الشيخ ، ما لا يستطيع المريد أن يشبع النظر إلى ذات الشيخ[٢].

ويذكر السهروردي نفسه تجربة ذاتية كانت تصاحبه فيقول كنت أحياناً أحم[٣] فيدخل على عمي وشيخي ، أبو النجيب السهروردي رحمه الله فيترشح جسدي عرقاً ، وكنت أتمنى العرق لتخف الحمى ، فكنت أجد ذلك عند دخول الشيخ علي ، ويكون في قدومه بركة وشفاء [٤].

وإذا كانت الرحمة والإجلال مما يزين علاقة المريد بشيخه ، وهما في ذات الوقت درة التاج على مفرق هذه العلاقة الرائعة ، ألا يدل ذلك كله على أن التصوف بر ورحمة، وأن الصوفية الأعلام بينهم محبة ورحمة وتوقير واحترام فأين من ذلك خصومهم ، بل أين من ذلك الناقمون عليهم ، وفي الحكم الجارية مجرى الأمثال يقولون :

لو تراحم الناس لاستراح القاضي ولبات كل عن أخيه راضي
حب التناهي رأس الغلط وخير الأمور في الناس الوسط [٥]

---

(١) سورة آل عمران الآيتان ١٥٩ ، ١٦٠ .
(٢) هذا ليس من باب الرهبة ، وإنما هو من طبيعة التوقير له بجانب التجلة والاحترام ، وكان الشيوخ يدركون ذلك من بعض مريديهم فيخففون من حدته عليهم ، بطرائق تربية وأنواع من المحبة .
(٣) يأتيه مرض الحمى الذي يجهد صاحبه ويرفع درجة حرارته . ، ومن ثم فالحمي أنواع .
(٤) راجع للعلامة السهروردي - عوارف المعارف ص ٣٦٧ وذلك مما يدل على مدى التجلة والاحترام .
(٥) ذلك مما تشهد به الوقائع الحياتية ، التي أراها دليلاً عملياً من الناحية التطبيقية ، لأن الكثيرين قد يهملونها ، أو يتجاوزون فيها رغم زعمهم أنهم على الحق المبين ، وما هم إلا في ضلال كبير .

٣ ـ التناصح والتناصر :

الشيخ حريص على تقديم النصح لمريديه،من حيث أن ذلك واجب عليه لهم كما هو حق من حقوقهم بالنسبة له، دليله قوله صلى الله عليه وسلم ، الدين النصيحة قلنا: لمن يا رسول ، الله قال: لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم(١). والشيخ في المفهوم الصوفي قد يدخل في أئمة المسلمين ، بينما المريد داخل في مفهوم عامتهم ، ومن ثم فالتناصح بينهما قائم ، وعلى منوال هذه المحبة يثمر ، وذلك أمرٌ موجود داخل المؤلفات الصوفية ذاتها .

أما التناصر فقائم في عملية الدفاع، التي يقوم بها كل منهما بالنسبة للآخر ، إذ لا يسمح الشيخ أن ينال آحد من مريديه ، مهما كانت الظروف ، وفي ذات الوقت يقوم المريد بالدفاع عن شيخه من كافة الجوانب، وهذا من الأمور الهامة في جميع قضايا الفكر الصوفي ، كما يعبر عن علاقة قوية فعالة بالنسبة لكل من الشيخ و المريد (٢).

لست متناسياً أن التناصح خلق قويم يمارسه الصوفية الأعلام ، ويعتبرون ذلك قاسماً مشتركاً بين كافة الأفراد ، يستوى في ذلك أن يكون التناصح قد طلبه صاحبه ، أم أن القائم به أتى به متطوعاً ، المهم أن يقع التناصح في أتم الوجوه وأوفاها ، كما يعبر عن نوع من العلاقة الهادفة بين الشيخ والمريد(٣) .

كما أن التناصح لا يقتصر على موضوع بذاته ، ولا حدث بعينه ، وإنما مساحته واسعة ، بحيث تشمل كافة الأنماط الحياتية ، بجانب ما يمهد للحياة الأخروية ، وكلما تناصح الناس فقد تعافوا من الأمراض والأسقام ، كما ابتعدوا

---

(١) الإمام مسلم صحيح مسلم ج١ ص ٧٤ كتاب الإيمان باب بيان أن الدين النصيحة حديث رقم ٥٥ وللإمام الترمذي ـ السنن ج ٤ ص ٣٢٤ كتاب البر والصلة باب النصيحة حديث رقم ١٩٢٦ قال الترمذي ، حيث حسن صحيح ، وقال الألباني حديث صحيح .

(٢) راجع كتابنا أوراق مطوية في التصوف والصوفية ص ٣١٦ ، ٣٢٠ .

(٣) راجع كتابنا أنسام حيية في الأفكار الصوفية ، ص ٩٧ ، ٩٩ .

عن الأزمات التي تجئ معها المشكلات ، وهذا عندما يكون بين الشيخ والمريد فإنه يصير أولى ، بل وأوفي[١].

صحيح أن الشيخ يتقن هذه العملية نظراً لما له من خبرات وتجارب ، ولكن المريد يقوم بها طبقاً لما لديه من طاقة وقوة ، وبالتالي فكل منهما يتكامل مع الآخر ، حتى يقع التآزر على جهة التناصح في الوجوه المشروعة كلها ، يقول الشيخ الطويل : حسب الناس التناصح عادة يبذلها القادر عليها لمن يحتاجها ، ولكن المسألة أكبر من هذا، إنها واجب مشروع على كل قادر أثناء القيام به[٢].

كما أن التناصر متى ارتبط بعملية الدفاع ، ورد الغيبة ، فإن ذلك مما يترتب عليه النصرة ، ولذا باتت من المسائل الهامة ، والمشروعة أيضاً ، ومن ثم كان العهد بين الشيخ والمريد محكماً ، حتى أطلقوا عليه اسم إحكام العهد مع الشيخ والمريد، وذلك من القضايا الهامة التي شغلت الفكر الصوفي، كما أبرزت بعض المواقع التي يشرف منها على المشاركات المجتمعية[٣] .

لقد جرت سنة الله في خلقه إعلان تلاقي بعض الأرواح مع بعضها ، ومتى وقع بينها التعارف ، القائم على المحبة والمودة والرحمة ، فإن هذا مما يعبر عن التناصح والتناصر في جانب من الجوانب ، أو من خلال مظهر من المظاهر ، وفي الحديث يقول الرسول صلى الله عليه وسلم " الأرواح جنود مجندة ، ما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف "[٤].

وهذا كله مما يدل على نوع العلاقة أو مظاهرها بين الشيخ والمريد ، وفي

---

(١) عملية التناصح تجئ كل واحد منها طبقاً للمعطي القائم لديه ، إذ ليس الجميع من المسألة سواء ، وإنما ظاهرة التباين قائمة .

(٢) راجع للشيخ عبد العظيم محمود الطويل ـ الدين النصيحة ص ٤٣ / ٤٤ . وما دام التناصح واجباً فقد تعلق بعنق كل من الشيخ والمريد على قدر سواء .

(٣) لمعرفة هذه الجوانب راجع صفة الصفوة لابن الجوزي ، ومكاشفة القلوب للإمام الغزالي والمقدمة لابن خلدون وغيرها .

(٤) راجع للشيخ محمود عوضين من هدي السنة ص ١٣٧ ، دار الخليفة ١٩٤٧م .

ذات الوقت يكشف عن طبيعتها الدالة على نوع من الارتباط النوعي والكمـــي في الأداء الصوفي العام ، وتلك مسألة مهمة .

٤ ـ الاحترام المنظم :

لاشك إن العلاقة بين المريد والشيخ في أساسها علاقة قلبية ، حيث يقع كل منهما في إطار التلاقي مع الآخر ، إذ ليس أحدهما موظفاً لدى الثاني ، كما أن كلاً منهما ليس في علاقة عمل مع الآخر ، فلا الشيخ رئيس عمل في جماعة ، ولا المريد أحد أعضائها ، إنما هو عمل تطوعي من ناحية الشـــيخ ، الــذي لا يتقاضى من أحد أجراً على ما يقوم به ، إنما أجره عند الله تعالى (٣) .

كما أن المريد حينما ينخرط في خدمة الشيخ ، ويجلس داخل حلقات طلـــب العلم، إنما يحصل على أجر من الله تعالى ، لأنه ليس موظفاً لدى الشيخ ، وإنما عمله تطوعي ، قائم في لسان الشرع الشريف ، وذلك مما يكشف عن وجـــود نوع من التضحية يقوم بها المريد ذاته(٢)، وهذا من القضايا الهامة أيضاً ، بـــل والمسائل التي انشغل بها الرأي العام الصوفي ، وأثبت فيها الجدارة الكاملة .

أضف إلى ما سبق أن الاحترام المنظم بين المريد والشيخ ، يكشف هـــو الآخر عن نوع من العلاقة المشتركة ، المتعددة في أنماطها ومهامها ، كما هو معبر عن ذاتية ذلك الإنسان الواعي ، بغض النظر عن الارتباطات الأخرى ، ومن ثم بات الشيخ والمريد كل منهما يعطي الآخر ، على أساس أن الإنســـان الواعي مشارك في أنماط الحياة ، مساهم فيها بأعلى قدر ممكن(٣) .

من الملاحظ أن هذا الاحترام لا يحتاج بينهما إلى قاعدة مكتوبة ، أو قانون

---

(١) هذا الفهم الواعي يقوم به الصوفية في كثير من المواقف ويعتبر نوعاً من الامتياز الخاص الذي لا يمكن تناسيه ، وهذا من قضايا الصوفية الأعلام .

(٢) راجع كتابنا أوراق مطوية في التصوف والصوفية ص ٢١١ ، ٢١٥ وذلك مما يؤكد أن الشيخ والمريد لهما علاقات قوية ومتبادلة من كافة النواحي .

(٣) راجع كتابنا التفكير الإنساني أصوله ومستوياته ص ١٧٧ / ١٨٥ .

مواده مقيدة ، ضمن نصوص لابد من الرجوع إليها عند التنازع ، لأنه لا تنازع بين الشيخ والمريد ، إنها علاقة ممتازة بين والد حان كريم، وابن منضبط يلتزم البر والتعاون ، بجانب المحبة والتراحم[١] .

كما أن هذا الاحترام المنظم يضفي على ذات العلاقة نوعاً من القدسية، التي تستمد وجودها من النصوص الشرعية ، ومن ثم فكل من الشيخ والمريد يجد نفسه مع الآخر ، حتى يكون من الصعب عليهما انصراف أي منهما عن الثاني، إلا في المسائل التي تفرضها الضرورة ، ويكون ذلك في نطاق أضيق الحدود .

٥ ــ الإيثار المتبادل :

الإيثار معناه قيام الفرد الواعي بإدراك حقيقة ذاته ، بما يستلزم تفضيل الآخر على الذات ، في كل ما يحتاجه المرء من أسباب الحياة ، لأن المادة الصرفية للكلمة يجيء فيها معاني المتبع المسبوك ، ومنه قول المشركين في وصف القرآن الكريم استهزائية : (فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ) [٢] ، وما قالوا ذلك إلا حسداً، وعناداً وسخرية لجاً .

ومنه المفضل على غيره بالنسبة لمن يقوم به ، ومنه قوله الله تعالى :(فَأَمَّا مَن طَغَى وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى) [٣].

ومنه القائم في الاختصاص دون سواه ، ومنه قوله تعالى : (قَالُواْ تَاللّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ)[٤] .

ومن أكثر المعاني ظهوراً ما حكاه القرآن الكريم بشأن المؤاخاة في الإسلام حيث وقع تفضيل الآخر على الذات وبالتالي مدحهم الله تعالى بأفعالهم الحسنة فقال جل شأنه: (لِلْفُقَرَاء الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ

(١) راجع كتابنا من حقوق الطفل في الإسلام ج ١ ، ص ١١٤ / ١١٧ .
(٢) سورة المدثر الآية ٢٤ .
(٣) سورة النازعات الآيات ٣٧ / ٣٩ .
(٤) سورة يوسف الآية ٩١ .

فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ . وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)[١].

غير أن الملاحظ في الاتجاه الصوفي تغليب الإيثار للآخر على الذات نفسها يستوي في ذلك كل من الشيخ والمريد ، حيث يجيء الإيثار بهذا المعنى في مؤلفاتهم العديدة ، ويعبر في ذات الوقت عن علاقة ثابتة ذات ارتباط متواصل ، ومن أبرز الأدلة على ذلك ما يلي :

أ ـ تفضيل الشيخ المريد في كل ما يتعلق به،حتى إنه ربما آثره على نفسه في الحصول على الأجر الجزيل ، بدليل ما حكاه ابن شعيب قال صحبت شيخي فترة فكنت أراه يقدمني في الوضوء ويؤخرني في الصلاة[٢] ، ويقدمني في المجلس ويؤخرني في الفتيا ، وكنت أقول في نفسي لماذا يفعل ذلك ، فإذا به بعد سنوات يقول لي يا بني إن الله تعالى يقول ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ففهمت لماذا كان يقدمني على نفسه[٣] .

وهو حين يقدمه في الوضوء ، ومجلس طلب العلم ، ثم يؤخره في الإمامة للصلاة ، والفتيا فإنما يفعل ذلك من باب المحافظة عليه ، لأنه لو قدمه في الإمامة والفتيا ووقع في الخطأ ، فقد ناله التقصير ، والشيخ لا يريد له الوقوع في شيء مما يقلل ثوابه أبداً .

ب ـ تفضيل المريد الشيخ على نفسه ، وذلك في طلب الرزق ، والسعي للجهاد

---

(١) سورة الحشر الآيتان ٨ ، ٩ .
(٢) لأن الإمام في الصلاة قد يتحمل أكثر مما يتحمل المأموم ، فكما أنه قائدهم إلى الله فهو في ذات الوقت المتحمل عنهم ، القاعدة كما تغنم تغرم .
(٣) راجع للشيخ محمد بن زكريا الحاج التصوف إشراق وبركة ص ٢٥٣ ط أولى ، دار الحياة ، ط ١٣١٥هـ .

والالتزام بأعمال الحج والعمرة، وكل عمل من شأنه تعريض حياة الفرد للخطر فإن المريد يبعد شيخه عنه ، حيث يكون هو القائم به ، قال أبو يزيد البسطامي رحمه الله ، صحبت أبا على السنديَ ، فكنت ألقنه ما يقيم به فرضه ، وكان يعلمني التوحيد ، والحقائق صرفاً .(١)

ثم إن عملية الإيثار المتبادل إنما هي جزء من العلاقة الرابطة بين الشيخ والمريد ، وبالتالي فكل صورة تجيء عليها ، إنما هي في الأصل معبرة عنها ، وهذا مما يؤكد على ظاهره التعاون الفعال بين كافة أفراد الطوائف الصوفية .

ذكر أبو سعيد أن أبا منصور المغربي كان يخدم شيخه أبا عثمان على سبيل الصحبة ، وكان كل منهما يؤثر الآخر فيما فيه المنفعة ، ويبعده عن كل ما فيه الحرج أو المشقة ، وكان كل منهما يقول إن الله قد جعلني خادماً له(٢) .

٦ ـ التعفف والزهد :

الشيخ يملك إرب نفسه ، والمريد يتعلم كيف يفعل ذلك ، الشيخ مدرب على تناسي المظاهر الحياتية ، فإن جاءت لم يفرح بها ، وإن غابت لم يحزن عليها ، بل هو في جميع حالاته سواء ، وذلك ديدنه ، ولسان حاله يقول :

وما المال والأهلون إلا ودائع ولابد يوماً أن ترد الودائع

من ثم فإن التعفف عن ما لدى الآخر إنما هو خلق إسلامي أصيل مارسه الصوفية على النواحي المتعددة ، وراح كل من الشيخ والمريد يتقاسمان الطريق إليه في سهولة ويسر ، كأنها من المفطورات التي لا تحتاج نوعاً من البذل والكسب ، وإنما تأتي المرء كأنها في ميدان الفطرة قائمة(٣) .

---

(١) راجع للعلامة السهروردي عوارف المعارف ص ٣٧١ .
(٢) راجع للعلامة عبد القادر محمد الأشهب ، الأنماط الصوفية شخصيات وذكريات ص ٧٣ /٧٤ ط الدار القومية ١٣٢٤هـ .
(٣) كل ما هو قائم في الفطرة التي خلق الله الناس عليها لا يحتاج مجهوداً في إخراجه أو إظهاره ، وإنما يخرج هو مبلغاً فيه الفطرة ذاتها .

كما أن الشيخ والمريد كل منهما يزهد في الدنيا ، وليس بزاهد عنها ، لكن مع الأدب المتواصل ، والعمل الدؤب الجامع بينهما ومن أقوال الصوفية من لم يعظم حرمة من تأدب به ، حرم بركة ذلك الأدب[١] .

والشيخ قد تأدب بالكتاب والسنة ، وفعل الصحابة وإجماع الأمة ، والمريد تأدب بأدب شيخه ، فصار كل منهما متعففاً، زاهداً ، راجياً من الله تعالى القرب وحسن الخاتمة[٢].

مما سلف بيانه ، اتضح أن طبيعة العلاقة بين الشيخ والمريد مشتركة ، ومظاهرها تقوم في المودة والمحبة ، بجانب الاحترام المتبادل ، مع الإيثار المشترك ، والتراحم والتماس الأعذار ، إلى غير ذلك من الوجوه الدالة على الآداب العليا والقيم الرفيعة ، وهذا مما يؤكد أن التصوف إسلامي في نشأته وممارساته ومصادره ، وأنه بعيد تماماً عن كل ما يغضب الله تعالى .

***

---

(١) راجع للعلامة السهروردي عوارف المعارف ص ٣٧٠ .
(٢) راجع كتابنا الموسوعة الغزالية ج ١ ـ المقدمات أثناء الحديث عن الزهد ، وراجع للمحب الطبري ـ الرياض النضرة في مناقب العشرة .

أهم المصادر والمراجع
حسب ورودها بهوامش الصفحات

١ ـ القرآن الكريم .

٢ ـ تقييم جهود المستشرقين الأمريكيين في دراسة السيرة والسنة، دكتور/ محمد حسيني موسى محمد الغزالي .

٣ ـ من هدي السنة المظهرة ـ الشيخ على بن محمد البهنساوي .

٤ ـ حصاد الاقتصاد في الاعتقاد ج ٣ ـ د/ محمد حسيني موسى محمد الغزالي .

٥ ـ التفكير الإنساني أصوله ومستوياته ـ د/ محمد حسيني موسى محمد الغزالي.

٦ ـ أثر الصوفية في الفتوحات الإسلامية ـ الشيخ محمد أبو الأنوار الحميدي.

٧ ـ الاقتصاد في الاعتقاد ـ الإمام أبو حامد الغزالي .

٨ ـ أنسام حيية في الأفكار الصوفية ـ الدكتور / محمد حسيني موسى محمد الغزالي.

٩ ـ هوامش على الرسالة القشيرية ـ شيخ الإسلام زكريا الأنصاري .

١٠ـ الموسوعة الغزالية في التصوف والصوفية ـ المقدمات ـ د/ محمد حسيني الغزالي.

١١ـ الكاشف في معرفة من له رواية في الكتب الستة ـ العلامة الحافظ الذهبي .

١٢ـ قواعد شريفة في التصنوف ـ الشيخ محمد البركوي .

١٣ـ المشيخة الصوفية ـ الشيخ محمد بن على المرصفي .

١٤ـ الاتجاه الصوفي ـ الشيخ عبد العظيم أبو الحسن .

١٥ـ عوارف المعارف ـ العلامة السهروردي .

١٦ـ الموافقات في أصول الشريعة ـ العلامة الشاطبي .

١٧ـ أوراق مطوية في التصوف والصوفية ، د/ محمد حسيني موسى محمد الغزالي .

١٨ـ نساء صوفيات ـ الشيخ السيد عبد الغني المتولي .

١٩ـ شعراء الصوفية ـ الشيخ السعيد محمود القصري .

٢٠ـ نساء عابدات ـ الشيخ زكريا محموذ سليم .

٢١ـ تأملات غزالية في الأخلاق النظرية ـ د/ محمد حسيني موسى محمد الغزالي .

٢٢ـ قطر الولي على حديث الولي ـ الإمام الشوكاني .

٢٣ـ زبدة خلاصة التصوف ـ شيخ الإسلام العز بن عبد السلام .

٢٤ـ الحقيقة والطريقة ـ الشيخ محمد نور الدين القلشندي .

٢٥ـ نظرات في الفكر الصوفي ـ الشيخ السيد عبد العظيم .

٢٦ـ من هدي السنة المباركة ـ الشيخ محمد حسن الطويل .

٢٧ـ الرسالة القشيرية ـ الإمام القشيري .

٢٨ـ موقفنا من خصوم الصوفية ـ الشيخ العارف بالله زكريا الأحنف .

٢٩ـ السبيخ والمريد والتربية الصوفية ـ الشيخ عبد الكريم الكرماني .

٣٠ـ أوراق منسية في التصوف والصوفية ـ د/ محمد حسيني موسى محمد الغزالي.

٣١ـ الطرق الصوفية ـ الشيخ نجم الدين عبد الشافي .

٣٢ـ الصوفية رجال وأفكار ـ الشيخ العلامة محمود المنجي .

٣٣ـ قطب الأقطاب ـ الشيخ منصور حسن الطيب .

٣٤ـ التصوف أصوله ومشكلاته ـ الشيخ عبد العظيم النوري .

٣٥_ كرامات الأولياء بين المثبتين والنافين _ د/ محمد حسيني موسى محمد الغزالي .

٣٦_ قواعد جليلة في التصوف والصوفية _ الشيخ محمد بن عبد العزيز الأرامكي .

٣٧_ المدخل التام لعلم الكلام _ الدكتور / محمد حسيني موسى محمد الغزالي .

٣٨_ في طريق التصوف _ الشيخ محمد بن على البرماوي .

٣٩_ الغزاليات في النبوات _ د / محمد حسيني موسى محمد الغزالي .

٤٠_ الصوفية مذاهب وطرائق _ الشيخ محمد بن زكريا العلواني .

٤١_ التصوف طريقة وحقيقة _ الشيخ نصر الدين البرديسي .

٤٢_ التصوف مدرسة روحية _ الشيخ محمد بن نعيم الأنطامي .

***

الفصل الثاني

الخرقة وأثرها

في

التربية الصوفية

تمهيد :

التصوف سلوك عملي، بجانب أنه توجه قلبي، وتنظيم عقلي، وانطلاق ذوقي ، وتحرك شوقي ، من ثم تكثر لدى الصوفية الأذواق والأشواق ، كما تجئ بينهم المواجيد ومعازف العشق الرباني ، والهيام النوراني ، والتطلـع الرحماني، حتى صار ذلك من علاماتهم القائمة، وشواهدهم المتواصلة التـي لا ينازعهم فيها من كان على وعي باصطلاحاتهم(١).

ثم أن القوم لهم في سلوكياتهم ما يشبه الخوارق والغرائب بالنسبة لغيرهم كما أنهم في لباسهم قد لا يتفقون عليها بالنسبة لمن لم يذق ذوقهم، ولم يعرف أشواقهم ومواجيدهم ، ولما كانت الخرقة لديهم من اللباس الذي يستخدم أحياناً لتربية النفس وتهذيب الغر، وتدريب المريدين في السيطرة على أنفسهم ، فقد بات من المناسب الحديث عنها طبقاً لما يأتي :

أولاً : تعريفها :

هي نوع من الثياب غير الجديد، ولا متماسك الأجزاء،أو متناسق الألوان وإنما تم جمعه من مصادر شتى كلها مشروعة في مظاهرها، قائمة من ناحية أصولها ، ساترة للعورة ، معينه على القيام بالأعمال المختلفة ، مدربة نفس المريد على الطاعة ، والتزام آداب الطريق والسلوك معاً(٢) .

كما تعرف بأنها لباس خاص يلبسه المريد في أول عهده بالطريق ، وهو يخالف المألوف له ، حتى يمتحن به ، ويبتلى فيه ، بما يحقق له المصـلحة العليا ، ويدل على قبوله الطريق ، من باب قالوا سمعنا وأطعنا ، ولم يقولوا

(امن المؤسف له سعى البعض لمخاصمة الصوفية والطعن عليهم من من غير معايشة لهم ، أو التعرف على أفكارهم الإسلامية ، أو مراجعة ما هو قائم بالنسبة لمصطلحاتهم .

(٢) هذا التعريف للخرقة لدى الصوفية مما أمكنني الله من جمعه عن طريق المصادر الصوفية التي وقفت عليها .

سمعنا وعصينا[١].

ثانياً : معناها :

الخرقة في الفهم الصوفي تحمل معنى المبايعة العملية والتزام عقد الأحكام بين الشيخ والمريد ، من حيث تنفيذ ما تم العقد عليه ، كما أنها عتبة الدخول في الصحبة التي يرجتى من ورائها مجيء كل خير[٢].

فإذا تبين أن مادة الكلمة (خ ر ق) معناها تخلص من المألوف الفاسد ، إلى ما هو مطلوب مشروع أدركنا أن الخرقة مظهر الدخول إلى الطريق الصوفي ، ومعلم الخروج على غيره ، وهو معنى جميل ، وفيه هدف نبيل ، كما يدل المعنى ذاته على أنها لباس داع إلى التواضع ، والتخلي عن الكبر والغرور[٣] .

من ثم فإن معنى الخرقة في العطاء الصوفي مفتاح الدخول للخلق السني والخروج عن كل خلق دنى ، ولا يتم ذلك إلا من خلال طريق الالتزام المشروع لما هو وارد عن الله تعالى، كما تدل بذاتها على أن العبد واقف أمام مولاه يسأله المغفرة ، ويرجوه رضاه ، كأنه يقول يارب إني تخليت عن ما عليه تربيت ، وخرقت ما كنت فيه أقمت، وجئت بابك من حيث أمرت ، فلا تردني خائباً وبفضلك اجعلني ممن قبلت[٤].

والصوفية حين يلبسون الخرقة ، ويكلفون المريدين بلبسها ، إنما يجددون عقد المبايعة مع الله تعالى، كما يوثقونه على ناحية هي أحكم من حيث الطلب

---

(١) أرى ذلك التعريف يعبر عن الغاية ، ومن ثم فقد جعلته يأتي من ناحيتها بحيث يكون دالاً عليها وهذا اتجاه صحيح من الناحية المنهجية .

(٢) راجع للشيخ العلامة زين الدين بن منصور التاجر ـ التصوف الإسلامي وقضاياه ص ١٣٣ الطبعة الأولى .

(٣) راجع كتابنا أوراق مطوية في التصوف والصوفية ص ٣٧٧ .

(٤) هذا مما يجري به لسان الحال في المعقولات ، وقد يعبر عنه لسان المقال في المكتوبات ، ومن ثم كانت العناية بهذا الرجاء على نحو ما جاء .

واسلم من ناحية العمل ، ولذا فقد بات لباس الخرقة من القضـــايا الصـــوفية العملية ، كما هو قضية من قضاياها النظرية والمعرفية ، أو مشـــكلة مـــن مشكلاتها الإسلامية .

ثالثاً : تاريخها :

المطالع للآراء التي دونت حول ظهور الخرقة في المؤلفات الصـــوفية وغيرها، يراها قد ارتبط بعضها بتاريخ ظهورها، والبعض الآخر ركز على إحكامها، وبعض ثالث تبنى الموقف من أدلة وجودها[١]، غير أن الذي يعنيني هنا هو ما يتعلق بتاريخ ظهورها ، والآراء فيه يمكن إجمالها طبقاً لم يلي :

الرأي الأول : ظهورها في حياة الرسول ﷺ :

يتبنى هذا الرأي جمع من الصوفية ، الذين يذهبون إلى أن الخرقة ابتدأ ظهورها في حياة الرسول ﷺ ، وكان يلبسها عليه السلام الفقراء من المسلمين أمثال عمار ، وبلال وغيرهما ، وأن الكثيرين من المستضعفين كانوا يلبسون الخرق ، وكان الغرض منها هو ستر أجسادهم ، وإظهارهم فـــي المظهـــر اللائق بهم[٢].

ويؤكدون أيضاً أن لبس الخرقة كان أكثر ظهوراً في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم بعد هجرته المباركة ، إلى المدينة المنورة ، حيث كان الفقراء كثرة ، وبخاصة بعد أن تمت عملية المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ، إذ كان الذين ينزلون إلى المدينة المنورة ، وليس لهم أقارب يأوون إلـــيهم ، أو ينزلون عليهم يقيمون في الأماكن التي تتسع لهم[٣] .

---

(١) الآراء المتعددة قد تعطي الموضوع نوعاً من الثراء ، وقد تكون وسيلة للقضاء عليه ، من هنا تكون المشكلة .

(٢) هذا الاتجاه قد يكون له ما يبرره ، لو صحت أدلته ، التي يرى الآخرون أنها مجرد ظنون وليست أدلة نقلية .

(٣) راجع للدكتور محمود محمدْ زيادة : العرب وظهور الإسلام ـ السيرة النبوية ، ص ٢١٧ / ٢٢٠ .

ثم يقررون أن أهل الصفة ما كانوا إلا جماعة من المسلمين الـذين لـم يكن لهم أقارب بالمدينة، أو معهم مال ينفقون منه على أنفسهم فـي المأكـل والمشرب والملبس، فاتخذ لهم رسول الله ﷺ جزءاً من المسجد النبوي يقيمون فيه ، ويتم التعامل معهم بداخله ، وفيهم أنزلت آيات قرآنية ، وكـان يتكفـل إطعامهم ، وما يحتاجونه من بيت مال المسلمين[١] .

ويعتقد أصحاب هذا الرأي أن رسول الله ﷺ كان يلبس هؤلاء الخرق ، إذ لم يكن قد توفر لديهم سواها ، وأن أبا هريرة نفسهرضي الله عنه ، وابن مسعود ومصعب ابن عمير جميعاً كانوا ممن ألبسهم الرسول ﷺ هذه الخرق، وأنهم ما كانوا يخلعونها إلا لغسلها وتنظيفها،وإنها لم تكن كافية لبعضهم من ناحية الطول أو السعة[٢].

كما يستدلون عليه بما ذكره إسحاق بن سعيد عن أبيه، عن أم خالد بنت خالد قالت: " أتي النبي عليه الصلاة والسلام بثياب فيهـا خميصـة سـوداء صغيرة فقال من ترون أكسو هذه ؟ فسكت القوم ، فقال رسول الله ﷺ ائتوني بأم خالد قالت: فأتي بي، فألبسنيها بيده ، ثم قال لي يا أم خالد، أبلي وأخلقي ، يقبولها مرتين، وجعل ينظر إلى علم في الخميصة أصفر وأحمر ، وهو يقول يا أم خالد هذا سناه ، والسناه هو الحسن بلسان أهل الحبشة[٣] .

ثم يقولون إذا كانت الخرقة الصوفية قد ظهرت أول أمرها حال حيـاة الرسول ﷺ بمكة قبل الهجرة ، كما كانت في المدينة المنورة بعد الهجـرة ، فمن المؤكد أنها مشروعة، وأن الذي ينكر ذلك عليه أن يقم الدليل على النفي،

---

(١) راجع كتابنا أوراق مطوية في التصوف والصوفية أثناء الحديث عن الصفة مكانها وتاريخها وأهلها وما يتعلق بها ، وراجع لشيخ الإسلام ابن تيمية مجموعة فتاوي ابن تيمية المجلد الحادي عشر التصوف .

(٢) راجع للشيخ محمد بن على البقلي الحنفي الصوفية منهج وتطبيق وشريعة ص ١٨٣/ ١٨٥ ، ط أولى ، الدار العلية ، سنة ١٣٠٥هـ .

(٣) راجع للشيخ عبد المعز بن على الطيب ، قواعد شريفة ج ٢ ، ص ١٥٧ ، وراجع للإمام السهروردي ، عوارف المعارف ص ٩٣ .

والمعروف أن المثبت يقدم بالنسبة للنافي،اعتملاً للقاعدة القاضية بأن الإثبات لا يحتاج الدليل ، أما النفي فصاحبه ملزم بالدليل[١] ، كذلك يعتقد أصحاب هذا الرأي أن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه ، كان يكسو فقراء المسلمين في مكة قبل الهجرة، وأن كسوتهم تمت من خلال خرق جاءت كلها ذات لون واحد ، وأنه كان يفعل ذلك دون أن يعرف المشركون أنه رجل مسلم[٢]، إذ كان يخفي إسلامه عنهم، وكان المستضعفون يأتون إليه لكسوتهم وإطعامهم ، وقد فعل ذلك مع العديد من فقراء بني هاشم .

كما يستدلون على وجودها في حياة الرسول ﷺ بالمدينة من حديث أم خالد ، وكذلك ما قام به سعد بن عبادة زعيم الخزرج، إذ كان له أطم يقدم فيه الطعام ، وعليه مناد يقول "يا أيها الناس من أراد اللحم والشحم فليأت أطم سعد بن عبادة، والأطم هو المكان الفسيح الواسع العالي قليلاً عن الأرض.[٣]

لقد كان سعد بن عبادة يطعم الطعام ، ويكسو الفقراء والمحتاجين ، كما كان يقدم الخرق الجديدة للعديد من جماعات المسلمين ، الذين انقطعوا لله ورسوله ، ولم يشغلهم عنه مال أو ولد، أو زراعة وغيرها، وإنما كانوا جنوداً مخلصين لله رب العالمين ، وبالتالي فالخرقة لها تاريخ قديم ومستند صحيح ، ولم ينكر ذلك واحد من أهل التصوف الذين يعتد بهم[٤].

على كل فإن هذا الرأي قد يكون لديه من القناعة ما يقرب المسافات بين الأفراد وبخاصة أولئك الذين يعتقدون في الخرقة ، ويؤكدون أنها ذات مستند

---

(١) النفي والإثبات مما قام به المفكرون المسلمون في أبحاثهم المتنوعة ، وقد تعددت اتجاهاتهم من الناحية المنهجية في كتبهم الأصولية ، وكذلك داخل مؤلفاتهم في البحث والمناظرة .

(٢) راجع كتابنا العباس بن عبد المطلب ساقي الحرمين حيث ذكرت بعض الجوانب وتمت إذاعة الكتاب في حلقات بإذاعة القرآن الكريم في برنامج مع الصحابة وكان ذلك في أواخر عام ٢٠٠٩م .

(٣) لمزيد من التفاصيل راجع كتابنا سعد بن عبادة زعيم الخزرج ، وحامل راية رسول الله ، والكتاب تمت إذاعته بإذاعة القرآن الكريم في برنامج مع الصحابة في أوائل عام ٢٠٠٩م.

(٤) راجع للشيخ أبو الفتح محمد بن علي العلوي التصوف الطريق إلى الله ص ١١١/١١٩ وكذلك للشيخ العلامة نور الدين بن سعيد الهمذاني ، التصوف الإسلامي ص ١٢١/١٢٥ .

شرعي ، لكنه ربما لا يقنع الآخرين الذين يرفضون هذا الاتجاه ، ومن ثم يكون الرأي مطروحاً للأخذ به ، أو التخلي عنه .

وعندي أنه لو كان أمر الخرقة قد قام في حياة الرسول ﷺ بما فيه من استفاضة فربما تمت لتمت إذاعته ، واتسع انتشاره ،[١] وربما لو استعملت حال حياة الرسول ﷺ لاعتبر من السنن العملية ، أو من السنن التقريرية .

على أساس أن السنة النبوية هي كل ما أثر عن النبي ﷺ من قول أو فعل،أو تقرير أو صفة حقيقة، أو حكما ، أو كان خصوصية من خصوصيات رسول الله صلى الله عليه وسلم [٢]. ومن ثم يبقى الرأي مطروحاً للمناقشة..

الرأي الثاني : أن الخرقة ظهرت في عهد الخلفاء الراشدين الأربعة ، رضي الله عنهم أجمعين : ويذهب أصحاب هذا الرأي إلى أن أول ظهور لها كان في حياة الصديق رضي الله عنه ، أثناء بعث جيش أسامة بن زيد ، حيث كانت عمليات الارتداد عن الإسلام آخذة في الامتداد ، وكان المجاهدون يقومون بردها بغرض تنفيذ شرع الله تعالى والتمكين لدين الله في الأرض ، وقد وقع الكثيرون من الناس في ضوائق عديدة ، ومن ثم استخدموا الخرق ، وكانت أول الأمر للرجال وحدهم[٣] .

بل أن هذه الرأي اعتبره أصحابه قائماً على أصول شرعية ، لأن موافقة الصحابة الأجلاء على قبوله وفيهم الخلفاء الراشدون ، يؤكد أن التاريخ لبسها قديم ، والدليل صحيح ، والاتجاه المعول عليه له نصيب كبير من القبول وقد

---

(١) وجود الفعل حال حياة الرسول ﷺ يمثل سنة تقريرية إذا لم يكن الرسول قد فعله ، ولكنه فعل بحضرته الشريفة ولم يرفضه أو ينهي عنه .

(٢) راجع كتابنا الدرة النيرة في الدفاع عن السنة المطهرة ، الجزء الأول ، ص ١٧ ، وكتابنا التعصب في فهم السنة بين الفرض والرفض ، ص ١٥ .

(٣) راجع للأستاذ / فوزي محمد الغمري : التصوف والصوفية التاريخ والحركة ، ص ١٧٧ / ١٨٥ ، ط الدار العربية ص ١٩٤٥.

وافقهم على هذا الرأي بعض من الصوفية أنفسهم[١].

يقرر الشيخ محمد العجمي أن الخرقة وإن لم تكن موجودة في زمان الرسول ﷺ وحال حياته فإنها قد ظهرت في حياة الخلفاء الراشدين كباقي الأمور المستجدة ، وقد نبه الرسول ﷺ إلى صحة ما يقره الخلفاء الراشدون وسلامته في قوله ﷺ عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجز [٢].

كما يقررون أن هناك العديد مما استحدث حال حياة الخلفاء الراشدين ، وتم إقرار الناس عليه ومنه لبس الخرقة سواء أكانت مرقعة أم غير مرقعة ، وسواء اتخذت الخرق كلها من لون واحد أم لم تتخذ ، المهم أنها ظهرت على أنها ثياب مخصوصة لطائفة الفقراء وهذا شأنهم ، وتلك من أمورهم ، ولم يمانع الخلفاء الراشدون فيها ، كما لم يعترضوا عليها[٣].

على أن هذا الرأي بقدر ما حاول أصحابه ممارسة نوع من الضغط العقلي حتى يستجيب المتلقي لأخبارهم ، وبالرغم من أنهم حشدوا له كل ما أمكنهم من مظاهر وأدلة ، إلا أنه تبقى معه بعض الجوانب تستدعي الذهن الواعي للمناقشة ، ومنها :

أ ـ أن جيش أسامة بن زيد رضي الله تعالى عنه كان في حال حياة الرسول ﷺ ، وقد تم الإعداد له والتجهيز قبل انتقال الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى ، ثم تمت عمليات التسيير له بعد انتقال الرسول ﷺ للرفيق

---

(١) مطارحة الرأي بمثله مما يحقق العديد من النتائج ، إذا كان الجدل محموداً ، وهي من سنن الله تعالى في خلقه ، أما إذا كان الجدل مذموماً ، فإن الأمر يختلف تماماً راجع كتابنا التفكير الإنساني أصوله ومستوياته ص ١١٣ .

(٢) الشيخ محمد بن محمود بن علي العجمي التصوف الإسلامي والرحلة الإيمانية ، ص ١٧٧/ ١٨٥ .

(٣) راجع للأستاذ فوزي عبد العظيم الدليل ـ التصوف الإسلامي مصادره ومظاهره ، ص ٩٥ /٩٦ ط دار التقوى سنة ١٩٣٥م .

الأعلى وبالتالي فلم يكن في الصحابة من هو موجود بالمدينة ، حتى يطلع على أحوال الناس ، ويرى الفقراء وهم في خرق،إذ كان الجميع قد ذهب لميادين الجهاد[١] عدا القلة القليل التي بقيت في المدينة بأمر من سيدنا أبي بكر نفسه .

ب ــ أن أصحاب هذا الرأي يعترفون بعدم وجودها حال حياة الرسول ﷺ ، وهذا إقرار منهم بأنها مستحدثة ، لكن ماذا هم قائلون في الحديث إياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار[٢] .

ج ــ أن جميع الأخبار التي اعتمد عليها الرأي فظنونه كما هي واقعة في نطاق المرجوح ، إذ لم يكن أمر الصوفية بالمعنى الفني قد ظهر لهم وجود على أرض الواقع ، والمعلوم أنه إذا انتفى وجود السبب من أصله،فقد انتفى وجود المترتب عليه،ومن ثم تكون عملية لبس الخرقة مسألة مستحدثة بعد زمن الخلفاء الراشدين على أقل تقدير[٣]. من ثم بات على أصحاب هذا الرأي المسارعة لتقديم أدلة جديدة ، تنهض معهم وتعضد موقفهم ، أو يبقى الأمر على ما هو عليه مجرد احتمالات واردة ولا يوجد دليل عليها.

الرأي الثالث : أن الخرقة ظهرت في أوائل عهد التابعين :

يذهب أصحاب هذا الرأي إلى أن الخرقة الصوفية كانت موجودة منذ زمن بعيد في حالات فردية، ولم تأخذ الصيغة الجماعية إلا في عهود قيادة التابعين لتجديد الفكر الإسلامي ، أو أن العمليات العلمية التي قام بها الحسن

---

(١) لمعرفة ما يتعلق بجيش سيدنا أسامة من الناحية التفصيلية ، راجع للدكتور عبد الفتاح تحد شحاته ، تاريخ الأمة العربية ـ الخلفاء الراشدون ، ج ١ ص ٩٥ / ١١٢ .

(٢) يمكن اعتبار بعض جزئيات الحديث داخلة في المنطق الصوري من الناحية التوظيفية والمنطق الأصولي من الناحية التحليلية ، فنقول كل بدعة في النار ، وذلك يتوفر بعد حذف الحد الأوسط على ما ذكره أهل العلم في المنطق الصوري .

(٣) هذه الجوانب من المناقشة مما يفرضها العقل ، إذ ليس من المعقول أن يتم استقبال الآراء والأفكار من غير فهم لها ، أو مناقشة ، لأن ذلك مما لا يناسب العقلية العلمية.

البصري، وأبو حنيفة ، وعلماء الفقه والأصول قد أفرزت نوعاً من الخبرات، نتج عنها ظهور الخرقة في الناحية الجماعية[١] .

كما يعتقدون أن الحركة العقلية التي شجع بنو أمية على قيامها سمحت بالإعلان عن الخرقة كمظهر سلوكي لجماعة بذاتها ، كانوا أول أمرهم من أبناء السبيل ، الذين انقطعت بهم الأسباب ، فساحوا في الأرض طلباً للرزق من ناحية ، والدعوة إلى الله تعالى من ناحية ثانية ، فاتخذوا هذه الخرق لباساً لهم حتى تكون علامة عليهم[٢].

في نفس الوقت فإن هؤلاء يذكرون ما قام به خلفاء بني أمية وأمرائهم من تشجيع العلماء والفقهاء ، ومقاومة الحركات المناهضة ، وقد نتج عن هذا وجود نوع من الاختلال البيئي والمجتمعي فظهرت هذه الطوائف التي اتخذت الخرقة مظهراً لها، ثم تطورت إلى أن صارت مظهراً أساسياً،وعلامة مميزة دالة على طائفة بذاتها[٣] .

غير أن العديد من أنصار ذات الرأي أرجعوا تاريخ ظهور الخرقة في البيئة الإسلامية لأول خلافة سيدنا معاوية رضي الله عنه ، وإنها بدأت في الإعلان عن نفسها كزي خاص لبعض العلماء الزهاد .

وكان بعضهم من الفقهاء الذين أثروا الآخرة على الدنيا، وقد رأوا المظالم تأتي كقطع الليل البهيم ، فأرادوا الانعزال عن الحياة العامة كما قرروا عدم المشاركة في الأنماط الحياتية ، واتخذوا لأنفسهم الخرق ذات اللون الأزرق

---

(١) راجع للشيخ عبد اللطيف نصار محمود الهادي ، الحركة العاقلة في التصوف الإسلامي ، ص ٨١ / ٨٢ .

(٢) راجع للشيخ على بن محمد الرواس ـ المظاهر الصوفية والحركة العقلية ، ص ١٨٧ / ١٨٨ وهو هنا يركز على جملة من القضايا الارتباطية التي يمكن التعويل عليها في العطاء الصوفي من الناحية النظرية .

(٣) راجع للشيخ صبري محمد حسن الأنطاكي الطرق والطوائف الصوفية ، ج ٢ ص ١٧٧ / ١٧٩ ، ولست أدري ما العلاقة بين تشجيع خلفاء بني أمية في طلب العلم ، وظهور هذه الحركات حسب ما ذهب إليه ذات الرأي .

التي باتت تميزهم عن غيرهم[١] .

مما سلف بيانه اتضح أن هذا الرأي يرجع تاريخ ظهور الخرقة كلباس صوفي على جماعة بذاتها ، إلى الحركة العقلية ، أو الحركة السياسية ، ولم يتبين الموقف القائم على الوعي الداخلي، أو النصوص والوقائع التي يمكن أن تسهم في وجود الخرقة كمظهر ديني أو اجتماعي ، فضلاً عن أن يكون لبسها مذهبياً أو صوفياً .

غير أن مما يلفت النظر إلى طبيعة ذات الرأي وما حمله من نتائج ، أن مقدماته فيها الكثير من الاضطراب الذي لحق بالنتائج أيضاً ، ومن ثم أحاول فض بعض الأغلاق القائمة فيه من خلال ما يلي :

أ ــ اعتماد هذا الرأي على وجود حالات فردية ثانوية ، ظهرت فيها الخرقة منذ زمن بعيد، دون تحديد لذلك التاريخ، وفيه نوع من التجهيل ، لأن الحدث لابد له من زمان ومكان وأشخاص ، فإذا لم تظهر هذه الجوانب يتحول الأمر إلى نوع من الكلام المرسل الذي لا دليل عليه ، ومثل ما نحن فيه لا يعتمد على الظنون والخيالات ، لأن القرآن الكريم بين أن المعيار في القبول لأي رأي هو البرهان ، قال تعالى : " أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ "[٢] .

ب ــ أن الرأي قام على شبه اعتبروها مسلمة في أن بني أمية خلال دولتهم في المشرق كانوا يشجعون الحركة العقلية ، والسؤال الآن ما علاقة الحركة العقلية أو الفقهية بالناحية الظاهرية الصورية ، وما هو الرابط بين هذه القضايا جميعاً ، وبخاصة أن التيار العقلي قد يرفض الاتجاه الصوفي ، فهل

---

(١) راجع للأستاذ أمين محمود ، التصوف الإسلامي والحركات الداخلية ، ص ١١٤ / ١١٥ ط دار الخلافة ، ١٣١٩هـ .

(٢) سورة النمل الآية ٦٤ والأمر الذي يقوم على غير برهان ، يعتمد على مجرد التسليم فإن كان له قبول قبل وإلا أمكن رده .

يشجع هذا الرأي من يسعون لتأكيده ، وفرض سلطانه على الآخرين ، أم إنه سيحاول القضاء عليه ، أو على الأقــل تحجيم موقفه[١].

ج ـ إرجاع تاريخ ظهور لبس الخرق في المجتمع المسلم إلى أوائل خلافــة سيدنا معاوية فيه نوع من الجرأة ، لأن هذه الولاية لبني أمية امتحنت بالكثير من أوجه الإرهاب ، ثم تحولت إلى عنف ، وبالتالي لم يكــن مســموحاً لأي مظهر غير مألوف أن يعبر عن نفسه ، وهذا ما تؤكده الوقائع التاريخيــة ، ومن ثم فالدليل الذي ذكروه حول تاريخ ظهور الخرقة يحتاج المراجعة[٢] .

الرأي الرابع : الخرقة مظهر لفكر خارجي :

عماد أصحاب هذا الاتجاه ، يقوم على أن الذين كانوا يلبسون الخرق هم مجموعة من الوثنيين ، أصحاب الديانات الوضعية ، وقد أخذها عنهم اليهود والنصاري ، ثم توارثها من بعدهم طوائف من المسلمين ، حيث سعوا لتقليد هؤلاء ، إذ كانوا يرون فيهم مظاهر الصلاح والتقوى بجانب التمسك بالــدين الذي يعتقدون[٣].

ويسير في هذا الاتجاه أغلب المستشرقين الذين تحكمت فيهم عقدهم النفسية والاجتماعية، وفرضت عليهم الطعن في كل ما هو إسلامي مع السعي لإبعاده من نصوص الدين مهما كان قيامه فيها ، واعتماده عليها ، لأن ذلــك مــن غاياتهم الأساسية.

وقد نقل الكثيرون عنهم هذه الأطروحات غير الصحيحة على أنها نتائج

---

(١) راجع كتابنا المدخل التام لعلم الكلام ، لترى موقف بني أمية من الحركة العقلية ، وكتابنا المدخل لدراسة الحكمة الإسلامية ص ٥١ /٥٧ تقدم الفلسفة الإسلامية في المشرق وتأخرها في المغرب لتعرف دور بني أمية في الحركة العقلية وأيها التي كانوا يشجعون ولماذا .

(٢) كل رأي لا تقوم له أدلة يعتبر مجرد ظن أوجه نكرانه أكثر من طرائق قبوله ، راجع كتابنا التفكير الإنساني أصوله ومستوياته ص ١١٧ ، وكتابنا مناهج البحث بين التقليد والتجديد ص ١٩٥ .

(٣) راجع لجورج فيليب الشرق الإسلامي دياناته وسلوكياته ، ص ٩٥ ترجمة حنان فوزي مراجعة صبري خالد .

بحثية موضوعية ، وهي بعيدة تماماً عن كل اتجاه موضوعي[١]، كما يذكر هؤلاء أن التصوف الإسلامي نفسه دليل على وجود هذه الأفكار داخل البيئة الإسلامية، وقد عرف ذلك في المناهج البحثية باسم قضية المصدر ، التي تم التعرض إليها ، والتعرف عليها في كثير من الجوانب ، وقد أكدت كلهـا أن التصوفِ الإسلامي قائم على الكتاب والسنة وإجماع الأمة ، ولا علاقة لـه بأي مصدر آخر.[٢]

والذي لا يمكن تجاهله أن هذا الرأي قد أعلن عن خصومة مسبقة للتصوف الإسلامي كله ، ومن ثم فقد ثقة الباحث الموضوعي في اعتباره يمثل جانبـاً موضوعياً ، كما فقد الثقة في الاعتماد عليه من الناحية العلمية أو التاريخية ، وكل ما يتعلق بهذا الشأن يجيء في دائرة الاتهام ، وهو أمر غير مقبول .

الرأي الخامس : أنها مصاحبة للوجود الشيعي :

يرى أصحاب هذا الرأي أن الخرقة التي ظهرت لدى الصوفية تعبر عن مظهر فيه كثير من الحزن والكآبة ، التي بدا عليها الشيعة بعد مقتل الإمـام علي كرم الله وجهه ، وأنها قد جاءتهم من الفرس الذين كانوا يحزنون لمـا أصابهم ، ويظهرون ذلك من خلال ملابس يقصرون أطرافها أو يطيلون فيها ومن ثم فبعد استشهاد الإمام على بن أبي طالب ظهرت الخرقة لديهم كعلامة من علامات الحزن ، وفقد الثقة في الآخر ، بجانب الزهد في الدنيا[٣] .

كما يعلنون أن الخرقة كانت عبارة عن ثوب غير صقيل متشح بالسواد ، خال من العلامات ، يلبس مقلوباً للرجال والنساء والأطفال إظهاراً للحـزن

---

(١) راجع كتابنا: تقييم المناهج الاستشراقية الأمريكية في دراسة السيرة النبوية ج ٢ ص ٢٥ / ٢٩.
(٢) راجع كتابنا أوراق مطوية في التصوف والصوفية ، وكتابنا المقدمات في التصوف الإسلامي حيث تناولت المصدر الصوفي ، وناقشنا الآراء في المسألة ، وللدكتورة ناهد يوسف رزق : مصادر التصوف الإسلامي .
(٣) راجع لوليم فيشر الحركات الشيعية وأثرها على التصوف الإسلامي ، ص ٣٥ ترجمة صباح العربي ، مراجعة أمل عبد المنعم .

الشديد على مقتل على بن أبي طالب ــ كرم الله وجهه ــ فلما قتل ابنه الحسين باتت العملية كأنه السواد ، إذ دخل في أعماق هؤلاء أن الظلم لأهل بيت محمد سيدوم، وهذا مما يستوجب الحزن ، ومن هنا كانت الخرقة مظهر حزن متواصل ، وفقر دائم لدى الشيعة(١) .

في نفس الوقت فإنهم لم يفتهم القول بأن لبس الخرقة وإن كان أمره نوعاً من تقليد الشيعة للفرس،إلا أنها ما لبثت أن تحولت إلى مظهر صوفي خالص حرص الكثيرون على التزامه والقيام به ، مع أنه لا أصل له في دين محمد ، الذي حث على النظافة ، مع التخلي عن التقليد ، وبناء عليه فالتصوف الإسلامي ليست له تلك الصفة.(٢)

لقد اعتمد هؤلاء في تشخيص تاريخ الخرقة ، وتعليل لبسها ، على مجرد أفكار سبقت لهم من عقول سابقيهم دعاة الاستشراق من ناحية ، وما استطاعوا التعرف عليه من أقوال خصوم التصوف من ناحية ثانية ، وبالتالي باتت الخرقة عندهم عملاً غير مقبول ، مع أن هذا الرأي يمكن مراجعة جزئياته ، ومناقشتها من خلال ما يلي :

أ ــ اعتمد الرأي أقوال خصوم التصوف ، وبخاصة الذين يرجعون المصدر في التصوف الإسلامي إلى غير الأصول الإسلامية ، ومن ثم شرعوا للبحث عن مصدر غير إسلامي، ينسبون إليه ظهور الخرقة أيضاً،ولم يطل بحثهم إذ وجدوا ضالتهم في الأثر الفارسي، مع أنه لم يظهر في الفرس لباس الخرقة(٣)

---

(١) راجع لجورج فيدر ـ التصوف الإسلامي والتنسك الفارسي ص ٧١ ، ترجمة على عبد القادر ، وراجع للدكتورة إيمان عزب : النزعة التعصبية لدى المستشرق حتى ص ١٩٥ .

(٢) راجع لإدوارد بوتان التصوف الإسلامي والمصادر الأخرى ص ٥٣ ، ٥٤ ترجمة الدكتور على صبري ، مراجعة الأستاذ فخري زكي .

(٣) الذي ظهر في بلاد الفرس قد يكون نوعاً من اللباس الذي كان لملوك ينعمون به على أفراد الشعب في المناسبات التي يرونها جديرة بهذا الإنعام ، راجع الكتاب المقدس / العهد القديم ، سفر استير لترى ذلك بوضوح .

ب ـ حاولوا التأكيد أن الخرقة أصلها فارسي ، فإذا تصوروا أنهم نجحوا في ذلك ، سعوا للتأكيد على أن كافة المظاهر الصوفية مأخوذة من أنماط فكرية غريبة عن المجتمع ، والنصوص الإسلامية ، وبالتالي تدخل في نطاق البدع التي يجب التخلي عنها(١) .

ج ـ وقعوا في خداع الحواس من حيث أنهم لما رأوا بعض من يلبسون الخرقة لا يتكلمون العربية ، فظنوا أنها أصيلة عندهم ، ولم يدركوا سبق وجودها في أفراد المسلمين منذ زمن البعثة المباركة ، على أنها من مظاهر الزهد والتقرب إلى الله تعالى ، وكان لسان حالهم يقول : " المرء بأكبريه عقله وجنانه ، لا بأصغريه ، ثوبه ولسانه(٢) .

د ـ أن القول بإرجاع الخرقة لثقافات أو سلوكيات غير مشروعة، أو ليس لها وجود سابق في الفكر الإسلامي ، أو الواقع الإسلامي ، فيه الكثير من الجرأة على الحق ، والجبن المقنع في مواجهة الحقيقة ، ومثل ذلك يحكم على صاحبه بأنه تخلى عن مسئوليته العلمية ، وتنازل عن مكانته التي كان عليه التمسك بها ، والمحافظة عليها .

الرأي السادس : أنها ظهرت مع التصوف التأليفي :

يعتقد أصحاب هذا الرأي أن التصوف الإسلامي له بدايتان :

احداهما : عملية وهي التي يمكن الرجوع بها إلى حال حياة الرسولﷺ ، حيث كان الصفاء والزهد مما يجري في كل عقل مسلم ، وقد برزت مظاهر ذلك كله حال حياة الرسول ﷺ لا في شخص الرسول فحسب ، وإنما في كل صحابته الأجلاء ، وآل بيته الطاهرين ، وهي مسألة كل الشواهد قامت لها ،

---

(١) لقد حققوا في ذلك بعض النجاح، بدليل أننا نسمع من يتهم التصوف بأنه غير إسلامي مع أن النصوص التي قام عليها واردة في الكتاب والسنة وعليها إجماع الأمة .
(٢) راجع كتابنا حكم وأمثال باب الهمزة ص ٢٥ .

مؤكدة إياها دالة عليها[١].

لقد كان التصوف في هذه الفترة عملياً لا يحتاج إلى كتاب يدرس ، ونظريات تتقرر ، وإنما كان السلوك والممارسة لهما الدور الهام، بحيث يمكن القول بأن كافة المسلمين كانوا صوفية بمعنى تصفية القلب والعقل والجوارح وتسليمها لله جل علاه ، وهذا المعنى ورد فيه التصوف بالمعنى العلمي المباشر على الناحية المشروعة[٢]. وهذه البداية جمعت كل أفراد المجتمع الإسلامي الذين لم يشغلهم عن الله تعالى شاغل ، بل كان شاغلهم الأول والأخير هو الله سبحانه وتعالى ، وقد أنزل الله في كثير منهم آيات تتلى إلى يوم القيامة منها قوله تعالى: "فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى"[٣].

ومنها قوله تعالى : " وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلَا شُكُورًا إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا

---

(١) راجع كتابنا المقدمات في التصوف الإسلامي أثناء الحديث عن المنقطع والموصول في تصوف سيدنا الرسول ، وراجع كتابنا : أبجديات التصوف الإسلامي أثناء الحديث عن زهد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(٢) راجع كتابنا أنسام حية في الأفكار الصوفية ، وراجع للدكتور محمد مصطفى حلمي ، الحياة الروحية في الإسلام ، وابن الفارض : الحب الإلهي .

(٣) سورة الليل الآيات ٥ / ٧ ، وقد نزلت في أبي بكر الصديق ومن على شاكلته إذ العبرة هنا بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، وراجع أسباب النزول للواحدي .

كَبِيرًا عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاء وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا".(١)

ثانيتهما : نظرية عملية تأليفية :

وهي التي يمكن الرجوع بها إلى أواخر القرن الأول الهجري حيث ظهر الحسن البصري ، وجمع كبير ممن عرفوا الزهد العملي والعلمي ، بجانب التأليف فيه ، والكتابة حوله ، ثم جاء من بعدهم مع أوائل المائة الثانية فقعدوا له القواعد ، ووضعوا الرسوم ، وبات التصوف معهم عملياً ونظرياً ، كما ظهرت عمليات التأليف فيه من الناحية التطبيقية(٢) .

لقد ظهرت الكتابات الصوفية مقترنة بأولئك الأعلام الذين خبروا التجربة الصوفية ، وباتت لهم عملاً ذاتياً ، كما تعرضوا لكافة الألوان العملية من النسك والزهد والعبادة ، وكانوا في ذلك كله قادة،إذ كانت مطالع القرن الثاني الهجري هي المعلم الواضح لظهور التصوف الإسلامي في مظهر عام ، يمكنه مخاطبة الرأي العام ويقف متساوياً مع كل من الفقه والحديث وباقي العلوم الإسلامية(٣) .

ويعتقد أصحاب هذا الاتجاه أن الخرقة ظهرت مع البدايات الأولى للتصوف التأليفي حيث انتشرت الجماعات ، والطرق الصوفية ، وباتت بحاجة إلى من يكشف عنها أو يعرف بها ، وكانت الخرقة من المظاهر الأساسية التي أزكت في نفوس الصوفية الرغبة في الزهد وأيقظت بداخلهم الأمل ، بحيث

---

(١) سورة الإنسان الآيات ٨ / ٢٢ ، ويرى أهل العلم أنها نزلت في الإمام علي بن أبي طالب وفاطمة الزهراء ومن كان على شاكلتهما .

(٢) راجع كتابنا الموسوعة الغزالية في التصوف والصوفية ، الجزء الأول ، ص ١٣٧ وما بعدها .

(٣) راجع للدكتور على سامي النشار نشأة التفكير الفلسفي في الإسلام الجزء الثالث نظراً لارتباطه بالتصوف وعلى كثيرمن الآراء فيه بعض الانتقادات والكثير من النقودات سوف نشير إليها فيما بعد إن شاء الله تعالى .

يتحقق على أيديهم الكثير من أوجه الخير ، والأكثر من دعائم الإصلاح[١].

على أن الاهتمام بالخرقة في تلك ، وإن يكن قد اتخذ مظهراً لطائفة بعينها ، إلا أنه ما لبث هذا المظهر أن تحول إلى شعار ورمز، ومن ثم أكد الكثيرون على أنها تعد من العلامات البارزة في ظهور التصوف العملي ، المقترن بالعلمي ، في وقت كانت الآراء كلها بعيدة عن قبول علم يمكن أن يسمى علم التصوف، فضلاً أن يكون ذلك علماً على طائفة بذاتها ، أو جماعة بأفرادها[٢] .

وبعيداً عن الاشتغال بتعداد الآراء في تاريخ ظهور الخرقة ، فإن هذا الرأي قد غيروا معه بعض أنواع الجدة ، والوجاهة ، كما قد تغرد بين جنباته بلابل المحبة والمودة ، لكنها قد لا تقنع المخالف ، بأنها ذات صوت شجي ، أو أن وقعها له تأثير كبير في النفوس والعقول ، أما لماذا ، فلما يلي :

أ ــ أن التصوف التأليفي كان الغرض منه دفع آراء خصوم التصوف، الذين اتخذوا مواقف عدائية من الحركة الروحية في الإسلام ، اعتقاداً منهم أن ما فيه سوى شطحات وأوهام وتخيلات ، يجب أن ينحي عنها سلوك المسلم ، فضلاً عن عقله وقلبه ووعيه ، والخرقة ليست من هذا الباب، فكيف يدعى ظهورها مقارناً له[٣].

ومما يؤسف له انتشار هذه الخصومات في محيط الأمة المسلمة تحت مسمى المحافظة على الدين ، حتى لكأن أحد الفريقين على ضلال مبين وذلك

---

(١) هذه النشأة تأتي غالباً غير مقترنة بأسماء مشهورة ، وإنما تأتي الدراسات حولها وفيها الكثير من الغموض ، أو على الأقل ليست واضحة بدرجة كبيرة ، وراجع للشيخ خالد عبد العظيم المتولي: التصوف بين الأنصار والخصوم ، ص ٢١٥ / ٢٢٧ .

(٢) راجع كتابنا المقدمات حيث ذكرت ما يمكن التعويل عليه في هذا الخصوص من الآراء ذات الأدلة المقبولة ، والشواهد الحياتية ، بل والاستشهادات التي لجأ إليها الصوفية الذين يعتد بهم .

(٣) هجمات خصوم التصوف لم تنقطع إلى اليوم ، لأن خصومه يتنوعون في ذواتهم ، وكذلك يعددون في اتجاهاتهم ، كما يتنوعون من ناحية أساليبهم .

من شأنه توسيع هوة الخلاف ، وتصعيد حدة التوتر ، مع أن الأصـــل هـــو التقارب لا التعادي ، والتلاقي لا التنافر[١].

ب ــ أن هذا الرأي فصل من ناحية البدايات الأولى للتصوف الإسلامي بين أمرين ، لكن ما هو المعول عليه في هذا الفصل، وبمعنى آخر ما هو المعيار أو المقياس الذي يؤكدون به أن التصوف في بدايات أمره ، لم يكـــن ســـوى عمليات صوفية لم تكن تحظى بإطلاق اسم التصوف عليها ، وإنه لـــم يكـــن معروفاً بهذا الاسم ، إنها جميعاً مجرد احتمالات تقوم في شـــبه ، وليســـت تحرسها أدلة .

ج ــ أن فكرة الأذواق والأشواق والمواجيد، وحالات السكر الرباني، والمحبة الرحمانية ، والغيبة عن الشهود، كانت لها مظاهر موجودة في حياة الصحابة والتابعين وقد دونت على ما هي عليه .[٢]

د ــ نقل أصحاب الطبقات الكثير عن الصوفية ، كما ذكروا البدايات التـــي كانت لهم ، والعمليات التي قاموا بها بما يؤكد أن التصوف التـــأليفي كـــان مقترناً بالتصوف العملي والنظري ، وإنما الذي تأخر هو التصوف التقعيدي الاصطلاحي ، والفرق بينها كبير جداً ، بل أن فيها العديد من الفوارق[٣].

هـــ ــ إحالة تاريخ ظهور الخرقة في المجتمع المسلم على بعض العمليـــات الظنية قد يكون مفيداً عند ما يعلق بأمر بعيد عن الأصول، أما إذا كان متعلقاً

---

(١) راجع كتابنا أنسام حيية في الأفكار الصوفية ، وكتابنا أوراق مطوية في التصوف والصوفية ، وكتابنا أبجديات التصوف الإسلامي .

(٢) زهد الرسول ﷺ وزهد الصديق ، والفاروق وعثمان وعلي بن أبي طالب وغيرهم ، وكان ذلك كله مدوناً عنهم ، وإلا فمن أين عرفناه ، ومن الذي حكى ذلك عنهم ، وراجع للمحب الطبري الرياض النضرة في مناقب العشرة ، الجزء الأول والجزء الثاني ، ترى فيه ما يتعلق بالعشرة المبشرين بالجنة على وجه يفيض حباً ومحبة .

(٣) راجع على سبيل المثال طبقات الصوفية للشيخ عبد الرحمن المسلمي ، والرسالة القشيرية للإمام القشيري ، ولوافح الأنوار للشعراني ، وكثير غيرهم قد تناولوا هذا الجانب بالعديد من الدراسات المعبرة .

بها فلابد فيه من ضبط القواعد بجانب المصادر الموثقة ، ومع هذا فللـــرأي وجاهته وجدته ، بما يجعله قريباً من القبول ، عند المقارنة بغيره .

الرأي الأخير الذي أراه :

إن الخرقة مظهر صوفي ، وعمل تربوي ، وتدريب يصلح لبعض النفوس كما أن لبسها قد يكون بمثابة الدواء ، الذي يعالج به مريض الكبر، فمن رأي فيها الخير الذي ينشده،أو المنهج الذي يوصله إلى النتيجة المرجوة في تهذيب وتأديب وإصلاح وتقويم ، فلا عليه أن يقوم به[١] ، كما أن جملة من السلف الصالح رضوان الله عليهم بعضهم كان يعرفها ويمارسها ، وبعضهم كانوا لا يعرفون الخرقة،ولا يلبسونها المريدين، ومن ثم فهي من المباحات التي يصح الأخذ بها ، إذا لم يتعلق بها ضرر ، ويأخذ بها إذا تعلقت بها المصلحة[٢].

يقول العلامة السهروردي : إن الخرقة أمرها بين، فمن لبسها فله مقصد صحيح ، وأصل من السنة ، وشاهد من الشرع ، ومن لم يلبسها أو لا يلبسها فله رأيه ، وله في ذلك مقصد صحيح ، وكل تصاريف المشايخ محمولة على السداد والصواب ، ولا تخلوا عن نية صالحة فيه ، والله تعالى ينفـــع بهـــم وبآثارهم إن شاء الله تعالى. [٣]

وسواء أكان تاريخ وجودها وظهورها منذ حياة الرســول ﷺ والخلفــاء الراشدين ، أم جاء بعد ذلك مع التابعين وعلماء المسلمين ، فإن الذي يعــول عليه وجود أصل شرعي لها ، وفوائد مرتبطة بها، وأهداف أمكن من خلالها تحقيقها ذلك ما تعول عليه ، وستظهر أثاره فيما يأتي من سطور إن شاء الله.

---

(١) ذلك راجع لطبيعة المصالح المرسلة ، والحكم التي ترتبط بها ، وإذا ارتبطت بها مصلحة متحققة تم القيام بها ، وإذا لم ترتبط بها مصلحة فذلك شأن آخر .

(٢) من القواعد الأصولية أن الشريعة تدور مع المصلحة ، فإذا وجدت وتحققت فقد وجبت، وإن لم توجد ولم تصح لم تجب .

(٣) العلامة السهروردي : عوارف المعارف ص ٩٨ ، وهو رأي وجيه وجواب يمكن الرجوع إليه عندما تشتد المنازعة بين ذوي الاتجاهات المختلفة .

رابعاً : دليلها :

الدليل هو المرشد الذي يقع به التعرف على الشيء من ناحية الوجود أو العدم ، الصدق أو الكذب ، الصحة أو الفساد، ولذا عرف في الاصطلاح بأنه ما يلزم من العلم به العلم بشيء آخر[١] ومن ثم اعتبر الدليل علامة مميزة على المطلوب ، وهو بالنسبة للخرقة أنواع :

الأول : الدليل النقلي[٢] : من القرآن الكريم قوله تعالى : "يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىَ ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ "[٣] وقوله تعالى : "وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ"[٤] .

ومحل الشاهد أن اللباس هو ما يستر العورة ، ويدفع الحر والبرد ، كما يحقق للفرد الواعي المصالح المشروعة ، وكلما كان هذا اللباس بعيداً عن الخيلاء ، ومدعاة الكبر ، فإنه يكون ألين لصاحبه ، وأرفق على لابسه .

ومن السنة النبوية المطهرة قوله ﷺ : " إن الله لا ينظر إلى صوركم وأجسادكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم "، وقوله ﷺ : " رب أشعث أغبر ذي طريق لا يعبأ به ، لو أقسم على الله لأبره[٥] .

وذكر الشيخ السهروردي : إن إبراهيم الخليل عليه السلام حين ألقي في النار ، جرد من ثيابه ، وقذف في النار عرياناً ، فأتاه جبريل عليه السلام بقميص من حرير الجنة ، وألبسه إياه ، وظل هذا القميص عند إبراهيم عليه السلام .

---

(١) راجع للسيد الشريف الجرجاني : التعريفات باب الدال ص ٩٣ ، ط الحلبي .

(٢) هو ما كانت مقدماته كلها ونتائجه نقلية ، واردة في الكتاب والسنة وهما النقل المعصوم.

(٣) سورة الأعراف الآية ٣٦ .

(٤) سورة البقرة الآية ١٩٧ .

(٥) الأحاديث في هذا الباب كثيرة ، ويمكن الرجوع إليها في مصادرها .

فلما مات ورثه إسحاق ، فلما مات ، ورثه يعقوب ، فجعل يعقوب عليه السلام ذلك القميص في تعويذ(١) ، وجعله في عنق يوسف ، فكان لا يفارقه ، ولما ألقي في البئر عرياناً جاءه جبريل عليه السلام وكان عليه ذلك التعويذ ، فأخرج القميص منه وألبسه إياه(٢) .

وبالتالي فالخرقة دليلها قائم عندهم على ناحية النقل كما ذكرت ، بجانب أنها قد تكون رمز لما يجب أن تكون عليه القيم الإيجابية ، التي لا يقع لها التأثر بالمظهر من اللباس، أو الرياش ، أو ما شابه ذلك، وهذا كله مما يدرب نفس الفرد الواعي على التواضع ويصرفها عن الكبر والغرور(٣) .

يقول العلامة السهروردي : وجه لبس الخرقة من السنة ما حدثت به أم خالد بنت خالد،قالت أتي النبي عليه السلام بثياب فيها خميصة سوداء صغيرة فقال صلى الله عليه وسلم : من ترون أكسو هذه ؟ فسكت القوم ، فقال رسول الله ﷺ أئتوني بأم خالد ، قالت فأتي بي فألبسنيها بيده ، فقال أبلي وأخلقي ، يقولها مرتين(٤) وجعل ينظر إلى علم في الخميصة أصفر وأحمر، ويقول يا أم خالد هذا سناه ، والسناه ، هو الحسَن بلسان الحبشة (٥) .

ومن دليل العقل ، أن لبس الخرقة فيه نوع من الارتباط بين الشيخ والمريد ، من حيث أن الشيخ يريد التأكد من قدرته ، على توجيه تلميذه والتحكم في نفسه ، ومن حيث إن أستاذه يريد إدراك قدرة المريد على إتباع الأوامر ، واجتناب النواهي ، بجانب كيفية التصرف في الأمور المطروحة

---

(١) هو المكان الذي يصان فيه الشيء ، ومعنى تعويذة به صيانته من خلاله ، مع المحافظة عليه ، بحيث لا يقع عليه شيء مما يمكن أن يقع على غيره .
(٢) العلامة السهروردي ـ عوارف المعارف ، ص ٩٧ .
(٣) فكرة ارتباط الخرقة بالمظهر أو الاتجاه الرمزي لدى من الشواهد عليها الكثير ، وبخاصة ما يرد بالنسبة للمؤلفات الصوفية .
(٤) ابلي واخلقي ، دعاء فيه معنى طول العمر ، وبقاء الصحة ، واستمرار الحال على أحسن ما يكون ، وهذا من أوجه امتياز الرسول ﷺ .
(٥) راجع للعلامة السهروردي عوارف المعارف ، ص ٩٣ .

عليه ، أو التي يمكن أن تطرح[١] .

يقول الشيخ على العقاد: إن لبس الخرقة دل عليه دليل العقل من ناحية رغبة الشيخ في اختبار قدرات المريدين ، حتى إذا قبلوها على رضي منهم كان دخولهم للطريق في مأمن ، أما إذا قبلوها على مضض أو كره ، فإن صرفهم عن الطريق يكون هو المأمن[٢] .

ومن المصالح العامة ، ما يذكره السهروردي من إن لبس الخرقة فيه ارتباط بين الشيخ وبين المريد ، وتحكيم من المريد للشيخ في نفسه ، مع تسليم له وتفويض ، والتحكيم سائغ في الشرع لمصالح دنيوية ، فماذا ينكر المنكر للبس الخرقة على طالب صادق في طلبه ، يتقصد شيخاً بحسن ظن وعقيدة ، يحكمه في نفسه لمصالح دينه[٣]. كما يرشده ويهديه، ويعرفه طريق المواجيد ، ويبصره بآفات النفوس ، وفساد الأعمال ، ومداخل العدو، فيسلم نفسه إليه، ويستسلم لرأيه ، واستصوابه في جميع تصاريفه ، فيلبسه الخرقة ، إظهاراً للتصرف فيه[٤] . من ثم يكون لبس الخرقة علامة التفويض والتسليم المريد من ودخوله في حكم الشيخ دخول في حكم الله تعالى ، وحكم رسوله ، وإحياء سنة المبايعة مع رسول الله ﷺ [٥]، وذلك مما يعبر عن كون الخرقة ذات مستند ديني لدى الصوفية وما يتعلق بها من مصالح على أساس أن الشريعة ما جاءت إلا لمصالح العباد .

---

(١) هذا الدليل العقلي يمكن قبوله،لأن العقول لا تمنعه بل تقبله من ناحيتيه على ما هو ظاهر.

(٢) راجع للشيخ على سعد بن محمد العقاد : التصوف طريقه ورياضه ، ص ١٣٧ / ١٣٨ الطبعة الأولى ١٩١٧م .

(٣) هذا من وظائف الشيخ كما أنه أحد واجباته الأساسية ، ولذا كان حرص الصوفية على الشيخ المربي المعلم كبيراً ، وآمل أن تقوم رسالة أكاديمية حول دور الشيخ في التربية الصوفية.

(٤) كان قبول المريد لبس الخرقة فيه نوع من الإعلان عن توقيع عقد الاستسلام للشيخ وقبول كل ما يمليه عليه .

(٥) راجع للعلامة السهروردي : عوارف المعارف ص ٩٢ ، وسنة المبايعة قائمة في إطار النصوص الشرعية .

خامساً : أنواعها :

يذهب الصوفية إلى أن الخرقة من حيث هي لباس معين ، ورمز ثابت تتنوع إلى أنواع من أبرزها :

الأول : خرقة المظهر :

وهي التي يكون اللباس وحده معيارها ، كالحال مع خرق أهل الصفة ، إذ كان الواحد منهم يعيش فترة على عباءة واحدة ، قصيرة الأكمام ، كما هي قصيرة من ناحية الامتداد ، حتى أن الواحد منهم كان إذا نام ظهر جزء منه فإذا غطى رأسه انكشفت رجلاه ، وإذا غطى رجليه انكشفت رأسه(١) .

كما أن خرقة المظهر لا تتقيد بلون ، أو نوع ، وإنما قد تكون متعددة الألوان طبقاً لما هو متاح بالنسبة لمن يلبسها،وهذا مما شجع خصوم الصوفية على اتهامهم بالجنون أحياناً،من حيث إن خرقهم التي يلبسونها لا تصلح إلا للفقراء والمجانين(٢) .

وقد فاتهم أن هذا المظهر إنما يعبر عن نفس قوية ، قادرة على ضبط إيقاعات الحياة من حولها ، وتصرفها فيها تصرف الحكيم الواعي وفي ذات الوقت ، فإنها تعطي الإنسان فرصة مقاسمة الفقراء مشاعرهم ، مما يجعل المجتمع المسلم متحققاً بالتكافل الدافع للتكامل، وهي محمدة ومنقبة معاً.

الثاني : خرقة الإرادة :

وهي التي يقرر المريد الحقيقي لبسها باختياره حتى يدرب نفسه على ممارسة الأعمال المختلفة من خدمة الشيوخ ، ورعاية الأقران ، والتمسك بالأداء الجماعي ، دون أن يشعر ولو للحظة واحدة ، أنه في ذلك ممتحن ،

---

(١) راجع كتابنا أوراق مطوية في التصوف والصوفية ص ٣١٦ وراجع ما كتبناه حول الصفة مكانها وإعدادها وما يتعلق بها .

(٢) راجع لجيفر باور التصوف الإسلامي ومظاهره ص ٧٧ ترجمة محمد عادل الأكوع .

وإنما هو مكرم إن شاء الله تعالى ، ولسان حاله يقول :

إذا المرء لم يلبس ثياباً من التقى تجرد عرياناً ولو كان كاسيا[١]

في نفس الوقت فإن خرقة الإرادة ، بالنسبة للمريد الصادق محملة إليه بطيب من عرف الجنة ، لما ينشده من الاعتداد بالمحبة لله ، ويرى لبس الخرقة من عناية الله به ، وفضل من الله عليه [٢] .

إن خرقة الإرادة فيها شعور المريد أنه مقبل على الله تعالى ، وأن الأكفان في انتظاره ، وكما جاء للدنيا عرياناً ، حيث خرج من بطن أمه بلا ملابس ، فإنه يذهب للآخرة عرياناً ، ولن يلبس إلا ساتر العورة من عيون الناس ، وهذا في حد ذاته كاف لتدبير نفسه ، وصرفها عن الغرور والاستعلاء[٣].

وقديماً قال الحكيم :

ليس الجمال بأثواب تزيننا إن الجمال جمال العلم والأدب

ومما لاشك فيه أن خرقة الإرادة ، عمل يمارسه الإنسان الواعي بإرادته الحرة ، واختياره التام ، ومن ثم تنتفي فكرة الجبر والإكراه ، وهذا مما ننبه عليه، كما أنها غاية الشيوخ الذين يرون في قيام المريد بها نوعاً من الطاعة، وضرباً من صنوف الالتزام ، ومن ثم صارت معلماً من معالم مدرج المريد لدى الشيوخ[٤]، وبهذا تمتاز خرقة الإرادة عن خرقة المظهر طبقاً لما سلف.

الثالث : خرقة التبرك :

وهي التي يقوم بلبسها المتشبه بالمريد من باب التبرك بزي الصوفية ، فهو ليس صوفياً ، كما لم يلزمه أحد لبس الخرقة ، ولكنه يفعل ذلك من باب

---

(١) راجع للشيخ محمد علام : الفكر الصوفي واتجاهاته ، ص ١٤٣ / ١٤٥ .
(٢) العلامة السهروردي : عوارف المعارف ص ٩٧ .
(٣) من الواضح أن لبس الخرقة فيه فوائد كثيرة ، ومن ثم فهي بمثابة الدواء الوقائي ، ولبسها على ذات النحو من أساليب الطب الوقائي أيضاً .
(٤) راجع للشيخ محمد زكي نصار التصوف حقيقة وشريعة ص ١٩٥ ، ١٩٦ ، المطبعة العلية ١٣١٧هـ .

التقليد لهم ، وربما عن له أن يكون محباً ، والقاعدة إن من تشبه بقوم صار منهم ، وفي الأمثال يقولون :

تشبهوا بالرجال إن لم تكونوا مثلهم إن التشبه بالرجال عين الفلاح[١]

ومما لاشك فيه أن خرقة التبرك ، قد تشبه خرقة الإرادة في المظهر ، أو على الأقل يقع الشبه بينهما من الناحية الصورية الظاهرية، وليس الحقيقية نظراً لاختلاف المريد الحقيقي عن المتشبه[٢] ، وهذا مما لا يمكن إنكاره على ناحية من النواحي .

يقول العلامة السهروردي : إن خرقة التبرك يطلبها من كان مقصوده منها التبرك بزي القوم ، ومثل هذا لا يطالب بشرائط الصحبة ، بل يوصي بلزوم حدود الشرع ، ومخالطة هذه الطائفة ليعود عليه بركتهم ، ويتأدب بآدابهم ، وربما يرقيه هذا للأهلية ، حتى ينال الخرقة الإرادية[٣] .

والفرق بين خرقة الإرادة ، وخرقة التبرك من وجوه عديدة أبرزها أن خرقة التبرك يمكن بذلها لكل طالب ، سواء وصل إلى كمال الأهلية ، أم لم يصل بينما خرقة التبرك لا تنال إلا من الراغب فيها الصادق في طلبها ، وهذا في حد ذاته فرق جوهري ، كاشف عن أنواع الخرقة ، وكيفية توظيفها بما يتفق مع طبيعتها[٤] .

الرابع : الخرق المتكررة :

وهي التي يتم لبسها فوق بعضها بأكثر من واحده ، كأن تكون إحداها قصيرة الأكمام طويلة الامتداد ، بينما تكون الثانية من تحتها طويلة الأكمام

---

(١) عادة التشبه بالصوفية جعلت البعض يحسب سلوكيات هؤلاء المتشبهين على التصوف الإسلامي والصوفية مع أنها ليست لهم .
(٢) راجع للعلامة سعد بن على العمريطي : التصوف حقيقة وشريعة ، ص ١١٣.
(٣) راجع للعلامة السهروردي : عوارف المعارف ، ص ٩٧ ، ٩٨ .
(٤) كل خرقة لها صفات خاصة بجانب المفاهيم ، ومن ثم يمكن النظر في كل واحدة منها استقلالاً ، وذلك مما تكشف عنه الدراسة الفنية التي تقوم على ناحية موضوعية .

قصيرة الأطراف حتى يكون من نظر إليها قد أدرك شأن صاحبها، أو تعرف على لابسها،وهذا من شأنه إرغام لابسها على التعامل مع الأشياء في الصور التي يبدو هو أمامها ، أو يكون بارزاً فيها(١).

على كل فإن الخرقة بالمعنى العلمي مما يمتاز بها الصوفية الذين يقومون بعمليات تربية المريدين ، بما يتناسب معهم، وفي ذلك إفضاء إلى قاعدة تربية النفس على السلوك ، وإرساء القيم بجانب الشعور بمعاناة الفقير، وذلك مما قد يسهم في تضييق الهوة بين طبقات المجتمع من الناحية الاقتصادية .

سادساً : صفاتها وطبيعتها :

امتازت الخرق بما لها من صفات ، وما في طبيعتها من ارتباطات كلها تهدف لغاية واحدة ، ومن أبرز صفاتها ما يلي :

أ ــ اللون :

اختيار اللون من عمل الشيوخ ، لأنهم أصحاب التصرف في المريدين بالإنابة التي لهم فإذا كان المريد ممن يقوم بالخدمة المتواصلة ، ويمكن أن تظهر بعض الآثار على الخرقة التي تغطي جسمه فالأولى أن يكون لونها هو الأزرق حتى يتحمل عمليات تأجيل غسله وتنظيفه ، وبخاصة أن الخرقة هي لبسا الفقراء(٢). وللشيخ اختيار لون الأسمر أو الأحمر ، أو ما شابه ذلك من الألوان مادام في هذا الاختيار تحقيق مصالح المريدين ، لأن لبس الأزرق ليس به نص صريح ، وإنما هو أمر استحسنه الشيوخ وجرى أمرهم عليه .

يقول العلامة السهروردي أن لبس الخرقة ذات اللون الأزرق إنما هو من استحسان الشيوخ ، فإن رأى شيخ أن يلبس مريداً غير الأزرق فليس

---

(١) راجع للعلامة أبو اليزيد بن على النعماني التصوف والصوفية ص ٢١٣ / ٢٢٤ ، وراجع للحاج رجب بن على النمكي : التصوف رجال وأفكار ص ١٢٥ .

(٢) الفقراء هنا هم الذين مكثوا في زواياهم واربطتهم والأسبلة للخدمة بها ، فهم لا يخرجون منها إلى غيرها ، ومن ثم فهم الفقراء بهذا الاعتبار حتى وإن كانت لهم أموال في محال أقامة ذويهم .

لأحد أن يعترض عليه ، لأن المشايخ آراؤهم فيما يفعلون بحكم الوقـت[١] . وحكم الوقت هو ما يسمى فتوى الواقع ، أو فتوى الحال ، وكل منهما يـرد عليه باعتبار مخالف لسابقه .

قد يكون اختيار اللون الأزرق باعتبار أنه الأوفق للفقير ، نظراً لتحمله الوسخ ، ولا يحتاج لزيادة الغسل وكل ذلك راجع لوجهات نظر العاملين به ، مع ملاحظة أن النظافة من الإيمان والصوفية الأعلام مع أنهم يفعلون ذلـك من باب تربية النفس ، إلا أنهم يطالبون بالنظافة الجسدية أيضاً بجانب نظافة الملبس، لأن هذا كله مما تأمر به الشريعة الإلهية[٢]. لقد تعددت الألوان فـي الخرق بتعدد الطوائف فيما بعد فاتخذ بعضهم الأزرق ، وبعضهم الأبيض ، وبعضهم الأخضر ، وبعضهم الأسود ، لاعتبارات تخص كل طريق مما أدى إلى نتائج سلبية حسبت عليهم فيما بعد ، واستخدمها أعداء الإسـلام لتفرقـة الصوفية ، وإدخال المتصوفة في جدل ، فأدى ذلك إلى اختلال في الموازين.

ب ــ طبيعتها :

يعتقد الصوفية أن الخرقة يجب أن تكون مما تتحقق به المصلحة حتى لا تعوق لابسها عن القيام بواجباته ، فإذا كان المريد ممن يعملون بالزراعة ، أو حرفة تستلزم جمع أطراف الثوب من أسفل ، نبهوا إلى ضرورة أن تكون الخرقة قصيرة من ناحية البدن والامتداد ، وإذا كان ممن يعملون خبازين أو جزارين أو غيرها ، فلتكن الخرقة قصيرة الأكمام ، بحيث يكون ذلك أيسـر في أداء الخدمة ، كما يحقق الأهداف المرجوة منها[٣].

(١) راجع للعلامة السهروردي : عوارف المعارف ص ٩٨ .
(٢) النظافة من الإيمان وفي الأثر أن الله طيب لا يقبل إلا طيباً ، نظيف يحب النظافة ـ جميل يحب الجمال ، فنظفوا أفنية قلوبكم ، وزينوها بكل ما تحبون ، أما اللهو فلا شأن له بالنظافة من الناحية الشرعية .
(٣) راجع للعلامة أبو بكر بن محمد الصباغ قواعد شريفة في الحقيقة والشريعة ج ٢ ، ص ٨٧ /٨٨ ومادامت هذه العمليات تساعد على الاستفادة منها فليكن ذلك بما يصلح لها .

أما إذا كان المريد ممن يعملون أعملاً أخرى لا تستوجب عدم كشف هذه الأجزاء ، فإن الشيخ يأمر المريد بتغطيتها عن طريق إطالة الخرقة من ناحية بدنها ، أو من ناحية أكمامها ، أو من ناحية الاثنين معاً ، لأن المريد عامل عند الله تعالى غير مشغول بسواه ، وفي الأثر عن عمران بن حصين قال : قال رسول الله ﷺ "من انقطع إلى الله ، كفاه الله مؤنته ، ورزقه من حيث لا يحتسب ، ومن انقطع إلى الدنيا ، وكله الله إليها "[١] .

إن طبيعة الخرقة مطاطة لولبية ، وهي في ذات الوقت رمز من الناحية التوظيفية ، وهذا مما يعطي الشيوخ مساحة يعملون فيها ، من حيث أن كل شيخ يتحكم في مريديه تطبيقاً لمبدأ شرعي ، جاء ذكره في القرآن الكريم . وهو تحكيم الرسول ﷺ في الأمة كلها ، وتحكيم المريد شيخه فيه إحياء لتلك السنة ، يدل عليه قول الله تعالى: " فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا "[٢].

لقد جاءت الآية الكريمة مشروط فيها على ضرورة التسليم، وهو الانقياد الظاهري ثم نفي الحرج وهو الانقياد الباطني ، ومن ثم جاء قبول التحكيم كشرط أساسي، وحكم أصلي ، ثم جاء ما بعده ليقدم له نوعاً من المرونة عند التطبيق، وهو الذي يقوم بمثله الشيخ مع المريد في موضوع الخرقة[٣] .

كما أن الخرقة التي قد تناسب جو الصيف ليست هي التي يصح لبسها في الشتاء ، أو باقي فصول السنة ، ولذلك يرى الصوفية تفويض الشيخ في اختيار المناسب لمريديه، لأنه في ذات الوقت الذي يلبس المريد الخرقة بيده ، لأن يد الشيخ في لبس الخرقة تنوب عن يد رسول الله ﷺ ، كما أن تسليم المريد لشيخه إنما هو تسليم لله ورسوله ، ودليلهم قول الله تعالى : " إِنَّ الَّذِينَ

---

(١) وفي الخبر يقول الله عز وجل للدنيا: يا دنيا من خدمني فاخدميه ، ومن خدمك فاستخدميه.

(٢) سورة النساء الآية ٦٥ .

(٣) راجع في هذا الصدد للشيخ محمد عبد البديع علوان التصوف عقيدة ومسلكاً ص ١٧٧ / ١٧٨ .

يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا" (١) .

ما من شك في أن طبيعة الخرقة تستلزم مراعاة المصلحة الفردية للمريد والجماعية لكل الناس ، وهي في ذات الوقت كاشفة عن ثقافة أصولها الكتاب والسنة وإجماع الأمة (٢)، وهو مما يؤكد أن أى مظهر قد يتلاقى مع الخرقة على ناحية من النواحي ، فلا يعتد به ، كما لا يكون وسيلة للطعن عليها.

سابعاً : أهدافها :

الهدف هو ما يصيب المرمى، ويحقق النتائج المرتبطة به ، ومن ثم فإن لبس الخرقة في المفهوم الصوفي، يحقق جملة من الأهداف السبقية والتوافقية معاً بجانب التربوية ، ومن أبرزها :

أ ـ تحقق تحكيم الشيخ في المريد :

ذلك أن اختيار الخرقة للمريد إنما يتم عن طريق الشيخ ، واختيار اللون من عمل الشيخ أيضاً ، ثم إن التعامل مع صفات الخرقة وخصائصها حتى قيام المريد بلبسها أو خلعها من حقوق الشيخ ، فتتحول الإنابة من صورتها العادية إلى كلية، وهذا مما يؤكد دور الشيخ في الحياة الصوفية،على الصوفية أنفسهم بشكل عام ، وفيما يتعلق بالمريدين من ناحية خاصة (٣) .

إن إلباس الشيخ الخرقة للمريد بيده فيه إعلان عن قبول الشيخ للمريد ابناً ، وعن اختيار المريد للشيخ أباً، وهذا مما يجيء مع المبايعة من الناحية التطبيقية العملية ، فعن عبادة بن الصامت قال مخبراً بايعنا رسول الله على

---

(١) سورة الفتح الآية ١٠ .
(٢) خصوم التصوف يبحثون له عن عوارت حتى يركبوا متنه عن طريقها ، فإذا لم يجدوها اختلقوها من عندهم ثم نسبوها إليه ، ولو فطنوا لما يقومون به لأدركوا أنهم ظلموا ولم يعدلوا.
(٣) هذا مما يمكن الرجوع إليه في مصادر الصوفية الأصيلة ومنها عوارف المعارف والرسالة القشيرية ، والتعرف على مذهب أهل التصوف للكلاباذي ، والفتوحات المكية لابن عربي ، والإنسان الكامل للجيلي إلى غير ذلك من المصادر .

السمع والطاعة، في العسر واليسر، في المنشط والمكره، وأن لا تنازع الأمر أهله، وإن نقول الحق حيث كنا ، وألا نخاف في الله لومة لائم[١]. كما أن هذا الاتجاه مما يدعم الحاجة إلى شيخ أستاذ ، حتى يكون إماماً ويقرر في الخرقة ما يراه مناسباً للسان الشرع ، متفقاً مع الأهداف المتعلقة بمصالح الناس روى عن أبي يزيد أنه قال : من لم يكن له أستاذ إمام ، فإمامه الشيطان.[٢]

ويضرب الصوفية المثال لعمل الشيخ مع المريد فيما يتعلق بالخرقة وغيرها ، ومن أبرز أمثلتهم ما ذكره العلامة أبو على الدقاق حين قال : إن الشجرة إذا نبتت بنفسها من غير غارس، لها فإنها تورق ولا تثمر ، ويجوز أن تثمر كالأشجار التي في الأودية والجبال ، ولكن لا يكون لفاكهتها طعم فاكهة البساتين ، والغرس إذا نقل من موضع إلى موضع آخر يكون أحسن حالاً وأكثر ثمرة لدخول التصرف فيه[٣]. كذلك الحال بالنسبة للشيخ مع المريد ، فهو يتصرف معه في الخرقة ، كما يتصرف معه في السلوك ، بل هو في جميع الحالات قائم معه على قاعدة الحكم الشرعي، المتمثل في الإنابة عن رسول الله ﷺ والتفويض من المريد نفسه ، وهذا كله مما قامت عليه الدلائل وصار التخلي عنها من المشكلات البحثية، التي تساهم في عزل فريق إسلامي عن الجماعة ، وتناول إفراده بالأحكام القاسية [٤].

ب ـ التأكيد على انخراط المريد :

إذا دخل المريد إلى الطائفة بإرادته واختياره ، ثم واظب على الأدوار والأذكار ، وسعى ليكون فرداً عاملاً مع هذه الجماعة ، فإن شيخه يظل به

---

(١) راجع للشيخ حسين محمد حسنين : نظرات في التصوف والصوفية ٢١٣ .
(٢) إمامة الشيطان للإنسان فيها نوع من القسوة عليه ، ولذلك جاءت الشريعة الإلهية لتعيد الإنسان إلى قمة الهرم الذي خلق عليه ، فمن أخذ بلسان الشرع نجا ، ومن غفل عنه هلك وغوى.
(٣) راجع للعلامة السهروردي : عوارف المعارف ص ٩٢ .
(٤)من المآسي التي نراها في المتوسمين بالعلم كثيرة ، اختلافهم في قضايا لا تحتاج الخلاف ، ثم يصل عليه الأمر إلى حد تكفير فريق لغيره ، أو تكفير جماعة بذاتها ، وكأنهم ورثوا خزائن ملك الله ورحماته .

حتى يرقيه بصحبته وآدابه ، حينئذ يسري إلى المريد من باطن الشيخ حـال هي إلى باطن المريد كسراج قوي جديد ، يقتبس من سراج ، ومن ثم تكون الخرقة بمثابة جواز المرور ، الذي ينقل النور من باطن الشيخ إلـى باطن المريد [(١)].

كما أن المريد إذا وقع له كلام من الشيخ فإنه يلقح باطن ذات المريـد ، بل يكون مقال الشيخ مستودع نفائس الحال ، حتى ينتقل الحال من الشيخ إلى المريد بواسطة الصحبة، وسماع المقال. وهذا يتحقق إذا بات المريد متواضعاً يتعلق بأمره إلى شيخه ، معتقداً أن ما يقوم به هو الأوفى والأولى[(٢)].

ج ــ اختبار إرادة المريد :

لقد وضح هدف الصوفية من إلباس المريد هذه الخرقة، حتى يتبينوا فيه صدق الطلب من غيره ، لأن المريد قد يكون ناعماً في ملبسه، مترفاً بالنسبة لحياته ، ألفا استعمال جوارحه، لما فيه إرادته ، فإذا لبس الخرقة الخشنة ولم يكن راغباً حقاً في الطريق ، فإنه يتبرم بها ، وربما رفض لباسها ، حينئـذ ينكشف أمام الشيوخ أمره ، ولا يتم قبوله ابناً في الطريق الصوفي[(٣)].

يذكر الشيخ لملوم الأنطاكي : إن إلباس المريد الخرقـة فيـه اختبـار لإرادته ، وتطبيق عملي للتجربة الصوفية ، فإذا قبل المريد لبس الخرقة كان على شيخه أن يقلبه بين المظاهر والجواهر، حتى يكون على يقين من قدرته السير في طريق الحقيقة ، وهو آمن عليه .[(٤)]

وكلما تم اختبار المريد، وبخاصة الجديد ، واستطاع إثبات محبته للعمل

---

(١) راجع للشيخ أبو العباس محمود الدباغ حكمة صوفية ، وشعيرة ربانية ج ٢ ، ص ٧٧

(٢) راجع في هذا الشأن للعلامة السهروردي عوارف المعارف ص ٩٢ ، ٩٣ .

(٣) راجـع فـي هـذا كتابنـا أوراق مطويـة فـي التصـوف والصـوفية ص ٣١٢ ، ٣١٣ وهـذا مـن الاختبارات العملية التي يقوم بها الصوفية مع المريد الذي دخل الطريق جديداً .

(٤) راجع للعلامـة محمد بن علـى الجلاد ـ تربيـة المريد في الطريق ص ١٢١ ، ط الدار العلية ١٣١٢هـ وهو يؤكد على أن الخرقة والخشن من الطعام بجانب الإقلال منه إلى غير ذلك .

في الطريقة التي انضم إليها، فإنه يكون بذلك قد أقام نفسه المقام اللائق بها ، مما يجعل معه الشيوخ تزداد تقدماً وانطلاقاً .

د ـ التأليف بين القلوب :

أهل الطريقة قد لا يكونون من بلد واحد ، ولا من طبقة اجتماعية واحدة، وبالتالي قد تظهر فيهم النعرات المتباينة،وتنموا بداخلهم هذه التمايزات القائمة ولذلك خطر عظيم على الفرد المريد ، بل على الجماعة كلها ، من حيث إن النفس قد تنكص على عقبيها وترتد إلى أدبارها ، وتستأسد نزغات الشيطان عليها إلى الحد الذي قد يدمرها [1].

هنا يأتي دور الخرقة ، فالجميع لابس لها المظهر العام واحد ، وكل الأفراد مكلفون القيام بالأعمال التي ترد النفوس ، وتهذب القلوب ، وهم في مطعمهم ومشربهم شركاء ، كما أنهم في رباطهم فريق واحد ، وهذا مما يبين عن جماعتهم ، ويمحق فرديتهم ، لتبقى بينهم الجماعة ، وترتفع لديهم قيمة المشاركة المجتمعية والجماعية أيضاً[2].

يقول الشيخ السهروردي: إن ما لدى الشيخ من أسرار، تنتقل إلى المريد من حال الشيخ إلى حال المريد بواسطة الصحبة وسماع المقال ، ولا يكون هذا إلا لمريد حصر نفسه مع الشيخ ، وانسلخ من إرادة نفسه ، وفُني في الشيخ بترك اختيار نفسه ، فبالتأليف الإلهي يصير بين الصاحب والمصحوب امتزاج ، وارتباط بالنسبة الروحية ، والطهارة الفطرية [3].

---

(١) الشيطان متربص بالإنسان من كل ناحية ، وهو نهاز فرص ، فإذا أمكنه الوصول للإنسان في أية لحظة ، أو في أي طريق سارع إليه ولا عاصم له إلا ذكر الله تعالى ، والتمسك به جل علاه .

(٢) الطرق الصوفية في الأصل طرق للتربية النفسية ، والقلبية والعقلية ، والوجدانية ، بل طرق الإنسانية ، ألم يقم أصل التصوف على تصفية القلب والعقل والجوارح والوجدان لله رب العالمين .

(٣) راجع للعلامة السهروردي عوارف المعارف ص ٩٣ ، وراجع للشيخ محمود بن زكريا الحنفي أسرار الطريق ص ١٧٤ .

لاشك أن المؤمنين أخوة بالنص القرآني في قوله تعالى: " إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ"(١). وهم في ذات الوقت كالبنيان المرصوص، يدل عليه قوله صلى الله عليه وسلم " مثل المؤمنين في توادهم وتعاطفهم وتراحمهم، كمثل الجسد الواحد،إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر(٢).

كما أنهم في عملية التكافؤ سواء ، يدل عليه قوله ﷺ المؤمنون تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم (٣) لكن التأليف بين القلوب في التصوف الإسلامي يمثل نوعاً من الامتزاج العملي والقلبي بين هؤلاء الأفراد ، الذين خلعوا الدنيا من قلوبهم ، وتوجهوا بها إلى الله تعالى ، ومن ثم كان لبس الخرقة له هدف سام ، وهذا التأكيد على قدرة المريد في استخلاص نفسه لله رب العالمين ، مشاركاً فيها كافة الأفراد (٤) .

سئل أبو سعيد مرة لماذا تلبسون الخرق ، أليس من ذكر نعمة الله إلباس غيرها ، فقال أبو سعيد أن الله تعالى يقول: " يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد " ، ونحن في كل أحوالنا نسجد ، والخرقة هي الزينة التي تعلمنا معها كيف يكون سجودنا لله رب العالمين (٥).

هـ ـ سرعة الترقي في معراج القبول :

الصوفية أصحاب عمل، هم يفكرون ويعملون،حتى في أذواقهم ومواجيدهم يأتي العمل ملازماً للفكرة ، لأنهم يقولون إن طريقنا محفوف بالخطر ، ولابد

---

(١) سورة الحجرات الآية ١٠ .

(٢) وفي رواية " إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالجسد والحمى ، والقاسم المشترك من ناحية المعنى واحد .

(٣) هذا مما يؤكد طبيعة الجماعة المؤمنة بحيث يكون الائتلاف طبعهم وفطرتهم ، أما الاختلاف فيجب أن لا يكون له مكان بينهم .

(٤) راجع كتابنا أوراق مطوية في التصوف والصوفية ، ص ٢٧٥ ، ٢٧٦ .

(٥) راجع للشيخ عبد العظيم محروس الجمل : التصوف نظرات وعبر ، ص ٧٣ / ٧٥ ، ط دار التقدم .

فيه من العلم والعمل بمقتضى ذلك العلم ، العلم الإلهي الذي مصدره الكتاب والسنة ، وإجماع الأمة ، والعمل النافع ، الذي دلت عليه الظواهر النقلية ، وارتبطت به المصالح الإنسانية (١) . وهم يرون أن لبس الخرقة فيه نوع من العمل القائم على العلم ، ويراد به التأدب أيضاً ، لأن المريد إذا قبل لبس الخرقة الإرادية فقد صار متأدباً ، تاركاً اختيار نفسه لإرادة شيخه ، وهو ما يعرف بإرادة ترك الاختيار(٢) . ولا يزال المريد قائماً مع الشيخ متأدباً بترك الاختيار إليه ، حتى يرقى من ترك الاختيار مع الشيخ إلى ترك الاختيار مع الله تعالى ، ويفهم عن الله تعالى، كما يفهم من الشيخ ، ومبدأ هذا الخير كله هو الصحبة الطيبة، والملازمة الدائمة، للشيوخ والخرقة مقدمة ذلك كله (٣).

إن الترقي في سلم القرب الرباني غاية نبيلة ، وهدف محكم ، والصوفية يرون أن التقدم فيه لا يكون إلا بالافتقار إلى الله تعالى ، وإظهار ذلك كله أمامه جل علاه ، ولا يتم على وجه دقيق إلا من خلال الممارسة العملية التي يبدو فيها أمر الله تعالى ، غالباً على كل هوى للنفس ، مسيطراً على كافة أغراض القلب ، متمكناً من جميع منازله ، ولا يتحقق إلا بالانشغال الكامل بالله تعالى (٤) .

ذكر الشيخ أبو الفخر الهمداني رحمه الله، إنه كان ببغداد عند الشيخ أبي بكر الشروطي رحمه الله ، فخرج إليهم فقير من زاويته ، عليه ثوب وسخ ، فقال له بعض الفقراء ، لم لا تغسل ثوبك ، فقال يا أخي ما أتفرغ ، فقال

---

(١) هذا مما تعبر عنه المصادر الصوفية التي دونها الصوفية أنفسهم وهي جامعة بين العلم والعمل ، العقيدة والعبادة ، القيم الراقية والسلوك الإيجابي .

(٢) إرادة ترك الاختيار عمل يجري في عقل المريد بذاته ، ويمثل في ذات الوقت قراراً إرادياً خاصاً بصاحبه .

(٣) راجع للشيخ أبو الأنوار محمود بن على الأنطاكي : التصوف طريقة أحمدية ص ١٥٣ وهو يؤكد على الخرقة من حيث المظاهر والأهداف ، ويربط بينها وبين الغايات في رباط توظيفي. وراجع السهروردي : عوارف المعارف ص ٩٣ .

(٤) ظهرت هذه اللغة الحاملة لمصطلحات الترقي والقرب الرباني في التراث الصوفي على كثير من الجوانب ، وباتت من الأجزاء التأليفية القائمة بالمصطلحات أيضاً .

الشيخ أبو الفخر لا أزال أتذكر حلاوة قول الفقير ما أتفرغ ، لأنه كان صادقاً في ذلك، فأجد لذة لقوله، وبركة بتذكاري ذلك، فأختار الملون لهذا المعنى(١).

إن المريد مشغول بالله، قائم به جل علاه، يسعى لإصلاح ذاته، وهذا ربما شغله عن إصلاح ثوبه ، إنه يغسل قلبه مما يمكن أن يعلق به ، أو يؤثر فيه ويغسل عقله مما يمكن أن يأخذه من الطريق النوراني إلى غيره ، ويغسل بوارجه بالدعاء والعطاء والبكاء، ومثله لا يكون لديه وقت لغسل الثوب على المعنى الذي أراده بعض أقرانه من الفقراء (٢) .

و ـ وحدة الطريق :

يعتقد الصوفية أن الخرقة تمثل صورة رمزية للطريقة الصوفية ، من حيث أن كل جماعة من الجماعات الإنسانية يكون لها زي خاص بها ، عن طريقه يتعارفون ، فالجنود لهم زي خاص كل من رآه عرف أنه جندي ، أو توقع أنه من الجندية، والجندرية لهم زي يعبر عنهم ، وكل طائفة لهم مظاهر خارجية تدل عليهم ، والصوفية أولى الناس بهذا كله (٣)، لقد باتت الخرقة من الناحية الخارجية بمثابة شارة يتفق عليها بين أصحاب الطريق ، وتعبر عن وحدتهم العضوية ، كما تشير إلى أنهم جميعاً في طريق التصوف الإسلامي يسيرون،وهم في كل أحوالهم ومقاماتهم، بل وأشواقهم وأذواقهم ، ومواجيدهم يتلاقون حول هدف واحد عماده وحدة الطريق ، ووحدة الهدف ، ووحدة الغاية فحققوا بذلك نتائج عالية (٤) .

---

(١) راجع للعلامة السهروردي : عوارف المعارف ص ٩٨ عبارة ثوب وسخ معناه أنه ليس جديداً وسليماً ، وإنما قديم وبه بعض العيوب التي تحتاج الإصلاح وغسله المراد به إصلاحه وذلك من الرموز الصوفية ، وليس المعنى كما يفهمه غير أصحاب الرموز .

(٢) راجع كتابنا أنسام حبية في الأفكار الصوفية ، ص ٩٧ / ٩٩ .

(٣) كان العلماء في الماضي يتمايزون في كل شيء حتى في العمامة التي كانت غطاء الرأس ، وذكر الإمام مالك رحمه الله إن والدته كانت تعلمه كيفية لف عمامته ، ثم تضعها على رأسه وتدعو له . راجع للشيخ محمد على أبو الخشب : الإمام مالك إمام دار الهجرة ص ٧ ، ٨ .

(٤) راجع كتابنا أوراق مطوية في التصوف والصوفية ص ٣١١ ، حيث ذكرت طبيعة الطريق الصوفي ، وأن المريد السالك ، والشيخ القطب كل يحرص عليه ويتمسك به ولا يفرط فيه .

صحيح قد تكون الخرقة أحد المظاهر المعبرة عن وحدة الطريق الصوفي أول الأمر ، مما جعل لهم هيبة ومنزلة في نفوس الناس ، وظلوا على ذلك فترة من الزمان ، حتى إذا تمكن عدو الإسلام من التسلل إليهم بطرائقه المختلفة ، وحيله التي لم تنقطع ، وأساليبه المتنوعة ، استحدث كل فريق خِرقاً لها طابع محدود ، وباتت أغلب الأهداف النبيلة مركزة لغير الغايات الأساسية(١).

ومما لاشك فيه أن الخرقة الصوفية قد اعتبرت أحد مظاهر التصوف الإسلامي في فترة من الفترات، بما لها من تأثير على النفوس، وتهذيب لها ، وتأمين لقوى النفس من طرد نزغات الشيطان ، وانتصاراً لها على قوى الهوى في الإنسان ، وأنها حققت جملة من الأهداف التربوية داخل التجمعات الصوفية على أقل تقدير(٢).

وقد فطن إلى هذا المظهر الشيوخ الأوائل فتمسكوا به ودافعوا عنه، وكان بعضهم يلزم المريدين لبسها ولا يقبل في طريقته من لا يحفل بها،سواء أكان من المريدين أم من السالكين اعتقادا منهم أنها أول باب لتأديب المريد، فإذا استقام معها اطمأن إليه، وإذا لم يستقم معها ، أمكن إهماله وتناسيه حتى يعود من حيث أتى .(٣)

ومازالت الخرقة في بعض الطوائف، والطرق الصوفية المقيمة بأفريقيا وآسيا تتمسك بها ، ونراها مظهراً من مظاهر وحدة الطريق .

---

(١) هذا مما يوقع الأسى والأسف في قلب المؤمن الواعي ، لأن الإسلام دين واحد ، وأمته واحدة ، والاختلاف ينهي عنه ، والله يقول : " وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ" سورة الأعراف الآية ١٠٣ .

(٢) لمعرفة آثار الخرقة في الجوانب التربوية ، راجع للشيخ محمد زين العابدين : الفوارق في التصوف الإسلامي ، أصوله وغاياته ص ١٩٥ ، ١٩٦ .

(٣) راجع كتابنا أوراق مطوية في التصوف والصوفية ، وكتابنا أنسام حيية في الأفكار الصوفية ص ١١٧ .

ثامناً : أثرها في التربية الصوفية :

البناء الصوفي يتسم بالرأسية تارة، والأفقية تارة أخرى ، إذ تأتي الرأسية فيه من ناحية المعرفة ، فيما تجيء الأفقية من ناحية الأفراد أنفسهم ، أثرهم في مجتمعهم، وبين أفراد الطريقة الواحدة يمثلون خلية النحل التي تقوم كلها بخدمة الخلية، حتى تخرج عسلاً شهياً شراباً مختلفاً ألوانه، فيه شفاء للناس[١] ومن ثم فالتعاون قائم بين الجميع في كل مكان ينزلون به ، أو يقيمون فيه ، إنهم في رباط إلى يوم القيامة ، يحرسون ثغور الإسلام ، بشراهم ما جاء به الحديث الشريف من قوله ﷺ " عيون لا تمسها النار ، عين بكت من خشية الله وعين فقئت في سبيل الله ، وعين باتت تحرس في سبيل الله "[٢].

وقوله ﷺ ألا رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها ، وقد فهم أهل الإسلام ذلك كله فمارسته كل جماعة بالصورة التي رأت إمكانية القيام بها ، وهذا مما عبرت عنه العديد من المظاهر الحياتية ، ونقلته المصادر الموثقة على ناحية تفصيلية [٣] .

إن الصوفية فيما بينهم يمثلون خلية النحل من حيث الحركة والنظام ، بجانب الاتقان مع الإنتاج والالتزام ، كبيرهم يسعى لصغيرهم حباً وبراً ورحمة وصغيرهم يسعى لكبيرهم سنداً وتوقيراً ومكرمة ، فكلهم كبير وليس بينهم صغير ، نظراً لقيامهم على جليل الأعمال ، والتزامهم إياها باستمرار ، ومازال ذلك ديدنهم إلى يومنا هذا[٤] .

---

(١) العسل الشهي هو القيام على كتاب الله تعالى ، والتزام سنة رسوله ﷺ ثم ممارسة ذلك على أرض الواقع بحيث يحقق النتائج الإيجابية المرجوة .

(٢) وفي رواية عينان لا تمسهما النار ، عين بكت من خشية الله ، وعين باتت تحرس في سبيل الله ، وكل منهما يحقق الأهداف المنوطه به .

(٣) يمكن مراجعة هذه الجوانب في كتب الطبقات والمغازي والسير من حيث أنها التي عنيت ببيان هذه الجوانب كلها .

(٤) راجع كتابنا الموسوعة الغزالية في التصوف والصوفية ، ص ٢١١ .

كما أنهم قد ألفوا المناهج العملية، التي يصح أن تسمى تربوية ، فالكبير يخدم الصغير ، الشيخ يخدم المريد داعيه ما وصل إليهم عن الله تعالى قال لداود عليه السلام : يا داود إذا رأيت طالباً فكن له خادماً [١]. ثم إن الخادم يدخل إلى الميدان الخدمي، راغباً فيما عند الله من ثواب .

وبهذا الفهم يسعى لإيصال الراحة للغير، ويفرغ خاطر المقبلين على الله تعالى في مهام المعيشة وطلب الرزق ، ويفعل ما يفعله لله تعالى مع نية صادقة، وقلب سليم[٢] فإذا رأى المريد أن شيخه يقوم على خدمته بنفسه فماذا هو فاعل مع شيخه ، لابد أنه سوف يضفي عليه من الاحترام والتقدير أضعاف ماله ، فالحسنة بعشر أمثالها ، والعمل الصالح يقابله مثله ، وفي الحكم :

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم فلطالما استعبد الإنسان إحسان

إن الشيخ حين يأمر المريد بلبس الخرقة ، إنما يأخذه من هوى نفسه لمراد ربه ، وينقله من عالم الأنا الذاتي المليء بالقلق والأنانية إلى عالم الرضوان والسرور ، عالم المحبة والتراحم ، عالم كيفية ضبط المشاعر ، والتصرف في الملكات ، وتنمية الخواطر الراقية بحيث يتم خصمها من حساب الأخرى المتدنية[٣].

ولما كانت الخرقة لدى الصوفية يمكن التعرف على آثارها في التربية من خلال مظاهر متعددة ، فقد بات من المهم إجمال هذه الجوانب والآثار فيما يلي :

---

(١) راجع للعلامة السهروردي : عوارف المعارف ص ٨٨ ، وهذا في حد ذاته كاف لبيان المنزلة التي لكل منهما على ما سيرد بيانه .

(٢) هذا المقام يجعل الشيخ في منزلة سامية ، كما يضفي عليه طابع الاحترام والتقدير بما يحقق معه أعلى النتائج .

(٣) كل إنسان له جانبان أحدهما إيجابي والآخر سلبي ، ومتى ارتفعت أسهم أحدهما نزلت أسهم الآخر في صورة تلقائية ، وهذا ما نبهت إليه طبقاً لنظرية الفروق الفردية .

١ ــ تربية الضمير الذاتي :

ومعناه أن يتعود الفرد على مراقبة نفسه بنفسه ، بحيث يحكم أمرها ولا يدعها تتصرف طبقاً لمرجعياتها الذاتية ، وإنما يحيلها دائماً إلى محكمتها الذاتية التي عمادها قول رسول الله: " والله لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما "(١)، فإذا كان الإنسان بالله قد ارتبط بهذه المحبة الأصلية ، فإنه يأتي بعدها ما يدعمها من النواحي المتعددة ، ومنها محبة رسول الله ﷺ ومراقبة عملية إتباعاً لقوله تعالى : " قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ قُلْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ فإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ"(٢) .

وحتى يتمكن الضمير الذاتي من عقل الفرد الواعي ، فلابد من موجه مرب ، عالم لديه القدر الأكبر من التوجيه ، فإذا أمر المريد بلبس الخرقة ، فمعناه أنه يري من المريد ما لا يراه من نفسه ، وأنه إذا تمكن من ضبط قواه على هذه الناحية تمكن من ضميره الذاتي، فصار بعض الناس في مقام والله لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه(٣) .

إن تربية الضمير الذاتي عمل شاق، في ظل الظروف الحياتية المتعددة من ناحية أشكالها ومظاهرها ، المتنوعة من حيث المشكلات والناتج عنها وربما لم يكن الفرد الواعي قادراً على القيام بهذه المهام كلها ، من غير مساعدة ، هنا تأتي عملية الأستاذية ، والواعية والمشيخية التي تفرض على الجميع ألوان الاحترام ، وتعيد الهدوء السليب ، والأمن الناشز إلى هذا المريد وذاك ، بحيث يعيد ترتيب أوراق نفسه ، في صور متعالية(٤).

---

(١) وفي رواية حتى أكون أحب إليه من نفسه وما له وولده والناس أجمعين ، فذلك معيار الحب لله ورسوله صلى الله عليه وسلم .

(٢) سورة آل عمران الآيتان ٣١ ، ٣٢ .

(٣) هذه الأحاديث في الباب كثيرة وكلها يمكن الرجوع إليها في مظانها ، إذ الغاية من ذكرها هنا الناحية التوظيفية التي تحث على الجانب الاستدلالي .

(٤) راجع كتابنا الفكر السياسي بين الغزالي والأنظمة الحديثة ص ٩٠/٨٧.

ثم إن الشيخ يدرب المريد على كيفية الاعتماد على نفسه في خدمة ذاته ، وخدمة الآخرين ، وربما لم يكن ذلك ميسراً إلا من طريق لبس الخرقة، التي يشعر معها بأنه فقير إلى شيخ يعينه ، ضعيف يحتاج إلى من يقويه ، وفي ذات الوقت يدفع عنه العوادي التي منها يدخل الشيطان، أكثر أعداء الإنسان ضراوة-، وأشدهم عليه صعوبة .

ومتى تربي في الفرد الواعي ــ المريد ــ الضمير الذاتي على محبة الله ومحبة الآخرين ، فإنه يكون إنساناً فاعلاً إيجابياً في الحياة ، لا يري نفسه إلا حيث يكون التعاون ، ولا يعرف ذاته إلا عندما يعرف المحبة ، ولا يكون له وجود حقيقي إلا إذا أدرك من نفسه القدرة على القيام بخدمة الجميع من باب محبة الله تعالى، ومحبة رسوله، وفي الأثر: المؤمنون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم(١) .

وكما أن الخرقة تعين على التواضع ، وتعلي قدر تربية الضمير الذاتي ، فإنها تعمل في توطينه بما يحقق مصالح الفرد والجماعة، ولذا رأينا المريدين يشاركون في أنماط الحياة المختلفة، من خلال مجهودات عالية التركيز ، لأن في الخدمة معنى المبايعة ، كما أنها عتبة الدخول في الصحبة التي يرتجى من ورائها كل خير(٢) .

٢ ــ تنمية الضمير الاقتصادي :

المعروف أن الاقتصاد بالمعنى المالي والمادي على وجه العموم ، يقوم في جانبين كل منهما لابد أن يتكامل مع الآخر ، بحيث يحقق النتائج المرجوة وهذان الجانبان هما :

الأول : الجانب الإنتاجي :

وهو الذي يقوم في تنمية وسائل الإنتاج المادي في كافة فروعه النباتية

---

(١) الشيخ محمد نور الدين ، من هدي السنة في المحبة ، ص ٤٣ / ٤٤ .

(٢) راجع للعلامة عبد الغفار نور الدين الأنطاكي، التصوف والقيم الإنسانية ص ٧٣ ، ٧٤

والحيوانية والصناعية ، بحيث يقوم ذلك كله مقام التوجيه له والاستفادة به ، وقد شجعت الشريعة الإسلامية على هذا الجانب في كثير من آيات القــرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة[١].

من ذلك قوله تعالى:"يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلاَلاً طَيِّباً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ"[٢]،ولا يعقل أن يكون الأمر بالأكل من إنتاج له ، إذ معنى الإنتاج قائم في الأكل باعتبار الأولى، وكأن المعنى يا أيها الناس قوموا على الأرض التي خلق الله لكم ، ومارسوا فيها كــل مـــا تتمكنون منه من وسائل الإنتاج بحيث يكون الناتج حلالاً طيباً ، وفيه دعوة للعمل المنتج مع الجد والاجتهاد ،[٣] ومن السنة المطهرة قوله ﷺ إذا قامــت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فليغرسها، بحيث يكون الإنتاج النباتي والحيواني القائم عليها متكاملاً ، وقوله ﷺ : من أحيا أرضاً مواتاً فهي له.، حتى يكون الإنتاج البنائي والحيواني أيضاً في وفرة وكثرة تغطي كافة الاحتياجات وتزيد عليها بحيث يبقى فائض للغير وهو ما يعرف بنظرية التصدير[٤] .

إن الجانب الإنتاجي لا يتوقف على نمط بعينه ، ولذا رأينـــا المريـــدين يقيمون في الصحراء الزوايا كما يقيمون الربط ، وغيرها ويقومون على هذه الأرض بالزراعات المثمرة ، بجانب حفر الآباء حتى تحولت هذه الزوايا إلى أماكن عبادة وإنتاج وهداية، بجانب أنها صارت بمثابة مدارس التعليم المفتوح لمن يلجأ إليها[٥] . بل قرأنا عن العمليات الإبداعية التي قام بها المريدون في

---

(١) الإسلام دين عمل منتج بما يحقق المصالح المختارة في أعلى صورها وأبرز مظاهرها ومتى تم فقد كانت النبوات كلها دالة عليه آمرة به ، منبهة إلى ضرورة التماسه والقيام به.

(٢) سورة البقرة الآية ١٦٨ .

(٣) هذا ممـا يبين أن الإسـلام دين عمـل وعبـادة ، دين إنسـانية وكرامـة ، دين يرفـع عن الإنسان الواعي القهر والذل والاستعباد .

(٤) راجع للدكتور عبد الخالق السيد حسن : نظرية القيمة ، ص ١٤٥ .

(٥) راجع للشيخ أبو الحسن محمد بن على العسكري أثر الزوايا في الأمن المجتمعي ص ٧٣ / ٧٥ ، وراجع للشيخ عبد المعز حسن الأشقر : الزوايا منظور معرفي ص ٤٧ .

الماضي حول تأمين كافة الطرق التي يستخدمها الناس، ويسعى قطاع الطرق والصعاليك انتهاب من يمرون بها ، وبهذا أنتج المريدون الأمــن الغــذائي والمعرفي بجانب الزراعي والصناعي ، وكانت الخرقة من العوامــل التـــي ساعدت على النهوض بهذه الأعمال كلها[١].

وتؤكد الدراسات الحصرية التي تمت بالنسبة لأعمال المريـــدين الـــذين أدبتهم الخرقة إلى أنهم استطاعوا القيام بعمليات الانفتاح الإنتاجي في جانبـــه الزراعي والصناعي ، وأنهم تمكنوا من استزراع سلالات بذاتها ، أدت بهـــم كثرة التجربة إلى نتائج إيجابية فكانوا بذلك أول من مهد لعمليـــات التلقـــيح النباتي ، وهو ما عرف فيما بعد باسم التهجين الوراثي ، الذي حقق جملة من الفوائد للناس أجمعين[٢] .

الثاني : الجانب الاستهلاكي :

وهو الذي تتولي التعبير عنه عمليات الإنفاق اليومي في صورها المتعددة فكل إنتاج يؤخذ منه على الدوام،حتى وإن كان يقدم الجديد في كل يوم ، ولذا ظهرت معادلات علمية تتحدث عن مشكلات الاستهلاك،وتطالب بالترشيد في الحدود المعقولة ، وتحذر من الإسراف في الاستهلاك لأن كل إنتاج لا يغطي الاحتياجات يدفع أصحابه إلى الاستدانة[٣] .

والحق أنه متى عجزت وسائل الإنتاج المحلية عن تغطية الاحتياجـــات الضرورية مع توفير المستهدف ، فإنها تعتبر مشكلة كبرى إذا اســـتمرت ، ربما دفعت الدائنين إلى استعمار تلك البلاد ، بغرض استخدام مواردها حتى

---

(١) راجع للشيخ زكريا محمد القلش : رحلة إلى بلاد التكرور ص ١٥٣ / ١٥٩ حيث ذكر كيف حول المريدون الصحراء إلى جنات فيحاء .

(٢) لمعرفة هذا الجانب راجع كتابنا التطور الإحياتي بين الدين والفلسفة ، حيث ذكرت أن جريجوري ماندل لم يكن هو أول مكتشف لقوانين الوراثة في النبات ، وإنما سبق إلى ذلك كثير من مفكري المسلمين .

(٣) راجع للدكتور مصطفى حسن فاضل نظرية الإلزام في القانون العام ص ٢٧٧ / ٢٧٩ وراجع للدكتور زكريا مسعد المالية العامة ص ١٤٥ / ١٤٧ .

يتم تسديد الديون التي عليها[1] . بينما الشريعة الإسلامية نبهت إلى عملية الترشيد في الاستهلاك من كافة النواحي، وبينت أن الأكل المعتدل الذي يحقق الوفرة الاقتصادية يقوم في عناصر ثلاثة: ثلث للطعام ، ثلث للهواء ، ثلث للشراب .

وقد أكدت الدراسات العلمية في الجانب الصحي سلامة هذا الترشيد الوارد في السنة النبوية المطهرة[2] . يدل عليه قوله ﷺ : " يحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه ، فإن كان لابد فاعلاً فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لهوائه ونفسه ، وقد تيقن للأطباء أن هذه القسمة مثالية ، وتحقق نتائج ممتازة من الناحية الصحية والاقتصادية معا[3] .

بيد أننا بتتبع بعض الحالات التي وردت عن المريدين في الجانب الاستهلاكي قد كشفت عن امتيازهم الذي نتج عن العقيدة السليمة ، والعبادة الصحيحة بجانب الأخلاق المستقيمة ، وكانت الخرقة بمثابة الصورة أو المظهر العملي من الناحية التطبيقية ، من حيث أنهم وضعوا نظرية الحد من الاستهلاك على جانب تطبيقي ومن أبرز ملامحها :

أ ـ الاقتصاد في الماء: يقولون الإسراف في الماء حرام،ولو كان المتصرف فيه على نهر جار[4] .

ب ـ الاقتصاد في الطعام : تطبيقاً للقاعدة المشهورة عن سيدنا على بن أبي

---

(١) راجع للدكتور بكري حسن الأعصر : الاستعمار الاقتصادي ومشكلاته العالمية ص ١٤١ /١٤٣ ، وللدكتور حسن إبراهيم النظريات الاستعمارية ص١٥٣.

(٢) راجع كتابنا لماذا انتشر الإسلام الجزء الثاني حيث تبين أن عامل الاقتصاد المتوازن في الإسلام أحد العوامل التي ساهمت في انتشاره .

(٣) راجع للدكتور جورج البنان الصحة العامة ص ٥٣، ٥٤، الطبعة الأولى ط دار الحمية ١٩١١م.

(٤) غايتهم من ذلك توفير وقته بجانب المحافظة على الماء لأنه سر من أسرار الحياة وتعرف هذه المسألة الآن باسم مشكلة المياه في العالم ، وراجع التصوف الإسلامي ما له وما عليه ج٢ ، ص ١٥٩ ، وراجع للعلامة صالح عبد العظيم رسلان ـ التصوف والصوفية ج١ ، ص ١٩٤ .

طالب كرم الله وجهه حيث كان يقول من أكل كثيراً نام كثيراً ، ومن نام كثيراً فاته خير كثير ، ولو اختزلت هذه المفردات في مقدمتين لجاءت النتيجة هكذا من أكل كثيراً ، فاته خير كثير[١].

وإذا وقع الاقتصاد في الطعام والشراب فقد تحقق للفرد الواعي ما كان يأمله ويرجوه ، ومن هنا جاءت جميع الرسالات السماوية داعية للمحافظة على الماء لأنه سر الحياة ، ولولا الماء ما تمكن واحد من بلوغ تلك الغايات، من ثم فقد كان اعتقاد هؤلاء وتصرفهم المثالي ، بمثابة الدليل العملي على صدقهم، وصحة إيمانهم، وسلامة أخلاقهم[٢].

وفي نفس الوقت برزت معارف كثيرة ، وكان المفترض فيها المحافظة على التراث الأصيل بالنسبة للشيوخ والمريدين ، وتعتبر الخرقة هي المحرك الفعال في عرض هذه الفكرة ، أو التخلي عنها لحين إتمام الكتابة ، وهذا شيء مما لا يعلمه إلا الله جل علاه.

ج ــ الاقتصاد في الكلام : تطبيقاً لقوله تعالى : " لاَّ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتَغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيرًا إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيدًا "[٣] .

ثم إن الاقتصاد في الكلام يساعد المرء على الانشغال الدائم بالله تعالى ، فهو عندما يتحدث مع الناس إنما يسكت مع الله تعالى وصمته عن الناس فيه

---

(١) هذه القاعدة تذكر كثيراً على أنها من بنات أفكار الإمام على كرم الله وجهه ، وقد يصح القول ، ولكني رأيت لها رجع صدى في فكر كثير من العلماء .
(٢) راجع للعلامة حسن شبيط .التصوف الإسلامي ما له وما عليه ، ص ١٧٧ .
(٣) سورة النساء الآيات ١١٤ / ١١٦ .

الكثير من ألوان النجاة ، بينما صمته عن الله تعالى فيه كل ألوان الفساد ، كما أن صمته عن الناس قد يتعلق به مصالح أكبر بكثير مما لو تكلم ، بينما لو إنه صمت عن الله وقع عليه الشر كله ، وأفضل حديث مع الله يكون بكلامه جل علاه[١] ، لكن كيف يتعلم المريد الاقتصاد عن طريق الخرقة ؟ والجواب ما ذكره السهروردي نفسه ، حيث قال سر الخرقة قائم في أن الطالب المريد العارف إذا دخل في صحبة الشيخ وسلم نفسه صار كالولد الصغير ، يربيه الشيخ بعلمه المستمد من الله تعالى بصدق الاعتقاد ، وحسن الاستقامة ، ويكون للشيخ بنفاذ بصيرته الإشراف على البواطن[٢] .

وإذا تمكن الشيخ من الإشراف على البواطن ، استطاع إعادة صياغة سلوكيات هذا المريد من جديد ، وكلما أتي على جانب أصلحه ، حتى يكون الإصلاح عاماً فيه شاملاً له ، يستوى في ذلك طعامه وشرابه، كلامه ومنامه وهذا مما يجعل للخرقة قدراً عالياً بالنسبة لتربية المريد .

٣ ــ تنمية الجوانب المعرفية :

المعرفة هي العلامة الفاصلة بين الجاهل وغيره ، وهي عنوان الإنسان الواعي ومحفظة أفكاره، ولذا يقاس الناس بقدر ما لديهم من معارف صحيحة ومعلومات مفيدة ، وعلوم أصيلة ، وقديما قيل :

ومن وعى التاريخ في صدره فقد أضاف أعماراً إلى عمره[٣]

ولما كان المريد قد لبس الخرقة بإرادته ، فقد تفرغ لما تفرضه عليه الشريعة الإلهية من واجبات،أولها معرفة الله تعالى بالأدلة الفطرية والنظرية والعقلية والتجريبية والسلوكية والفلكية وغيرها ، انطلاقاً من قوله تعالى:

---

(١) كلما قرأ المرء القرآن الكريم حصلت له بركاته التي لا تنتهي ، ونزلت عليه من أنواره التي لا تحد ، فضلاً من الله تعالى ورحمة .

(٢) راجع للعلامة السهروردي :عوارف المعارف ص ٩٦ .

(٣) راجع كتابنا حلف الفضول عند العرب وأثره في العصر الحديث ، ص ٧٤ / ٧٥ .

سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاء رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ" [١] ، ثم إن معرفة الله تعالى توجب على الفرد الواعي طلب العلم وتنمية المعرفة حيث أن المرسلين جاؤا للناس بالعلم، وفي الحديث من سلك علماً يبتغي به وجه الله يسر الله له طريقاً إلى الجنة، وقوله ﷺ فضل العلم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب[٢] وما دام المريد يبتغي الرقي في الرتبة حتى يبلغ مقام إياك نعبد وإياك نستعين ، فإنه ينمي معارفه على كل اتجاه مشروع ، ثم يوظفها في النواحي المختلفة، وفي النهاية يعمل على إعادة تعبئتها وتصديرها لمن يطلبها ، ويكون في حاجة إليها ، ومن ثم كانت الخرقة عاملاً مهماً في تنمية المعرفة بجميع جوانبها المختلفة [٣] .

لقد أنبأت الأيام غابرها والحاضر أن المريدين الذين اتخذوا الخرقة زياً لهم لم يقفوا عند معرفة بذاتها ، أو حد معرفي بعينه ، وإنما قاموا بهذا وذلك كله اعتقاداً منهم أن ذلك هو المأمور به من قبل الله تعالى وعليهم تنفيذ ما أمر به ومن هنا كان الغالبية منهم علماء ملكوا نواحي العلوم المختلفة ، وساهموا في الفتوحات الإسلامية بكل ما أمكنهم[٤] .

٤ ـ تنمية الضمير الوطني :

المعروف أن ديانة المرء هي هويته ، كما أنها وطنه الذاتي الذي يعيش فيه مستقلاً به ، ومتى كان على وعي بدوره الإنساني فإنه تتعاظم لديه فكرة الوطنية حتى تبقى بارزة أمامه تفرض عليه الدفاع عن الوطن ، كما يساهم

---

(١) سورة فصلت الآيتان ٥٣ ، ٥٤ .

(٢) راجع رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين في العلم .

(٣) حول هذا الجانب راجع كتابنا العقيدة وفلسفة العلم ص ١١٥ / ١١٩ ، وكتابنا علاقة العقيدة بفلسفة العلم ص ٢١١ ، وكتابنا قراءات في العقيدة وفلسفة العلم ص ٨٨ / ٩١ .

(٤) راجع الطبقات والتراجم لترى أن هذه الجوانب تساوى فيها الموالي مع الأحرار وربما ملك الموالي أكثر مما ملك الأحرار إذ العلم من أنوار الله وقسمة من أقسامه .

في تطويره ، ودفع الأذى والمضار عنه[١] ، إن الوطن الذي يقيم فيه الإنسان من الوطن الذي يقوم في الإنسان ، لأن الأول مرتبط بالمكان ، بينما الثـاني هو المعبر عن العقيدة الإيمانية ، ومن هنا قالوا أن ديانة المرء هـي وطنـه الذي يدافع عنه ، ومن لا دين له لا أمانة له ولا وطن أيضاً[٢] .

أجل حقق الشيوخ مع المريدين وجوهاً عديدة مـن الامتيـاز والتفـوق والمشاركة العلمية في البناء المجتمعي ، وحققوا نتائج إيجابية مما يؤكـد أن فكرة الخرقة لها دور كبير في تأهيل المريدين حتى يكونوا لبنات صحيحة في البناء الصوفي على أتم الوجوه .

تاسعاً : أبرز نتائجها :

إن أكثر المسائل إلحاحاً في الطلب ، بغرض وضع أسس معيارية يمكن الاحتكام إليها فيما قدمته نظرية الخرقة بالنسبة لفكر التصوف الإسـلامي ، يمكن إجمالها فيما يلي :

١ ـ أنها حركت مياه الأفكار الراكدة في محيطات العقول التي لا تقوى على السباحة إذ كيف تكون خرقة ، ولها هذه الآثار النفسية التي تـدفع الإنسـان الواعي لمراجعة الواقع العملي ، وتنقيته من الشوائب التي تتعلق بتـأثيرات الهوى ، وتسلطات الشيطان، وتلك مهمة كبرى، وخدمة عظيمة أمكن تقديمها للفكر الإسلامي عامة والصوفي خاصة. [٣]

٢ ـ إن الخرقة في الفكر الصوفي رمز متحرك مما يوحي بأن الرمزية لها قدر كبير في مفاهيم القوم ، بدليل أنها ترد نفس المريد إلى الحظيرة الذاتية ، حيث يوقن أن كل شيء له منتهي ، وأن أسرع النهايات للفرد الواعي حياته

---

(١) هذا الشعور عبرت عنه الجهود التي قام بها الصحابة الأجلاء ومنهم العباس بن عبد المطلب ، راجع كتابنا في ذلك .

(٢) راجع كتابنا حلف الفضول عند العرب وأثره في العصر الحديث ، ص ٨٧.

(٣) كل فكرة لها وجود نفسي يمكن التعامل معها على ناحية من النواحي ، سواء أكان لها وجود خارجي أو مدلول خارجي أم لا .

نظراً لانحصارها بين حركتي الشهيق والزفير ، ودخول النفس وخروجه ، وهذا يسقط عن الإنسان الكبر والعجب والغرور[١] .

٣ ـ التأكيد على نظرية الفروق الفردية والقدرات العقلية وأثر ذلك على المريدين ، من حيث أن المريد قد تصلح معه الخرقة الطويلة في أكمامها ، وقد تصلح لغيره القصيرة ، كما قد تصلح لواحد الخشنة بينما تصلح للثاني الناعمة ، وإذا تم التعرف على هذه الفروق جاءت النتائج لصالح المواقف الصوفية التي تقوم التربية فيها على مراعاة الأحوال[٢] .

٤ ـ قد يكون المريد لابساً الخشن من الخرق كثياب المتقشفين المتزهدين ، وله في تلك الهيئة من الملبوس هوى كامن في نفسه ، لا يرى بعين الزهادة فأشدها عليه لبس الناعم ، وبالتالي تطور الخرقة من قدراته العقلية واتجاهاته النفسية بما يحقق المصالح العليا للعملية الصوفية[٣] .

٥ ـ إن النفس الإنسانية التي تتولى إدارة الهيكل الجسماني من المريد قد يكون لها هوى طبيعي في اختيار هيئة مخصوصة من الملبوس على ناحية قصر الكم والذيل وطوله ، وخشونته ونعومته على قدر حسبانها وهواها ، فإذا لبس الشيخ هذا الراكن لتلك الهيئة ثوباً يكسر به على نفسه هواها وغرضها ، فإنه قد ساعده على ردها إلى الصورة الأرقى بدل أن كانت منطلقة إلى الأدنى.[٤]

٦ ـ عالجت الخرقة في المفهوم الصوفي بعض الاختلال الوظائفي الذي تدار بواسطته قوى النفس وأغراضها ، إذ قد يكون على جسد المريد ملبوساً

---

(١) الأعداء الأساسية للإنسان هي النفس والشيطان والهوى ، والخرقة إذا لبسها الإنسان سواء أكانت مرقعة أم غير مرقعة بها ثقوب أم خالية منها فإنه يمكنها أن ترد عن الإنسان هذه الثلاثة .

(٢) هذا الاتجاه يجعل الحاجة لإعادة دراسة التصوف الإسلامي من منظور تربوي أمراً مهماً جداً ، وحبذا لو تم ذلك من خلال الصوفية أنفسهم قبل أن يقوم به غيرهم .

(٣) فكرة الهوى الكامن في النفس من الملبوس تمثل نوعاً من الحركة العاقلة للفهم الصوفي الإشاري ، ولذا تعتبر الخرقة من أكثر القضايا الفكرية التي تعالج هذه الجوانب .

(٤) من الواضح أن فكرة الخرقة هنا لها دور بارز فعال من الناحية التربوية والسلوكية بجانب أنها تدعم الجوانب المعرفية التي يتمسك بها أصحاب الاتجاه الصوفي .

ناعماً ، أو له هيئة في الملبوس مما تشرئب النفس إلى تلك الهيئة بالعادة حينئذ يلبسه الشيخ من الخرق ما يراه مناسباً له ، فيخرج ذات النفس عن عاداتها وهواها ويردها إلى حالة الوعي الذاتي من الناحية المشروعة ، وفي هذا فوائد عديدة للفرد والجماعة[١] .

٧ـ أكدت فكرة الخرقة على إمكانية تصرف الشيخ في المريد ، من ناحية الملبوس بنفس تصرفه معه في كل من المطعوم والمشروب وتعرفه في صوم المريد في النفل وأفطاره ، وتصرفه معه بما يعلى درجة الشكر والذكر عنده بجانب الأوراد التي يتولاه من خلالها ومنها أوراد الذكر والشكر ، وأوراد التنفل في الصلاة ، وأوراد التلاوة ، بل أوراد الخدمة أيضاً لأنه بإطاعة أوامر شيخه في لبس الخرقة حصل المراد من تسليم النفس وقواها[٢] .

٨ ـ يقول الشيخ السهروردي: إن فكرة الخرقة تعطي معنى جديداً ، حول علاقة الشيخ بالمريد من حيث أن الشيخ يعلم من هو على وضع الأبرار ومن هو من المريدين على وضع المقربين ، ومن يصلح لدوام الصلاة ، ومن له هوى في التخشن أو في التنعم فيخلع المريد من عادته ، ويخرجه من مضيق هوى نفسه ، ويطعمه باختياره ، كما يلبسه باختياره ثوباً يصلح له ، وهيئة تصلح له ، ويداوي بالخرقة المخصوصة ، كما يداوي بالهيئة المخصوصة داء هواه ، ويتوخى بذلك تقريبه إلى رضا مولاه[٣] .

٩ ـ تمثل الخرقة نوعاً من الانبعاث العاطفي يطفو على سطح هوى النفس فيعيده للأصول الأولى من الفطرة ، ويرده إلى الجوانب الأصلية ، وبالتالي تحقق الخرقة العديد من الجوانب الإيجابية في الحياة والأفكار الصوفية .

---

(١) من الواضح إني هنا أركز على فكرة الخرقة ودورها الثقافي وأثرها في البناء الصوفي ، وكمال قدرتها على التصرف في هوى المريد وإمكانياته فذلك هو الذي أعول عليه .

(٢) تعتبر الخرقة عاملاً مهما في تغير سلوكيات المريد إلى ما فيه المصلحة ، وتحقيق الخير العام له ، وتلك مسألة يجب النظر إليها مزات كثيرة ، وبعين العقل لا بعقل العين .

(٣) راجع للعلامة السهروردي : عوارف المعارف ص ٩٦ / ٩٧ .

(أهم المصادر والمراجع)

حسب ورودها بهوامش الصفحات

١ ــ القرآن الكريم

٢ ــ التصوف الإسلامي وقضاياه ــ العلامة الشيخ زين الدين بن منصور التاجر .

٣ ــ أوراق مطوية في التصوف والصوفية ــ الدكتور / محمد حسيني موسى الغزالي.

٤ ــ العرب وظهور الإسلام ــ الدكتور / محمود محمد زيادة .

٥ ــ التصوف ــ شيخ الإسلام ابن تيمية .

٦ ــ الصوفية منهج وتطبيق حقيقة وشريعة ــ الشيخ محمد بن على البقلي الحنفي.

٧ ــ عوارف المعارف ــ الإمام أبو حفص السهروردي .

٨ ــ قواعد شريفة ــ الشيخ عبد المعز بن على الطيب .

٩ ــ العباس بن عبد المطلب ساقي الحرمين ــ د/ محمد حسيني موسى الغزالي.

١٠ــ سعد بن عبادة زعيم الخزرج حامل لواء الأنصارــ د/محمد حسيني الغزالي.

١١ــ التصوف الطريق إلى الله ــ الشيخ أبو الفتح محمد بن على العلوي .

١٢ــ التصوف الإسلامي ــ الشيخ نور الدين بن سعيد الهمذاني .

١٣ــ الدرة النيرة في الدفاع عن السنة المطهرة ــ د/ محمد حسيني موسى الغزالي .

١٤ــ التعصب في فهم السنة بين الفرض والرفض ــ د/ محمد حسيني موسى الغزالي.

١٥ــ التصوف والصوفية التاريخ والحركة ــ الأستاذ فوزي محمد الغمري .

١٦ــ التفكير الإنساني أصوله ومستوياته ــ د / محمد حسيني موسى الغزالي .

١٧ــ التصوف الإسلامي والرحلة الإيمانية ــ الشيخ محمد بن محمود العجمي .

١٨ــ التصوف الإسلامي مصادره ومظاهره ــ الأستاذ فوزي عبد العظيم الدليل .

١٩ــ تاريخ الأمة العربية ــ د / عبد الفتاح شحاته .

٢٠ــ الحركة العاقلة في التصوف الإسلامي ــ الشيخ عبد اللطيف نصار .

٢١ــ المظاهر الصوفية والحركة العقلية ــ الشيخ على بن محمد الرواس .

٢٢ــ الطرق والطوائف الصوفية ــ الشيخ صبري بن محمد حسن الأنطاكي .

٢٣ــ التصوف الإسلامي والحركات الداخلية ــ الأستاذ أمين محمود .

٢٤ــ المدخل لدراسة الحكمة الإسلامية ــ الدكتور / محمد حسيني موسى الغزالي.

٢٥ــ مناهج البحث بين التقليد والتجديد ــ د / محمد حسيني موسى محمد الغزالي .

٢٦ــ الشرق الإسلامي دياناته وسلوكياته ــ جورج فيليب .

٢٧ــ تقييم المناهج الاستشراقية الأمريكية في دراسة السنة النبوية ــ د / محمد حسيني موسى محمد الغزالي .

٢٨ــ المقدمات في التصوف الإسلامي ــ د/ محمد حسيني موسى الغزالي .

٢٩ــ أنسام حيية في الأفكار الصوفية ــ د / محمد حسيني موسى الغزالي .

٣٠ــ التصوف بين الأنصار والخصوم ــ الشيخ خالد عبد العظيم المتولي .

٣١ــ الرياض النضرة في مناقب العشرة ــ العلامة المحب الطبري .

٣٢ــ الحركات الشيعية وأثرها على التصوف الإسلامي ــ وليم فيشر .

٣٣ــ التصوف الإسلامي والتنسك الفارسي ــ جورج فيدر .

٣٤ــ التصوف الإسلامي والمصادر الأخرى ــ أدوارد بوتان .

٣٥ــ التصوف طريقه ورياضه ــ الشيخ على سعد العقاد .

٣٦ــ التصوف الإسلامي ومظاهره ــ جيفر بادو .

٣٧ــ الفكر الصوفي واتجاهاته ــ الشيخ محمد علام .

٣٨ــ التصوف حقيقة وشريعة ــ الشيخ محمد زكي نصار .

٣٩ــ التصوف حقيقة وشريعة ــ العلامة سعد بن على العمريطي .

٤٠ــ التصوف والصوفية ــ العلامة أبو اليزيد النعماني .

٤١ــ التصوف رجال وأفكار ــ الحاج رجب بن على النمكي .

٤٢ــ قواعد شريفة في الحقيقة والشريعة ــ الشيخ أبو بكر الصباغ .

٤٣ــ التصوف عقيدة ومسلكاً ــ الشيخ محمد عبد الله بن علوان .

٤٤ــ نظرات في التصوف والصوفية ــ الشيخ حسين محمد حسنين .

٤٥ــ حكمة صوفية وشعيرة ربانية ــ الشيخ أبو العباس الدباغ .

٤٦ــ تربية المريد في الطريق ــ الشيخ محمد بن على الجلاد .

٤٧ــ أسرار الطريق ــ الشيخ محمود بن زكريا الحنفي .

٤٨ــ التصوف نظرات وعبر ــ الشيخ عبد العظيم محروس الجمل .

٤٩ــ التصوف طريقة أحمدية ــ الشيخ أبو الأنوار الأنطاكي .

٥٠ــ الإمام مالك إمام دار الهجرة ــ الشيخ محمد علي أبو الخشب .

٥١ــ التصوف الإسلامي أصوله وغاياته ــ الشيخ محمد زين العابدين النوراني .

٥٢ـ الفكر السياسي بين الغزالي والأنظمة الحديثة ـ د/ محمد حسيني موسى الغزالي

٥٣ـ من هدي السنة في المحبة ـ الشيخ محمد نور الدين .

٥٤ـ التصوف والقيم الإنسانية ـ العلامة عبد القادر نور الدين .

٥٥ـ نظرية القيمة ـ د / عبد الخالق السيد حسن .

٥٦ـ أثر الزوايا في الأمن المجتمعي ـ الشيخ أبو الحسن العسكري .

٥٧ـ الزوايا من منظور معرفي ـ الشيخ عبد المعز الأشقر .

٥٨ـ رحلة إلى بلاد التكرور ـ الشيخ زكريا بن محمد القلش .

٥٩ـ نظرية الإلزام في القانون العام ـ الدكتور مصطفى فاضل .

٦٠ـ الاستعمار الاقتصادي ومشكلاته المالية ـ دكتور / بكري حسن الأعصر .

٦١ـ النظريات الاستعمارية ـ الدكتور حسن إبراهيم قطب .

٦٢ـ الصحة العامة ـ الدكتور / جورج البنان .

٦٣ـ التصوف الإسلامي ماله وما عليه ـ حسن شبيط .

٦٤ـ حلف الفضول عند العرب وأثره في العصر الحديث ـ د/ محمد حسيني الغزالي.

٦٥ـ رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين .

***

الفصل الثالث

الولاية

في

الفكر الصوفي

تمهيد :

تعتبر الولاية من القضايا الهامة في التصوف الإسلامي، وربما عدها البعض من أكثرها أهمية ، نظراً لارتباطها ببيان حال العبد السالك طريق الله تعالى في الطاعة والعبادة مع المحبة ، ومقام المريد والشيخ وأهل الصلاح عند الله تعالى ، وكيفية وصول المدد الرحماني،والنور الرباني إليهم تفضلاً من الله تعالى ورحمة(١).

وكيف لا ينشغل الصوفية بالولاية وهم قد تأملوا ورودها في الآيات القرآنية على العديد من النواحي ، والأحاديث النبوية في الكثير من المظاهر ، كما أن الله تعالى قد بشر أهل الولاية المشروعة ، ببشريات كثيرة في الدنيا ، وتزيد عليها في الآخرة .

قال تعالى : "أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ. الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ . لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ . وَلاَ يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ " (٢).

كما إن الولاية في الفكر الصوفي مقام من المقامات ، ولها مراتب ودرجات ، وتجئ معها أحوال ولوامع وبروقات محفوفة بأنواع من البركات ، لأنها من عند الله تجئ العبد ، ومن مقام المحاسبة تنتصب نحو الرب وقد عبر عن هذا وجدان سهل بن عبد الله التستري رحمه الله فيقول :

وثقت نفس عارف فاطمأنت ... رضيت بالذي قضى فتهنت
لاح نور الهدى لها مع يقين ... فاستضاءت بذاك ثم استكنت
فرمت باللذيذ من كل عيش ... وإلى أقرب مالك الملك تحنت(٣)

---

(١) كل ما يأتي العبد من ثواب ، إنما هو بتوفيق الله تعالى على سبيل التفضل والرحمة ، بجانب اللطف والوهب الإلهي ، حيث يجري ذلك على السعيد .
(٢) سورة يونس الآيات ٦٢ / ٦٥ .
(٣) إنه يخطب ود الولاية الشرعية ، ويرى نفسه في موضع اللذة العالية حين يكون في جنب الله ، ويرفض لذيذ العيش لأن هذه النفس معيارها في المقام العالي ، ونجواها لدى مالك الملك والملكوت.

كما أن الوالي الرباني يتولى الله تعالى أمره كله ، حتى إنه جل شأنه يعلن دفاعه عنه في الملمات ، كما هو متولي أمره في المنعمات ، لأن العبد قد والي الله بالطاعات المشروعة ، فوالاه الله تعالى بالكرامات الموهوبة وهي التي لا حدود لها تفضلاً من الله تعالى ورحمة ، ولطفاً منه جل شأنه ومزيد نعمة(١).

يدل عليه ما رواه أحمد في مسنده من قول رب العزة جل شأنه ، من أذى لي ولياً فقد استحل محاربتي ، وما تقرب إلى عبدي بمثل أداء الفرائض وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت عينه التي يبصر بها ، وأذنه التي يسمع بها ، ورجله التي يمشي بها ، وفؤاده الذي يعقل به ، ولسانه الذي يتكلم به، إن سألني أعطيته وإن دعاني أجبته ، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن وفاته ، لأنه يكره الموت ، وأنا أكره مساءته(٢) .

كما أن الولاية الربانية لا تقتصر على جانب بعينه، وإنما تمتد مع العبد الصالح لتغطي كافة جوانبه الحياتية ، حتى يكون الخير الكبير في انتظاره بالدار الآخرة ، نقل العلامة شاهاور أن رسول الله قال حكاية عن جبريل الأمين ، يقول الله عز وجل، من أهان لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة ، وإني لأغضب لأوليائي ، كما يغضب الليث لجروه(٣). وما تقرب إلى عبدي المؤمن بمثل أداء ما افترضته عليه .

ومازال عبدي المؤمن يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه(٤)، فإذا أحببته كنت له سمعاً ، وبصراً ولساناً ، ويداً ومؤيداً ، إن دعاني أجبته، وإن سألني أعطيته ، وما

---

(١) ولاية الله تعالى تغني عباده عن غيره ، وتكفيهم سؤال من لا يستحق السؤال ، لأنهم لجأوا إلى الكريم المتعال ، خزائنه لا تنفذ ، ونعمه لا تحصى عدداً .

(٢) العلامة عبد الرؤوف المناوي ـ الاتحافات السنية بالأحاديث القدسية ص ١٨٥ / ١٨٦ وبهامشه النفحات السلفية بشرح الأحاديث القدسية للشيخ محمد منير الدمشقي ، ط طار المعرفة ـ بيروت لبنان ، وقال رواه أحمد والحكيم الترمذي، وأبو يعلي، والطبراني، وأبو نعيم، وابن عساكر، عن عائشة رضي الله تعالى عنها .

(٣) يلاحظ أن التشبيه قائم في التمثيل وهو تشبيه هيئة بهيئة حتى يكون ماثلا أما العقول الصورة التي يغضب الله تعالى بها إذا وقعت الإهانة لولي من أوليائه جل شأنه .

(٤) في الحديث إشارة إلى أن التكاليف أداء مفروض ، أما النوافل فهي من باب الأداء الذي يرقي به العبد في مقام القرب ، ولهذا شأن عظيم .

ترددت في شيء أنا فاعله ترددي في قبض روح عبدي المؤمن ، يكـره المـوت وأكره مساءته ، ولابد منه [١] .

ثم إن الولي يظل يرقى في المقامات حتى يحوز أعلاها ، وهذا مما توحي بـه الإشارة في إضافة العبد الولي إلى الله تعالى ويستدل عليه بقوله تعالى: " إِنَّ وَلِيِّيَ اللّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ"[٢] كما أنه جل شأنه مولى الذين آمنوا بالله تعالى رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم نبياً ورسولاً .

قال تعالى: " ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَـرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ "[٣].من ثم كانت عناية الصوفية بالحديث عن الولاية ، ودورها في البناء الصوفي ، وأثرها على التربية الصوفية ، ولذا فإني سأتناول الجوانب التالية :

الجانب الأول : تحديد المصطلحات ، وتحرير المفاهيم :

تعريفها :

وردت مادة الكلمة و ل ي في القرآن الكريم ، حوالي أربع وثلاثين ومـائتي مرة ، وقد تكفل المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ببيان مواضعها في السـور والآيات القرآنية[٣] وهذا مما يعطي الباحث العديد من الفرص في عرض المسـألة كما يمنحه صوراً متنوعة لما يعبر عن الولاية في جوانبها المختلفة ، طبقاً لقاعـدة تحديد المصطلحات ، وتحرير المفاهيم .

والولاية من حيث التعريف العام هي حماية وحصانة ، وقيادة وتوجيه وبسط

---

(١) الشيخ أبو بكر بن شاهاور الرازي ، منارات السائرين ومقامات الطائرين ص ١٨٥ /١٨٦ .
(٢) سورة الأعراف الآية ١٩٦ .
(٣) سورة محمد الآيتان ١١ ، ١٢ .
(٤) راجع للأستاذ / محمد فؤاد عبد الباقي ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم باب الواو ص ٧٦٤ /٧٦٨ ، ط مكتبة الغزالي .

نفوذ لمن تقع عليه ، من حيث أنها توفر لمن تتم له أشكال المنفعة ، وألوان المنعة حقيقة أو حكماً، على وجه مشروع ، أوغير مشروع ، ومن ثم كانت الولاية على القاصر نوعاً من التصرف فيما له نيابة عنه ، وحماية له ، وتمكيناً ، فإذا جاءت في الخيرات المشروعة من قبل الله تعالى كانت ولاية إلهية[(١)] ، أما إذا جاءت هذه الولاية على غير ما شرع الله تعالى،فإنها تكون ولاية شيطانية لا قيمة لها سوى الخسران المبين في الدينا والآخرة ، قال تعالى : "إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَانًا مَّرِيدًا. لَّعَنَهُ اللّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا . وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللّهِ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا"[(٢)] .

ومن مظاهر الخسران في الدنيا أن أولياء الشيطان يقع لهم الخذلان والضعف حتى بين الناس في دار الدنيا ، قال تعالى : "الَّذِينَ آمَنُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُواْ أَوْلِيَاء الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا"[(٣)]

كما أن في الولاية نوعاً من التفويض ، الذي يعطيه العبد من يتولى حمايته ونصرته والدفاع عنه كأنه يتحدث باسمه ، بجانب باقي التصرفات الأخرى ، ولذا فهي عامة من حيث المعنى ، وكما تسمي هذه ولاية ، فإن القائم بها يوصف بأن ولي. يقول صاحب البحر المحيط : الولي هو الناصر والمعين ، الذي يتحمل عن الغير كل ما هو من لوازنه ، فكأنه قام مقامه[(٤)] .

---

(١) الولاية المشروعة من قبل الله تعالى جاءت بها نصوص شرعية ، وهي أنواع ولاية الله ، ولاية الرسول ﷺ وولاية أهل الإيمان ، يدل عليه قوله تعالى : "إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ. وَمَن يَتَوَلَّ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ اللّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ" . سورة المائدة الآيتان ٥٥ / ٥٦ .

(٢) سورة النساء الآيات ١١٧ / ١١٩ .

(٣) سورة النساء الآية ٧٦ .

(٤) راجع للعلامة أبي حيان الأندلسي الغرناطي : البحر المحيط في التفسير ، الجزء الأول ص ٥٥٤ ، ط دار الفكر العربي بيروت .

وعرفها الشيخ الزمخشري بأنها تمليك الأمور وتدبيرها ، فإن جاءت حسب مصالح العباد المشروعة كانت ربانية، وإن كانت الأخرى التي تدور على مفاسد ، وترتبط بها غايات غير صحيحة فهي الولاية الشيطانية[١] ، وما دامت الولاية بالمعنى العام فيها معنى التملك والقيادة ، بجانب التنازل عن الإرادة الفاعلة من جانب العبد ، فإنها تدل على ارتباطها بالقيم على نحو من الأنحاء ، ولا ينهض لها إلا من هو قيم بالأمور على جهة الأعانة لأصحابها ، والنصرة لذويها ، بحسب الاعتبار ، حقيقة أو حكماً[٢] .

أخلص مما سلف ، إلى أن الولاية بالمعنى العام ، فيها معنى التملك والقيادة المتاحة ، بجانب التوجيه المرتبط بالسيطرة التي فيها معنى التفويض ، حيث إن صاحب الولاية الأصلي مالك الكل هو الله تعالى رب العالمين ، يدل عليه قوله تعالى : " هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا "[٣]وولايته تعالى قائمة لا تنقطع أبداً حتى في يوم الدين .

الجانب الثاني : أقسامها :

ذكرت آيات القرآن الكريم قسمي الولاية من الناحية الاجمالية ، وبينت وجود ولاية إلهية ، وأخرى غير إلهية ، سواء أكانت شيطانية أم أنسية ، وربما جاء قسماً الولاية بالمعنى العام في أية واحدة ، منها قوله تعالى : " اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ "[٤] ، ومن ثم أشير إلى كل قسم بالتسمية ، والتعريف ، والأنواع ، ثم أوالي مع الولاية الربانية لأنها المحك العملي لدى الصوفية .

---

(١) راجع للعلامة الزمخشري ، الكشاف ـ المجلد الأول ، ص ١٧٦ .
(٢) راجع للشيخ إسماعيل حقي البروسوي : تنوير الأذهان من تفسير روح البيان ، المجلد الأول ص ٩٤ .
(٣) سورة الكهف الآية ٤٤ .
(٤) سورة البقرة الآية ٢٥٧ .

القسم الأول : الولاية المشروعة :

وهي التي جاءت النصوص الشرعية آمرة بها ، وفي الوقت دالة عليها ، منبهة إلى التزامها ، بحيث يكون العبد القائم في الإطار الموضوع لها هو محل العناية ، والإكرام ، ويقع عليه الحفظ والرعاية ، بجانب التوفيق والتفويض والإلهام ، وكما تسمى ولاية مشروعة ، فإنه يصح أن تسمى ولاية ربانية بهذا المعنى العام أيضاً[١]. وهي تتنوع بحسب الذي تقوم به من حيث الموضوع ، أو الذي تعني به وتتم له إلى أنواع :

النوع الأول : الولاية الإلهية :

وهي المدلول عليها بقوله تعالى الله ولي الذين آمنوا ، وعرفها الفخر الرازي بأنها التي يوالي الله بها أولياءه ، فيغلبهم على أعدائه وينصرهم عليهم ، من حيث إنه تعالى جعلها قائمة في سنته الإلهية ، ومن مظاهرها نصرة المؤمنين ، وهزيمة الكافرين ، مع الانتقام منهم ، حتى تشفي صدور المؤمنين من أعدائهم[٢] وولاية الله تعالى هي القائمة إلى يوم الدين . ويمكن تعريفها أيضاً بأنها فيض رباني ، وإلهام نوراني ، تتم معه نصرة الله تعالى لأحبابه ، وتغليبهم على غيرهم ، مع موالاتهم بالنعم وأسبابها، حتى تفيض عليهم الكرامات فيضاً لا تعرف أسبابه ، ولا تدرك وسائله ، وإنما تبدوا آثاره وتعلوا مظاهره[٣] .

يقول الشيخ القشيري رحمه الله ، إن الله تعالى يتولى الصالحين ، فلا يكل الواحد منهم إلى نفسه ، لحظة من اللحظات، ولا حالاً من الأحوال ، وإنما يتولاهم

---

(١) ورود التسمية لها بالمعنى العام من باب المقابل للشيء ، وحيث كانت ربانية مشروعة فقد أخرجت إلى الطرف الآخر الولاية الشيطانية غير المشروعة بناء على قاعدة شبه عامة وهي بأضدادها تتمايز الأشياء .

(٢) راجع للعلامة الفخر الرازي : مفاتيح الغيب ، المجلد العاشر ، الجزء التاسع عشر ص ٣١٦ / ٣١٧ ، ط دار الغد العربي .

(٣) هذا التعريف رأيت القيام به من خلال فهمي للآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي يمكن أن يؤخذ منها تعريف للولاية الإلهية .

الله تعالى رعاية وحماية ، من غير إحالة إلى شيء آخر[١] ، وهذا مما يدل على أن ولاية الله تعالى تكون لأحبابه ، وتجئ عامة شاملة للعبد من كافة جوانبه ، تفضلاً من الله تعالى ونعمة ورحمة ، إذ لا كسب للعبد فيها ، وإنما هي وهب وتوفيق حتى وإن سبقها شيء من كسب .

ثم إن الولاية الإلهية لا تكون إلا من الله تعالى ، فهو الولي الحميد ، يدل عليها قوله تعالى :" وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاء إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ . وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ". [٢]

فهي ولاية رعاية وعناية وحكمة مع ما فيه الخير والنظام العام ، وهذا مما يمكن فهمه من قوله تعالى ولكن ينزل بقدر ما يشاء ، وهي في ذات الوقت ولاية نفحة وإنعام ، من حيث إنه الصانع الحكيم ، ولذا فقد جاءت شاملة كافة من يحتاجون ذات الرزق ، بدليل قوله تعالى لعباده ، كما إن الولاية الربانية إذا كانت بمعنى الحفظ والمنع ، والنصرة ، فإنما تكون للصالحين فقط ، يدل عليه قوله تعالى:"إِنَّ وَلِيِّيَ اللّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ"[٣].

وبالتالي فولايته تعالى للصالحين من مظاهرها إنزال الكتاب الذي تتعلق به عمليات تحصيل منافع الدين ، كما ترتبط بها مصالح الدنيا ومنافعها ، يقول العلامة الفخر الرازي ، في الآية دليل على أن الواجب يفرض على كل عاقل ضرورة عبادة الله تعالى وحده ، لأنه الذي يتولى تحصيل منافع الدين والدنيا ، أما تحصيل منافع الدين فسبب إنزاله تعالى الكتاب ، وأما تحصيل منافع الدنيا فمشار إليها بقوله تعالى:" وهو يتولى الصالحين" [٤] .

---

(١) راجع للعلامة القشيري : الرسالة القشيرية ، ص ٣٠ .
(٢) سورة الشورى الآيتان ٢٧ ، ٢٨ .
(٣) سورة الأعراف الآية ١٩٦ .
(٤) راجع للعلامة الفخر الرازي مفاتيح الغيب ، المجلد السابع ، ج١٤ ، ص ٤٠٥ .

والإنسان العاقل الواعي هو الذي يكون نداؤه الأثيري الدائم ، ودعاؤه المحبب أن ولي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين ، حتى يكون واحداً منهم ، معدوداً بينهم ، قائماً في زمرتهم ، كأنه يقول إني قد تركت أمري لمن يتولى حفظي ونصرتي ، كما يعلم سري وعلانيتي ، ظاهري وباطني ، وإليه في الآخرة مرجعي ولن أكون مقبولاً منه إلا إذا كنت على هذا الوعي بماله تعالى من جلال وجمال وكمال وإكرام[١] .

ومن المظاهر التطبيقية التي تجئ معبرة عن صلاح الفرد الواعي ما نقله أهل العلم ، من أن عمر بن عبد العزيز[٢] رضي الله تعالى عنه ، لم يكن يدخر لأولاده شيئاً ، حتى إنه قبيل وفاته كان لديه قليل من المال فوزعه في وجوه الفقراء ومحتاجيهم ، وفي ذات الوقت كان له أطفال صغار ، فقيل له ألا تدخر لأولادك شيئاً ، أو توزع عليهم حتى يكبروا[٣] ، فقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، أولادي إن كانوا من الصالحين فوليهم الله تعالى ، القائل وهو يتولى الصالحين ، ومن تولاه الله فلن يكون بحاجة إلى مالي ، إذ المال عرض ذاهب ، وكل مال بصاحبه يميل إما إلى الجنة ، أو إلى النار[٤] .

وإن كان أولادي من غير الصالحين، فإن تركت لهم مالاً أعانهم على المعاصي وبذلك أكون قد ألحقت بهم ضرراً ، لأن العاصي واقع في الإجرام ، محسوب مع

---

(١) هذا الوعي يفرض على الإنسان التزام الصلاح قاعدة له ، حتي يقيم من داخله حاكما علي تصرفاته كلها بميزان عدل مستدلاً بالأثر الحكيم الرائع حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم " .

(٢) هو أعدل خلفاء بني أمية ، ويطلق عليه اسم خامس الخلفاء الراشدين لعدله وحبه لله ، وأمه ليلي بنت عاصم بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وأم ليلى هذه هي ابنة صاحبة قصة اللبن التى رفضت إضافة الماء إليه واختارها عمر بن الخطاب فيما بعد زوجاً لابنه عاصم رضى الله عن الجميع .

(٣) هذه عادة بعض الناس يحاولون تجميع ثروة لأبنائهم كأنهم الذين خلقوهم ، أو ضمنوا لهم أعمارهم ، ومن ثم باتوا مكلفين بأرزاقهم متناسين قوله تعالى : " إن الله تعالى هو الرزاق ذو القوة المتين " سورة الذاريات الآية ٥٨ .

(٤) يرى أهل العرفان أن المال سمي بذلك لأنه يميل بصاحبه إلى الجنة أو إلى النار ، وهو وجه مقبول ، وتعليل لا ممانعة فيه من حيث المعنى .

المجرمين ، والله تعالى يقول: " فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ "[١] ومن رده الله تعالى لم اشتغل أنا بإصلاح مهماته[٢]. وهو درس عملي لمن يعتبر .

كما أن ولاية الله تعالى العامة ، لا تقف عند حد مظاهر الدنيا وحدها ، أو الرزق والحفظ والحكمة ، وإنما تمتد في الدنيا والآخرة ، يدل عليه ذلك الملمح الرائع ، القائم على أحسن المطالع والاستفتاحات في قوله تعالى : " أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي المَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ " [٣] .

أجل إن مظاهر الولاية الرحمانية متعددة ، وأشكالها هي الأخرى متنوعة ، كيف لا وهو الرحيم الغفور ، صاحب الملك والملكوت ، يتولى المؤمنين برعايتهم وعزهم ونصرتهم قال تعالى : " إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَاللّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ " [٤]من حيث إن الإيمان ما وقر في القلب ، وصدقه العمل ، ومن مظاهر ولاية الله للمؤمنين ، توجيه الواحد منهم والجماعة إلى جانب الرب الغفور الرحيم ، حيث تصح التوبة ، ويعلو الإحسان ، وفي هذا نوع من الولاية الراقية ومظهر له امتياز خاص نظراً لقيام ، ذلك كله من الرياضة والطاعة والخلق القويم [٥] .

ومما ينقل في هذا الإطار عن الولاية الربانية ، أن السري السقطي رحمه الله قال : قلت يوماً " عجبت من ضعيف عصى قوياً، فلما كان الغداة، وصليت الضحى

---

(١) سورة القصص الآية ١٧ .

(٢) هذا مما يدل على الوعي الإيماني الذي امتلأ به قلب عمر بن عبد العزيز ، وله شواهد نقلية منها قوله تعالى: "وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا" سورة النساء الآية ٩ .

(٣) سورة الشورى الآية ٩، فالله جل شأنه هو الولي الحق، وهو الذي بدأ الخلق وهو الذي ينهيه ،وكما أنه الذي يقبض الأرواح ويعيدها فإنه فوق ذلك على كل شيء قدير لانهاية لقدرته، ولا تحديد لإرادته، كما لا يغيب عن علمه شيء.

(٤) سورة آل عمران الآية ٦٨ .

(٥) الولاية النورانية تجعل الفرد الواعي مندفعاً إلى مصدر النور ، وهو الشعاع الرباني الذي أذا اخترق القلب نقله من حال إلى حال ، ومن مقام إلى مقام ، حتى يبلغ مقام إياك نعبد وإياك نستعين ، حينئذ يتجلى عليه مقام إهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين .

إذا بشاب قد وافي ، وخلفه ركبان على دواب ، بين يديه غلمان ، وهو راكب على دابة فنزل ، ثم قال أيكم السري السقطي[١] فأومأ جلسائي إلى ، فسلم علي وجلس ، ثم قال سمعتك تقول عجبت من ضعيف عصى قوياً ، فماذا أردت به ، فقلت ما ضعيف أضعف من ابن آدم ، ولا قوي أقوى من الله تعالى[٢] .

وقد تعرض ابن آدم مع ضعفه إلى معصية الله القوي المتين ، قال السري السقطي فبكي الشاب طويلاً ، ثم قال يا سري هل يقبل ربك غريقاً في معاصيه مثلى ؟ قلت ومن ينقذ الغرقي إلا الله تعالى ؟! قال يا سري إن على مظالم كثيرة ، فكيف أصنع ، قلت إذا صححت الانقطاع إلى الله تعالى ، أرضى عنك الخصوم ، قال فبكي[٣] .

ثم قال صف لي الطريق إلى الله تعالى. قلت إن كنت تريد طريق المقتصدين فعليك بالصيام ، والقيام وترك الآثام ، وإن كنت تريد طريق الأولياء ، فاقطع العلائق ، واتصل بخدمة الخالق[٤] .

إن ولاية الله للفرد الواعي تجعله دائماً منجذباً إلى الله تعالى مقبلاً عليه ، لا يرى في الوجود سواه ، وهو معنى فناء العبد في أنوار مولاه . فعن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا عبد الله ، كن في الدنيا كأنك غريب ، أو عابر سبيل[٥] ، كأنه يقول له لا تركن إليها أبداً ولا تتخذها وطناً ، ولا تحدث نفسك بطول البقاء فيها ، لأن ذلك مما لا يشتغل به

(١) كان الشاب يبحث عن صاحب القول، عجبت من ضعيف عصى قوياً ، ولم يكن يعرف السري السقطي ، لكنه بلغه أن القول له ومن ثم فقد راح يبحث عنه .

(٢) هذا من البراهين التي أدلتها معها والشواهد الواقعية دالة عليها ، ومن ثم فالجدل فيها لا يقدم نفعاً بشأنها.

(٣) البكاء من الفرد الواعي إنما هو من مظاهر التوبة ، بل من علامات قبولها ، لأن دموع التائب تغسل سنوات ماضية ، وتجعله كأنه ولد اليوم ، ولهذا أثر بالغ وعلامة في القلب والسلوك والوجدان ، وفي الحكم دموع التائبين تغسل ذنوب العائدين .

(٤) راجع للشيخ محمد نور الدين البغدادي طريق السالكين ص ١٥٧ ، ط أولى س ١٣١٥هـ وللشيخ على حسن العمريطي ـ الطريق إلى الله تعالى ، ص ٩٥ / ٩٦ المطبعة المشرقية .

(٥) للحديث ظواهر عديدة وشواهد كثيرة والقاسم المشترك واحد .

الغريب الذي يريد الذهاب إلى أهله ، وعد نفسك من أصحاب القبور[١] ، وهذا مما يجعل علاقة العبد بربه على أفضل ما يكون ، من حيث إن العبد السالك مقام التوبة والإنابة متردد على باب الولاية ، وكلما استمر في طرقه للأبواب ، فسوف يلجها إن شاء الله تعالى بنفس كريمة ، قال تعالى : " ثُمَّ رُدُّواْ إِلَى اللّهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ أَلاَ لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ " [٢]، وفيه توجيه ورحمة من الله رب العالمين .

النوع الثاني : ولاية الملائكة :

وهي التي يلتزم فيها الملك بتقديم الدعم الكامل لأولياء الله الصالحين ، حيث يقع لهم الأمن ، ويتحقق الأمان ، كما تجئ الطمأنينة ، ويحوز معها العبد الصالح المزيد من الإحسان ، دليله قول الله تعالى : " إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ. نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ " [٣].

يقول العلامة الفخر الرازي رحمه الله ، إن ولاية الملائكة للمؤمنين بارزة من خلال تأثيراتهم في الأرواح البشرية ، بالإلهامات والمكاشفات اليقينية ، والمنامات الحقيقية[٤]، كما أن للشياطين تأثيرات في الأرواح بإلقاء الوساوس فيها ، وتخييل الأباطيل إليها ، وكما أن هذه الولاية للمؤمنين حاصلة في الدنيا من الملائكة ، فإنها تكون باقية في الآخرة ، من حيث إن تلك العلائق ذاتية لازمة ، غير قابلة للزوال ، بل إنها تصير بعد الموت أقوى وأبقى[٥] .

---

(١) راجع للعلامة إسماعيل حقي الروسوي ـ تنوير الأذهان من تفسير روح البيان المجلد الأول ج ٣ ، ص ٢٥٥.
(٢) سورة الأنعام الآية ٦٢ .
(٣) سورة فصلت الآيات ٣٠ / ٣٢ .
(٤) المراد بالمنامات الحقيقية التي مصدرها الوحي القلبي ، المدلول عليها بقوله صلى الله عليه وسلم ذهبت النبوات وبقيت المبشرات قالوا وما المبشرات يا رسول الله قال الرؤيا الصالحة يراها العبد الصالح أو ترى له
(٥) راجع للعلامة الفخر الرازي : مفاتيح الغيب المجلد الثالث عشر ، ج ٢٦ ، ص ٦٣٤ .

من الملاحظ أن ولاية الملائكة للمؤمنين فيها نوع من الحفظ والرعاية التبعية من حيث إن الملائكة ينفذون ما يأمرهم الله تعالى به ، وهم في كل أحوالهم طـائعون له يسبحون الليل والنهار ، لا يفترون قال تعالى : "وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ"(١).

وهم في ذات الوقت عباد مكرومون، قال تعالى: "وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ. لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ. يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ"(٢).

وقد وصفهم الله تعالى بصفات عديدة منها أنهم سفرة بين الله تعالى وخلقه ، قال تعالى : "كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاء ذَكَرَهُ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ كِرَامٍ بَرَرَةٍ "(٣) ، ولما كانت ولاية الملائكة من الولايات المشروعة ، فإنها لا تكون دعماً إلا لأهل الإيمان ، على سبيل الطمأنينة وبث الأمان ، بجانب تحقيق النصرة لهم على أعدائهم ، وفي ذات الوقت تكون قائمة على الخيرات ، من حيث إنها ولاية خاصة ، داخلة في نطاق ما هو أعلى منها وهو مطلق الولاية الربانية(٤) ، ولهذه الولاية الملائكية مظاهر عديدة منها :

١ ـ تأمين المسلمين ، وتحقيق النصر لهم ، كما حصل في غزوة بدر الكبرى : حيث جاء المدد الإلهي بناء على الاستغاثة أول الأمر ، بألف من الملائكة على التوالي ، قال تعالى : "إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُرْدِفِينَ" (٥) ، ثم تواصل المدد الإلهي بثلاثة آلاف مظاهرهم دالة على المهام التي

---

(١) سورة الأنبياء الآيتان ١٩ ، ٢٠ .
(٢) سورة الأنبياء الآيات ٢٦ / ٢٨ .
(٣) سورة عبس الآيات من ١١ / ١٦ .
(٤) ولاية الملائكة يجيء فيها التأمين والإنقاذ ، بجانب تحقيق النصر ، وله في الشريعة الإسلامية شواهد عديدة ، التي نقلتها النصوص الإسلامية .
(٥) سورة الأنفال الآية ٩ .

كلفوا بها[١] من تأمين المؤمنين ، وتخويف الكافرين ، ثم بدأت عمليات الإنزال والمدد الإلهي تتوالي ، قال تعالى : "وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ. إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاَثَةِ آلاَفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُنزَلِينَ بَلَى إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُسَوِّمِينَ وَمَا جَعَلَهُ اللّهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ الْعَزِيزِ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ"[٢].

فإذا تمت عملية الجمع الحصري للملائكة المنزلين حسب السياق القرآني تبين أن أول المقدمات الداعمة كانت ألفاً ، ثم زيد عليهم بثلاثة ، ثم انتهى العدد بخمسة ، وهو ما يعني أن العدد الإجمالي يمكن احتسابه تسعة آلاف[٣] . وفي جميع الحالات فإن الغرض من ذكر العدد هو المعنى القائم في مفهوم الكثرة العددية ، وما يعلم جنود ربك إلا هو ، وكلها جاءت لأغراض محددة ، قد تكون غير القتال المادي البدني ، يدل عليه قوله تعالى :" وَمَا جَعَلَهُ اللّهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ الْعَزِيزِ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ" [٤].

في ذات الوقت فإن الغرض واضح ومحدد من خلال عناصر ثابتة يدل عليها قوله تعالى: " وَمَا جَعَلَهُ اللّهُ إِلاَّ بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّن السَّمَاء مَاء لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ إِذْ

(١) وقد ورد في الأثر أن رسول الله قال أرى جبريل في السماء ومعه جمع من الملائكة عاصباً رأسه حاسراً ثوبه أخذاً بلجام فرسه .
(٢) سورة آل عمران الآيات من ١٢٣ / ١٢٧ .
(٣) هي مجموع ١٠٠٠ الواردة في سورة الأنفال الآية ٩ ، ثم يضاف ٣٠٠٠ هي العدد الثاني الوارد بسورة آل عمران الآية ١٢٤ ، وفي النهاية يجيء ٥٠٠٠ خمسة آلاف الواردة في سورة آل عمران الآية ١٢٥ .
(٤) سورة آل عمران الآيتان ١٢٦ ، ١٢٧ .

يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلاَئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرَّعْبَ فَاضْرِبُواْ فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ اللّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ "[1].

٢ـ إن ولاية الملائكة لأهل الإيمان في الدنيا قائمة بالتوجيه ، والتأمين مع الحفظ بجانب تحقيق الأهداف المشتركة بين بني الإسرائيل ، يدل عليه أن أبا اليسر الصحابي الجليل كان في غزوة بدر الكبرى، وهو رجل رقيق الحال، دقيق الجسم ، فالتقى بالعباس بن عبد المطلب على أرض المعركة ، ولم يكن العباس قد خرج مقاتلاً ، وإنما خرج مدارياً على أهل مكة والمشركين إيمانه[2] .

ولذا لم يرفع سيفاً وإنما كان واقفاً ، وقد امتاز بضخامة الجسم ، وجماله طولاً وعرضاً وأناقة ، فلما رآه أبو اليسر واقفاً اقترب منه ، ورفع السيف نحوه ، فقال العباس له ، ماذا تريد مني قال أبو اليسر إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من لقى منكم أبا البختري فلا يقتله ، ومن لقى العباس بن عبد المطلب فلا يقتله لأنهم قد خرجوا مكرهين[3] ، فقال العباس رضي الله عنه ليست هذه بأول صلة ، ثم قال لأبي اليسر خذني أسيراً ، ولما سأل الرسول صلى الله عليه وسلم أبا اليسر كيف أسرت العباس فقال يا رسول الله وجدته واقفاً كالصنم يسيل الدمع من عينيه، فقال صلى الله عليه وسلم لأبي اليسر لقد أعانك عليه ملك كريم[4] .

---

(١) سورة الأنفال الآيات ١٠ / ١٤ .

(٢) أسلم العباس رضي الله عنه أول أمر الدعوة ،وكان إسلامه سراً ، كما أسلمت زوجة أم الفضل في ذات الوقت، وعدت ثالث امرأة في الإسلام ، وكان العباس يخفي إسلامه بأمر الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولم يعلن ذلك إلا أثناء فتح مكة ، راجع للعلامة المرزوقي معجم الشعراء ، وراجع كتابنا العباس بن عبد المطلب ساقي الحرمين .

(٣) راجع لابن هشام سيرة النبي ص ٦١٧ وأسد الغابة ، والكامل لابن الأثير .

(٤) وهذا مما يدل على أن الملائكة في ولايتهم لأهل الإيمان ، إنما يمارسون أعمالاً كثيرة وكلها تتم لصالحهم العام من غير اعتبار لشيء آخر فضلاً من الله ونعمة والله عليم حكيم ، وراجع كتابنا العباس بن عبد المطلب ساقي الحرمين ، أثناء الحديث عن موقفه في غزوة بدر .

٣ ـ أن ولاية الملائكة للمؤمنين في الدنيا لا تقتصر على جانب بذاته ، وكلما ترقى المرء في طاعة الله تعالى ارتقى بين الملائكة مقاماً يدل عليه قوله صلى الله عليه وسلم: " لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير ، ولصافحتكم الملائكة في الطرقات[١] ، كما أن الأثر ظاهر في قول صلى الله عليه وسلم ، ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله ، يتلون كتاب الله تعالى ، ويتدارسون فيما بينهم ، إلا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده ، وهذا لا يكون إلا من باب الفضل الإلهي ، ويدل في ذات الوقت على أن ولاية الملائكة لأهل الإيمان قائمة في دار الدنيا ، ثم تأتي بعد ذلك في أدوار مستقلة ومهام جديدة بالنسبة للآخرة .

النوع الثالث : ولاية الرسول للمؤمنين :

وهي قيام الرسول صلى الله عليه وسلم بمتابعة أحوال أهل الإيمان ، من حيث إنه المبلغ لهم شرع الله تعالى ، القائم فيهم بما جاء من عنده جل علاه ، وهو في ذات الوقت القدوة العملية لهم ، يدل عليه قوله صلى الله عليه وسلم : " إن الراعي لا يكذب أهله ، وقوله تعالى : " لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ . فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ اللّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ "[٢]. قال العلامة البروسوي : لقد جاءكم رسول من جنسكم وأشرفكم وأفضلكم ، عزيز عليه ما يلحقكم من مشقة وألم بترك الإيمان ، وحريص عليكم أن تؤمنوا حيث يتم لكم صلاحكم ، وتمام أحوالكم شديد الرأفة بكم ، والحرص عليكم ، إذ لا رأفة ولا رحمة إلا بالمؤمنين[٣] ، يستدل على

---

(١) مصافحة الملائكة للمؤمنين يمكن حملها على وجوه كثيرة من ناحية التوظيف ، ومن ثم يمكن لأي باحث القيام بهذه المسائل من الناحية التصنيفية .

(٢) سورة التوبة الأيتان ١٢٨ ، ١٢٩ ، والرسول مبلغ عن الله تعالى فمن والى الله جل شأنه فلا يعتبر صاحب ولاية مشروعة إلا إذا ضم إليها التسليم للرسول ﷺ فيما فوض فيه ربه .

(٣) هذه الخصوصية لأهل الإيمان شرعية ، أما غيرهم فهم بكفرهم جعلوا أنفسهم في مواقع غير مقبولة ، وبالتالي يتم حسابهم عليها وطبقاً لها ولا يظلم ربك أحداً .

ثبوت هذه الولاية وإنها رحمة ، أن الرسول صلى الله عليه وسلم بعد عودته من الطائف وقد حاربوه وطاردوه عمد إلى ثقيف ، فكان ردهم عليه أقسى ، وقد أرسل الله تعالى إلى حبيبه ومصطفاه سيدنا جبريل الأمين ومعه ملك الجبال ، فقال إن شئت أطبقت على ثقيف هذين الجبلين ، فقال صلى الله عليه وسلم ، بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله تعالى ، لا يشرك به شيئاً ، عندها قال له ملك الجبال ، أنت كما سماك ربك رؤوف رحيم[1] .

ومما يدل على ولاية الرسول صلى الله عليه وسلم لأهل الإيمان حال حياته الشريفة ، وبعد انتقاله أيضاً ما حكي أن رجلاً صالحاً وقع في ضيق شديد ، فرأى النبي صلى الله عليه وسلم في المنام ، فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم في المنام يا فلان لا تغتم ولا تحزن[2] فإذا كان الغد أدخل على " على بن عيسى ، الوزير فأقرئه السلام ، وقل له بما أنك قد صليت على رسول الله ألف مرة ، أدفع لي مائة دينار عيناً.

فلما أصبح ، ذهب إلى الوزير المقصود ، وقص عليه ما رآه في منامه ، فاغرورقت عينا على بن عيسى الوزير بالدموع[3] وقال للرجل الصالح صدق الله ورسوله ، وصدقت أنت يا رجل ، هذا شيء ما كان قد علم به أحد إلا الله تعالى ورسوله، ثم قال لغلامه يا غلام هات الكيس ، فأتي به وأحضره بين يديه ، فأخرج منه ثلاثمائة دينار ، وقال هذه المائة التي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم أعطاه مائة ثانية،وقال للرجل الصالح هذه المائة بشارة لك ، ثم أعطاه المائة الثالثة وقال ، هذه هديتك ، فخرج الرجل الصالح من عنده ومعه ثلاثمائة دينار وزال همه

---

(١) راجع للعلامة البروسوي : تنوير الأذهان ، المجلد الثاني ج ١١ ص ١٢٢ ، وفيه إعلام أن ولاية رسول الله فيها رعاية ورأفة ورحمة جاءت كلها من عند الله جل علاه .

(٢) هذا مما يدل على اتصال الرسول ﷺ بالمؤمنين حتى وهو بعيد عنهم ويشهد له ما ورد في الأثر أن رسول الله قال حياتي خير لكم ومماتي خير لكم تعرض على أعمالكم فما وجدت من خير حمدت الله ، وما وجدت غير ذلك استغفرت الله لكم .

(٣) هي دموع الفرح إذ لم يكن على بن عيسى متوقعا أن يبلغ درجة الولاية فلما أدرك أنه بلغها فرح بها .

وغمه.[١] لقد كانت الرؤيا معبرة عن ولاية الرسول صلى الله عليه وسلم لهذا الوزير أيضاً من ناحية أنها دلته على قبول الله ورسوله ما قام به ، كما بينت له أن الله تعالى قد من عليه بعطايا مدخرة ، فترك الرجل الوزارة ، وعلو الرياسة ، كما تنازل عن عظمة الجبابرة ، ثم ذهب إلى مكة المباركة ، وجاور فيها ببركة ذكر النبي محمد صلى الله عليه وسلم وتخصيصه بإرسال ذلك الرجل إليه ، لما سبق في علم الله تعالى بما يؤول إليه أمره من الخير وحسن الخاتمة[٢].

إن ولاية الرسول صلى الله عليه وسلم للمؤمنين بجانب أنها تقوم في الأصل على التبليغ ، فإنها أيضاً تتسم بالرحمة لقوله تعالى: " وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ " [٣]، وقوله صلى الله عليه وسلم ، إنما أنا رحمة مهداة ، وبناء عليه فلا يقتصر أمر الرحمة المهداة على نوع بعينه ، وإنما يمتد ليغطي جوانب الحياة كلها ، وهذا مما يؤكده وصف الله تعالى للحبيب المصطفي بالصفات الأساسية .

أ ــ رسول منكم ، تقوم لغته فيكم ، ومصالحكم معه ، وما من شأن لكم إلا ومعه فيه توجيه[٤].

ب ــ عزيز عليه عقابكم، لأن الرسول يباهي بمن اتبعه من المؤمنين، قال تعالى : "يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَؤُونَ كِتَابَهُمْ وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً" [٥].

ج ــ حريص عليكم في تحقيق مصالحكم الدنيوية ، التي أنتم في أشد الحاجة لها من حيث إن الرسول صلى الله عليه وسلم هو هادي الخلق للحق ، وأن الشريعة ما

---

(١) جاءت ولاية الرسول ﷺ هنا على شكل الرؤيا الصالحة ، وفي ذات الوقت دفعت عن الرجل الصالح الحرج وكشفت للوزير الصالح مقامه عند الله تعالى ، وهذا مما يدل على قوله ﷺ إنما أنا رحمة مهداة .

(٢)راجع للشيخ منصور حسني صابر الإدريسي النبي الرحمة ص ١٤٥ ط دار التوحيد ١٣٠٩هـ وراجع للشيخ البروسوي تنوير الأذهان المجلد الثاني ج ١١ ص ١٢٣ .

(٣) سورة الأنبياء الآية ١٠٧ .

(٤) هذا مما يدل على أن رسالته ﷺ عامة للإنس والجنّ إلى قيام الساعة نظراً لارتباطها بذلك كله.

(٥) سورة الإسراء الآيتان ٧١ ، ٧٢ .

جاءت إلا لمصالح العباد ، وبالتالي فحرصه على المؤمنين إنما هو من قبيل حرص الراعي الواعي الأمين ، على تحقيق أعلى الأهداف لرعيته تفضلاً من الله تعالى ورحمة (١) .

د ـ رؤف خلقه الله تعالى مفطوراً على الرأفة ، والشفقة ، حتى يحقق لهم الأمال التي يرجونها ، والسعادة التي يبحثون عنها ، عندما يخرجهم من ظلام الجهل وظلمات الكفر إلى أنوار الإيمان .(٢)

هـ ـ رحيم حيث جمع بين الرقة والرأفة والرحمة ؛ حتى يغطي كافة الجوانب الإنسانية الأساسية والكمالية ، من حيث إنه القدوة ، وفيه الاسوة ، وتجئ معه المحبة والحكمة والرحمة(٣) .

يمكن القول بأن ولاية النبي صلى الله عليه وسلم للمؤمنين قائمة بكل المعاني الاستهدافية ، التي تحقق بين الناس المحبة والرحمة ، وتغطي فيهم كافة الجوانب الراقية ، وقد جاءت نصوص عديدة تؤكد هذه الولاية منها قوله تعالى: النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَن تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا "(٤) .

ومن جملة المعاني السامية بان أن ولاية الله تعالى متحققة في أهل الإيمان ، وولاية الملائكة ، والرسول صلى الله عليه وسلم قائمة فيهم جميعاً ، بما يؤكد أن الصوفية عندما يقولون بالولاية على أنها مقام من المقامات التي ينصرفون إليها فإنما هي حقيقة ، ولهم فيها أدلة شرعية ، قامت في نصوص صحيحة ، لا يمكن تجاهل العمل بها أو الاعتقاد فيها.

---

(١) راجع كتابنا الغزاليات في النبوات أثناء الحديث عن فوائد بعثة الرسل .

(٢) راجع للشيخ محمد عبد العظيم نصار : الرسول والرسالة ص ٩٥ ، ط دار المعرفة ١٣١٥هـ .

(٣) راجع للأستاذ عبد الكريم الخطيب : النبي محمد ص ٧٤ ، ط دار الفكر بالقاهرة .

(٤) سورة الأحزاب الآية ٦ .

النوع الرابع : ولاية المؤمنين لبعضهم :

وهي التي يقوم فيها كل مؤمن برعاية حقوق إخوانه ، طبقاً لما جاء في كتابه تعالى، وسنة رسوله الأمين صلى الله عليه وسلم، حيث يضمن لهم النصرة، وتفريج الكربة ، مع ضرورة أن يقوم فيهم مقام الواحد منهم ، وقد ضرب المسلمون الأوائل المثال العملي من الناحية التطبيقية على هذه الولاية ، أثناء الهجرة إلى المدينة المنورة ، حيث تمت المؤاخاة بكل ما فيها من تنازل من يملك لأخيه بقدر ما هو متاح له[1] .

وقد امتدح الله تعالى منهم ذلك ، في آيات عديدة منها قوله تعالى : " إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُوْلَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلاَيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُواْ وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ"[2].

وقال جل شأنه : " وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ".[3].

كما يدخل في هذا النوع ولاية الأنصار للمهاجرين ، وولاية الأغنياء للفقراء ، وولاية الأقوياء للضعفاء، وولاية الأرحام القائمة على شرع الله تعالى ، قال جل

---

(١) تعتبر المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار من النماذج والصور التطبيقية التي لم يعرف التاريخ الإنساني العام لها مثيلاً من الناحية النظرية والتطبيقية العملية على السواء ، راجع د . محمود محمد زيادة العرب وظهور الإسلام ، ص ١٨٩ .

(٢) سورة الأنفال الآية ٧٢ ، وفيها تفصيل وتفرقة بين من آمن ، وهاجر ، وجاهد بالمال ، والنفس بجانب الإيواء والنصرة ، وبين من لم يهاجر، وربما مع قدرتهم عليها بحيث يعطي كل فرد حقه الذي لا يمكن تجاهله .

(٣) سورة الحشر الآيتان ٩ ، ١٠ .

شأنه : " وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مِن بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَئِكَ مِنكُمْ وَأُوْلُواْ الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ" (١).

من الواضح أن ولاية المؤمنين لبعضهم تتعدد مظاهرها ، وتتكاثر فروعها ، حتى تشتمل على الجوانب المتعددة ، ومن كافة النواحي التي تعبر عن تكافل المؤمنين ، يدل عليه قوله صلى الله عليه وسلم ، المؤمنون تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم،وهم يد على من سواهم ، وقال تعالى:" وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ " (٢).

النوع الخامس : الولاية المشتركة :

وهي التي تكون لله تعالى ، ورسوله صلى الله عليه وسلم ، والمؤمنين فيما بينهم ، يدل عليها قوله تعالى: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ وَمَن يَتَوَلَّ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ اللّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ "(٣)، وقد جاء النظم القرآني البليغ المعجز مصدراً ومستفتحاً الآية بإنما الكافة ليفيد(٤)، أن الولاية المنعقدة على وجه مشروع ، هي التي تبتدئ بالولاية الإلهية ، ثم تنتهي بولاية المؤمنين العقلاء ، أهل الصلاح والرشاد ، بعضهم من بعضهم ، وبعضهم لبعض ،

---

(١) سورة الأنفال الآيتان ٧٤ ، ٧٥ .
(٢) سورة التوبة الآية ٧١ .
(٣) سورة المائدة الآيات ٥٤ / ٥٦ .
(٤) أهل اللغة يقولون إذا دخلت ما على حرف إن كفتها عن العمل ، فصار وجودها من حيث المعنى لا من ناحية الإعراب والبناء ، ومن ثم يقولون عليها كاف ومكفوف ، والغاية واضحة والهدف محدد .

وبناء عليه تكون الولاية الأصلية الأساسية لله تعالى ورسوله أما الولايات التي تجئ بعدهما من الناحية الإيمانية فهي مشروعة ، طالما التزمت ما جاء من عنده جل علاه [١] .

ما تم ذكره يمثل قطرة من بحر ، فيما يتعلق بالولاية المشروعة ، من ناحية التعريف والأدلة ، ومن ناحية التقسيمات والأنواع ، بحيث يكون فيما ذكرت وسيلة للتذكر امتثالاً لقول الله تعالى: " إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ " [٢] .

القسم الثاني : الولاية غير المشروعة (الشيطانية) :

وهي التي تنعقد لغير الله تعالى ، وتجئ مخالفة لما جاء من عنده جل علاه ، أو فيها تكذيب الحق الذي بعث الله تعالى الأنبياء به ، وكلفهم القيام عليه ، وهي تتنوع إلى ولاية إنسية، وولاية شيطانية ، ثم ولاية الظالمين ، بجانب ولاية العاصين ، ثم ولاية الكافرين ، ولاية الطاغون ، وبعدها ولاية اليهود والنصاري ، إلى غير ذلك من الأنواع الدالة على السير في اتجاه المعاصي لا ناحية الطاعات ، وهذا مما يجعل أنواع ذات القسم بالغة حداً في التعدد والتنوع[٣] ، وسألتقط بعضاً منها طبقاً لما هو وارد بظاهر الآيات القرآنية :

١. ولاية الشيطان :

الشيطان في مادته اللغوية ، معناه البعيد عما هو مألوف لدى الناس ، وقائم في الطبع ، وذلك مما تنفر منه الفطرة ، ويراه غير مقبول العقل الواعي ، ولذا قال العرب إن الشيطان هو كل عات باغ ، بعيد عن الحق والهدى ، من الإنس والجن

---

(١) راجع كتابنا أنسام حبية في الأفكار الصوفية ص ٧٧ .
(٢) سورة هود الآية ١٠٣ .
(٣) التنوع في الولاية الشيطانية باعتبار القائم بها تاره ، وباعتبار الموضوع تارة أخرى ، وباعتبار الذات الواقع عليها ، وهذا ما يكشف عنه الفاعل الهادف ف القرآن الكريم .

والذواب[1] ، كما يدل على كل مخالف عن نية وجهة قصد ، مخف عـن أقرانـه حقيقة أمره ، قال النابغة الذبياني :

نأت بسعاد عنك نوى شطون   فبانت والفؤاد بها رهين[2]

وقال الشاعر العربي جرير :

أيام يدعونني الشيطان من غزل   وهن يهوينني إذ كنت شيطانا[3]

وقد أطلق وصف الشيطان على الباغي من بني الإنسان والجان ، قال تعالى : وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ الإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِيَ أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَى أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ " [4].

من الواضح أن اللوم واقع عليهم ، والتلاؤم قائم بينهم لأنهم جميعاً ساروا في طريق الضلال حتى صار للأنس ولي من شياطين الجن ، وللجن ولي من شياطين الإنس ، يدل على هذا المعنى قول الله تعالى : " وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا وَاللّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء أَتَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلاَلَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء

---

(١) راجع للعلامة الفيروزابادي : القاموس المحيط باب النون فصل الشين وما يثالثهما ، وللزمخشري أساس البلاغة باب الشين فصل الطاء .

(٢) البيت من بحر الوافر وهو يعبر عن نزعة داخلية ، وخوف من خطر لم يكن صاحبه يتوقعه ، وبالتالي أثر على نفسه تأثيراً قوياً .

(٣) البيت لجرير وهو من بحر البسيط ، ويدل على نوع من الفخر بما يقوم به ، ولا يلتفت لما يقوله الآخرون عنه كأنه لا يكترث بشيء .

(٤) سورة الأنعام الآيات ١٢٨ / ١٣٠ .

مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ"[1].

من ثم فالشيطان من حيث المعنى هو كل بعيد عن شرع الله تعالى غير ملتزم بما جاء به المرسلون من الله عز وجل لهداية الخلق ، وتعريفهم بالخالق ، والأخذ بأيديهم حتى يبلغوا درجة المصلحة العليا في الدنيا ، والسعادة البالغة في الآخرة ، ومن ثم فالشياطين أنواع:

الأول : الشيطان الإنسي (شيطان الإنس) :

وهو الإنسان العاقل الواعي ، الذي ينكر ما جاء من عند الله تعالى ، ويجادل في أسمائه الحسنى ، وصفاته العظمى ، ويخرج على ما جاء من عنده جل شأنه في التكاليف كلها أو بعضها ، وهو شيطان أنسى لكونه بعيداً عن الالتزام بما جاء من الله ، بعيداً عن تقبل الفيوضات الربانية ، حيث جرت سنة الله تعالى في خلقه أن تكون فيوضات أنواره على قلوب أهل الطاعة[2].

قال تعالى:"وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ" [3]وكل من خرج على شرع الله فقد بعد عنه ، وكل من تولى هذا الخارج على دين الله ، فقد اتخذه ولياً من دون الله ، مع أنه شيطان أنسي يمشي بين الناس، ويأكل معهم ويشرب معهم ، على أنه واحد منهم ، وما هو إلا مطرود من رحمة الله لأنه كفر به ، وكذب بآياته[4].

وقد يستدل على هذا المعنى من قول الله تعالى : " وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ

---

(١) سورة الأعراف الآيات ٢٨ / ٣٠ .

(٢) راجع كتابنا من وحي البيان في جماعة الشيطان ، ص ١٣ / ١٩ حيث أن هذا التعريف للشيطان الإنسي رأيته أوفى من غيره بالنسبة لي ولذا تمسكت به من غير ممانعة على .

(٣) سورة الحج الآيتان ٣ ، ٤ .

(٤) كل تصرف غير مقبول على ناحية الشرع يوصف بالبعد ، وهو الشيطنة وفاعله شيطان لأنه الذي قام به ، ولذا كان أهل الصلاح إذا غفل الواحد منهم عن الذكر اعتبر ذلك نوعاً من الشطن وهو البعد فيسارع إلى الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم .

الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ "(١).

لقد كان نبي الله موسى الكليم عليه السلام قوياً شديداً ، وقد أعطاه الله ذلك لحكمة لا يعلمها إلا هو ، فلما دخل المدينة في غير ترقب من أهلها رأى الناس على حالهم ، القوي يبطش بالضعيف والقبطي المصري يقتل الإسرائيلي الأجير ، وكان كثير من الناس يعتقدون أن موسى ابن فرعون لأنه تربى في قصره ، وكان فرعون يقول إنه ابني ، ومن ثم كانت حصانته من حصانة فرعون نفسه ، وله من المهابة والبغض في النفوس ما لفرعون ذاته(٢) .

غير أنه وجد رجلين داخل ذات المدينة والناس أغلبهم في قيلوله أحدهما يضرب الثاني بعنف يوشك أن يقتله ، فلما أبصر المضروب ــ وكان من العبرانيين الذين هم في الأصل جماعة موسى عليه السلام ، ولم يكن يعرف ذلك موسى ــ استغاثه اعتقاداً منه أنه ابن الملك الذي لا يرد له أمر ، قال تعالى : "فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه "(٣).

وكان هذا القبطي أكبر سناً من موسى ومن ثم فهو يعلم أن موسى ابن أبيه المجهول وليس ابن فرعون ، وإنه إنما يتربى في بيت فرعون ، وبالتالي فلم تكن له ذات المهابة في نفس ذلك المصري ، وهي التي تكون للأمراء أبناء الملوك ، وهذا مما شجعه إلى عدم الالتفات لنصيحة موسى بترك المستغيث ، بل إنه تعدى

---

(١) سورة القصص الآيات ١٥ / ١٧ .

(٢) قص القرآن الكريم طرفاً من هذا عن طريق الأمنية التي تحركت داخل وجدان امرأة فرعون حينما قالت ما حكاه القرآن الكريم عنها : وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ" سورة القصص الآية ٩ .

(٣) كانت هذه الاستغاثة بما فيها من معاني طلب النجدة ، والتماس النجاة ، مع صراخ شديد يقوم به المستغيث من عوامل إقبال موسى عليه السلام لدفع الظلم عنه .

على موسى ذاته بالدفع[١] .

لقد بات موسى عليه السلام في موقف الدفاع عن نفسه ، بجانب تحقيق رجاء المستغيث به ، فماذا هو فاعل ، وبخاصة أن المصري قفز إلى موسى يريد إبعاده عن الغريب ، حتى يستمر في ضربه بما شاء له من هوى ، فلما لم يسمح له موسى بذلك تعدى عليه ذاته ، وذلك مما دعا موسى لأن يدفع القبطي بمجمع يده ، وكان أجل القبطي قد انقضى فمات من حاله[٢] .

هنا شعر موسى عليه السلام أنه بهذا التصرف قد بعد عن الحل الأمثل ، ويعلم أن ذلك من الشيطان ، وهذا مما صورته الآيات القرآنية في قوله تعالى : " فوكزه موسى فقضى عليه "[٣] قال هذا من عمل الشيطان ، ثم ذكر من صفات الشيطان إنه عدو ومضل مبين ، وبناء عليه استغفر الله تعالى فغفر له الله ، قال تعالى : " قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ "[٤].

على كل فإن الشيطان الإنسي له مظاهر كثيرة منها الإضلال والغواية ، والوقوع في الله جل علاه ، واستحلال المحرمات، بجانب الخوض في آيات الله جل علاه ، قال تعالى : " وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَكِن ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ

---

(١) هذا بما يؤكد أن موسى عليه السلام لم يكن نبياً ، إذ كانت سنه خمسة عشر عاماً ، والنبوة أتته في سن الأربعين بناء على أن كل نبي بلغ بالرسالة بعد الأربعين إلا عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا ويوسف بن يعقوب ، راجع للشيخ البروسوي ـ تنوير الأذهان ، المجلد الثالث ، ص ١٤٢ .

(٢) لم تكن وكزة موسى هي القاتلة ، وإنما كانت سبباً مقارناً لانتهاء أجله وفي الحكم القديمة يقولون لو صبر القاتل على المقتول لكان مات من غيره .

(٣) البعض من المفسرين يقولون فوكزه موسى فقضى عليه ملك الموت بانتهاء أجله ، وهو من باب المجاز ، على أساس أن ذلك هو الذي يناسب مقام النبوة الكريم ، لكن ذلك حدث من موسى عليه السلام قبل النبوة ، كما أنه لم يكن قاصداً ، وفوق ذلك فقد كان في مرحلة دفاع عن النفس .

(٤) سورة القصص الآية ١٦ .

اللَّهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لاَّ يُؤْخَذْ مِنْهَا أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ"[1]، كما أن الشياطين الأنسية يوحون إلى زملائهم بالجدل في الله تعالى وأحكامه بغير علم، إتباعاً لهوى واستجابة لما في نفوسهم المريضة من ميل إلى محاربة الله ومحادته ، متخذين العلم وسيلة ، قال تعالى: "وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ"[2].

وهم في ذات الوقت لا ينشغلون إلا بأهوائهم ومحاولة إرضاء أخوانهم الذين يشاركونهم الغي والضلال ، يستوي أمرهم في تحريم الحلال أو تحلة الحرام في المأكولات والمشروبات وغيرها قال تعالى : " وَذَرُواْ ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُواْ يَقْتَرِفُونَ وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجَرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلاَّ بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ "[3].

أخلص مما سلف إلى أن الشيطان الإنسي هو الإنسان الواعي ، البالغ العاقل الذي يخرج على دين الله ، ويبتعد عن هديه ، ويجادل فيه ، ويسعى لاضلال الناس حتى يكون داخلاً في نطاق قوله تعالى : " كلما دخلت أمة لعنت أختها ومظاهره متعددة ، وحيله متنوعة ، وأساليبه كثيرة ، وهم بيننا كثير نسأل الله السلامة منهم والنجاة بعيداً عنهم[4]. أما ولايتهم فهي عمل شيطاني أيضاً من حيث أن الذي يتولى

---

(١) سورة الأنعام الآيات ٦٨ / ٧٠ .

(٢) سورة الحج الآيتان ٣ ، ٤ .

(٣) سورة الأنعام الآيات ١٢٠ / ١٢٣ .

(٤) شيطان الإنسان له تأثير كبير في أمثاله لأنه بحيله والاعيبه قد تزن له السوء خيرا ، وهذا مما يدل عليه قوله تعالى " أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاء وَيَهْدِي مَن يَشَاء فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ " سورة فاطر الآية ٨ .

الشيطان يكون مثله ، وفي الحكم القديمة من أخى شيطاناً فهو مثله ، لأنه يقترن به والله تعالى يقول : "وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ حَتَّى إِذَا جَاءنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ" (١). ويقول الحكماء :

واختر قرينك واصطفيه تفاخراً　　　إن القرين إلى المقارن ينسب

وقال جل شأن عن ولاية هذا الشيطان الأنسي : "إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَانًا مَّرِيدًا لَّعَنَهُ اللّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللّهِ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلاَ يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا "(٢)، والشيطان قد أغضب الرحمن ، ومن يتخذه ولياً من دون الله تعالى فقد وقع في الهلاك والخسران وتلك من سنن الله في خلقه ، وكل شيء عنده بمقدار (٣).

الثاني : ولاية الشيطان من بني الجان :

الجن خلق من خلق الله تعالى وهم أجسام لطيفة نارية ، أقدرهم الله تعالى على التشكل بالأشكال المختلفة ، وهي قبيحة غير مألوفة غالباً ، يأكلون ويشربون ، ويتناكحون ويتناسلون ، يولدون ويموتون ، ومنهم الطائع ومنهم العاصي ، ومنهم الكافر وفيهم البار ، ومن بينهم الفاجر ، وهم مكلفون من أصل الخلقة وقد بعث إليهم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، قال تعالى : "وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى

---

(١) سورة الزخرف الآيات ٣٦ :٣٨ واقتران الإنسان العاقل بالشياطن الإنسي فيه إعلان عن موافقته له فيما يقوم به وهو عين الضلال المبين .
(٢) سورة النساء الآيات ١١٧ / ١٢١ .
(٣) آمل أن أجد فسحة من الوقت والصحة حتى ابسط القول في هذا الجانب ، وأذكر نماذج ما جاءت به الآيات القرآنية ، وما ذلك على الله بعزيز .

الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَولِيَاء أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ" [1].

وفي القرآن الكريم سورة الجن وهي مكية وترتيبها في المصحف ٧٢ وعدد آياتها ٢٨ ، وقد نزلت بعد سورة الأعراف وهي في الترتيب المصحفي بين سورة نوح ، وسورة المزمل ، وفيها حديث طويل وهام عن الجن ، والله تعالى ذكر المادة التي خلقوا منها فقال تعالى: "وَالْجَآنَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ"[2].

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم خلق الله الملائكة من نور ، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم، ولأنهم خلق لطيف، فقد لا نراهم بسهولة إلا إذا تشكلوا في صور، يمكن إدراكها من بعض مظاهرها ، وهم يستطيعون رؤية بني الإنسان في مواضع كثيرة ، يدل عليه قوله تعالى : " يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ"[3].

والجان فيهم المؤمن الطائع الذي يبلغ في الصلاح درجة عالية ، وفيهم الجن البعيد تماماً عن دين الله تعالى وتعاليمه، وهؤلاء هم الشياطين، ومن ثم فالشيطان من بين الجان ، هو الفرد الواعي العاقل ، الذي عرف الله تعالى وكفر به ، وعلم أنه واحد له كافة صفات الجلال والجمال والكمال والإكرام فأنكرها ، فصار بعيداً عن شرع الله كما هو بعيد عن رحمته[4] ، يدل عليه قوله تعالى :" وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ

---

(١) سورة الأحقاف الآيات ٢٩ / ٣٢ .

(٢) سورة الحجر الآية ٢٧ والسموم من الريح هي الحارة شديدة الحرارة قال أبو عبيدة السموم بالنهار وقد تكون بالليل ، والحرور بالليل وقد تكون بالنهار راجع للعلامة أبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري ، الصحاح تاج اللغة ، وصحاح العربية باب الشين ص ٥٦١ ط دار الحديث .

(٣) سورة الأعراف الآية ٢٧ ، من ثم فالجن العاصي له أمثال غريبة وسلوكيات عجيبة ، راجع كتابنا من وحي البيان في جماعة الشيطان ، ص ١٣ / ٣٥ .

(٤) الشيطان الجني يظل على حالة من الكفر والإلحاد والإنكار والعصيان لم يستجب لله تعالى ، ولم يستفد بما جاء من عنده ، وإنما جادل واستكبر وفسق فصار بفعلته الآثمة من أهل النار .

اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا" (١) ثم إن الشيطان الجني من طرائقه في الإفساد الوسوسة بالباطل ، دون أن يظهر لمن يوسوس له ، مستخدماً الخنس حيلة له ، وقد علمنا الله تعالى الاستعاذة منهم ، قال تعالى : " قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ مَلِكِ النَّاسِ إِلَهِ النَّاسِ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ "(٢).

وللشياطين من الجن علاقات متبادلة بينهم وأمثالهم في الجن والإنس أيضاً ، وكل منهم يجعل الثاني ولياً له ، ومن ثم تعددت صور هذه العلاقة :

أ ـ ولاية الشيطان الإنسي لمثيله الإنسي :

وهي التي يقوم بها الفرد الواعي من بني الإنسان ، الخارج على دين الله تعالى حيث يتخذ كل منهما زميله وصديقه ولياً له، يأتمر بأمره، وينتهي بنهيه ، يكل إليه أمره، ويستشيره في كل أمر يأتي معه، وبالتالي فهم يتعاونون على الإثم والعدوان ، ليس بينهم طريق للخير أبداً، ليستوي في ذلك أن يكونوا ذكوراً وإناثاً،رجالاً أو نساء بعضهم أولياء بعض .(٣)

ب ـ ولاية الشيطان الإنسي للشيطان الجني :

وهي التي يكون الطريف الفاعل فيها هو الشيطان الجني من حيث أنه يزيف للأنسي كل أوجه الإغراء والضلال ، قال تعالى: " الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ يُؤتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ "(٤)ثم يقوم معه بعمليات ابتزازية ، يترتب عليها الإذلال الكامل له مع الاستذلال ، قال تعالى: " إِنَّ

---

(١) سورة الكهف الآية ٥٠ .
(٢) سورة الناس وهي السورة رقم ١١٤ في الترتيب المصحفي وعددها ٦ آيات .
(٣) هذه الولاية تبدو مظاهرها في مواقف كثيرة حكاها القرآن الكريم ودلت عليها السنة المطهرة.
(٤) سورة البقرة الآيتان ٢٦٨ / ٢٦٩ .

الَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا اللّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ"[١] .

وقال جل شأنه: " إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَلاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّواْ اللّهَ شَيْئاً يُرِيدُ اللّهُ أَلاَّ يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ لَن يَضُرُّواْ اللّهَ شَيْئًا وَلهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُواْ إِثْمًا وَلَهْمُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ".[٢] إلى غير ذلك من المظاهر ، التي جاءتَ فيها ولاية الشيطان الإنسي للشيطان الجني ، وخضوعه له خضوعاً كاملاً .

ج ــ ولاية الشيطان الجني لمثيله الجني:

وهي التي تقوم على تبادل أنواع المفاسد فيما بينهم من أمر بالمنكر ، ونهي عن المعروف ، والكفر بآيات الله مع التكذيب بلقائه، وممارسة الأعمال المنهي عنها شرعاً، كما يفعل الشياطين من بني الإنسان، قال تعالى:" وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ"[٣] . كما أن الشياطين الجنية قد يقع بينهم تجمع بما تقضي إليه مواقفهم ، وبالتالي فكل منهم يتخذ الثاني وليا له من دون الله ، وجميعهم في الخسران واقع لأن الولاية الحقة الأصلية، لا تكون إلا لله رب العالمين ، ثم تأتي ولاية الرسول والمؤمنين تبعاً لها .

د ــ ولاية الشيطان الجني للشيطان الإنسي:

وهي التي تكون القيادة فيها للشيطان الجني ، حيث يغويه بالإلحاد ، كما يمارس معه مقدمات الخروج على الله ، ويقع بينهما تعاون في المعاصي على ناحية من

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٥٥ .
(٢) سورة آل عمران الآيات ١٧٥ / ١٧٨ .
(٣) سورة الأنعام الآيتان ١٢١ ، ١٢٢ .

النواحي التسخيرية لمن يعتقدونها على سبيل التعلم والتعليم، ومنها السحر والطلاسم بجانب النجوم وقراءة الطالع وغيرها ، فإنها جميعاً أفعال شيطانية ، وتدل على نوع من العلاقة بين شياطين الإنس وشياطين الجن .

قال تعالى : " وَيَوْمَ يِحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ الإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِيَ أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَى أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ" [٢]

غير أني أنوه إلى مسألة هامة ، بل ضرورية في نفس الوقت وهي أن الولايات الشيطانية سواء أكانت في بني الإنسان وحدهم ، أو في الجان وحدهم ، أو في بني الإنسان والجان جميعاً ، فإن الذي لا خلاف حوله هو أنها لا تعلق لها بالصوفية إلا من باب التخويف والترهيب[٢]، والصوفية الأعلام يرفضونها جمعيا.

الثالث : ولاية الظالمين :

العدل اسم من أسماء الله الحسنى ، وصفة من صفاته العظمى ، والعادل ظل الله في أرضه ، قال تعالى: " إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ اللّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلاَ تَنقُضُواْ الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا

---

(١) سورة الأنعام الآيات ١٢٨ / ١٣٢ ، والمظاهر في الولايات الشيطانية الإنسية والجنية متعددة في مظاهرها وأشكالها وقد تناولتها آيات القرآن الكريم بالإشارة إليها مما يحتاج المطولات للكتابة فيها والبحث عنها ، والخروج بنتائج تتعلق بها ، وآمل أن تقوم دراسة جامعية حولها ولتكن تحت عنوان العلاقة بين الشيطان والإنسان في القرآن .

(٢) الصوفية في الأصل أطباء قلوب ، وأصحاب تفكير علمي قلبي وجداني ، وبالتالي فارتباطهم بالولاية إنما هو من الناحية الإيمانية التي تجيء فيها الطاعة بأنواعها ولا مجال فيها للمعاصي .

تَفْعَلُونَ"(١)، وفي الأثر العادلون هم المقسطون وهم عند الله تعالى يوم القيامة على منار من نور يغبطهم فيها الشهداء والصالحون ، والعدل صفة أهل الله الذين لا يجورون ولا يظلمون ، وعلى ربهم يتوكلون ، أما الظلم فهو ممارسة ما نهى الله تعالى عنه استخفافاً بأمر الله تعالى ، وامتهاناً لحرمات دينه ، والظالمون في كل حال هم وقود النار .

قال تعالى : " وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاء فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا"(٢).

ولما كان الظلم نهايته سيئة ونتائجه فاسدة ، فإن الذين يتولى بعضهم بعضاً في الظلم ، إنما يرتكبون أفعالاً إجرامية، وهم أولياء بعض فيما فعلوا ، قال تعالى : "وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاء الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ"(٣).

ثم إن ولاية الظالمين من الملوك والأمراء بجانب الحكماء وغيرهم ، إنما تضر بأصحابها ، كما تضر بمن يتولاهم أيضاً إذ القاسم المشترك بين الجميع هو الوقوع

---

(١) سورة النحل الآيات ٩٠ ، ٩١ .
(٢) سورة الجن الآيات ٨ / ١٥ .
(٣) سورة الجاثية الآيات ١٦ / ٢٠ .

في دائرة الظلم[١].

ذكر العلامة الماوردي أنه حكي له أن الوليد بن يزيد بن عبد الملك تفاءل يوماً في المصحف، ولم تكن تلك عادته ، فخرج له قوله تعالى: "وَاسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ " [٢] فقام الوليد مسرعاً بتمزيق المصحف الشريف وهو يقول :

أتوعد كل جبار عنيد   فها أنا ذاك جبار عنيد

إذا ما جئت ربك يوم حشر   فقل يا رب مزقني الوليد[٣]

فلم يلبث الوليد بعد هذا الموقف ، إلا أياماً قلائل ، ثم قتل شر قتلة ، بل صلب رأسه على قصره، ثم علق على سور بلده، فعقبى الظالمين الخسارة في الدنيا والنار في الآخرة[٤] ، ولا شك أن الظلم أنواع ، ومع كل نوع جمع من الظالمين وكان العلامة الأوزاعي الفقيه يقول :

المال ينفد حله وحرامه   يوماً ويبقى بعده آثامه

ليس التقي بمتق لإلهه   حتى يطيب شرابه وطعامه

ويطيب ما يجني ويكسب أهله   ويطيب من لفظ الحديث كلامه

نطق النبي لنا به عن ربه   فعلى النبي صلاته وسلامه[٥]

والظالم يلقى الندامة في دار الدنيا ، ممن ظلمه ، ومن الناس جميعاً ، لأن ألسنة الخلق أقلام الحق ، كما يلغى العقبي القاسية في الآخرة ، وفي الحكم يقولون :

لا تظلمن إذا ما كنت مقتدراً   فالظلم ترجع عقباه إلى الندم

تنام عيناك والمظلوم منتبه   يدعو عليك وعين الله لم تنم

---

(١) راجع للإمام أبي حامد الغزالي إحياء علوم الدين حيث ذكر ولاية الظالمين ومظاهرها ، كما بين الموضوع الذي يتعلق بها ، بما يؤكد أن المسألة لا تقف عند حد معين ، إنما تبقى ما بقي الظلم قائماً.

(٢) سورة إبراهيم الآية ١٥ .

(٣) كأن هذا ينظر للمصحف الشريف على أنه مثال ورمز ويسعى لتدميره بالانتصار عليه ، كشأن كل ظالم جهول باغ عنيد .

(٤) العلامة أبو الحسن الماوردي ، أدب الدنيا والدين ص ٣٧٩ .

(٥) من الظلم للنفس أن يأكل المرء حراماً ، أو يكتسي ويتداوى حراماً لأن كل حرام يدخل صاحبه النار ، والرسول صلى الله عليه وسلم قال كل لحم نبت من حرام فالنار أولى به .

ومهما كان من شأن المظلوم، فإن دعاءه إلى الله مرفوع ، وأجره عنده موصول حكي أن الرشيد حبس أبا العتاهية ، فكتب على حائط المحبس :

أما والله إن الظلم شـــؤم ومازال المسيء هو الظلوم

إلى ديان يوم الدين نمضي وعند الله تجتمع الخصـــوم(١)

قد يقع الظلم من صاحب سلطان قاهر ، تتألف من رهبته الأهواء المختلفة ، وتجتمع لهيبته القلوب المتفرقة ، وتنكف بسطوته الأيدي المتغالبة ، وتمتنـــع مـــن خوفه النفوس العادية ، لأن في طباع الناس من حب المغالبة والمنافسة علـــى مـــا آثروه(٢) ، والقهر لمن عاندوه ، ما لا ينكفون عنه إلا بمانع قوي ، ورادع ملي وقد أفصح المتنبي عن ذلك في قوله :

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذاعفـــــه فلعـــلة لا يظـــلم

يقول الماوردي ، وهذه العلة المانعة من الظلم ، لا تخلو من أحد أربعة أشياء إما عتق زاجر ، أو دين حاجز ، أو سلطان رادع ، أو عجز صاد ، فإذا تأملتها لم تجد خامساً يقترن بها ، ورهبة السلطان أبلغها ، لأن العقـــل والـــدين ربمـــا كانـــا مضعوفين ، أو بدواعي الهوى مغلوبين ، فتكون رهبة السلطان أشد زجراً ، وأقوى ردعاً (٣) .

على كل فإن ولاية الظالمين مرفوضة شرعاً ، منكره في العرف السليم عرفاً ، ابتداؤها من النار ، ومنتهاها الهلاك والدمار ، قال تعالى :" وَإِنَّ كُلاًّ لَّمَّا لَيُـــوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلاَ تَطْغَوْاْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللّـــهِ

---

(١) من مكارم الأخلاق العدل ، ومن علاماته الرضا بما قسم الله ، ومن مظاهره في النـاس تحقيق الأمن والأمان ، بجانب السلم والسلام .

(٢) هذا ليس من باب الطبع لأن الفطرة الإلهية خالية من ذلك وإنما هو ناتج التطبع .

(٣) راجع للعلامة الماوردي : أدب الدنيا والدين ص ١٦٨ ، ١٦٩ .

منْ أَوْلِيَاء ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ"(١).

وكل من والي الظالمين محبة لهم ، أو نفاقاً مع قدرته على غير ذلك فإنما يغامر بأرصدته الدينية التي خلقها الله تعالى له ، كما يستهدف مخزونه الإيماني ، ويستنفذ ضميره الذاتي ، وانطلاقه الوجداني ، وهذا مما يبعده عن رحمات رب العالمين ويدخله في نطاق المغضوب عليهم إلى يوم الدين ، ومن أحب قوماً حشر معهم ، وحسب منهم وعوقب بعقابهم ، أن كانوا من غير الطائعين .

الرابع : ولاية الكافرين :

الكافر هو الذي يغطي الشيء ويستره ، من ناحية العطاء اللغوي ، ولذا سمي الذي يستر النبات بالتراب والماء وهو الفلاح كافراً ، من حيث مادة العطاء اللغوي يدل عليه قوله عز وجل شأنه : "اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاء وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ"(٢).

أما من حيث المعنى الاصطلاحي فإن الكافر هو الذي يخفي حقيقه الإيمان في قلبه ثم يغطيها بالإلحاد ، فيكون كافراً للإيمان من حيث إنه ستره دوماً بالإلحاد ، من حيث أعلنه وأقامه ، لأن الله تعالى خلق الناس جميعاً على الفطرة الإلهية ، وهي الإيمان الكامل بالله رب العالمين، يدل عليه قوله تعالى : " فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ

---

(١) سورة هود الآيات ١١١ / ١١٥ .
(٢) سورة الحديد الآيتان ٢٠ / ٢١ .

النَّاس لَا يَعْلَمُونَ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ "[١]. ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم : " ما من مولود إلا يولد على الفطرة ، وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء ، هل ترون فيها من جدعاء ، ثم تلا قول الله تعالى فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم[٢].

وكل من أخفى الإيمان ولم يعترف به ، كما لم يُدافع عنه ويظهره ويفاخر به ، وأعلنَ الإلحاد وتمسك به ، فهو كافر بالله رب العالمين على أساس أن الكفر أنواع منها كفر الملة ، وكفر النعمة ، وكفر المعروف ، وكفر القيم الخلقية ، وكُفْر الجحود ، إلى غير ذلك من أنواع الكفر ، وكلها لها ظواهر في النقل المنزل ، يمكن الرجوع إليها ، مع بيان كفر الشرك وكفر المعصية على ما أفاض فيه الباحثون .

ثم إن ولاية الكافرين قد جاءت إشارات إليها في آيات كثيرة منها قوله تعالى : "لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُو نتَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِالله والنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاء وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ"[٣].

أضف إلى ما سبق إن ولاية الكافرين تكون لهم فيما بينهم ، ويترتب عليها الضلال الكبير لخروجهم على مقتضى ما جاء من عند الله تعالى ، يدل عليه قوله جل شأنه: " وَالَّذينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ

---

(١) سورة الروم الآيات ٣٠ / ٣٢ .

(٢) الإمام البخاري ـ صحيح البخاري ج ٤ ، ص ١٧٩٢ ، كتاب التفسير باب سورة ألم غلبت الروم. حديث رقم ٤٤٩٧ والإمام مسلم ، صحيح مسلم ، ج ٤ ، ص ٢٠٤٧ كتاب القدر حديث رقم ٢٦٥٨ .

(٣) سورة المائدة الآيات ٧٨ / ٨١ .

وَفَسَادٌ كَبِيرٌ "[١]، وقد دلت الآيات القرآنية أن الله تعالى نزه المتقين وأهل الصلاح عن أن تكون للظالمين ولايات عليهم لأن الله تعالى لم يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلاً ، كما لم يجعل للمنافقين المؤمنين سبيلاً ، لأن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ، ولن تجد لهم نصيراً ، والكافر هو ممن ليس لهم عند الله تعالى قبول ، ومن ثم فقد كانت ولاية كل منهما على المؤمنين منعدمة وغير مقبولة ، على ناحية من النواحي، بل إنها فيما بينهم تكون مرفوضة شرعاً.[٢] وإن كانت قائمة فعلاً .

الخامسة : ولاية اليهود والنصارى :

تحدثت آيات كثيرة عن أن كلاً من اليهود والنصارى لا تنعقد لهم ولاية على المؤمنين أبداً ، مهما كان نوعها ، أما لماذا فلأن في اليهود والنصارى يقع بينهم تبادل في هذه المنافع ، قال تعال : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى اللّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُواْ عَلَى مَا أَسَرُّواْ فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُواْ أَهَؤُلاء الَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَاسِرِينَ" [٣].

ولما كانت ولاياتهم لهم بعضهم بعضاً ، فلن تنعقد لهم ولاية على المؤمنين أبداً ، لأن الولاية نوع من القيادة والتوجيه ، وهذا إنما يكون للمؤمن على غيره ، ولا يكون لغيره عليه أبداً ، ومن والى قوماً وجعلهم أصحاب قيادة له وتوجيه عليه فقد أخضع نفسه لهم ، وخرج بذلك عن مقاصد شريعة الله تعالى[٤] قال جل شأنه :

---

(١) سورة الأنفال الآية ٧٣ ، والآيات القرآنية في هذا الشأن كثيرة ، كلها منفرة من التعامل مع الكافرين فضلاً عن أن يكونوا أولياء .

(٢) لقد بين الله تعالى أنه لا يقبل من العباد إلا ما هو مشروع من الله تعالى على ما جاءت به الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، وجاء معه إجماع السلف الصالح رضوان الله عليهم من العلماء العاملين .

(٣) سورة المائدة الآيات ٥١ / ٥٣ .

(٤) راجع كتابنا لماذا انتشر الإسلام ج ٢ ص ٧٣ ، وكتابنا حبو الوليد في علم التوحيد ص ١٨٥ .

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاَةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ " (١).

السادس : ولاية الطاغوت :(٢)

وهي تولي الفرد الواعي العاقل كل كاهن وشيطان أمره، الذي قد يكله لرأس من رؤوس الضلالة ، بحيث يتصرف فيه بما يضره ويؤذيه ، قال العلامة ابن عطية : الطاغوت اسم لكل ما عبد من دون الله ، وكان له على قومه يد ، أو لهم به ولع ، بحيث يكون راضيا بها ، كفرعون موسى ، ونمرود إبراهيم ، أو لم يكن راضياً بها. كالعزير، وعيسى عليهما السلام، ومن لا يعقل ذلك كالأصنام، فإنها سميت طاغوتاً في حق العبدة ، وذلك من باب المجاز ، إذ هي بسبب الطاغوت الذي يأمر بـذلك ويحسنه الشيطان(٣) .

وقد جاء لفظ الطاغوت في القرآن الكريم للدلالة على الفرد في قوله تعـالى: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنـزِلَ مِـن قَبْلِـكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ وَيُرِيـدُ الشَّـيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيدًا وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَـى الرَّسُـولِ رَأَيْـتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَـدَّمَتْ أَيْـدِيهِمْ ثُـمَّ

---

(١) سورة المائدة الآيتان ٥٧ / ٥٨ .

(٢) الطاغوت هو كل كاهن ، وخارج على شرع الله تعالى ، من حيث أنه لا يؤمن بالله تعالى ، ويطلق لفظ الطاغوت على الشيطان ، كما يطلق على كل رأس في الضلالة ، واحداً كان أم جمعاً ، راجع للعلامة الزمخشري أساس البلاغة ، باب الطاء ، وللعلامة الجوهري الصحاح تاج العربية باب الطاء ص ٧٠٢ .

(٣) راجع للعلامة ابن عطية الغرناطي ـ المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، الجزء الثالث ، ص ١٩٨ ، ١٩٩ .

جَآؤُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ُ ولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا " (١).

كما جاء اللفظ للدلالة على الجمع في قوله تعالى: " اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ" (٢).

ويصح أن يكون لفظ الطاغوت اسم جنس لا واحد له من لفظه في الحقيقة الاستعمالية، ولكنه يجمع على صيغة بذاتها كلفظ كل من جيش ، وشعب ، ورهط وقبيلة(٣).

يدل عليه قول الله تعالى : "الَّذِينَ آمَنُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُواْ أَوْلِيَاء الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا " (٤).

من ثم كانت ولاية الطاغوت على أي نحو باطلة ، لأنها إنما قامت على أفكار شيطانية ، ومزاعم كاذبة ، لا علاقة لها بشيء من هدي البرية ، وفي ذات الوقت تمثل نوعاً من الانفلات عن قوانين الفطرة ، والخروج على قواعد العقل الصحيح .

مما سلف بيانه اتضح أن الولاية غير المشروعة أنواع وفروع ، وكلها جاءت إليها إشارات في القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه ، لأنه من حكيم حميد نزل ، قال تعالى: "إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاء وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن

---

(١) سورة النساء الآيات ٥٩ / ٦٣ .
(٢) سورة البقرة الآية ٢٥٧ .
(٣) وتسمى عند النحاة أسماء أجناس من حيث أنها لا واحد لها من ناحية اللفظ ، ومع هذا فلها وزن صرفي ، كما لها وضع إعرابي .
(٤) سورة النساء الآية ٧٦ .

مَّكَانٍ بَعِيدٍ" [١]. وهو في ذات الوقت قد حفظه الله عز وجل من حيث إنه الذي أنزله فلن يقع عليه شيء من تحريف ، وإنما سيظل كما هو أبد الدهر ، قال جل شأنه : "إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ"[٢].

ولما كانت هذه الولايات غير المشروعة ، ليست هدفاً للصوفي ولا غاية ، فإنه لا يهتم بها إلا بمقدار أن التعرف عليها يجعله يزداد تمسكاً بما هو فيه من الطاعة الربانية ، والمحبة الإلهية ، والولاية الشرعية [٣]، وقديماً قيل :

عرف الشر لا للشر لكن لتوقيه ... ومن لا يعرف الشر من الناس يقع فيه

إن الفرد الصوفي الواعي قد صفى قلبه وعقله لله ، وهو دائماً يعتمد على قاعدة بيانات إحصائية يقوم هو بها يضبط من خلالها علاقته بالله تعالى على أحسن الوجوه وأوفاها ، ويسعى جاهداً للإبقاء عليها في الإطار الامتيازي لأنها العلاقة الربانية التي تبقى من خلال الصفاء والنقاء القلبي والسلوكي والوجداني .

---

(١) سورة فصلت الآيات ٤١ / ٤٤ .

(٢) سورة الحجر الآية ٩ .

(٣) الولي لله تعالى لا يشغل عقله بشيء غير الله تعالى ، ومن ثم لم تكن لهم عناية بهذه الولايات الشيطانية من حيث أن الاشتغال بها قد يفسد على الواحد منهم نقاء قلبه وسلامة وجدانه .

أهم المصادر والمراجع

حسب ورودها بهوامش الصفحات

(١) القرآن الكريم .
(٢) الاتحافات السنية بالأحاديث القدسية ـ العلامة الشيخ عبد الرؤوف المناوي .
(٣) النفحات السلفية ـ الشيخ محمد منير الدمشقي .
(٤) منارات السائرين ومقامات الطائرين ـ الشيخ أبو بكر شاهاور .
(٥) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ـ الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي .
(٦) البحر المحيط في التفسير ـ العلامة أبو حيان الأندلسي الغرناطي .
(٧) تنوير الأذهان من تفسير روح البيان ـ الشيخ إسماعيل حقي البروسوي .
(٨) تفسير الكشاف ـ العلامة الزمخشري .
(٩) مفاتيح الغيب ـ العلامة الفخر الرازي .
(١٠) الرسالة القشيرية ـ الشيخ عبد الركريم القشيري .
(١١) طريق السالكين ـ العلامة الشيخ محمد نور الدين البغدادي .
(١٢) الطريق إلى الله تعالى ـ الشيخ على حسن العمريطي .
(١٣) العباس بن عبد المطلب ساقي الحرمين ـ الدكتور محمد حسيني موسى الغزالي
(١٤) سيرة النبي ـ العلامة ابن هشام .
(١٥) معجم الشعراء ـ العلامة المرزوقي .
(١٦) النبي الرحمة ـ الشيخ منصور البرديسي .
(١٧) الرسول والرسالة ـ الشيخ محمد عبد العظيم نصار .
(١٨) النبي محمد ـ الأستاذ عبد الكريم الخطيب .
(١٩) العرب وظور الإسلام ـ الدكتور / محمود محمد زيادة .
(٢٠) القاموس المحيط ـ العلامة الفيروزابادي .
(٢١) أساس البلاغة ـ العلامة الزمخشري .
(٢٢) من وحي البيان في جماعة الشيطان ـ د/ محمد حسيني موسى الغزالي
(٢٣) الصحاح قاج العربية ـ العلامة الشيخ الجوهري .

(٢٤) إحياء علوم الدين ـ الإمام أبو حامد الغزالي .
(٢٥) أدب الدنيا والدين ـ العلامة الشيخ الماوردي .
(٢٦) صحيح البخاري ـ الإمام البخاري .
(٢٧) صحيح مسلم ـ الإمام مسلم .
(٢٨) لماذا انتشر الإسلام ـ د / محمد حسيني موسى محمد الغزالي .
(٢٩) حبو الوليد في علم التوحيد ـ د / محمد حسيني موسى الغزالي .
(٣٠) المحرر الوجير في تفسير الكتاب العزيز ـ العلامة ابن عطيه الغرناطي.

***

الفصل الرابع

الولي
في
الفكر الصوفي

لاشك أن الولاية الربانية مقام، نظراً لارتباطها بالحفظ والرعاية، وانطلاقها في كافة المقامات والأحوال ، لتشمل جميع ما يتعلق بالإنسان من حيث هو إنسان وقديما قيل :

وإذا العناية لا حظتك عيونها نم فالمخاوف كلهن أمان

في نفس الوقت فإن الولاية الربانية تمثل مقام العبد أمام الله تعالى، من حيث مراعاة الأحكام الإلهية ، مع النصح لله تعالى، والنصرة لدينه ، والدفاع عن نبيه الخاتم سيدنا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، وكتاب الله ، بجانب النصح لأئمة المسلمين وعامتهم(١) ، وقد نبه إلى ذلك صاحب النفحات السلفية حيث يقول أن الولاية الإلهية للعبد تقوم في أن يكون الله تعالى هو المتولي لأموره كلها ، وناصراً له ومؤيداً ، فيكلؤه بعنايته ، ويوفقه للأعمال الصالحة حتى لا يأتي إلا بخير(٢) فمن ذلك الذي يوفقه الله للأعمال الصالحة على الدوام الذي يأتي معه الخير باستمرار ، إنه الولي الرباني .

أولاً : تعريف الولي :

يعرف العلامة القشيري الولي بأنه من يتولى الله سبحانه وتعالى أمره ، قال الله تعالى ، وهو يتولي الصالحين ، فلا يكله إلى نفسه لحظة، بل يتولى الحق جل علاه رعايته وحفظه(٣)، كما عرفه بأنه الذي يتولى عبادة الله تعالى وطاعته فعبادته تجري على التوالي ، من غير أن يتخللها عصيان ، وكلا الوصفين واجب له(٤) .

---

(١) على أن يكون ذلك خالصاً لوجه الله الكريم ، لقوله جل شأنه أنا أغنى الأغنياء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه غيري تركته وشركه .

(٢) راجع للعلامة الشيخ محمد منير الدمشقي ـ النفحات السلفية بشرح الأحاديث القدسية ص ١٢٠ .

(٣) وهذا التعريف قدمناه على أساس أن ولي مادته الصرفية تجيئ على فعيل بمعنى مفعول ، فكأن الولي بهذا المعنى قد أقيم تعريفه على أنه مهيأ للولاية .

(٤) راجع للإمام القشيري : الرسالة القشيرية ص ٢٠٠ وهذان الوصفان يجنيان على أكثر من جهة وهو ما نبه إليه العلامة القشيري .

وأرى أن الولي يكون لديه استعداد لجريان هذا الفضل الإلهي عليه ، من حيث التزامه الداخلي ، ورغبته القائمة في الوصول لمقام العبودية ، حيث أن الله تعالى يختطفه إليه اختطافاً ، فالعبد باستعداده الفطري ، وتوفيقه الرباني ، تتم له الولاية ، حينئذ يكون هو الواقع عليه شأنها[١] .

ويمكن تعريف الولي بأنه من يتولى الله تعالى بالطاعات ، من غير انقطاع فيواليه الله تعالى على الدوام بالكرامات ، يدل عليه قوله تعالى : " إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ " [٢] .

قال العلامة الفخر الرازي : إن ولي الله هو الذي يتولى الله حفظه ونصرته فلا تضرهم عداوة من عاداهم ، لأن من كان الله تعالى وليه ، فهو الغالب على الدوام وكلما استمرت طاعة العبد بقيت ولاية الله تعالى له[٣] . ومن المظاهر التطبيقية ما نقله أهل العلم عن كثير من الصحابة والتابعين، ومن بعدهم بطرق مأمونة ، حكي أن صهيب بن سنان الرومي رضي الله تعالى عنه[٤] لما خرج من مكة يريد الهجرة إلى النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، اتبعه نفر من المشركين.

فلما وافوه قتلوا بعضاً ممن كانوا معه، فنظر إليهم صهيب - وكان شيخاً كبيراً - ومعه كنانة فيها سهامه ، وكان رامياً مصيباً[٥] ، فانتصب إليهم ، وقال يا معشر قريش ، لقد علمتم أني من أرماكم رجلاً ، وأدقكم تصويباً . ثم قال:

---

(١) الجانب الأول وهو الاستعداد يفهم من قوله تعالى : " وما تقرب إلي عبدي المؤمن بمثل أداء ما افترضته عليه ، الجانب الثاني ، وما زال عبدي المؤمن يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه.

(٢) سورة الأعراف الآية ١٩٦ .

(٣) راجع للفخر الرازي - مفاتيح الغيب المجلد السابع ، ص ١٤ .

(٤) وردت فيه أحاديث منها السابقون إلى الجنة أربعة محمد صلى الله عليه وسلم سابق العرب وبلال سابق الحبشة ، وسلمان سابق الفرس ، وصهيب سابق الروم ، راجع للإمام الغزالي مكاشفة القلوب المقرب لحضرة علام الغيوب في على التصوف .

(٥) معرفته بالرماية ودقته في الإصابة كانا من الأمور المشهورة عنه ، ولذا قيل كان صهيب الشيخ رامياً ، وتلك صفة يمتدح بها الفرد الواعي مادام ذلك في سبيل الله .

والله لا أضع سهمي إلا في قلب رجل ، وأيم الله لا تصلون إلى حتى أرمي بكل سهم في كنانتي ، ثم لأضربن بسيفي ما بقي في يدي ، فإذا انقضى ذلك كله فافعلوا ما شئتم، لن ينفعكم كوني فيكم[١] فإني شيخ كبير ، ولي مال كثير في داري بمكة ، فارجعوا فخذوه ، وخلوني وما أنا عليه من الإسلام ، فلما رأوا منه عزماً قوياً وتصميماً على ما يريد تركوه يمضي إلى الهجرة وعادوا إلى داره فأخذوها وماله أيضاً[٢].

فلما وصل صهيب إلى المدينة المنورة ، دار الهجرة لقيه الصديق رضي الله تعالى عنه ، فقال له ربح البيع يا صهيب قالها ثلاثاً[٣] ، فقال صهيب وما ذاك فقال الصديق رضي الله تعالى عنه نزل فيك آيات ، فقال صهيب فيَّ أنا ، فقرأ الصديق عليه قول الله تعالى : " وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ وَاللّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ "[٤] .

يقول الشيخ البروسوي : إن المؤمنين باعوا باختيارهم أنفسهم لله تعالى ، فكان ثمن المؤمن الجنة وقد قبل الله منهم الشراء قال تعالى : " إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللّهِ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ

---

(١) اللغة الحاسمة في مثل تلك المواقف ، يكون تأثيرها قوياً وفعالاً في نفس الوقت ، وقد تكون وسيلة ردع ، لمن تسول له نفسه الاستمرار في التحدي أو الترهيب .

(٢) هذه الأموال والبيوت والعقارات والمنقولات التي تركها المهاجرون، اعتبرها المشركون أموالاً مشتركة ثم أخذوها وتاجروا فيها ، وكانت القافلة التي وقع القتال في بدر بشأنها من مال هؤلاء المسلمين المهاجرين الذين تركوا كل شيء وذهبوا إلى الله تعالى .

(٣) كان سيدنا صهيب رضي الله تعالى عنه تاجرا يجيد التجارة في كل شيء ، وكانت أكثر تجارته في الذهب ، ولذا لما ذهب مهاجراً قال له المشركون إنك جئت من بلاد الروم فقيراً ثم تاجرت في أموالنا فلا ندعك تهاجر بها ، ومن ثم كانت غايتهم منه المال ، وكانت غايته الله تعالى ، فترك لهم غايتهم الدنيئة ، ليفوز بغايته الراقية .

(٤) سورة البقرة الآية ٢٠٧ .

الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ " [١] .

أما الأولياء فإنهم باعوا باختبارهم أنفسهم ، فكان ثمن النفس مرضاة الله تعالى ، فعلى السالك طريق الله تعالى الراغب فيما عنده الخروج من الأوطان ، والاغتراب عن ديار الأحزان ، بحيث يكون مجاهداً حقيقيا، وشهيداً معنوياً ، حتى وإنَ كان غريباً عن الديار، تحقيقاً للبشرى التي وعد بها في قوله صلى الله عليه وسلم طوبى للغرباء [٢].

يقول الشيخ القشيري ، وحتى يكون الولي ولياً، يجب قيامه بحقوق الله تعالى على الاستقصاء والاستيفاء ، ودوام حفظ الله تعالى إياه في السراء والضراء ، من حيث أنه يكون محفوظاً ، كما يكون النبي معصوما، وكل من كان عليه اعتراض فهو مغرور مخدوع .[٣]

يقول الشيخ أبو يزيد البسطامي رحمه الله : أولياء الله تعالى هم عرائس الله جل علاه ، ولا يرى العرائس إلا المحرمون ، منهم مخدرون عنده ، في حجاب الإنس لا يراهم أحد في الدنيا ، ولا في الآخرة[٤].

وسئل إبراهيم بن أدهم عن كيفية بلوغ الولاية لله ، فقال لسائله أتحب أن تكون لله ولياً ، فقال الرجل أحب أن أكون ، فقال ابن أدهم لا ترغب في شيء من الدنيا والآخرة ، وفرغ نفسك لله تعالى ، وأقبل بوجهك عليه ، ليقبل عليك ويواليك[٥] . وسئل يحيى بن معاذ رضي الله عنه عن صفة الأولياء وطرائق

---

(١) سورة التوبة الآيتان ١١١ / ١١٢ .

(٢) راجع للعلامة البروسوي " تنوير الأذهان من تفسير روح البيان ، المجلد الأول ج١ ، الجزء الثاني ص ١٦٠، والحديث هو بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء قيل ومن هم الغرباء يا رسول الله ، قال الذين يتمسكون بسنتي عند فساد أمتي، أخرجه الإمام الترمذي في سننه وأحمد في المسند .

(٣) راجع للعلامة القشيري ـ الرسالة القشيرية ص ٢٠١ والحفظ للولي يكون بمثابة تامين له على أن رصيده مازال قائماً عند الله تعالى ، ومحبته مما يحتاج المزيد من المتابعة والمداومة.

(٤) راجع للشيخ محمد بن على الأتابكي من دروس التصوف ، ص ١٧٧ وراجع للشيخ محمود أبو الوفا الأنصاري التصوف نور وبركة ، ص ١١٥ .

(٥) القاعدة الفطرية والعقلية أن عد من طرق أبواب الخير نفتح له ومهما طال أمد الإغلاق فإن آمال الفتح تكون قائمة وفي الأمثال مد من القرع للأبواب يوما يلج .

التعرف عليهم فقال، الأولياء هم عباد الله، الذين تسربلوا بالأنس بعد المكابدة ، واعتنقوا الروح بعد المجاهدة ، وتمسكوا بالصبر على المجالدة ، وباتوا ليلهم لله سجدا ، وأمضوا نهارهم صوماً ، لأنهم فرحوا بما هم عليه من مقام الولاية[١]. حتى قالوا نهايات الأولياء ، بدايات الأنبياء .

وكلما والى العبد ربه بمزيد الطاعات ، فإن الله تعالى يفتح عليه ويواليه بالكرامات ، من غير احتياج لشيء آخر ، لأنه إذا وصل مقام الولاية انفتحت أمامه جميع أبواب المقامات ، وهذا مما يدل على أن الولي يكون شغله بالله تعالى ، وفراره إليه جل شأنه ، وهمه في التوجه إليه جل علاه [٢] .

وكان الخراز رحمه الله يقول : إذا أراد الله تعالى أن يوالي عبداً من عبيده فتح عليه باب ذكره ، فإذا استلذ الذكر ، فتح عليه باب القرب ، ثم رفعه إلى مجالس الإنس به ، ثم أجلسه على كرسي التوحيد ، ثم رفع عنه الحجب ، وأدخله دار الفردانية ، وكشف له عن الجلال والعظمة ، فإذا وقع بصره على الجلال والعظمة بقي بلا هوي ، وحينئذ يصير العبد زمناً فانياً حتى يقع في حفظه سبحانه وتعالى ، كما يبرأ من دعاوي نفسه[٣] .

وقد يرى الشيخ شاهاور ، نوعاً من التعليل في التعريف للولي، والتسمية به فيقول : إن المؤمن يتولى الله تعالى بالعبادة والطاعة، وهذا أمر مقرر فيه ، فيتولاه الله تعالى بالتوفيق والهداية[٤] ، مع الاستمرار في عمل الطاعات ، ومن ثم كان الأولياء هم، الذين يتقربون إلى الله تعالى تارة، بأداء ما افترض عليهم ،

---

(١) راجع للشيخ محمد عبد العظيم سرحان ـ التصوف والصوفية وكرامات الأولياء ج ٢ ، ص ١٥٧ ، ١٥٨ وهو يركز كثيراً على الجانب التطبيقي في الأداء الصوفي، ومن ثم فهو يفيد ضرورة اقتران العلم بالعمل .

(٢) راجع للشيخ نصر الدين بن علي البغدادي كرامات الأولياء ص ١٤٥ ، ١٤٦ وللعلامة الشيخ ناصر الدين حسن بن عبد العظيم الطوانسي ، أولياء الله ص ١١٤ ، ١١٥ .

(٣) راجع للعلامة القشيري ـ الرسالة القشيرية ص ٢٠٣ وهذا مما يجعل القول بوحدة الوجود مفهوماً قريباً من الأداء الصوفي المتميز .

(٤) متى وقع هذا القول الإلهي للعبد فإن كافة أموره تتحول إلى ما هو خير وأبقى .

وتارة أخرى ، لا يزالون يتقربون إليه جل شأنه بالنوافل حتى يحبهم[١].

ثم يقول فإذا أحبهم الله تعالى ، وبلغوا مقام المحبة فهم أهل الوسط في الولاية ، لكنهم غير واقفين على ولايتهم ، ولهذا اختلفوا في هل يجوز للولي أن يعلم أنه ولي أم لا[٢] واختلافهم راجع لفهم أثر المحبة ، في توجيه سلوكيات وممارسات العبد المحبوب نفسه .

وإذا أردنا تقديم تعريف للولي يجمع المعاني المقبولة، نقول إنه إنسان واع من بني آدم ، أدرك أن له رباً خالقاً كريماً فتعلق به وسعى في إرضائه على الناحية المشروعة ، وظل على ذلك أبداً ، ديدنه الطاعة ، منهجه العبادة ، غايته أن يكون حيث أمر الله ، وأراد راضياً بكل ما يجيء من عنده جل شأنه ، شاكرا في السراء ، صابراً في الضراء ، وليس لديه سراء وضراء [٣].

وقد نبه الشيخ الشوكاني إلى أن المعيار الذي يمكن تطبيقه على الولي ، هو الرضى في كل الأحوال ، واستصغار الذات أمام كل ما يرد عن الواحد القهار ، وهو معيار يمكن القيام به في كثير من الأحوال [٤] .

ثانياً : أدلة وجودهم :

الدليل في العطاء اللغوي، هو المرشد والهادي إلى ما يستدل به، أو يستدل

---

(١) هذا الحب الإلهي له مظاهر كثيرة في حياة الأولياء منها أنه تعالى يلقي في قلب القلب المحبة الكاملة ، كما يوضع له القبول بين الناس ، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم إذا أحب الله عبداً نادى يا جبريل إني أحب فلاناً فأحبه ، ثم ينادي جبريل في أهل السماء وأهل الأرض أن الله تعالى يحب فلاناً فأحبوه ، فيوضع له الحب بين الناس أيضاً . وإذا غضب الله تعالى على عبد نادى يا جبريل إني أبغض فلاناً فأبغضه ، ثم ينادي جبريل في أهل السماء والأرض إن الله تعالى يبغض فلاناً فأبغضوه ، فيوضع له البغض بين الناس أيضاً .

(٢) راجع للشيخ شاهاور منارات السائرين ومقامات الطائرين ، ص ١٨٦ .

(٣) الولي الحقيقي لا يكشف نفسه أمام أحد سوى خالقه ، ولذا فإنه إذا صابته سراء كانت هي الخير ذاته ، وإن أصابته ضراء كانت معبراً عن امتنانه لما ورد في الأثر ، إذا أحد الله عبداً ابتلاه ، فإذا أراد أن يزيد في محبته اجتباه و من قريب ناداه ، عبدي إني لك محب فبحقي عليك كن لي محباً .

(٤) راجع للعلامة الشوكاني - قطر الولي على حديث الولي ص ١٩٥ ، ٢١٠ ، وهو معنى بجوانب عديدة يمكن الاستفادة منها على الناحية التطبيقية بصور متعددة .

عليه ، فهو دليل ودال معاً، من حيث المعنى، متى استخدم في مفهوم الطريق[١] ومن الشواهد عليه ما أنشده أبو عبيد :

إني امرؤ بالطرق ذو دلالات[٢]

كما أن الدليل قد يستعمل في معنى قريب من الهدي وهما من السكينة الوقار في الهيئة ، والمنظر والشمائل وغير ذلك ، وفي الحديث كان أصحاب عبد الله يرحلون إلى عمر رضي الله ، فينظرون إلى سمته وهديه ودله فيتشبهون به[٣]، وقد يكون الدليل فطرياً ، أو نقلياً ، وقد يكون عقلياً أو عملياً ، وقد يكون سلوكياً معيارياً ، وقد يكون ذاتياً يعبر عن حالة فردية ذاتية ، ومن ثم تنوعت الأدلة ، وتنوعت معها صور ومظاهر استعمالها من النواحي المختلفة ، ولذا قالوا الدليل في الاصطلاح ، هو الذي يلزم من العلم به ، العلم بشيء آخر[٤] والدليل على وجود الولي لله رب العالمين له صور ومظاهر متنوعة، بحيث يمكن اعتبار كل منها دليلاً مستقلاً ، وهناك من الأدلة ما يلي :

الدليل النقلي :

وهو ما كانت مقدماته كلها نقلية، واردة في القرآن الكريم، أو السنة النبوية المطهرة الصحيحة ، ويسمى نقلياً، من حيث أن الله تعالى أمرنا أن ننقل عنه طبقاً لما ورد في الكتاب والسنة ، في قوله تعالى ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءكُم مِّنَ اللّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُم

---

(١) يقول صاحب قطر المحيط الدليل ما يستدل به ، والدليل هو الدال على الطريق ، باب الدال فصل اللام ، وهو معنى من معاني الدليل على ما ورد في اللغة .

(٢) هذا الشاهد على معنى لغوي ، وهو في ذات الوقت من المنظوم وهو من بحر الرجز الذي يطلق عليه لدى البعض بحر الغناء ، راجع كتابنا النقد الأدبي ، ص ١٥٧ .

(٣) راجع للعلامة الجوهري ـ الصحاح تاج اللغة ، وصحاح العربية باب الدال ص ٣٨٢ ، وقد يأتي من مادة الكلمة ما يدل على عظم القنافذ ومنه قول ابن معدان الباهلي :
جاء الحزائم والزبائن دلدلا ٠٠ لا سابقين ولا مع القطان ، والمعنى أنهم وسط بين جماعات الناس فلاهم يميلون إلى هؤلاء ، ولا إلى هؤلاء على الدوام .

(٤) راجع للعلامة السيد الشريف الجرجاني التعريفات باب الدال ص ٩٣ .

مِّنِ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [(١)]. وقوله صلى الله عليه وسلم ، تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما ــ كتاب الله وسنة رسوله [(٢)].

فمن القرآن الكريم على أدلة وجود الولي قوله تعالى : ﴿ إِنَّ وَلِيِّـيَ اللّـهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴾ [(٣)] وفيه إعلان صريح عن ولاية الله تعالى للصالحين ، فهو وليهم بمعنى كافلهم وناصرهم وحارسهم وكافيهم ومدافع عنهم ، وهم أولياؤه بمعنى أنهم في طاعة دائمة، وعبادة قائمة، لا يبرحونها أبداً ولهذا فهم أولياؤه وهو وليهم بهذا المعنى ، وتقوم ولاية الله تعالى لهم بهذا الاعتبار من ناحية النقل المنزل[(٤)].

وقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَـأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِـي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُـمْ رَاكِعُونَ وَمَن يَتَوَلَّ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ اللّهِ هُمُ الْغَـالِبُونَ﴾ [(٥)] قال العلامة الفخر الرازي : الولي لله هو الذي يتولى الله تعالى أمره كله ، كما يحبه وينصره ، وتقع بينهما الموالاة على الدوام ، موالاة العبد كله بالطاعات ،

---

(١) سورة المائدة الآيتان ١٥ ، ١٦ .
(٢) الإمام مالك بن أنس ـ موطأ مالك برواية يحيى الليثي ج ٢ ص ٨٩٩ كتاب القدر باب النهي عن القول بالقدر ، حديث ١٥٩٤ وراجع للعلامة الخطيب التبريزي ـ مشكاة المصابيح ج ١ ص ٤٠ حديث رقم ١٨٦ ، الطبعة الثالثة وعن زيد بن ثابت قال قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم إني تارك فيكم الخليفتين من بعدي ، كتاب الله وعترتي أهل بيتي ، وإنهما لن يتفرقا حتى يردا على الحوض ، العلامة ابن شيبة ، المصنف في الأحاديث والآثار ، ج٦ ص ٣٠٩ ط الأولى مكتبة الرشيد بالرياض .
(٣) سورة الأعراف الآية ١٩٦ .
(٤) راجع للعلامة ابن عطية ، المحرر الوجيز ، أثناء تناوله للآية الكريمة ، وراجع تفسير الإمام القرطبي في ذات الآية لترى الأدلة التي قدمها على تفسيره للآية الكريمة ، والاستدلال على الولاية والولي .
(٥) سورة المائدة الآيات ٥٤ / ٥٦ .

وولاية الله تعالى للعبد بالكرامات[1] ومنها قوله تعالى : ﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّــهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيــاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ وَلاَ يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [٢].

قال الشيخ البروسوى المولي هو من يعرف الله تعالى حق معرفته ، كما يعرف نفسه ، لأن من عرف نفسه حق المعرفة ، وعلم أن هذه النفس قد تلقــي بالعبد في معصية الله تعالى ، وعداوته عالجها بالمعاندة والمكابدة ، حتى يأمن مكرها وكيدها ، ويظل على مقام الطاعة ، والعبادة لله رب العالمين[٣] .

وقال العلامة أبو السعود رحمه الله : الولي لله تعالى هو أخلص المؤمنين والمراد بأولياء الله جل شأنه ، أنهم أخلص المؤمنين، لقد خلصهم ربهم إليــه ، ومن شواغل أنفسهم صفاهم لمحبته ، وبات ذلك معياراً لقــربهم الروحــاني لله سبحانه وتعالى [٤]. من المؤكد أن أولياء الله تعالى يتقربون إليه بطاعته ، مــع الاستغراق في معرفة جلاله ومحبته ، بحيث إذا رأوا فإنما يرون دلائل قدرته ، وإن سمعوا فإنما يسمعون آياته ، وإن نطقوا فإنما ينطقون بالثناء عليــه ، وإن تحركوا في خدمته ، وهم لا خوف عليهم في الدنيا من لحــوق مكــروه ، ولا يحزنون في الآخرة من فوات مطلوب [٥].

---

(١) راجع للعلامة الفخر الرازي ـ مفاتيح الغيب المجلد السادس الجزء الحادي عشر ص ٦٤ /٦٥ ومن ثم فالآية فيها مظاهر الدلالة على وجود الولي قائمة وظاهرة أيضاً .

(٢) سورة يونس الآيات ٦٢ / ٦٥ .

(٣) راجع للعلامة إسماعيل حقي البروسوي ، تنوير الأذهان في تفسير روح البيان ، المجلد الثاني ص ١٥٠، فيه دليل على أن الولي لله هو الذي يلزم طاعته جل شأنه ، ولا يتصرف في حقوق الله تعالى أبداً

(٤) راجع للعلامة أبي السعود ـ إرشاد العقل السليم عند تفسيره لقوله الله تعالى : " ألا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ . سورة يونس الآيات ٦٢- / ٦٤ .

(٥) لأن الخوف في العادة إنما يكون من توقع حدوث مكروه من المكاره غير المشروعة ، كما أن الحزن إنما يكون فيما يتعلق بالأمور الارتباطية التي لها دلالات توقيفية أو توفيقية.

والآيات القرآنية في إثبات وقوع الولاية الربانية ، ووجود الولي لله تعالى كثيرة ، ويمكن حملها على ظواهر من غير تأويل،وحينئذ تبلغ جملة من الدلائل كلها تقوم في صور متعددة، ومظاهر متنوعة، ليكون المعيار الأمثل فيها جميعاً هو الإقرار بوجودها على ناحية شرعية تفضلاً من الله تعالى ولطفاً ورحمة[1].

ومن السنة النبوية المطهرة ما روي عن سعيد بن جبير رضي الله تعالى عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل من أولياء الله ، فقال صلى الله عليه وسلم هم الذين يذكر تعالى برؤيتهم[2] وفيه دليل على ثبوت الولاية الربانية بجانب وجود أولياء لله تعالى من الناحية الحقيقية، وقوله صلى الله عليه وسلم : إن لله عباداً ليسوا بأنبياء ولا شهداء ، يغبطهم النبيون والشهداء يوم القيامة لمكانهم من الله عز وجل ، قيل يا رسول الله ، من هم ؟ وما هي أعمالهم ، قال هم قوم تحابوا في الله تعالى،على غير أرحام بينهم ، ولا أموال يتعاطونها ، فو الله إن وجوههم لنور ، وإنهم لعلى منابر من نور ، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس[3] .

ومن الأحاديث القدسية ما أورده العلامة المناوي، من قول رب العزة شأنه من عادى ولياً فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلى عبدي بشيء أحب إلى مما افترضته عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته ، كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ،

---

(١) هذا مما يقع للعبد على سبيل المنح الإلهية ، أما الاستمرار في الطاعة والتزام العبادة والتعلق بالملأ الأعلى ، فذلك مما يسعى إليه الفرد الواعي ، ويبذل جهداً كبيراً بغرض تحقيقه والوصول إليه .

(٢) راجع مختصر ابن كثير ج ٢ ص ١٩٩ ، والحديث أخرجه البزار عن عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهم ، ومن ثم فكلما رآهم راء عرف أنهم أولياء الله تعالى من كثرة ذكرهم له ، وإفاضة النور الإلهي عليهم .

(٣) الإمام أبو داود السنن ، ورواه ابن جرير الطبري عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، وبالتالي فالأدلة من السنة المطهرة متعددة ومؤكدة وجود الولي والولاية المشروعة تفضلاً من الله تعالى ورحمة .

ورجله التي يمشى عليها ، وإن سألني لأعطينه ، وإن استعاذ بي لأعيذنه ، وما ترددت في شيء أنا فاعله ، ترددي عن قبض نفس المؤمن ، يكره الموت ،وأنا اكره مساءته[١].وهي أدلة متنوعة من حيث دلالتها على وجود الولي ، ومتكاثرة من ناحية إقامة الدليل ، بحيث يكون المنكر لوجود المولى والأولياء والولاية الربانية منكراً لما هو وارد في النصوص النقلية القطعية من حيث ورودها .

ومن الأدلة العقلية أن الولاية أمر ممكن عقلاً ، إذ يجوز أن ترقى بعض النفوس في مدارجها الإيمانية ، ثم ترتقي ناحية الملأ الأعلى ،عن طريق التجرد من الغرائز، والسيطرة على الدوافع ، وكبح جماح الشهوة ، وتقليم أظافرها ، وكلما واصلوا المسير في ذات الطريق ، تحقق لهم الكثير من التوفيق ، مع ملاحظة أن المانح والمعطي هو الله جل علاه .[٢]

وقد نبه إلى هذا الجانب كثيرين من أهل العلم،يقول الشيخ البروسوي: فإن قيل من هم الأولياء ، وما سبب فوزهم بتلك الكرامة ، قيل هم الذين جمعوا بين الإيمان بالله تعالى والتقوى ، حيث كانوا يخافون من صدور سيئات الأعمال والأخلاق في مرتبة الشريعة والحقيقة ، لأنهم يصلحون طبائعهم بالشريعة ، وأنفسهم بالذكر،وقلوبهم بالمعرفة، وأرواحهم بالحقيقة،ومن ثم كانوا أولياء لله[٣]

ومن الأدلة العملية على وجود هؤلاء الأولياء الربانيين أن الواحد منهم لو أقسم على الله تعالى لأبره ، يدل عليه ما ورد في الخبر من أن رسول الله صلى

---

(١) العلامة عبد الروف المناوي ـ الاتحافات السنية في الأحاديث القدسية ج ١ ص ٦٤ ، حديث رقم ١/١٤٠ مؤسسة الرسالة ، لبنان ، تحقيق محمد عفيفي الزغبي .

(٢) هذا الفضل الرباني تشهد له بعض الوقائع الحياتية ، ولا ينكره إلا من لم يذق طعم الروحانيات ، أو لم يكن لديه استعداد للانطلاق نحو الملأ الأعلى ، وهي مشكلته الشخصية ، ولا تحسب على أحد من أولياء الله تعالى ، كما لا تحسب على الولاية ذاتها والصوفية يقولون من ذاق عرف ، ومن حرم انحرف .

(٣)راجع للشيخ البروسوي ـ تنوير الأذهان من تفسير روح البيان المجلد الثاني ص ١٥٠ ، وهو يؤكد على أن الدليل العقلي لا توجد فيه ممانعة من وجود أولياء لله على الحقيقة التي أخبر الله تعالى عنها في القرآن الكريم ، وجاء ذكرها في الحديث القدسي والحديث النبوي . .

الله عليه وسلم قال : رب أشعث أغبر ذي طمرين[١] لا يؤبه له ، لو أقسم على الله تعالى لأبره [٢].

كما أن للأولياء وجود في حياة الناس،وقد كان العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه من أولئك الأولياء، والدليل عليه أن الله تعالى سقى أهل الحرمين ببركة استسقاء الناس بالعباس بن عبد المطلب رضي الله تعالى عنه [٣]، ثم إن الأولياء لله يتفاوتون في درجاتهم بمقدار الطاعة ، والتبتل في العبادة ، وكلما ارتقت درجات العبادة والتبتل ، ازدادت درجة العبد رقياً لمنازل الولاية ، وأقصى ما يصلون إليه من رعاية واهتمام وعناية ، وهذا مما يجعل مواقفهم متعالية ، ودرجاتهم بين أكمل الناس ، كما هي عند الله تعالى ، لما ورد به الخبر ألسنة الخلق أقلام الحق .

ثالثاً : شروط الولي :

عرفنا أن الولي هو العبد الصالح ، القائم في عقله النوراني ، ووعيه الرحماني ، موالاة الله تعالى بالطاعات ، دون نظر إليها ، وأن الله تعالى يواليه بالكرامات دون انقطاع[٤] ، وعرفنا أن العلاقة بين قلب هذا العبد والمدد الإلهي لا تنقطع ، لأن عراها موثقة وجوانبها قوية ، كما أن ما يجئ معها أركانه قويمة ، ويكفي أنها قائمة في نطاق العبودية لله تعالى المستدل عليها بقول رب

---

(١) الطمران هما الخفان اللذان تظهر أثارهما في الأقدام من خشونة كدليل من أدلة الفقر وعلامة من علامات الحاجة ، كما أن الطمرين قد يكون معناهما ما في القدمين من خشونة وتشقق ناتجان عن الفقر والحاجة ، وكثرة السير على الأرض من غير حذاء راق .

(٢) وللحديث شواهد كثيرة منها قوله صلى الله عليه وسلم إن الله لا ينظر إلى صوركم وأجسادكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم ، وقوله تعالى : " لن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ" سورة الحج الآية ٣٧ .

(٣) راجع كتابنا العباس بن عبد المطلب ساقي الحرمين ، أثناء الحديث عن كرامات العباس رضي الله تعالى عنه ، وراجع للعلامة النبهاني جامع كرامات الأولياء حيث تناول الكثير منها على سبيل الحصر والعد ، بما يؤكد أن الولاية لله مسألة قائمة في الواقع العملي لحياة الناس.

(٤) القاعدة في هذه العلاقة قائمة على الإطراد والعكس ، فكلما والى العبد ربه بالطاعات والاه الله بالكرامات ، وكلما حدث تراخ من العبد ، قلت معه نسبة الكرامات ،

العزة جل علاه : " عبدي أطعني تكن عبداً ربانيا تقول للشيء كن فيكـــون[١] ، لكن السؤال الذي يدور في رؤس الكثيرين ، يقوم على طلب ماهيـــة الشـــروط التي يجب توافرها فيمن يحكم له بالولاية ، أو يحكم عليه بأنه ولي ، وهل هناك معيار عملي أو نظري ، أو مقياس ثابت من خلاله ، نقول أن هذا الإنسان ولي رجلاً كان أو امرأة ، طفلاً كان أو بالغاً ، وبخاصة أن هذه التساؤلات وغيرها مما يدور في المحيط المعرفي، وقد لا توجد له إجابة ، فيقع التشتت من ناحيـــة الفكر ، والخلط بالنسبة للمظهر[٢] .

غير أن الذي يمكن تداركه ، ويعين على تقديم إجابات متكاملة حول هـــذه الأسئلة المتفرعة،ما يتعلق ببيان الشروط التي يجب توافرها في الولي الرحماني وضدها يكون موجوداً في الولي الشيطاني،من حيث أن هذا مما يكشف الفوارق بين أولياء الرحمن ، وأولياء الشيطان[٣]. وهاك مجملاً لتلك الشـــروط ، مـــع تفصيل نوعي حسبما يقتضيه المقام، وسيقوم المنهج على القرآن الكريم، والسنة النبوية ، وما أثر عن أهل العرفان ، من طريق الفهم للقرآن الكريم والسنة .

الشرط الأول : الإيمان السليم :

الإيمان هو التصديق القلبي، بكل ما جاء عن الله تعالى من عنده ، تصديقاً يقوم فيه اليقين المطلق ، وتبدو فيه العقيدة الصحيحة، وتعبر عنه العبادة السليمة وتدل على كماله وتمامه الأخلاق القويمة ، من حيث أن الإيمان هو ما وقر في القلب وصدقه العمل[٤] . فالإيمان شرط أول بل هو أول الشروط كلها ، كما أنه

---

(١) للأحاديث ظواهر كثيرة ، وروايات أسانيدها متعددة ، وراجع النفحات السلفية بشرح الأحاديث القدسية .

(٢) هذا مما ساعد بعض الكذابين والفاسقين على إدعاء الولاية لله تعالى ، مستغلين بعض المظاهر الطفولية ، ومستخدمين بعض الصور والمظاهر الخداعية ، وما هم إلا أولياء للشياطين .

(٣) الإمام ابن تيمية رحمه الله وضع كتاباً تحت هذا العنوان الفرقان بين أولياء الله ، وأولياء الشيطان .

(٤) العمل الصحيح هو المظهر السليم للإيمانِ القائم في القلب والعقل والوجدان من الناحية التي يعتد بها أمام الله تعالى ، راجع كتابنا الإيمان بالغيب وأثره على الفكر الإسلامي ص ٥٣ / ٧٧ .

عمل قلبي لا يحتاج من صاحبه سوى صحة الاعتقاد ، وبالتالي تقوم أجزاؤه في ستة ، كل جزء منها يتكامل غيره، ولا ينفرد عنه أبداً، إلا من ناحية النطق به ، وقد جاءت الأجزاء الستة في الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، فمن حديث جبريل الأمين رضي الله عنه[1] ، الإيمان هو أن تؤمن بالله ، وملائكته وكتبه ورسله ، واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره ، فالإيمان لا ينعقد صحيحاً إلا إذا كانت هذه الأجزاء منعقدة في قلب الإنسان الواعي ، وعقله وضميره ، ويقوم عليها وجدانه ، يدل عليه قول الله تعالى : " اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ" [2] ولما كان الإيمان القلبي لا يحتاج مجهوداً بدنياً ، فقد اعتبرت المنطقة التي يوجد فيها مملكة خالصة للفرد ذاته ، وملكية يجب أن تكون خالصة لله رب العالمين ، يقول العلامة الفخر الرازي قوله تعالى في وصف الأولياء الذين آمنوا ، إشارة إلى كمال حال القوة النظرية ، ولذا قال النبي صلى الله عليه وسلم هم الذين يذكر الله تعالى برؤيتهم[3] .

ومن ثم فإذا زعم الولاية غير مؤمن إيمان صحيحاً ، كان زعمه قائماً على الولاية الشيطانية ، التي تزين لأصحابها السوء على أنه حسن ، يدل عليه قوله تعالى : " أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاء وَيَهْدِي مَن يَشَاء فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ " [4] ومهما قدم أولياء الشياطين من أعمال ظاهرها الصلاح ، فإنها الفساد عينه ، لأنها لم

---

(١) يعرف بحديث جبريل ، كما يعرف بحديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ويعرف بحديث ابن عمر باعتبارات كلها صحيحة عندنا .

(٢) سورة البقرة الآية ٢٥٧ .

(٣) راجع للعلامة الفخر الرازي مفاتيح الغيب المجلد الثامن ج ١٦ ص ٤٤٠ ، ومن ثم فيظهر آثار الإيمان العملي على وجوههم ، ويستدل عليه بقوله تعالى سيماهم في وجوههم من أثر السجود . سورة الفتح الآية ٢٩ .

(٤) سورة فاطر الآية ٨ .

تقم على الجانب الأساسي، الشرط الأول وهو الإيمان ولذا كان من توجيه النبي صلى الله عليه وسلم التأكيد على قضية صدق الإيمان وكان يقول يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا .

لقد نبه المتكلمون أن الولي الرباني ، هو من يكون أتيا بالاعتقاد الصحيح المبني على الدليل ، ويكون أتيا بالأعمال الصالحة على وفق ما وردت به الشريعة الإلهية ، وبالتالي فالإيمان هو العقد الموثق الذي يربط الولي بربه ، ويكشف عن طبيعه تلك العلامة[1]. ولا ينعقد الإيمان صحيحاً إلا إذا قام على التنزيه ودفع التشبيه، والخروج من التعطيل، ولذا كان السلف الصالح رضوان الله تعالى عليهم ، يقولون ليس الإيمان بالتمني ، ولا بالتغني ، ولا بالتجني، إنما هو تسليم مطلق لمن خلقني وصورني، من غير إعياء ولا تعني[2] وبناء عليه يكون الإيمان الصحيح القائم على التسليم القلبي والمعرفة العقلية ، والارتباط الوجداني هو أول الشروط التي يجب توافرها في الولي الرباني ، وكلما علا الإيمان في قلب العبد علا به وعيه ، وتكامل طبعه ، وتفاضل داخله ، وسمت أخلاقه ، حتى يكون بين الناس كالبدر الذي يبدد الظلمات.

الثاني : التقوى الكاملة ـ المشروعة :

التقوى في العطاء اللغوي ساتر يحول بين ذات الفرد ، وما يمكن أن يلحق به من أضرار ، فالثوب الغليظ في الشتاء ، يحول بين الجسم ولفحات البرد القاسية حتى قالوا أن الصوف يقي صاحبه لسع الكفوف[3] ، وهي في المفهوم الاصطلاحي ، الخوف من الجليل ، والعمل بالتنزيل ، والرضا بالقليل ،

---

(١) راجع كتابنا الغزاليات في الإلهيات ص ٥١ ، ٥٢ ، ط أولى ، وكتابنا حبو الوليد في علم التوحيد ص ١٧ / ٢١ الطبعة الثامنة .

(٢) وهم يستدلون على هذا المعنى بقول الله تعالى: "أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ " سورة الأحقاف الآية ٣٣ . وراجع كتابنا منهج السلف في إثبات وجود الله تعالى ص ٣٥ .

(٣) يقصدون بالكفوف تيارات الهواء الباردة ، التي تؤثر في الإنسان تأثيرات سلبية ، وتلحق به الأذى

والاستعداد ليوم الرحيل ، ويستدل عليها بقوله تعالى : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ " (١)، وقوله تعالى : " يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوْاْ الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُواْ الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ "(٢) وقرنها الله تعالى بالوفاء ، الذي ينعقد بالله تعالى ، حتى يجعل صاحبه في قائمة الذين أتاهم الحب الإلهي ، فقال جل شأنه : " بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ " (٣)وترد التوبة كثيراً مقترنه بالإيمان، كدليل عملي على أن الإيمان الصحيح هو أن تأتي التقوى معه كمقام معبر عنه من ذلك قوله تعالى : " وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُواْ واتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّه خَيْرٌ لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ "(٤)، كما تأتي بعد الإيمان في مقام الإعلان عن طرائق تكفير الذنوب ، ووسائل التطهير من العيوب ، قال تعالى : " وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُواْ وَاتَّقَوْاْ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ " (٥) .

ثم جاءت مقترنة بالإيمان الكامل في مجال توصيف أولياء الله وتصنيف ذوي الامتيازات الخاصة ، منهم في قوله تعالى: "أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَياةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ وَلاَ يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ " (٦).

ولأن التقوي بعد الإيمان شرط أساسي في الولي الرباني ، فقد جاءت إليها الإشارات المتنوعة من خلال الأحاديث النبوية ، يدل عليه ما روي عن أبي

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٠٢ .
(٢) سورة البقرة الآية ١٨٩ .
(٣) سورة آل عمران الآية ٧٦ .
(٤) سورة البقرة الآية ١٠٣ .
(٥) سورة المائدة الآية ٦٥ .
(٦) سورة يونس الآيات ٦٢ / ٦٥ .

سعيد الخدري رضي الله عنه قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا نبي الله أوصني ، فقال صلى الله عليه وسلم للرجل عليك بتقوى الله تعالى ، فإنها جماع كل خير ، وعليك بالجهاد فإنه رهبانية المسلم، وعليك بذكر الله تعالى ، فإنه نور لك [١] .

ثم إن الولي الرباني يرى التقوى زاده ، لأنه يطبق قول الله تعالى: "وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ"[٢] ، في ذات الوقت فإنه يلزم نفسه المجانبة عن الشهوات من طريق الرياضات، كما يسعى لمراقبة الخطرات ، والاحتراز من الوقفات عن طريق المشاهدات ، فإذا بقي في ذلك المقام الرباني تمكن من القفز إلى ما هو أعلى وأعظم ، ولا يتم ذلك إلا بخروج ذات الفرد عن حظوظ دنياه ، وعقباه ، برعاية حقوق مولاه ، والاتقاء بالله تعالى عما سواه[٣]، وإذا تمكنت التوبة من قلب العبد،وجاءت محروسة بالخروج عن الخطوط الواقية ، فإنه يقف على مقام عال،يشرف منه على سائر المقامات التي تليه ، والمقام الأعلى الذي يمكنه من ذلك كله ، هو مقام أن تتقي الله حق تقاته ، المشار إليه بقوله تعالى : "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ "[٤].

ليست التقوى كلمات تنطق بها الشفاه ، أو تتمكن من التعبير عنها الألسنة ، أو تخفى حقيقتها المظاهر الارتباطية ، إنها فوق ذلك كله ، ومن ثم فلابد في الولي من شرط التقوى الكاملة بعد الإيمان بالله تعالى ، بحيث تكون التقوى شعاره العملي ، والتفويض وقاره الذاتي ، والإخلاص غذاه المعياري[٥] . كما

---

(١) راجع للعلامة الشيخ شاهاور ، منارات السائرين ومقامات الطائرين ص ١٩١ .
(٢) سورة البقرة الآية ١٩٧ .
(٣) راجع للشيخ محمد نعيم الكاسباني ـ مقامات الصوفية ، ص ١٧٧ وراجع للشيخ شاهاور منارات السائرين ص ١٩٢ .
(٤) سورة آل عمران الآية ١٠٢ .
(٥) راجع كتابنا أنسام حبية في الأفكار الصوفية ص ٦٤ .

أن انقداح أنوار التقوى في قلب الولي تجعل منه شخصاً شاهداً ومشهوداً، شاهداً للملأ الأعلى والعالم الروحاني، حتى لكأنه يرى بأنوار الله ما في ملكوته جل علاه، ومشهوداً من قبل ملائكة الله تعالى، أنه سائر في طريق القرب منه جل علاه ، يقول الشيخ ابن الدباغ : أن من شرط السالك في الولاية ، أنه لايزال يرتقي على الدوام ، ولا يقف مع شيء ، فإنه مهما شاهد من محبوبه صفة ، فوقف معها ، كان ذلك عين حظه منه ، وحجب بها عن الزيادة [١] ثم لا يزال هذا الولي منتظماً في سلك التقوى متطوراً مع مراتب الكمال طوراً بعد طور ، وكلما أدرك حالة جليلة استعد بحصولها عنده إلى منازلة ما هو أكمل منها ، ولسان حاله يقول :

لازلت أنزل من ودادك منزلاً   تتحير الألباب عند نزوله [٢]

وعن أنس رضي الله عنه قال : قيل يا رسول الله ، يا نبي الله ، من آل محمد ، قال صلى الله عليه وسلم ، كل تقي، فالتقوى جماع الخيرات، وحقيقة الاتقاء التحرز بطاعة الله عن عقوبته ، وأصل التقوى اتقاء الشر ، ثم بعده اتقاء المعاصي والسيئات ، ثم بعده اتقاء الشبهات ، ثم تدع بعده الفضلات[٣] .

وكان سهل بن عبد الله يقول ، لا معين إلا الله ، ولا دليل إلا رسول الله ، ولا زاد إلا التقوى ، ولا عمل إلا الصبر عليه ، ولا يكون مقام التوبة متحققاً في الولي إلا إذا كان على ناحية عملية، يبتلي بالنعم فيشكر ، ويبتلي بالأمراض وأنواع البلايا فيصبر ، فإذا بقي على ذلك الحال كان ولياً لله تحقق فيه قول الله تعالى : " وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ "[٤].

---

(١) الحجب هنا فيه نوع من تدريب الملكة والآلة داخل العبد حتى يكون مستعداً للسير فيما بعد ذلك من خطوات من حيث أن طرائق السالكين طويل وفيه مراحل كثيرة .

(٢) راجع للعلامة عبد الرحمن بن محمد الأنصاري المعروف بابن الدباغ ـ مشارق أنوار القلوب ، ومفاتح أسرار الغيوب ص ٨٤ ، تحقيق ه ـ زنير .

(٣) الإمام القشيري ـ الرسالة القشيرية ص ٨٧ لأن معنى اتقوا الله حق تقاته هو أن يطاع فلا يعصي ، ويذكر فلا ينسى ، ويشكر فلا يكفر .

(٤) سورة محمد الآية ٣١ .

بيد أن الولي قد يدخله الله تعالى في مقام استعدادي ، بحيث يكون الإيمان حاملاً له على مجموع الاعتقاد الصحيح ، ممثلاً في كافة الأجـزاء العقديــة ، والتكاليف العملية ممثلة في قوله صلى الله عليه وسلم: " بني الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً "(١) . وقوله صــلى الله عليه وسلم : " الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمــداً رســول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ؛ وتصوم رمضان ، وتحج البيت ، إن اســتطعت إليه سبيلاً(٢) ، والأخلاق القويمة ممثلة في الصبر والشكر ، والأمانة والصدق ، والبعد عن مواطن الشبهات والتزام كل ما يدخل في نطــاق الآداب النظريـــة والتعاملات الواقعية والسلوكيات العملية التي تستهدف تحقيق أعلى الواجبــات الإنسانية التي جاءت بها الشريعة الإلهية(٣) .

ومن مظاهر التقوى على الولي ، ما ذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله ، هم الذين يذكر الله تعالى برؤيتهم ، لأنها تذكر أمر الآخرة ، لما يشاهد فيهم من آيات الخشوع . يدل عليه قوله تعالى : " سيماهم في وجوههم من أثر السجود ، وهم القرب منه جل علاه ، على أعلى مقام ، وقد نبه إلى جملة تلــك المظاهر قول الرسول صلى الله عليه وسلم ، هم قوم تحابوا في الله ، على غير أرحام بينهم، ولا أموال يتعاطونها ، فو الله أن وجوههم لنور، وأنهم لعلى منابر من نور لا يخافون إذا خاف الناس ، ولا يحزنون إذا حزن الناس(٤) .

---

(١) راجع للشيخ محمد عبد العزيز العتر ، أركان الإسلام ص ١٧ والحديث له روايات متعددة وطرق متنوعة .

(٢) راجع حديث جبريل في السؤال عن الإيمان والإسلام ، والإحسان ، والساعة .

(٣) المقرر في المؤلفات الأصولية ، أن الشريعة ما جاءت إلا لصالح العباد ، ومن ثم قالوا متى كانت المصلحة فهو شرع الله ، ومتى وقعت المفسدة فذلك مما يغضب الله جل علاه.

(٤) راجع للشيخ محمد إبراهيم عليان ، الصوفية رجال وأفكار ص ٩٣ وهذا مما يكشف طبيعة هامة في الولي ، ويعبر أيضاً عن اتجاه نوراني ، تدل عليه مظاهر كل من التقوى والورع .

والتقوى مع الولي الرباني عامل دفع إليه ، وانجذاب نحوه ، أليست هي الخوف من الجليل ، الذي يستلزم الانجذاب نحوه في صور عالية ، وجوانب توظيفية متوالية ، وهذا مما يمكن القلب من الاستغراق في نور معرفة الله تعالى حتى أن الولي في تلك المرحلة لا يكون له من وجود انفصالي أبداً ،عن الله جل علاه ، وإنما يكون الوجود اتصالياً قائماً على ما جاء من عنده جل علاه(١) .

فإذا رأي العبد شيئاً مهما كان ، فإنما يرى دلائل قدرة الله جل علاه ، وإن سمع فإنما سمع آيات الله ، وإذا نطق فإنما نطقه هو بالثناء على الله ، وإن تحرك كانت حركته في خدمة الله ، وإذا اجتهد ، انحصر اجتهاده في طاعة الله وهناك يكون في غاية القرب من الله ، وهذا الشخص هو الولي لله(٢) .

ثم إن التقوى مع الولي الرباني هي، العمل بالتنزيل الذي جاء من عند الله تعالى في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، وكل ولي لله لا تقوم ولايته على مصدر وراء ذلك ، قائدهم قول الرسول : " تركت فيكم ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً كتاب الله وسنتي (٣)علماً وعملاً ، قراءة وتدبراً وفهما ، فإذا خرج المرء عن شيء منهما ، كان ولياً للشيطان ، وليس ولياً للرحمن .

كما أن التقوى تأخذ الولي الرباني إلى استلهام الواقع القائم، والسعي لمعرفة العالم الغائب ، في حدود ما يرشد إليه النقل المنزل، حتى يكون عملاً بالتنزيل ، وبخاصة أن صراط الله المستقيم واضح من بداياته الدنيوية،وامتداداته الأخروية يدل عليه ما روى عن النواس بن سمعان الأنصاري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً ، وعلى جنبتي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة ، وعلى الأبواب ستور مرخاة ، وعلى باب

---

(١) راجع كتابنا : أبجديات التصوف الإسلامي الجزء الأول ص ١٣٧ / ١٤٥ حيث ذكرت بعض ملامح القرب الرباني ، وعلامات الوصل الإنساني .

(٢) راجع للعلامة الفخر الرازي ـ مفاتيح الغيب المجلد الثامن الجزء السادس عشر ص ٤٠١

(٣) راجع موطأ مالك ج ٢،ص ٨٩٩ حديث ١٥٩٤ ومشكاة المصابيح ج ١ ص ٤٠ حديث رقم ١٨٦

الصراط داع ، يقول " يا أيها الناس أدخلوا الصراط جميعاً ولا تعوجوا ، وداع يدعو من جوف الصراط[١] . فإذا أراد أحدكم فتح شيء من تلك الأبواب ، قال ويحك لا تفتحه فإنك إن تفتحه تلجه ، فالصراط هو الإسلام ، والسوران حدود الله تعالى ، والأبواب المفتحة ، هي محارم الله تعالى ، وذلك الداعي على رأس الصراط هو كتاب الله عز وجل ، والداعي فوق الصراط هو واعظ الله تعالى في قلب كل مسلم[٢] .

كذلك دلت السنة النبوية على أن التقوى الخالصة حصن لمن دخل فيه ، أنها بمثابة صمام الأمان لمن يتعاملون بها من الناحية العملية ، وذلك بضرب المثال الواقعي ، لمن كانوا في سفينة واحدة ، وبعضهم اتخذ قراراً انفرادياً ، له تأثير سلبي على الجماعة ، فإن دور التقوى ، هو تخليص الناس من تصرفات ذوي الحماقة ، حتى يبلغ الجميع شاطئ السلامة .

عن النعمان بن بشير رضي الله تعالى عنهما قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : مثل القائم على حدود الله ، والواقع فيها ، كمثل قوم استهموا على سفينة[٣] فأصاب بعضهم أعلاها ، وبعضهم أسفلها ، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم ، فقالوا لو إنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ، ولم نؤذ من فوقنا ، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ، ونجوا جميعاً [٤] .

---

(١) يلاحظ أن وجود الداعين أحدهما من الخارج والثاني من الداخل حتى يدرك المرء أنه محفوظ بحفظ الله ورعايته ، وأنه إذا أراد الخروج عما جاء في التنزيل الرباني ، انفصل عنه ستار الوقاية ، حتى إذا سقط كان في لباس الغواية .

(٢) الإمام أحمد بن حنبل ، المسند ج ٤ ص ١٨٢ حديث رقم ١٧٦٧١ ط مؤسسة قرطبة بالقاهرة تعليق شعيب الأرنؤنطي وقال حديث صحيح ، وهذا إسناد جيد .

(٣) استهموا معناه استأجروها لغرضهم ثم أقاموا عملية الاقتراع بينهم فيمن يقيم بأعلاها ومن يقيم بأسفلها والاستهام من الأمور الشرعية في المسائل الجماعية حتى يمكن إقامة عملية الإقتراع فيها وهي تحقق أهدافاً صحيحة ولذا عدت من الشرعيات متى توفرت فيها الشروط اللازمة لذلك .

(٤) الإمام البخاري ، صحيح البخاري ج ٢ ، ص ٨٨٢ كتاب الشركة ، حديث رقم ١٣٦١ ومسند الإمام أحمد ج ٤ ص ٢٦٨ حديث رقم ١٨٣٨٧ .

بناء عليه فإن العناصر الأساسية في التقوى المعتبرة بالنسبة للولي، تقوم على أربعة أجزاء كل جزء منها يقوم في جملة من المظاهر الارتباطية ، ومن ثـم كان تعريف التوبة بأنها الخوف من الجليل، والعمل بالتنزيل ، والرضا بالقليل ، والاستعداد ليوم الرحيل ، مما يجعل الولي الرباني بارزاً أمام العيان برأســه ، داخلاً في عموم قوله تعالى ، لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة .

مقامات بداية السائرين :

ينبه العلامة شاهاور إلى فرضية قائمة بالنسبة لمقام التقوى مــن الناحيــة المعرفية ، فيقول إذا كان من شرط الولي أن تكون التقوى شعاره ، والتفويض دثاره ، والإخلاص عياره ، فهل من شرط الولي أن يبقي متقياً محفوظاً عــن الذنوب ، فإن جرى عليه شيء من المخالفات ، فهل يقدح ذلك في تقــواه ، أو يخل بولايته[١] . وقد تفهم الشيخ شاهاور هذه المسائل ، ثم أن الإجابة على هذه التساؤلات تحتاج التأكيد ، أولاً على أن الولي في مراحله الروحية يكــون لــه مقامات باعتبارات مختلفة ، لأنه لم يكن قد وصل إلى مرتبة الولاية حتــى وإن كان سائراً في الطريق إليها ، ثم أكد على إمكانية تجميع هــذه المقامــات فــي مقامين أساسيين :

أحدهما : مقام التلوين :

وهو صفة أرباب الأحوال ، والصوفي السالك يظل في مقام التلوين ، طالما كان ماضياً في الطريق ، لأنه يرتقي من حال إلى حال ، ومن وصــف إلــى وصف ، أو يخرج من مرحلة ، ويصل في مربع ، فإذا وصل الولايــة تمكــن وانفصل عن مقام التلوين[٢] ، وبالتالي فمقام التلوين بمثابة كاميرات التصــوير التي تتابع الواقع في إطار عملها ، ولا تتدخل في طبيعته، إنها ترصد ما يصدر

---

(١) هذه التساؤلات ترد كثيراً ، وتقع في مجال الاستشعار تارة ، كما تقع داخل الفكر المعادي للتصوف أو الرافض له من نواح عدة ، وذلك من شأنه ضرورة التعرض له وتقديم الإجابة عليه .

(٢) راجع للشيخ القشيري ـ الرسالة القشيرية ص ٦٩ ، وراجع للشيخ شاهاور : منارات السائرين ومقامات الطائرين ص ١٨٦ .

عنه ، دون أن تقدم له جديداً، إنها مرآة متابعة إما لماذا كان مقام التلوين مع الولي بهذه الخصوصية ، فالجواب : أن الولي حين يسلك طريق الولاية قد تقابله مكاسب ، يوقد ترد عليه مواهب، وهذا مما يؤكد تبدل المقامات والأحوال عليه ، بدليل أنه تارة يرتضع من ثدى المواهب الربانية ، فترد عليه أحوال هي المظهر الأساسي للمنح الإلهية [١] .

كما أن هذا الولي قد يرتضع من ثدي المكاسب التي يقوم بها ، والمعلوم أن الرضاع يغير الطباع ، فإن لم يكن الولي محفوظاً عن الإصرار ، ومتدركاً بالاعتذار والاستغفار ، فإنه يكون على خطر الأضرار ، بل بصدد الوقوع في دائرة تكوير الليل على النهار ، نعوذ بالله تعالى من الحور بعد الكور [٢] .

ثم إن الولي في طريقه للولاية ، قد يقع منه بعض القصور ، كما قد يغفل عن بعض المخالفات من حيث إنه ليس معصوماً ولا محفوظاً ، فإذا نظر إلى قدوم الليل ، وإدبار النهار ، ولم يحسب لنفسه كم أدى من العبادات ، وكم أنفق من الطاعات ، فإنه يكون في مقام التلوين ، ولابد له من الانتباه حتى لا يقع في عقبات ، لأنه مازال على الطريق ولم يبلغ بعد منتهاه[٣] .

ومن كلام الصوفية الذي يعبر عن مقام التلوين ، ويؤكد أن العبد الماضي على الطريق ، إذا لم تحجزه العقبات تمكن منه ما أنشدوه :

مازلت أنزل في ودادك منزلاً تتحير الألباب دون نزوله [٤]

---

(١) فكرة ارتباط المذاهب الربانية بالمنح الإلهية تحتاج دراسة مستقلة ، بحيث نعرضها على الصورة الانضباطية ، وهي مسألة مهمة في الأداء الصوفي ، كما هي ذات قيمة من ناحية العطاء الصوفي أيضاً ، راجع كتابنا أنسام حيية في الأفكار الصوفية ص ٣٧ .

(٢) مقام التلوين يظهر العبد كأنه يتقلب الطريق ، ويقع في دائرة تغير الحالات المصاحبه له ، ولا يكون مرتبطاً بدورة الأكوار ، التي تصاحب حركات الليل والنهار ، راجع للشيخ شاهاور ـ منارات السائرين ص ١٩٢ .

(٣) راجع كتابنا أوراق مطوية في التصوف والصوفية ، ص ٢١٢ وللشيخ محمد مسعود : التصوف الإسلامي وأهل المكاشفات ص ٤٣ .

(٤) راجع للعلامة القشيري ـ الرسالة القشيرية ص ٦٩ .

صحيح إن مقام التلوين يكون بمثابة القرار الكاشف بالنسبة للمريد أو السالك طريق الولاية ، ولكنه في ذات الوقت يمثل حركة الرصد الإحصائية التي يقوم بها الإنسان الواعي مع نفسه ، وإلا فما قيمة ذلك المقام ، إذا انحصر دوره في الحركة التصويرية الظاهرية ، دون أن يكون له وجود فعلي أو حقيقي ، يقع به تأثير مباشر على ناحية من النواحي المشروعة .

ثانيهما : مقام التمكين :

ومعناه أن العبد جاهد أثناء وجوده في مقام التلوين ، وأخذه الله تعالى إليه ، ومنحه من المواهب ما يرقى به إلى أعلاها، حتى صار من أهل الحقائق، الذين يرون الأشياء في صورها الأساسية ، ويدركونها من خلال وجوداتها الحقيقية ، يقول الشيخ الفاروقي ، أن مقام التمكين صفة أهل الحقائق ، من حيث أن الله تعالى وحده هو الذي أخذ العبد السالك إليه (١) .

فالعبد في مقام التمكين يتولى الله تعالى وحده أمره ، ولله الحكمة البالغة ، فيما يجري على أوليائه ، وأحبائه من الآفات التي تعبر عن نوع من الابتلاءات والاختبارات ، ولا يمنع وجود الولي في مقام التمكين، أن يقع له ابتلاء واختبار حتى لو كان في صورة من صور الزلات ، وكأن الله تعالى يقول ما أبتليتكم لهوانكم على ، بل لكرامتكم عندي(٢) ، والعبد في مقام التمكين يكون محفوظاً بحفظ الله تعالى له ، ومن ثم فالمعتقد من كمال رأفته إن يكون ما يجري على العبد من باب البلاء الحسن ، وهو المشروع لقوله تعالى: " وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاء حَسَناً إِنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ " (٣). وقد نبه العلامة القشيري إلى أن الولي

---

(١) راجع للشيخ محمود صابر الفاروقي: التصوف الإسلامي ومصادره الشرعية ص ٥٣ ، وراجع للإمام القشيري - الرسالة القشيرية ص ٧٠ .

(٢) يدل عليه ظاهر الحديث القدسي يا عبادي ما ابتليتكم لهوانكم علي ، بل لكرامتكم عندي ، أردت أنه أحط من أوزاركم ، وأرفع من أقداركم ، فابتليتكم فصبرتم واستحييتم من أجلي ، فاليوم لا أنشر لكم ديواناً ، ولا أنصب لكم ميزاناً ، وهذا معنى قول الله تعالى إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب .

(٣) سورة الأنفال الآية ١٧ .

في مقام التمكين له خصوصية ، فإن قيل هل يكون الولي معصوماً ؟ قيل : إما وجوباً ، كما يقال في الأنبياء فلا ، لأن عصمة الأنبياء تتعلق بأصل البعثة ، وبالتالي فعصمتهم قائمة على أصل البعثة[1]، وإما أن تكون عصمة الولي ممكنة على معنى الحفظ ، بحيث لا يصر على إتيان الذنوب ، كما لا يصر على الذنوب، إن حصلت هنات أو آفات، وزلات ، فذلك مما لا يمتنع وصفهم به[2] .

من ثم فإن الولي في مقام التلوين ، لا يكون محفوظاً عن الوقوع في الهنات أو الزلات مادام في الطريق ، ولكنه ينبه إلى ما وقع فيه ، أما في مقام التمكين فالأمر مختلف تماماً ، إنه قائم في مقام الحفظ الرباني ، حيث يدفعه الله تعالى بعيداً عن ميدان الإصرار ، الذي جاءت من ناحيته الزلة ، وبالتالي فإنه يسارع إلى التوبة حتى قبل أن تخطر الزلة بعقله [3] .

ما من شك في أن العبد متى بقي سائراً على طريق الإيمان السليم بجانب التقوى الخالصة ، والتوبة النصوح ، فإن الله تعالى يحفظه من الوقوع في الخطايا ، استظهاراً لكرامته بين خلقه ، تفضلاً من الله تعالى ورحمة ، من ثم فإن الفرق بين مقام التلوين ، ومقام التمكين ، من وجوه :

١ ـ مقام التلوين صفة أرباب الأحوال ، ومقام التمكين صفة أهل الحقائق[4]

٢ـ صاحب مقام التلوين يحتاج دائماً الزيادة ، بينما صاحب مقام التمكين وصل ، فلا يحتاج الزيادة أبداً .

---

(١) تعرف العصمة للأنبياء بأنها حفظ الله ظواهر الرسل وبواطنهم من التلبس بمنهى عنه شرعاً ، راجع كتابنا الغزاليات في النبوات ص ٩٣ ، وكتابنا حبو الوليد في علم التوحيد ص ١٢٧ .

(٢) راجع للعلامة القشيري ـ الرسالة القشيرية ص ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، وهذا مما يؤكد منهجية العطاء الصوفي من الناحية المعرفية على أقل تقدير .

(٣) هذا التدارك الرباني له آثار كثيرة كلها إيجابية بالنسبة للولي ذاته ، من حيث أنه المستفيد الأول بها ، وهو الواقع في نطاقها دون اعتبار لشيء آخر .

(٤) يلاحظ أن الفوارق بينهما ليست في التسمية وحدها ، وإنما في نواح كثيرة ، كما تجيء من جهات عديدة .

٣ ـ صاحب مقام التلوين سار بالجزئية ، ويقع له التلوين ، أما صاحب مقام التمكين فإنه وصل ، ثم اتصل .

٤ ـ صاحب مقام التلوين لا توجد له أمارات ، أما صاحب مقام التمكين فمن أماراته ، أنه أتصل بالكلية ، حتى غاب عن كليته .

٥ ـ إن صاحب مقام التلوين ليس محفوظاً ، بينما صاحب مقام التمكين محفوظ بحيث لا يقع منه إصرار على الذنوب إن وقعت .

٦ ـ صاحب مقام التلوين قد يقع في الزلات ، باعتباره الإنساني ، أما صاحب مقام التمكين ، فإنها قد تجري عليه من باب الاختبار الرباني[١] .

٧ ـ إن صاحب مقام التلوين لم يحصل بعد على أذن الدخول ، أما صاحب مقام التمكين ، فقد حصل على الأذن، ومارس الدخول من ناحية عملية[٢]

٨ ـ إن صاحب مقام التلوين مازال متردداً على ثدي المكاسب حتى يرتضع ، وربما جاءته المواهب ، ومن ثم فهو يبتدئ بالمكاسب ، بينما صاحب مقام التمكين لا يحتاج رضاعة ثدي المكاسب ، وإنما هو واقع في ميدان قبول المنح والمواهب [٣].

الشرط الثالث : الصلاح الحقيقي :

وهو قيام العبد في الطاعات كلها ، بما يحقق المنافع المرتبطة بها على الناحية المشروعة ، ومن ثم فكل ما يحقق حسن التوجيه للعبد وتمام القيادة ، ويمكن لأولياء الله تعالى في الأرض ، فإنما يدخل في نطاق مفهوم الصلاح ، والله سبحانه وتعالى يتولى أهل الصلاح برحمته، كما يشملهم حفظه ورعايته[٤]

---

(١) الفرق بين المقام وصاحبه ، هو المعبر عن الذات العارفة ، والقضية المعروضة .

(٢) مقام التلوين لم يستقر بعد وبالتالي فإن الدخول للطريق غير متوفر معه بعكس صاحب مقام التمكين .

(٣) المنح غير قبول المنح ، لأن المصدر هو الله ، أما القبول فهو استعداد في الفرد الواعي خلقه الله تعالى للقيام ، بقبول تلك المنح .

(٤) راجع كتابنا الغزاليات في الإلهيات ص ٧٣ ، وكتابنا ـ منهج السلف في إثبات أدلة وجود الله ص ٥٢ ، ٥٣ ،

بيد أن من كانت ولاية الله تعالى له قائمة ، فإن أموره تجيء على أوفى الوجوه ، وأكثرها جمالاً ، ويترتب عليه أن يرفل هذا العبد في النعيم ، حيث ترفرف السعادة عليه بجناحيها ، وتبسط له الطمأنينة ثوبها ، ومن الأدلة عليه قوله تعالى:"إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ" (١)، قد وردت مادة الكلمة ص ل ح في القرآن الكريم حوالي أحدى وثمانين ومائة مرة(٢).

لاشك أن الإنسان الواعي إذا تحقق معه شرط الصلاح ، بجانب ما مر ذكره من شروط ، حصل له التوفيق ، وتلاقي معه الصلاح ، يقول الإمام الفخر الرازي أن الذي يتولى حفظي ونصرتي ، وتوفيقي هو الله ، الذي أنزل الكتاب المشتمل على العلوم العظيمة النافعة في الدين، ويتولى الصالحين بنصرهم، فلا تضرهم عداوة من عاداهم(٣) . ثم إن الصلاح معناه استيفاء الإنسان الواعي كافة أنماط الخير ، بحيث لا يكون هناك مظهر أو إمارة من مظاهر الخير أو إماراته إلا وله فيه النصيب الأوفى ، من حيث إنه ولي عارف معاً ، وبناء عليه تكون قاعدة الصلاح قد تمكنت من عقل الولي وقلبه ، كما استولت على شعوره ، بل كان لها من السلطان على وجدانه ، ما جعلها تتصرف فيه دون حاجة إلى شيء جديد(٤).

لاشك إن الولي في الحقيقة ممدود من الله تعالى بحبل متين ، مهمته الإخراج تارة ، والانجاء تارة أخرى ، ويستدل على الإخراج بقول الله تعالى : " اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ "(٥) ، ومن المؤكد أن إخراج الإنسان الواعي من الكلمات يمثل عملاً

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٩٦ .
(٢) راجع المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص ٤١٠ / ٤١٢ .
(٣) راجع للإمام الفخر الرازي - مفاتيح الغيب - المجلد السابع ج ١٤ ، ص ٤٠٥ .
(٤) راجع كتابنا أنسام حيية في الأفكار الصوفية ، ص ٣٧ / ٤١ حيث ترى أن عملية الاستيفاء المشروع تكون من الأهمية بمكان في حياة الولي ذاته ، وحياة من يتعاملون معه.
(٥) سورة البقرة الآية ٢٥٧ .

كبيراً يحتاج العون المتواصل ، كما يحتاج الدعم الأكبر ، وفوق ذلك كله يأتيه التوفيق الإلهي ، مع ضرورة أن يكون العنصر الفعال ، هو الاعتماد علـى الله تعالى وحده، والولي إنما يأخذ بيد الله تعالى، راجياً رضاه، خائفاً من عذابه .[١]

ثم إن الولي أخذ بيد الله تعالى ، راج النجاة مما يخشى ويخاف ، وهذا في حد ذاته كاف للتأكيد على أن حبل الله تعالى متين ، وفي الأثر قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم قال : " القرآن حبل الله ، طرفه بيد الله تعالى ، وطرفـه الآخر بين الناس ، فمن أمسك به نجا ، ومن تركه ضل وغوى .

كما أن الصالحين وعدهم الله عز وجل بالخير الكثير في الدنيا ، والثـواب الجليل في الآخرة ، قال تعالى: " وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَـةً لِّلْعَالَمِينَ " [٢].

وكل ولي من أولياء الله تعالى لابد فيه من تحقق شرط الصـلاح بحيـث يكون قائماً به ، كأنه مطبوع فيه، ثم تأتي معه الأعمال الصالحات لتكون بمثابة التطبيق العملي ، لما في الطبع ، مما يجعلهم في محل العطاء الرباني ، والمنح الإلهي . يدل عليه قوله تعالى : " وَبَشِّرِ الَّذِين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقاً قَالُواْ هَذَا الَّـذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِ مُتَشَابِهاً وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ"[٣]

ولاشك أن اشتراط تحقق الصلاح في الولي له دلالة فعلية ، ذات ارتبـاط عضوي ، له علاقات موضوعية ، يدل عليه أن مادة الكلمة ص ل ح قد جاءت في القرآن الكريم على معاني التوفيق ، وفعل الخيرات ، والنتائج الإيجابية التي

---

(١) هذا مما تشهد به الوقائع الحياتية التي تستهدف في الإنسان ، كما تسعى لتحقيق المصالح المشتركة له ، وهذا من توفيق الله وأفضاله ، بل ومن نعمه التي لا تحصى .

(٢) سورة الأنبياء الآيات ١٠٥ / ١٠٧ .

(٣) سورة البقرة الآية ٢٥ .

تتعلق بالتعمير المادي والمعنوي ، ولهذا من الدلائل والإشارات مالا يخفى أمره وبالتالي كان اشتراط الصلاح في الولي من الأمور الضرورية[١].

الشرط الرابع : القدوة الحسنة :

ولي الله تعالى يكون قدوة في كل ما يأتي أو يدع ، إنه يرى بنور الله ، ويسير بهدي الله ، ويتحرك بأمر الله تعالى ، من حيث أنه عبد رباني ، ومظهر نوراني ، يدل عليه قول الله تعالى : " وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ " [٢].

إن الولي الرباني ينظر إلى نفسه، على أنه مدرج في مقام الرعاية والعناية ، واقع تحت المحاسبة ، قائم في رحاب الخوف من الله تعالى، والقرب النوراني الذي يبدر الخوف من النفس، ويجعله خوفاً من خالقها ، ويبعد عنها الغرور والكبر حتى تكون قائمة في نطاق النداء الرباني : " يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي "[٣].

من المؤكد أنه وينظر إليه الآخرون، على أنه محل عناية الله ، ومظهر التزام أوامره ، واجتناب نواهيه . ومن ثم فلا يكون في أحواله كلها إلا مع الله تعالى على ما يرضيه جل علاه ، ولا مع الناس إلا فيما هو من مرضاة الله ، وبذلك يحقق القدوة في نفسه من ناحية الاهتداء ، والقدوة لغيره من ناحية الإقتداء[٤] .

إن هذا الولي قد تولى الله أمره ، فكأنه تربى على عينه ، وهو الذي يصلح

---

(١) من الواضح أن قيام هذا الشرط في الولي حتى يكون بمثابة علامة طارده لأصحاب الدعاوي الكاذبة والولايات الشيطانية ، الذين تفضحهم سلوكياتهم الحياتية ، راجع كتابنا أوراق مطوية في التصوف والصوفية ص ١٧٨ / ١٧٩ .

(٢) سورة السجدة الآية ٢٤ .

(٣) سورة الفجر الآيات ٢٧ / ٣٠ .

(٤) من شروط القدوة في الولي أن تكون حسنة ، وأن تكون له في الاهتداء ، وأن تكون لغيره على ناحية الاقتداء ، وأن تكون معه من الابتداء ، وتستمر في حياته حتى الانتهاء .

أن يتولى أمر عباده ، ويدعوهم إليه بالحكمة والموعظة الحسنة ، وفي الأثـر علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل .

إن الولي قدوة حسنة في الاعتقاد الصحيح ، والقيادة السليمة ، والأخـلاق المستقيمة ، والاعتماد على الله ، مع الأخذ بالأسباب ، بجانب حسن التوكل على الله تعالىَ ، وفوق ذلك فالأولياء والربانيون هم قدوة في الابتعاد عن الشبهات ، وترك المحارم ، لأنهم ارتضوا ولاية الله تعالى لهم ، فلم يعد هناك شيء آخر، يمكنِ أن يغير من اتجاهاتهم الأساسية[1] .

لاشك أن الولي في علمه وغذائه ودوائه ، وعقله وخلقه ، إنما يعتمد على كد اليمين ، وعرق الجبين ، ومن ثم فكل الذين ينظرون إليه يجدون فيهم طبائع الالتزام نظراً لصياغة أمورهم على قائمة الالتزام ، وهذا مما يؤكد أن الـولي قدوة حسنة مؤثرة في الخيرات المشروعة التي تقوم على أصول صـحيحة[2] ، ومن الحقائق الأساسية في الولي الرباني، أنه ينظر بنور الله تعالى ، وذلك مما يساعده على بلوغ الخيرات مهما كان أمرها ، لأنه متوجه إليها مـن قبـل الله تعالى الذي يحفظه ويوفقه، كما يؤيده وينصره، ومن شروط الولي ـــ التواضع، ودوام الحفظ الرباني له ، وفاء المآل ، مع جواز جريان الكرامات على يديه .

ومن شروط الولي أيضاً أن يخرجه الله تعالى من ظلمات الخلقة ، إلى نور القدم لقوله تعالى : اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَـئِكَ أَصْـحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ" [3].

---

(١) راجع كتابنا أوراق مطوية في التصوف والصوفية ص ٢١٧ / ٢١٩ حيث عرضت لبعض الجوانب من الناحية التطبيقية .

(٢) راجع كتابنا أنسام حية في الأفكار الصوفية ص ٩١ ، ٩٢ ، فذلك مما يجعل كفة الولي لله راجحة على كل ما عداه ، وهي مسألة هامة في الفكر الصوفي .

(٣) سورة البقرة الآية ٢٥٧ .

وللولي صفات وعلامات ومظاهر وتوجهات في أفعاله وأقواله، ومنها أنه لا يرائي ولا ينافق ، قال إبراهيم بن أدهم لرجل أتحب أن تكون لله ولياً ، فقال الرجل نعم ، قال له ابن أدهم لا ترغب في شيء من الدنيا والآخرة ، وفرغ نفسك لله تعالى ، وأقبل بوجهك عليه ، ليقبل عليك ويواليك[١] .

وقال يحيى بن معاذ من صفات الأولياء لله ، أنهم عباد تسربلوا بالأنس ، بعد المكابدة ، واعتنقوا الروح بعد المجاهدة ، بوصولهم إلى مقام الولاية[٢] وقيل علامات الولي ثلاثة ، شغله بالله تعالى وفراره إلى الله ، وهمه إلى الله تعالى.

سئل الخراز عن صفات أولياء الله ، وعلاماتهم ، وبداياتهم ، ونهايتهم فقال إذا أراد الله تعالى أن يوالي عبداً من عبيده ، فتح عليه باب ذكره ، فإذا استلذ الذكر فتح عليه باب القرب ، ثم رفعه إلى مجالس الأنس به ، ثم أجلسه على كرسي التوحيد ، ثم رفع عنه الحجب ، وأدخله دار النورانية ، وكشف له عن الجلال والعظمة ، فإذا وقع بصره على الجلال والعظمة بقي بلا هوى ، فحينئذ صار العبد زمانا فانياً ، فوقع في حفظه سبحانه ، وبرئ من دعاوي نفسه[٣] .

رابعاً : مراتب مقامات الولي :

يذهب الصوفية إلى أن مراتب مقامات الولي ثلاثة أساسية ، كل مقام منها محفوظ بجملة من الأحوال السابقة عليه ، الممهدة له ، ومنها ما هو لاحق عليه مؤكدة له ، وفي نفس الوقت يهيء لما بعده ، وهي :

الأول : مقام أهل البداية :

وهم المؤمنون الصالحون ، فهم أهل الإيمان والصلاح ، والله تعالى ، قال

---

(١) هذه الجوانب الثلاثة تمثل بعضاً من علامات الأولياء ، إذا جاءت على وجه سليم ،لايبتغي صاحبه به إلا وجه الله تعالى ، ولذلك هي من القضايا التي أدلتها معها .

(٢) راجع للإمام القشيري ـ الرسالة القشيرية ص ٢٠٢ .

(٣) من صفات الولي أيضاً ألا يكون له خوف ترقب مكروه، يحل في المستقبل ، أو انتظار محبوب يفوت في المستقبل ، كما أنه ابن وقته فلا يخاف المستقبل ، ومن صفاته أيضاً أنه لاحزن له ، لأن أولياء الله لاخوف عليهم ولاهم يحزنون .

وهو يتولى الصالحين ، لأن المؤمن يتولى الله تعالى بالعبادة والطاعة ، فيتولاه الله تعالى بالهداية ، وتوفيق الطاعة ، وهم بذلك يتقربون إلى الله تعالى تارة بأداء ما فرض عليهم ، وتارة أخرى بالنوافل حتى يحبهم(١) .

الثاني : مقام المحبة :

وهم المؤمنون الصالحون الذين أحبهم الله تعالى وأحبوه ، وبلغوا معه مقام المحبة ، ومن ثم فهم أهل الوسط في الولاية ، وهم غير واقفين على ولايتهم ، وهذه المرتبة ذات خصوصية انفصالية ، إنها منطقة يقف فيها الولي من نفسه الموقف الذي يظهر كيانه في محبة ربه، ومن ثم فإن الصوفية يولونه عناية كبيرة(٢)وبداية هذا المقام تتمثل في الخروج من ظلمات الخلقة ، إلى نور القدم .

الثالث : مقام التجلي :

وهو قيام العبد بالذكر والشكر، حتى يستولي سلطان الذكر على ولاية الوجود ويتجوهر القلب بنور الذكر ، ويصير قابلاً لتجلي صفات الجمال والجلال ، حينئذ الرب له بجميع صفات الكمال ، حتى تشرف أرض الوجود بنور ربها ، كما ينسلخ العبد عن جلد الأنانية ، بسطوه الأنوار الربانية ، ومن ثم تنتزع منه مادة الخوف والرجاء ، ويتحقق التجلي الإلهي ، والنور الرباني ، ويصدق فيه قول الله تعالى : " ألا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ "(٣) .

بقيت جوانب كثيرة ، تحتاج المزيد من الدراسة ، ومنها جريان خوارق العادات من الكرامة والفراسة والمعونة والمغوثة ، ومنها أنواع الكرامات ، ومنها الوظائف الأساسية للأولياء في الدنيا ، وما يترتب عليها في الآخرة ، وذلك وغيره مما سوف ألتفت إليه، في وقت آخر ، إن شاء الله تعالى .

---

(١) من المؤكد أن هذا المقام له امتياز خاص ، لأنه ينقل الإنسان من نقطة البداية إلى المقام العالي ، وهو الفارق بين العوام والأولياء بجانب الفوارق الأخرى .

(٢) راجع للعلامة الشيخ شاهاور ، منارات السائرين ومقامات الطائرين ، ص ١٨٦ ، وراجع كتابنا أنسام حيية في الأفكار الصوفية ص ٧١ .

(٣) سورة يونس الآية ٦٢ .

أهم المصادر والمراجع

حسب ورودها بهوامش الصفحات

(١) القرآن الكريم .

(٢) النفحات السلفية بشرح الأحاديث القدسية ـ الشيخ محمد منير الدمشقي.

(٣) الرسالة القشيرية ـ الشيخ عبد الكريم القشيري .

(٤) مفاتيح الغيب ـ الإمام الفخر الرازي .

(٥) تنوير الأذهان في تفسير روح البيان ـ العلامة الشيخ البروسوي .

(٦) من دروس التصوف ـ الشيخ محمد بن على الأتابكي .

(٧) التصوف نور وبركة ـ الشيخ محمود أبو الوفا الأنصاري .

(٨) التصوف والصوفية وكرامات الأولياء ـ الشيخ محمد عبد العظيم سرحان

(٩) كرامات الأولياء ـ الشيخ نصر الدين البغدادي .

(١٠) أولياء الله ـ الشيخ ناصر الدين الطوانسي .

(١١) مقامات السائرين ـ الشيخ أبو بكر شاهاور .

(١٢) قطر الولي على حديث الولي ـ العلامة الشوكاني .

(١٣) قطر المحيط ـ لويس المعيوف .

(١٤) النقد الأدبي ـ الدكتور / محمد حسيني موسى محمد الغزالي .

(١٥) الصحاح تاج العربية ـ العلامة الجوهري .

(١٦) التعريفات ـ العلامة السيد الشريف الجرجاني .

(١٧) الموطأ ـ الإمام مالك بن أنس .

(١٨) المصنف في الأحاديث والآثار ـ العلامة ابن أبي شيبة .

(١٩) المحرر الوجيز ـ العلامة ابن عطية.

(٢٠) إرشاد العقل السليم ـ العلامة أبو السعود .

(٢١) مختصر ابن كثير ـ العلامة الصابوني .

(٢٢) سنن أبي داود ـ العلامة الحافظ أبو داود .

(٢٣) الاتحافات السنية في الأحاديث القدسية ــ الشيخ عبد الرؤوف المناوي.
(٢٤) العباس بن عبد المطلب ساقي الحرمين ــ د/ محمد حسيني الغزالي.
(٢٥) الإيمان بالغيب وأثره على الفكر الإسلامي ــ د/ محمد حسيني الغزالي.
(٢٦) الغزاليات في الإلهيات ــ د/ محمد حسيني موسى محمد الغزالي .
(٢٧) حبو الوليد في علم التوحيد ــ د/ محمد حسيني موسى محمد الغزالي .
(٢٨) منهج السلف الصالح في إثبات وجود الله تعالى: د/محمد حسيني الغزالي
(٢٩) مقامات الصوفية ــ الشيخ محمد نعيم الكاسباني .
(٣٠) أنسام حيية في الأفكار الصوفية ــ د / محمد حسيني موسى الغزالي.
(٣١) مشارق أنوار القلوب ــ العلامة عبد الرحمن بن الدباغ .
(٣٢) أركان الإسلام ــ الشيخ محمد عبد العزيز العتر .
(٣٣) الصوفية رجال وأفكار ــ الشيخ محمد إبراهيم عليان .
(٣٤) أبجديات التصوف الإسلامي ــ د / محمد حسيني موسى محمد الغزالي.
(٣٥) مشكاة المصابيح .
(٣٦) المسند ــ الإمام أحمد بن حنبل .
(٣٧) صحيح البخاري ــ الإمام البخاري .
(٣٨) أوراق مطوية في التصوف والصوفية ــ د/ محمد حسيني موسى الغزالي
(٣٩) التصوف الإسلامي وأهل المكاشفات ــ الشيخ محمد مسعود .
(٤٠) التصوف الإسلامي ومصادره الشرعية ــ الشيخ محمود صابر الفاروقي
(٤١) الغزاليات في النبوات ــ الدكتور / محمد حسيني موسى محمد الغزالي
(٤٢) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ــ الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي.

***

مع تحيات،،

محمد كمال حسانين حسن ـ الزقازيق شرقية

ت محمول رقم : ٠١٢٤٩٨٣١١٣

الفصل الخامس

المقامات والأحوال

في

الفكر الصوفي

يرتبط الحديث عن المقامات والأحوال بالفكر الصوفي ارتباطا وثيقا ، حتى إعتبرهما البعض من قضايا التصوف الإسلامي ، أو مشكلة من مشكلاته الأساسية ، وبخاصة أن الكثيرين من علماء التصوف الأوائل قد بوب لكل منهما ، أو فصل في مؤلفاته ، وهذا مما يسمح لنا بتناولهما طبقا لما يلي :

أولا : المقام

أ - تعريفه

ذهب العلامة " ابن عربي " إلى أن المقام عبارة عن استيفاء حقوق المراسم على التمام (١) ، ومعناه بقاء العبد في الموقع الذي أمره به الله تعالى، ويمتنع عليه أن يكون مقامه في غيره ، من حيث أن طبيعة المقام من الناحية اللغوي ، تركز على ضرورة أن يكون العبد ثابتا في وضعه ، أمام الله ثبوتا لا يقع فيه تردد .

يقول العلامة / القشيري : المقام ما يتحقق به العبد ، بمنازلته من الآداب ، بما يتوصل إليه بنوع تصرف ، و يتحقق به بضرب تطلب ومقاساه تكلف ، فمقام كل أحد هو موضع إقامته عند ذلك ، وما هو مشتغل بالرياضة له (٢) .

وذكر العلامة " السهروردي " أن المقام قد سمي بذلك نظرا لثبوته واستقراره (٣) ، بجانب أن العبد يمكنه الثبات في هذا المقام ، واستقراره به عن طريق الاجتهاد في العبادة ، مع مزيد من الطاعة ، والتمسك المتواصل بمكارم الأخلاق ، والمقامات طرق المواجيد ، كما يقول علماء الصوفية الأجلاء.

---

(١) السيد الشريف الجرجاني : رسالة في اصطلاحات الصوفية ، ملحق بكتاب التعريفات، صـ ٢٣٤ .

(٢) الإمام / القشيري : الرسالة القشيرية ، صـ ٥٣ .

(٣) العلامة / السهروردي - عوارف المعارف ، صـ ٤٢٣ .

ب - الدليل عليه

يستدل الصوفية على فكرة المقام بالنقل المنزل من قوله تعالى ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (١) .

ولما كان المقام الأمين قدوة ، قد ورد ذكره في القرآن الكريم على أنه منزلة للمتقين ، فإن الصوفية اعتبروه - وتمسكوا به ، لا ينفصلون عنه بحال من الأحوال ، يقول العلامة " الفخر الرازي " أن الله تعالى جل وعلا قد ذكر في هذه الآيات مظاهر تنعم المتقين في أربعة :

أولها : مساكنهم :

حيث قال في مقام أمين ، والمسكن يكون طيبا إذا توفر فيه شرطان أساسيان :

الشرط الأول : الأمن :

أن يكون آمنا عن جميع ما يخاف المرء ويحذر ، وهذا أحد الوجهين مما يراد في المقام الأمين (٢) ، وكل مقام أمين بهذا الاعتبار فإنما المراد به المكان ، لأنه إذا كان مخيفا فإنه لا يكون آمنا على صاحبه ، كما لا يكون المقيم به آمنا على نفسه ، لأن المكان المخيف يخوف صاحبه .

الشرط الثاني : وجود ما يفرح :

هو أنه لما كان المقام الأمين مكانا يأوي إليه صاحبه ، فلا بد أن يكون فيه ما يفرح

---

(١) سورة الدخان : الآيات ٥١ - ٥٧ .
(٢) المقام الأمين يتعلق به جانب من ناحية ذات المقام ، وبالتالي وصف بأنه أمين على صاحبه من ذات الجهة .

العين ، والقلب ، والعقل ، ويسر الوجدان ، وينزه الجوارح ، وهو في المقام الأمين الجنات والعيون ، وبالتالي فالمقام الأمين باعتباره مسكنا لأهل الإيمان والتقوى في الآخرة ، فلا بد أن يجتمع فيه هذان الشرطان (١) ، وهما سلامة المكان ، وتزينه بما يدخل الفرح والسرور على المقيم به .

المظهر الثاني : الملبوسات

ذلك أن أهل الجنة ينعمهم الله تعالى بأوجه النعيم الكثيرة ، وكما جعل المقام الأمين مكانا لتنعيمهم ، فقد جعل كذلك الملبوسات مظهرا من مظاهر هذا التنعم ، فقال تعالى " يلبسون من سندس وإستبرق متقابلين " (٢) .

قال تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ (٣) ، وقال جل شأنه ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ ﴾ (٤) .

وبالتالي فالمظهر الثاني - وهو ملابس أهل الجنة - داخل في نطاق المقام الأمين ، من حيث أنهم استقروا به ، ثم تنعموا بما هو قائم فيه ، كأن لسان حالهم يقول : الحمد

---

(١) وفي الحكم القديمة يقولون : ثلاثة يذهبن : الحزن ، الماء ، والخضرة ، والوجه الحسن ، وهذا مما يليق بالمقام الأمين الذي أعده الله للمتقين .

(٢) السندس نوع فاخر من الثياب ، كانت مادته تؤخذ من أغلى الديباج عندما يرق ، أما الإستبرق فإنه يؤخذ من مادة الديباج أيضا لكن مما يغلظ منها ، وكان العرب يستعملون السندس صيفا لرقته ، وملاءمته حرارة الجو ، والإستبرق يجعلونه للشتاء نظرا لأنه يناسب برودة الجو .

(٣) سورة الكهف : الآيتان ٣٠ , ٣١ .

(٤) سورة الحج : الآيتان ٢٣ , ٢٤ .

لله الذي أنعم علينا بالجنة ، التي فيها ما تشتهي الأنفس ، وتلذ الأعين ، وهي دار النعيم المقيم •

المظهر الثالث : التقابل بالوجوه :

ذلك أن أهل النعيم في الجنات التي أعدها الله تعالى لهم يتقابلون لا يتدابرون ، فهم في جلوسهم يكونون على صفة التقابل من باب المحبة ، والمودة ، والتراحم ، واستئناس البعض منهم بالبعض ، على تلك الهيئة يكون أدعى لاستمرار المحبة (١) •

ثم أن التقابل بالوجوه في حالة الجلوس يتخذ صورا عديدة ، منها :

١ ـ صورة التقابل على السرر ، مع الإتكاء ، وما يستلزم الراحة ، ويعبر عن العزة ، وقد جاءت الآيات القرآنية مبينة له ، منها قوله تعالى ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ وَحُورٌ عِينٌ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴾ (٢) •

٢ ـ صورة التساوي على الأرائك ، حيث يكونون متمتعين بنعم الله تعالى ، وهم في ذات الوقت يرون مواقف الكفار الذين كانوا يكيدون لهم في الدنيا ، ويسخرون منهم كما

---

(١) يذكر الإمام / الرازي ما يمكن أن يعترض به البعض ، كأن يقولون مثلا أن الجلوس على هيئة التقابل موحش ، لأن كل واحد منهم يطلع على فعل الآخر ، كما أن صاحب الثواب القليل إذا رأى صاحب الثواب الكبير تنغصت عليه عيشته ، ثم رد عليهم بأن أحوال الآخرة بخلاف أحوال الدنيا ، راجع للإمام / الفخر الرازي : مفاتيح الغيب ، المجلد الرابع عشر، جـ ٢٧ ، صـ ١٥٨ ، ط. دار الغد العربي •

(٢) سورة الواقعة : الآيات ١٠ ـ ٣٤ •

كانوا يستهزئون بهم ، قال تعالى ﴿ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ (١) .

المظهر الرابع : الأزواج :

وذلك من النعيم الذي جعله الله تعالى لأهل الجنة في المقام الأمين ، حيث قال تعالى وزوجناهم بحور عين ، حيث قرن كل واحد بواحدة ، لأن الحوراء من النساء ، هي شديدة بياض ما يوصف به، شديد سواد ما هو مستحق له ، وأكثر ما ينصرف إلى العين(٢) .

ثم أن الحور العين خلق من خلق الله تعالى ، لا يعلم الحقيقة فيها إلا الله ، وقد أعد الله تعالى هذا الخلق ليقع به التلذذ مع أهل النعيم ، الرجال والنساء ، تفضلا من خالق الأرض والسماء .

المظهر الخامس : المأكولات :

حيث جعل الله تعالى أصحاب المقام الأمين منعمين ، يعيشون في نعيم مقيم ، وأطيب ما تستريح له النفس ، ولا يؤثر في البدن ، هو الفاكهة ، ولذا ألمحت الآيات القرآنية إليها في قوله تعالى يدعون فيها بكل فاكهة آمنين ، وهم في أكلهم من جميع أنواع الفاكهة لا يقع لهم سوى الأمان ، مما يحذر الناس الوقوع فيه دار الدنيا (٣) ، ولذلك فأهل المقام الأمين في إغتذائهم على الفاكهة ، بحيث يقع لهم نعيم متواصل ، وتبقى معهم لذائذ لا تنقطع تفضلا من الله تعالى ورحمة.

---

(١) سورة المطففين : الآيات ٣٣ - ٣٦ .

(٢) يقول العرب هذه إمرأة حوراء ،بمعنى أن بياض عينيها ناصع ، وسواد إنسان العين فيها لامع ، وهو في ذات الوقت واسع ، ولذا كانوا يمتدحون المرأة الحوراء .

(٣) من عادات الناس في دار الدنيا الإكثار من اللحوم والمخبوزات ، ولذلك تقع لهم مشكلات عديدة ، أما الذين يعتمدون في أغلب طعامهم على الفاكهة وحدها فلا يقع لهم هذا التخوف من الأمراض والتخمة .

المظهر السادس : الدوام :

ذلك أن أهل الجنة ينعمون فيها أبدا ، حياتهم مستمرة ، ونعيمهم دائم ، لا يعرفون فيها الموت إلا الموتة الأولى ، قال تعالى ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ (١) .

ومن ثم فقد تمسك الصوفية بالمقام الأمين ، وأخذوا منه فكرة المقامات ، نظرا لكونه موجودا في القرآن الكريم ، وهم على أمل الفوز به في الآخرة تفضلا من الله تعالى ورحمة ، وذلك مما يؤكد أن التصوف الإسلامي قائم في أصوله كلها على الكتاب الكريم، و السنة النبوية المطهرة .

كما أن السنة النبوية المطهرة ، قد دلت على المقام المحمود في قوله ﷺ : من قال حين يسمع النداء (٢) اللهم رب هذه الدعوة التامة . والصلاة القائمة ، وآت محمدا الوسيلة . والفضيلة ، والدرجة العالية الرفيعة ، وأبعثه اللهم المقام المحمود الذي وعدته، إنك لا تخلف الميعاد ، حلت له شفاعتي .

وقوله ﷺ : إذا سمعتم النداء فقولوا مثل ما يقول المؤذن ، ثم قولو : اللهم رب هذه الدعوة التامة ، والصلاة القائمة ، آت سيدنا محمدا الوسيلة ، والفضيلة ، والدرجة العالية الرفيعة ، وأبعثه اللهم المقام المحمود الذي وعدته ، فمن قال ذلك حلت له شفاعتي (٣) .

وقد كان الصوفية الأعلام على وعي تام بجميع هذه المقاصد والغايات، ومن هنا كانت

---

(١) سورة هود : الآية ١٠٨ .

(٢) النداء هو الآذان للصلاة المشروعة ، ويقع للسامع بالترديد له ، كما يقول المؤذن ، إلا في الحيعلة فإنه يقول لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

(٣) الأحاديث في هذا الشأن كثيرة ، وكلها دالة على المقام المحمود للرسول ﷺ الذي يتعلق به أمر الشفاعة أيضا من باب مزيد النعمة والمنة من الله تعالى .

فكرة المقام لديهم عمادها الأساسي الكتاب والسنة ، وذلك مما يؤكد أن مصادرهم الأولى هي ما جاء في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

أخلص مما سلف إلى القول بأن المقام منزلة عالية ، ورتبة رفيعة ، يقوم عليها الصوفي في ثبات ويقين ، يدفعان به إلى المواصلة - كما يقودانه إلى الاستقرار ، بل والاستمرار ، وكلما ازداد اجتهادا في العبادة والطاعة ، كلما استقر له المقام ، وحسنت معه أموره[١].

جـ - مصادره

١ - العبد الواعي نفسه

إن المصدر الأول للمقام الأمين هو العبد نفسه ، من حيث أن المقام منزلة لا تتم إلا بالمجاهدة ، والمصابرة مع المثابرة ، ولذلك قالوا ان المقامات مكاسب[٢] . على اساس أنها تحتاج الكسب ، والعمل الدؤب ، مع الرغبة في تحصيل ما عند الله تعالى .

ويعتقد الصوفية أن الفرد الواعي قد تخطر له بعض الخواطر . لكنه يقف منها موقف المنازل لها ، بحيث لا تغلبه ، ولا تؤثر فيه ، وإنما يكون هو المالك لها ، المتحكم فيها ، وكلما حاولت أن تأخذه في طريقها تشبث بالمقام الذي استقر عليه ، وبالتالي لا تزيحه عنه .

ومهما بدت هذه الخواطر ، أو حاولت ممارسة أنواع من الضغط فوق إرادته ، فإنها لا تجد طريقا إلى قلبه ، ولذا قالوا أن المقامات مكاسب[٣] ، من حيث أن العبد هو المصدر الأول لتحصيل هذه المقامات .

---

(١) الصوفية يتمسكون بالمقامات ، ويعتبرونها من أهم الركائز الدالة على كون العبد في معية الرب جل علاه .

(٢) راجع للشيخ / سعيد محمد الخياط : التصوف الإسلامي ، صـ ١٣٧ .

(٣) راجع كتابنا : أوراق مطوية في التصوف والصوفية ، صـ ١٤١ .

٢ - المعونة الإلهية

ومعناها أن العبد الواعي إذا تمسك بمقامه الأمين ، ودفع عن نفسه كل الخواطر التي تحاول إزاحته عنه ، فإن الله تعالى يمده بأنواع كثيرة من المدد الإلهي ، حتى يعينه على استمراره في مقامه ، مع قدرته على دفع خواطر نفسه عنه ، يقول الشيخ / النووي : إن الله تعالى قد جرت حكمته بأن يعطي الإنسان القدرة على الطاعة ، أو المخالفة [(١)] ، فإن أطاع أعانه عليها ، وأثابه بها ، وإن عصى أعانه عليها وعاقبة بشأنها .

صحيح أن الفرد الواعي السالك طريق الله تعالى قد تجيء إليه بعض خواطر النفس بكل ما فيها من نقص ، ورغبة لصده عن طريق الحق ، وهو يجاهدها بكل ما أوتي من قوة ، لكنه قد يضعف عن الاستمرار ، حينئذ تأتيه ا لمعونة الإلهية ، بحيث يبقى قائما على الحق الإلهي ، وبه لا يحيد عنه ، ولا يتألم منه ، كما لا يتأذى به [(٢)] ، وإنما يقوم بذلك كله في هدوء تام ، بغية تحصيل ما جاء من الله تعالى .

ويؤكد الصوفية على قاعدة أساسية بالنسبة للمعونة الإلهية ، حين يتحدثون عن خواطر النفس الإنسانية ، ويقسمونها باعتبار مصدره إلى قسمين ، أحدهما ما كان مصدره لمة الملك ، وثانيهما ما كان مصدره لمة الشيطان ، وفي الحديث أن الشيطان جاثم على قلب ابن آدم ، فإذا ذكر الله تعالى تولى الشيطان ، وخنس ، وإذا غفل العبد عن ذكر الله تعالى التقم الشيطان قلبه ، ومن ثم حدثه ومناه [(٣)] .

---

(١) الشيخ / محمود بن سعيد النوري : الإتجاهات الصوفية ، صـ ١١٤ ، وراجع للشيخ / سعيد بن محمو الفاسي : نظرات في الأفكار الصوفية ، صـ ١٤٣ .

(٢) كلما اجتهد العبد في الطاعة ، وأخلص من ناحية العبادة ، وحافظ على العالي من الأخلاق ، فإن الله تعالى يعطيه القوة ، ويمنحه القدرة ، حتى يكون في الناس كالشجرة العالية التي تظلهم ، وتمنحهم ثمراتها كلما احتاجوا إليها .

(٣) راجع للإمام / السهروردي : عوارف المعارف ، صـ ٤١٥ ، وللشيخ / منصور حسن المنوفي : التصوف والصوفية ، صـ ١٣٧ .

وعن ابن مسعود ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ أن للشيطان لمة بابن آدم، وللملك لمة ، فإن لمة الشيطان فيعاد بالشر ، وتكذيب بالحق ، وأما لمة الملك فيعاد بالخير ، وتصديق بالحق ، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله فليحمد الله ، ومن وجد الأخرى فليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، ثم قرأ قوله الله تعالى ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاء وَاللّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ يُؤتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاء وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ ﴾ (١) .

لأن الشيطان دائما يخوف الإنسان من الفقر ، ويهدده به ، مما يدفع الناس للتقاتل على الدنيا بغرض تحصيل الغنى ، وهم على يقين من أنهم راحلون ، وأن الباقي هو الله تعالى، ومع هذا ترى منهم الصراع على ما هو زائل ، والتكالب فى سبيل تحصيله . وفي الحكم القديمة يقولون : نفسي التي تملك الأشياء ذاهبة فكيف أبكي على شيء إذا ذهب (٢) .

على الرغم من ذلك فأغلب الناس يخضعون لوساوس الشيطان ، حيث يخشى الفقر، ويطمع في الغنى ، والله تعالى قد بين أن "شيطان لا يقف بعيدا عن الإنسان، وإنما يسعى إليه ، ويحاول السيطرة عليه ، وقد حكى القرآن انكريم ذلك في قوله تعالى ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَـذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إَلاَّ قَلِيلاً قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَاء مَّوْفُورًا وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً ﴾ (٣) .

---

(١) سورة البقرة : الآيتان ٢٦٨ , ٢٦٩ .

(٢) ورغم إدراك كثير من الناس لهذه الحكم ، والأمثال ، إلا أنهم يمارسونها ، أو تتم ممارستها عليهم ، وهو من أدله سيطرة الشيطان وقدرته في الانتصار عليهم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله

(٣) سورة الإسراء : الآيات ٦٢ - ٦٥ .

يقول العلامة / السهروردي : يتطلع إلى معرفة اللمتين ، وتميز الخواطر ، ككل طالب مريد ، يتشوق إلى ذلك تشوق العطشان إلى الماء ، لما يعلم من وقع ذلك ، وخطره ، وفلاحه، وصلاحه ، وفساده ، حتى يكون بعد ذلك عبداً مراداً بالخطوة ، وبصفو اليقين ، ومنح الموفقين[1] .

٣- المعرفة اليقينية

وهي التي تقوم على التزام الكتاب والسنة ، والعمل بهما ، طبقاً لما يحقق المصالح العامة ، من حيث أن الشريعة الإلهية ما جاءت إلا لمصالح العباد ، وكلما تحققت المصلحة فثم شرع الله ، ومتى وقعت المفسدة ، فذلك مما لا يرضيه جل علاه

وكل معرفة حقه توفر للإنسان العلم النافع ، والعمل المفيد ، فإنها تكون مشروعة ، وتجعل العبد في مقام المحبة لله ، والخشية منه ، يدل عليه قوله تعالى ﴿ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾[2] .

إذ العلماء هم أكثر الناس معرفة بالله تعالى ، وهم في ذات الوقت أهل المحبة له ، لأنهم يعرفونه حق معرفته ، وقد أيقنوا انه المالك الغني المستغني ، فتعلقوا بما عنده ، ولم يربطوا أنفسهم بأحد سواه ، ومن هنا باتوا يخشونه .

ولذا رفعهم الله تعالى درجات عالية في دنيا الناس ، كما أنزلهم المنزلة العليا بالنسبة للدار الآخرة ، قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾[3] .

---

(١) راجع للعلامة / السهروردي : عوارف المعارف ، صـ ٤٢٥ .
(٢) سورة فاطر : الآية ٢٨ .
(٣) سورة المجادلة : الآية ١١ .

وكلما تحصل المرء الواعي على قدر كبير من العلم اليقيني ، والمعرفة السليمة ، فإنه يكون قادرا على القيام في مقامه الأمين، مستقرا عنده ، لا يفرط فيه ، وإنما يسعى للتشبث به ، بحيث يرقى إلى ما يرضي الله جل علاه ، أنيسه الدائم ، وهدفه الأصلي أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك (١) .

ولا شك أن المعرفة اليقينية بما جاء من عند الله تعالى تفتح أبواب قلب الفرد الواعي كلها أمام الأنوار الإلهية ، بحيث يكون مستعدا لتقبلها ، والتعامل بها ، وفي الخبر من عمل بما علم ، ورثه الله علم ما لم يعلم ، ووفقه لعمل ما يعلم ، وعلم ما يعمل ، بحيث يكون علمه وعمله أمام الله تعالى سواء .

في نفس الوقت فإن العلم له مقام ، والمعرفة اليقينية لها مقام ، فإذا تحقق العبد بالمعرفة اليقينية ، والعلم النافع ، صار لديه علم ومعرفة ، جمعهما في قلبه ، وعقله ، ومن ثم يكون مستعدا لتلقي المزيد من الفيوضات الإلهية ، وهي المعبر عنها بالعلم الوهبي ، أو العلم اللدني ، يدل عليه قوله تعالى ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ (٢) ، وكلما استمر المرء في نطاق العبادة السليمة ، متحليا بالأخلاق الكريمة ، فإنه يستمر في مدارج السالكين نحو الله رب العالمين .

من الواضح أن مصادر المقام متعددة ، ولكنها تجيء متكاملة ، إذ لا يغني أحدها عن غيره ، لأن سنن الله تعالى قد جرت بأن محبته للطائعين ، وغضبه يكون للعاصين ، كما اقتضت سنته جل شأنه ، أن من يطرق باب الله تعالى فإنه جل علاه يفتح له ، ويعطيه من عنده ، ولا يكون هذا الطرق إلا بالذكر ، لقوله تعالى ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ ﴾ (٣) .

---

(١) مقام الإحسان أعلى مقام ، لأنه يجعل العبد تحت أمر مولاه ، كما يحقق ذاته الشريفة، ويعلن تمكنه من غلبة الشيطان ، حتى أنه لا يجد إليه منفذا ، ولا سبيلا .
(٢) سورة الكهف : الآية ٦٥ .
(٣) سورة الرعد : الآيتان ٢٨ , ٢٩ .

ولا بد في الذكر من التزام التضرع والخيفة ، حتى يقع الاطمئنان ، لقوله تعالى ﴿ وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلاَ تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴾ (١) ، وفي الخبر يقول الرسول ﷺ أربعوا على أنفسكم في الدعاء ، فإنكم لا تدعون أصم ولا أبكم ، وإنما تدعون سميعا بصيرا .

ثانيا : الحال

أ - تعريفه

لما كان التعريف هو الذي يوضح المعرف ، ويميزه عن غيره ، وفي نفس الوقت فإن التعريف يجعل المعرف دالا على حقيقة صحيحة ذاتية ، من ثم فقد عرف الصوفية الحال بأنه ما يرد على القلب من غير تعمد ، ولا إجتلاب ، ومن شرطه أن يزول ، ويعقبه المثل ، وأن لا يبقى ، ولا يعقبه المثل (٢) .

وقد يعرف الحال بأنه الذكر الخفي ، والبعض يقولون الحال ما من الله تعالى به ، وكل ما كان من طريق الاكتساب والأعمال ، يقولون عليه هذا ما من العبد ، فإذا لاح للمريد شيء من المواهب والمواجيد قالوا هذا ما من الله تعالى ، وسموه حالا ، إشارة منهم إلى أن الحال موهبة .

يقول العلامة / القشيري : الحال عند القوم معنى يرد على القلب ؛ من غير تعمد منهم ، ولا اجتلاب له ، ولا إكتساب لهم من طرب أو حزن ، أو قبض ، أو شوق ، أو انزعاج ، أو هيبة ، أو احتياج (٣) ، وهنا نظريتان في المسألة :

---

(١) سورة الأعراف : الآيتان ٢٠٥ , ٢٠٦ .

(٢) راجع للشيخ / الشريف الجرجاني ، رسالة في إصطلاحات الصوفية الواردة في الفتوحات المكية ، صـ ٢٣٤ .

(٣) الإمام / القشيري : الرسالة القشيرية ، صـ ٥٤، وهو يعرف الحال بما في طبيعته من خصوصية ، ولذا فهذا التعريف يحمل صفات الحال أيضا على ناحية من النواحي .

الأولى : أصحاب بقاء الحال

وقد ذهب أصحاب نظرية بقاء الحال إلى دوامه ، اعتمادا على أنه لا يعقبه المثل، وإنما هو الحال الأول ، من حيث ذاته ، والذي يقع عليه التغير هو العبد ، ويعنون به الفرد الواعي نفسه ، قال العلامة / القشيري : أشار قوم إلى بقاء الأحوال ودوامها . وقالوا أنها إذا لم تدم ، ولم يقع لها التوالي لا تسمى أحوالا . وإنما تسمى لوائح وبواده . حيث لم يصل صاحبها بعد إلى الأحوال ، فإذا دامت تلك الصفة فعند ذلك يسمى حالا [١].

الثانية : أصحاب انقطاع الحال

أما أصحاب نظرية انقطاع الحال : فقد ذهبوا إلى أن الحال يعقبه المثل ، بناء على قاعدة ثابتة ، هي ضرورة تغير الأوصاف عن العبد [٢] . والحال لما كان وروده على القلب ، فإنه يعتبر مظهرا من الفيوضات الإلهية التي قد لا يكون للعبد دخل فيها .

ب ـ لماذا سمي حالا ؟

يذهب الإمام / السهروردي إلى أن ما يرد على القلب بهذا الشكل يسمى حالا ، نظرا لتحوله باستمرار ، فهو لا يبقى فترة طويلة ، وإنما يقع عليه التبدل المستمر ، فإذا قورن الأمر بين المقام والحال ، تبين أن المقام فيه معاني الثبوت ، والاستمرار ، بينما الحال فيه معاني التحول ، والانقضاء ، وبالتالي فوجه التسمية في كل منهما ظاهر [٣] .

وهذه التسمية قد تكون مقبولة عند من يعتقد أن الحال منقطعة ، بحيث ويعقبها المثل باستمرار ، لكنها لا تلزم من يعتقد أن الحال دائمة غير منقضية ،إذ ليست بحاجة إلى المثل .

---

(١) العلامة / القشيري : الرسالة القشيرية ، صـ ٥٤ ، وقد نقل الرأي ، ولم يقل لنا أي الاتجاهين يرجح ، ولو فعل لقدم فائدة نحن بحاجة إليها .

(٢) كل من النظريتين في ظاهرها تخالف الأخرى ، والحقيقة أنهما شيء واحد ، إذا ما تم الوقوف على حقيقة المصطلحات التي يمكن الرجوع إليها من ناحية المفاهيم .

(٣) راجع للعلامة / السهروردي : عوارف المعارف، الباب الثامن والخمسون ، صـ ٤٢٣ .

ويمكن التوفيق بينهما بأن كلا منهما ينظر لجهة غير الأخرى ، لأن الأولين ينظرون إلى ذات الحال ، بينما الآخرون ينظرون إلى الذات العارفة ، ولو نظرا معا إلى جهة واحدة ما وقع هذا الخلاف (١) ، وبالتالي فكل ما يقع له التحول يسمى حالا من تلك الناحية .

جـ - الدليل عليه

استدل الصوفية على وجود الحال بالنقل المنزل الوارد في مظاهر عديدة ، منها ما يتعلق بموقف نبي الله نوح عليه السلام مع أبنه الذى رفض الانصياع لتعاليم الله تعالى جل شأنه ﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴾ (٢) .

ومحل الشاهد أن نوحا عليه السلام كان يخاطب أبنه ويلح عليه ، آملا له سلامة الإعتقاد الذي تتبعه سلامة الانجاء من الهلاك ، وأن أبنه كان يجادل والده ، ويرفض الإيمان ، وظل كل منهما على حاله مع الآخر في الحوار ، ثم تغير الموقف ، ولم يعد نوح يسمع صوت أبنه ، ولا أبنه صار قادرا على اللحاق بأبيه ، أما لماذا ؟

فلأن الموقف تغير ، وسنن الله وقعت ، وقد صور القرآن الكريم هذا الموقف في قوله تعالى ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ

---

(١) كثير من المشكلات المعرفية في الفكر الإسلامي مصدرها عدم تحديد المصطلح ، ولو أنهم اتفقوا عليه ما كانت هناك هذه الهوة الواسعة من الخلاف والجدل ، نسأل الله تعالى أن يرحمنا وإياهم .

(٢) سورة هود : الآيات ٤١ - ٤٣ .

وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ (١) .

لقد كان نبي الله نوح عليه السلام يخاطب أبنه في حنان أبوي ، الأرض ثابتة ، والشمس صافية ، والجو لا ينذر بشيء غريب ، وفجأة تحول إلى ذكرى بعد أثر ، وخبر بعد واقع ، فانفتحت أبواب السماء بما لا يمكن لأحد تفاديه ، وانفجرت عيون الأرض بالماء الكاسح الذي يزحف أمامه كل شيء ، وقد تم ذلك كله في سرعة مذهلة .

وما هي إلا لحظات حتى ارتفعت السفينة عن الأرض ، وحملتها الماء المندفعة من أعلى ، والمتدفقة من أسفل ، بحيث صارت كمية الموج عالية ، فصلت بين نبي الله نوح عليه السلام وولده فصلا تاما ، وبالتالي فالحال يقع لها التباس النفسي التباسا كاملا ، ثم لا تلبث أن تتعدل وتتحول ليحل غيرها محلها ، ومنه قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ (٢) .

قال العلامة / البروسوي : في الآية إشارة إلى قرب الله تعالى من العبد ، بل هو أقرب إليه من قلبه ، لأن ما يحول بينك وبين الشيء فهو أقرب إلى الشيء منك ، وفي ذات الوقت فيها حث على المبادرة إلى إخلاص القلوب وتصفيتها ، قبل أن يحول الله بينه وبين القلوب بالموت (٣) .

وقد يفهم من معنى الآية الكريمة حول الحال ما يرتبط بأمرين ، لكل منهما إتجاه خاص :

---

(١) سورة القمر : الآيات ٩ - ١٧ .
(٢) سورة الأنفال : الآية ٢٤ .
(٣) وفي هذا دليل على معنى الحال ، لقيامه في معنى التحول ذاته ، وبالتالي فالحال لا يدوم ، وإنما يقع عليه التغير باستمرار ، وذلك مما يعبر عن طبيعته الذاتية ، ومجيء صورته في مظاهرها الاستقلالية .

الأول : المبادرة إلى تكميل النفوس قبل فوات الفرصة المرتبطة بالآن ، فإنها قد تفوت بأن يحدث الله أسبابا لا يتمكن العبد معها من تصريف القلب فيما يشاؤه من إصلاح أمره ، فيموت غير مستجيب لله ورسوله ، وتلك مصيبة كبرى •

الثاني : تصوير تملكه تعالى قلب العبد ، وغلبته عليه ، فيفسخ عزائمه ، ويغير نياته ، ومقاصده ، ولا يمكنه من إمضائها على حسب إرادته، فيحول بينه وبين الكفران أراد سعادته ، وبينه وبين الإيمان إن قضى شقاوته (١) ، ولا بد أنه صائر إلى واحد منهما •

والآيات القرآنية التي أقامها الصوفية أدلة على وجود الحال عندهم كثيرة من ناحية الإستدلال ، منها :

أ ـ ما هو معبر عن الصفة التي تقع على العبد •

ب ـ ما هو مرتبط بالذات العارفة•

جـ ـ ما يتعلق بالموضوع •

د ـ ما يرتبط بالغاية ، وكلها وجوه محتملة ، وتدل في ذات الوقت على أن الحال هبة من الله تعالى ، وليست كسبا من العبد ، ولذلك قالوا الأحوال مواهب ، كما أن المقامات مكاسب •

ومن السنة قوله ﷺ أن الله تعالى ليحي القلب الميت بالعلم ، كما يحي الأرض الميتة بوابل المطر (٢) ، وفيه دليل على أن القلب يحصل له التحول والتغير من الكفر للإيمان ، ومن الضلال للهدى ، إلى غير ذلك من الوجوه الدالة كلها على هذه المعاني •

---

(١) راجع للعلامة / البروسوي : تنوير الأذهان من تفسير روح البيان ، المجلد الثاني ، صـ ١٤ , ٢٥ •

(٢) الكثير من الظواهر الدينية تجيء من تلك الناحية ، التي تعبر عن طبيعة الحال التي يكون عليها العبد ذاته ، وكلما أقامك العبد ذاته المقام الذي يرضي الله ، فإنه يتحقق ما يتمناه •

وكان كثيرا ما يقول في دعائه ﷺ اللهم يا مقلب القلوب والأبصار، ثبت قلبي على دينك [(١)] .

لقد فهم الصوفية هذه النماذج على أنها شاهدة لهم في وجود فكرة الحال ، وبالتالي اعتبروها مصادر موثقة ، ونحن معهم في كثير مما ذهبوا إليه ، أما لماذا ؟

فلأن الإنسان قد خلقه الله تعالى في أحسن تقويم [(٢)] ، وهذا من كمال الصنعة ، ثم خلق الله فيه القابلية للتربية ، والترقي ، وهذا من تمام المنفعة ، كما جعله مستعدا لبلوغ الكمال الذي لا يصل إليه الملك المقرب ، إذ الإنسان في بدء الخليقة كان دون الملك ، وفوق الحيوان ، فلما جاءته الشريعة وربته نقلته من حال إلى حال ، حيث يصير فوق الملك فيكون خيرا في الناس ، وهذه حال من أحواله [(٣)] .

أما إذا خالف تربية الشريعة ، وانقاد لأتباع الهوى ، فإنه يصير دون الحيوان بمراحل ، من حيث أن الحيوان لم يأمره الله تعالى بالتكاليف التي تتعلق بإصلاح الكون ، والقيام بأعمال الخلافة ، وإذا نزل إلى مرتبة ما دون الحيوان فقد صار شر البرية .

من ثم فإن فكرة الحال الذي قال بها الصوفية يجدون له سندا من القرآن الكريم ، والسنة النبوية المطهرة ، طبقا لما يقومون به من توظيف يتفق مع الإتجاه العام لديهم ، وفي ذات الوقت يكون معبرا عن المعنى الاصطلاحي الذي أكدوا عليه .

د - مظاهره

المظهر هو الصورة التي يكون عليها العبد حال تلقيه الفيض ، وانتقاله من حال إلى آخر ، سواء أكان هذا الحال حاضرا في الذهن ، أم قائما على أرض الواقع الخارجي .

---

(١) الحديث أخرجه كل من الإمام / بن ماجة في سننه ، والإمام الترمذي في السنن ، والإمام أحمد بن حنبل في المسند .

(٢) قال تعالى ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ سورة التين : الآية ٤ .

(٣) تقوم هذه الحال على التزام الأحكام الشرعية ، وبالتالي ترتفع منزلته ، ويعلو بين الناس قدره ، وذلك مما لا يمكن جحده ، أو إنكاره .

المهم أن يقع له به ارتباط ضروري [١] يجعل أمره بين الناس قائما على صورة من الصور ، وفي مظهر من المظاهر ، ومن أبرزها ما يلي :

١ - إنقداح القلب النوراني

ومعناه أن العبد الواعي إذا هلت عليه الأنوار الربانية ، فإن قلبه ينفتح لها ، فيصير مستنيرا بها ، وهو معنى الانقداح النوراني ، وكلما لاحت لذات العبد لوائح ، أو سنحت له سوانح ، فإنه يكون مستعدا لها ، نظرا لما في قلبه من الهامات ربانية ، وأنوار إلهية [٢] .

كما أن القلب النوراني إذا انقدح بالعقيدة السليمة ، والعبادة الصحيحة ، فإنما تأتي خلفه الأخلاق المستقيمة لتكون بمثابة الخاتم النهائي على كل من العقيدة والشريعة ، ومادامت تظهر فيها الكسبيات ، فإن الأحوال تبدوا معها المواهب ، ومن الأدلة عليه ما ذكره الصوفية أنفسهم من أن الأحوال مواهب والمقامات مكاسب ، ولا تتحقق المقامات ما لم توجد الأحوال ، كما قالوا الأحوال مواهب علوية سماوية ، والمقامات طرق موصلة إليها [٣] .

٢ - الرضي على الدوام

الإنسان الواعي بذاته لدى الصوفية يقابل كل ما يجيء به القضاء والقدر من خلال معيار ثابت ، هو القائم على الرضي الكامل ، باعتبار أن الإيمان بالقضاء والقدر ، خيره وشره ، هو المعبر عن مقام الرضي ، وفي ذات الوقت هو حال الرضي التي يكون عليها ذات الفرد الواعي ، عندما يقع الابتلاء .

---

(١) المظاهر هي العلامات الدالة على وجود الشيء ، أو انعدامه ، ولذا كان الاهتمام بها .

(٢) هذا الانقداح له درجات ، ولذا فقد يكون متعاليا لدى البعض ، غير متعال بالنسبة لغيرهم ، المهم أن يتم على أتم الصور وأوفاها .

(٣) راجع كتابنا : أنسام حية في الأفكار الصوفية ، صـ ١٣٤ .

حينئذ يصبح الاحتكام إلى القلب الإيماني هو المعيار الثابت الذي يجب أن يؤوب الجميع إليه [١] ، يقول الشيخ / أبو عثمان الحيري : منذ أربعين سنة ما أقاض الله تعالى في حال فكرهته ، وإنما كنت أخاف أن أكون قد قصرت في جنب الله [٢] .

من المؤكد أنه كلما العبد بما أجرى الله تعالى على يديه فإن الله يعينه ، أما لماذا ؟ فلأن الله تعالى حكيم غفور ، يحب العدل ، وفي ذات الوقت يبغض الظلم ، وإذا صح من العبد قلبه ، بات أمره على ذات الصحة .

ومن المعلوم أن الرضي بالأقدار من علامات صحة الإيمان ، يدل عليه ما جاء في قوله ﷺ الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الأخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره ، وبالتالي فالصوفية جعلوا الرضي على الدوام من مظاهر الأحوال [٣] ، من حيث أنها المعبر عن حقيقة صاحبها ، كما هي في ذات الوقت معبرة عن صدق الإيمان وتمكنه من قلبه .

٣ - إحسان العمل وتحسينه

يعتقد الصوفية أن الفرد الواعي لا بد أن تكون حياته وقفا على أمر خالقه ، لا يقوم في شيء منها إلا حيث يريد هو ، ويأمر ، وبالتالي فصلا ته ، وصيامه ، وزكاته ، وحجه لا ينفصل أحدها عن الباقي ، لأنها جميعا تمثل أركان الإسلام مع الشهادتين .

وهي كلها تتم وفق العمل السليم ، والعبادة الصحيحة ، بجانب الاستمرار والدوام، غايتهم إرضاء الله ، منهجهم ما جاء من عند الله ، ولسان حالهم يقول [٤] ،

---

(١) من علامات الرضي الدعاء الصادق ، والعقل السليم ، بجانب التماس مشارب الأمل بالنسبة للعبد من جهة مولاه جل علاه .

(٢) راجع للشيخ / محمد على السيد : ذكريات مع الصوفية ، صـ ٨٢ .

(٣) للإيمان في قلب العبد علامات ، وفي الخبر ذاق حلاوة الإيمان من رضي بالله تعالى ربا ، وبالإسلام دينا ، ومحمد ﷺ نبيا ورسولا .

(٤) كل هذه المسائل تتم منه في طاعة تامة ، ومواصلة دائمة ، وبالتالي فهم يكذبون أصحاب إسقاط التكاليف ، وغيرهم ممن بعدوا عن دين الله تعالى ومنهجه .

اللهم أقمتني حيث شئت ، واستعملتني حيث أردت ، فأنا بك راض ، فكن أنت علىّ راض . أني لا أرى سواك ، ولا أرضى بغيرك خالقي ، فهل ترضي عني ، وتسمح لي بدخول باب كرامتك ، كفاني شرفا أن تكون لي ربا ، وكفاني عزا أن أكون لك عبدا [١] .

إن الصوفية يعتبرون أنفسهم قد خلقوا لغاية سامية ، هي العمل المشروع ، والعبادة الكاملة ، واستدلوا عليه بقوله تعالى ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ [٢] .

وهم في ذات الوقت حريصون على إتمام ما بينهم وبين الله تعالى ، حتى يبلغوا الغايات ، ويستدلون على ذلك أيضا بما روى عن أمير المؤمنين على بن أبي طالب - كرم الله وجهه - من قوله سلوني عن طرق السماوات فأني أعرف بها من طرق الأرض . وطرق السماوات هي التوبة والزهد وغيرها من المقامات [٣] . وبالتالي فالسالك لهذه الطرق يصير قلبه سماويا .

هـ - مصادره

من الواضح أن مصدر الحال الأساسي هو الوهب الإلهي ، الذي ينقل الفرد من حال إلى أخر . وأرقاها المشاهدة النورانية ، من حيث أن العبد يشاهد أنوار الجلال ، والجمال ، والإكرام ، وكلما باغتته أنوارها نقلته من مظهر إلى مظهر . ومن حال إلى حالٍ .

يقول العلامة / السهروردي : أن المشاهدة هي أول الأحوال ، والأصل الذي تقوم عليه ، يكون منها الفناء كالطين ، ثم البقاء كاللبن ، وهي محض موهبة لا تكتسب [٤] ،

---

(١) هذا الدعاء يجري مع الصوفية أنفسهم على الدوام ، ولسان حالهم فيهم لا يتوقف ، والإلهام بالنسبة إليهم لا ينقطع .

(٢) سورة الذاريات : الآيات ٥٦ - ٥٨ .

(٣) يراد بالسماوي أنه إذا دعا الله تعالى سارع بالاستجابة له ، لأنه عند مقام أمين ، يرتجي رضوان رب العالمين .

(٤) يرى الصوفية أن كافة الأحوال تأتي من الله تعالى ، على سبيل الهبة الربانية ، وذلك مما يقيم الصوفية أنفسهم أمامه في الوضع الذي يصح له .

وسميت كل المواهب من النوازل بالعبد أحوالا ، لأنها غير مقدورة للعبد بكسبه ، بل أنهم أطلقوا عليها اسم الوهب ، وتداولت السنة الشيوخ أن المقامات مكاسب ، والأحوال موطنها السماوات ، ومتنزل البركات (١) ، وهذه الأحوال لا يتحقق بها إلا ذو قلب سماوي .

لست أقر أن الوهب الإلهي لا يمثل اصطفاء ، بل هو اختيار إلهي ، واصطفاء رباني ، كأن العبد يقول : يا رب خلقتني ورزقتني وأقمتني ، حيث أردت ، فأنا بك راض ، وعلى عهدك قائم ، فاجعلني عندك من أهل القبول والنجاة .

كما أن العبد الواعي يسعى دائما لنيل أعلى الدرجات ، حتى يظفر بما وعد الله به عباده المتقين في قوله تعالى ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ (٢) ، ومن ثم تكون مصادر الحال قد انحصرت في أمرين : أحدهما : الوهب الرباني ، ثانيهما : الاجتهاد الإنساني ، مع إخلاص القلب ، والعمل لله رب العالمين (٣) .

ثالثا : العلاقة بين المقام والحال

من المعلوم لدى الدارسين أن أي عمل من الأعمال يستلزم المقارنة بين أمرين ، أو أكثر ، لا بد أن يكون له منهج يبين جانبهما من أوجه اتفاق يمكن أن تجمعهما ، وأوجه اختلاف يمكن افتراق كل منهما عن الآخر بهما (٤) ، وهو ما سوف أقوم به على الوجه التالي :

---

(١) راجع للعلامة / السهروردي : عوارف المعارف ، صـ ٤٢٤ .
(٢) سورة الرحمن : الآيتان ٥٤ , ٥٥ .
(٣) مصادر الحال محددة ، بينما مصادر المقام متعددة ، وذلك مما يكشف عن الفروق الكثيرة بينهما
(٤) هذه الصور في حالة الإتقان تعبر عن مظهر إيجابي من مظاهر الدراسة ، أما ما يعبر عن اختلافها فهو من المظاهر السلبية .

أ - أوجه الاختلاف

يراد بها الصور والمظاهر التي تكون لكل واحد منهما ، ولا يشاركه فيها الآخر بحال من الأحوال ، حتى لكأن كل واحد منهما لا يعرف الآخر ، ولا يرتبط معه برابطة ، وهذه الأوجه يمكن إجمالها فيما يلي :

١ - التسمية وتعليلاتها

المقامات سميت بذلك من حيث أنها تقوم بصاحبها ثباتا ، أو يقوم المريد أو السالك عليها استقرارا ، والأحوال سميت بذلك من حيث أنها تتبدل على صاحبها ، أو يتبدل هو بها [١] ، وبالتالي فهي متبدلة على الدوام ، ولا شك أن كلا من المقام غير الحال باعتبار التسمية .

٢ - طبيعة كل منهما

من الواضح أن طبيعة المقام الثبات والاستقرار ، بينما طبيعة الحال التغير المستمر، وبالتالي فكل منهما مغاير للآخر تمام المغايرة ، بهذا الاعتبار [٢] ، وتلك مسألة مهمة من الناحية المنهجية .

كما أن طبيعة الحال الجوهرية عدم الثبات ، فكما تحل بالقلب تزول عنه ، ومن شواهدهم عليه ما أنشدوه :

لو لم تحل ما سميت حالا .. وكل ما حال فقد زالا
أنظر إلى الفيئ إذا ما انتهى .. يأخذ في النقص إذا طالا [٣]

---

(١) هذا الفرق ظاهر لمن أراد الوقوف عليه طبقا لقوانين الفكر الأساسية ، وهي : الذاتية، والغيرية ، والثالث المرفوع

(٢) المراد بالطبيعة هنا القاعدة العامة التي تمثل الجوانب الأساسية ، من حيث المفهوم بالنسبة لكل من المقام والحال .

(٣) القول بانقضاء الأحوال ، وعدم استدامتها ، رأي مدرسة من المدارس الصوفية ، وهناك رأي آخر يرى أنها إذا لم تدم لا تسمى أحوالا ، راجع للعلامة / القشيري : الرسالة القشيرية ، صـ ٥٤ .

٣ - مصادرها

عرفت أن المقام له مصادر متعددة ، أغلبها كسبي ، يجيء العبد عن طريق العمل ، بينما مصادر الحال أغلبها وهبي ، حيث يأتي العبد عن طريق الفيض الإلهي ، وهناك جملة من أوجه الاختلاف ذكرتها المؤلفات الصوفية بين المقام والحال ، تقوم في :

أ - ١ - أن الأحوال مواهب ، والمقامات مكاسب •

٢ - أن الأحوال تأتي من غير الوجود ، والمقامات تحصل ببذل المجهود •

٣ - أن صاحب المقام ممكن في مقامه، وصاحب الحال مترق عن حاله ، إذ الأحوال بروق تلمع وتختفي (١) •

ب - أوجه الاتفاق

والمراد به أن يكون الأمر حالا ثم يصير مقاما ، أو يكون مقاما فترة ، ثم يصير حالا، وذلك بغلبة النفس ، ومعونة الله تعالى ، والارتقاء من مقام إلى مقام ، والتحول من حال إلى حال، بشرط أن تكون جميعها منضبطة، وقائمة في نطاق ما جاء من عند الله تعالى (٢) ، وهذا الانضباط لازم وضروري ، لا غناء عنه ، بل كل الحاجة داعية إليه •

والمثال التطبيقي الذي يمكن أن يؤخذ به ، هو انبعاث داعية المحاسبة من باطن العبد ، حيث تبقى بالمرء الواعي قوة تناديه ، حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم (٣) ، ثم يتغير ذات الداعي بغلبة النفس ، وانشغالها بأمر من الأمور التي تبتعد عن دائرة المحاسبة ، وبالتالي يقع التغير للحال الأول (٤) •

---

(١) راجع للشيخ / السيد محمد عبد الفضيل : التصوف الإسلامي ، صـ ٤٧ ، وللعلامة / القشيري : الرسالة القشيرية ، صـ ٥٤٤ •

(٢) هذا الضابط مفيد في كل المباحث الصوفية ، ولذا فلا بد من مراقبته ، ومراجعته على الدوام ، لأن التمسك به دليل على الاتجاه الصوفي الصحيح •

(٣) هذا الانبعاث يمثل حالة بذاتها ، وليس من المقام ، نظرا لأنه دائما يتغير مع الداعي •

(٤) الفترة التي يقضيها العبد من غير تغير ، أو انتقال تسمى مقاما ، أما في لحظات التغير تسمى أحوالا •

ثم تعود النفس إلى داعية المحاسبة ، ثـم تـزول ، ويبقـى العبـد في إطـار حـال المحاسبة ، ثم يتنقل الحال بظهور صفات النفس إلى أن تتداركه المعونة مـن الله الكـريم، ويغلب حال المحاسبة ، حينئذ تنقهـر الـنفس ، وتنضـبط ، وتتملكهـا المحاسـبة ، فتصـير المحاسبة هي الوطن المستقر والمقام ، وبالتالي يمكن أن نقول أن العبد في مقـام المحاسـبة ، بعد أن كانت المحاسبة له حالا [١] .

ومثال آخر : هو انبعاث داعية المراقبة من باطن العبد ، بحيث يقـف مـن نفسـه موقف الموجه لها ، لكنها قد تغلبه ، ويكون له منهـا حـال الإمهـال ، ثـم يعـود إلى حـال الضباط ، وكذلك الإمهال [٢] ، وحينئذ إذا استقرت إلى النيات يكـون مقاما بـدل أن كـان حالا.

يقول العلامة / السهروردي : إذا نازل العبد حال المراقبة مقام المحاسـبة ، صـارت المراقبة له حالا ، ثم يتحول عن المراقبة بالغفلة ، والسهو ، لباطن العبد ، إلى أن ينقشع ضباب السهو ، والغفلة ، ويتدارك الله العبد بالمعونة ، فتصير المراقبة مقاما بعد أن كانـت حالا .

ولا يستقر مقام المحاسبة قراره إلا بنازل حال المراقبة ، ولا يستقر مقام المراقبة قراره إلا بنازل حال المشاهدة ، فإذا منح العبد بنازل حـال المشـاهدة اسـتقرت مراقبتـه ، وصارت مقامه ، ونازل المشاهدة أيضا يكون حالا يحول بالإسـتتار ، ويظهـر بـالتجلي ، ثـم يصير مقاما، وتتخلص شمسه من كسوف الإستتار [٣] ، وبالتالي فكل مقام يصلح حالا ، وكـل حال يصلح أن يكون مقاما .

---

(١) الحال حينمـا كـان أمـر التغير ، والانتقال قائمـا ، أمـا عند الاستقرار والاستمرار فـإن الأمر يختلف ، حينئذ يكون المقام مقاما والحال حالا ، وبالتالي فكل من الحال والمقام يمكن أن يتبادلا المواقع .

(٢) كل من المقام والحال يمكن أن يقع بينهما عموم وخصوص على ناحية من النـواحي ، كما هو الحال في الأجناس والأنواع المنطقية ، لكن مع اختلاف الجهة .

(٣) راجع للعلامة / السهروردي : عوارف المعارف ، صـ ٤٢٣ .

جـ - التقدم والتأخر

يرى كثير من الصوفية أن المقام يسبق الحال ، ويمهد له ، لأنه سبيله ، أو الطريق إليه ، ويقولون الأحوال مواهب علوية ، سماوية ، والمقامات طرقها ، وبناء عليه فكل حال لا بد أن يقوم على مقام يسبقه ، وأدلتهم على ذلك كثيرة منها :

١ - أن المقام يعتمد على الكسب ، وفيه ارتقاء العبد أمام الله تعالى ، وكلما وقف العبد أمام مولاه حسب ما جاء من عنده ، فإنه يرفعه درجة فوق درجة، ويرفعه منزلة بعد منزلة (١) .

٢ - أن المقام طريق الحال ، على معنى أن الله تعالى قد فرض على عباده تكاليف شرعية ، وأقام لهم أدلتها فيما يتعلق بالأمور التعقلية كلها ، وجعلها في حدود طاقتهم ، حتى لا يشق أمرها عليهم ، والعبد الذي يقوم بذلك كله في حدود طاقته ، يقوم مقام الراضي بما جاءه من عند الله تعالى ، وبذلك يكون مستعدا لتلقي جميع الفيوضات عن الله ، وهو الحال (٢) .

٣ - أن المقامات تكون من العبد لقيامها على الاكتساب والأعمال التي تمهد لما بعدها ، وقد نقل العلامة السهروردي ذلك عن بعض المشايخ بالعراق، حيث كانوا يقولون الحال ما من الله ، فكل ما كان من طريق الاكتساب والأعمال يقولون هذا ما من العبد ، فإذا لاح للمريد شيء من المواهب والمواجيد قالوا هذا ما من الله ، وسموه حالا (٣) .

٤ - أن المقامات مشوبة بكسب العبد ، فاحتمال وجودها داخل الطبع سابق فيه ، أما الأحوال فلما كانت مواهب من الله تعالى، فإنها لا تكون في الطبع،وإنما تبقى دائما في مجال

---

(١) وبناء عليه يكون المقام باجتهاد العبد في الطاعة ولزوم باب الرجاء ، مع الاستمرار في التماس أوجه القبول من الله تعالى ، راجع كتابنا : أوراق مطوية في التصوف والصوفية ، صـ ٣١٥ ، ٣١٦ .
(٢) راجع للعلامة الشيخ / محمد بن أسعد الحنفي : التصوف راحة قلبية ، صـ ١٧٣ .
(٣) راجع للعلامة / السهروردي ، عوارف المعارف : صـ ٤٢٤ .

الوهب الإلهي ، والفتح الرباني ، وبناء عليه يسبق المقام الحال [١] .

ويرى فريق من الصوفية أن الحال يسبق المقام ، بحيث يكون معينا به ، مستعينا له ، ولهم في ذلك حجج ، وعليه أدلة ، يمكن إيجازها فيما يلي :

١ - أن المقام عمل كسبي ، ولا يقوم على طريق الاستقامة ، إلا إذا سبقه حال هيأ له ، وبالتالي فلا مقام إلا بعد سابقه حال ، ولا تفرد للمقامات دون سابقة الأحوال [٢] .

٢ - أن الأحوال أعم من المقامات من جهة ، بدليل أن الأحوال منها ما يصير مقاما ، ومنها ما يبقى على حالة ، ولا يصير مقاما من حيث أن الكسب في المقام ، والوهب في الحال ، والوهب يسبق الكسب ، ويستدلون على هذا المعنى بقوله تعالى ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [٣] ، ولفظ الهداية هو الدال على معنى الوهب المقارن للسبيل المستوجب الشكر .

٣ - أن الأحوال قد تستقل بذاتها ، من حيث أنها مواهب ، فلا تحتاج المقامات ، التي لا تستقل بذاتها من حيث أنها مكاسب ، ولا بد في المكاسب من دليل يؤكد صحتها ، ويدل على تصديقها [٤] .

٤ - إن الحال أعم من حيث ظهور الكسب فقط داخل المقام ، والمواهب باطنة ، بينما الحال تظهر فيه الموهبة ، والكسب يبطن في نفس الوقت فإن الأحوال الموهبة غالبة ، متعددة [٥] ، وهذا يفيد تعدد الأحوال بأكثر مما يقع التعدد للمقامات .

---

(١) هذا السبق من الناحية الدراسية ، أما من ناحية الفضل الإلهي فذلك من أفضال الله تعالى التي لا يعلمها إلا هو جل علاه .

(٢) راجع للعلامة / السهروردي ، عوارف المعارف : صـ ٤٢٦ .

(٣) سورة الإنسان : الآية ٣ .

(٤) كان الحال هو الذي يدل على سلامة المقام ، أو صدقه ، وبالتالي فالأحوال تسبق المقامات بهذا الاعتبار .

(٥) هذا الوجه يصح إذا كانت الاختلافات بين المقامات والأحوال حقيقية ، أما إذا كانت من قبيل الاختلافات الاعتبارية فإن هذا الوجه لا يكون له طريق مقبول .

٥ - أن المقامات منحصرة نظرا لارتباطها بكسب العبد ، والعبد ذاته منحصرة في طاقته وكسبه ، بينما الأحوال لا تنحصر لأنها من أنعم الله تعالى التي لا نهاية لها (١) .
كما أنها من مقدورات الله التي لا تتناهي ، ومن ثم كانت الأحوال أعم واسبق من المقامات .

ويستدلون على كون الأحوال أعم من المقامات بأدلة كثيرة ، حيث انتهوا إلى أن مواهب الحق لا تنحصر، والأحوال مواهب غير منحصرة ، وهي في ذات الوقت متصلة بكلمات الله التي ينفد البحر دون نفادها ، وتنفد أعداد الرمال دون أعدادها ، والله المنعم المعطي (٢) .

والذي أميل إليه أنه يمكن الجمع بين الآراء في المسألة ، إذا تم الاتفاق على تحديد المصطلح والجهة التي يستخدم منها ، أو يتم توظيفه عليها ، أما لماذا ؟ فلما يأتي :

١ - أن من قال بسبق المقام الحال لم يرفض وجود الحال ، ومن قال بسبق الحال المقام لم يرفض وجود المقام ، وبالتالي فكل منهما مقر بدور الآخر في العملية التحصيلية ، وهذا هو القاسم المشترك الذي يمكن أن يعول عليه (٣).

٢ - أن الذين قالوا بعموم الحال على أساس أنه مواهب ، لم ينكروا وجود المقام على أن أساسه الهداية الإلهية ، والنعمة الربانية ، وإذا تم تأمل كل منهما تبين مقامهما على المواهب في صورة من الصور ذات الطبيعة الارتباطية ، وهذا مما يشجع أي باحث على التقريب بين الجميع .

---

(١) العموم ليس بلازم أن يفيد السبق ، ولهذا أرى أن كلا من جانب العموم والخصوص يمكن أن يمثل صورة أخرى من صور العلاقة بينهما .
(٢) راجع للعلامة / السهروردي ، عوارف المعارف : صـ ٤٢٧ .
(٣) الاتفاق على قاعدة بذاتها مدعاة لالتماس الجوانب الإيجابية بين أ صحاب المذهب الصوفي ، وحبذا لو تلاقى الناس جميعا على هدف التقريب لا التباعد والتنافر .

رابعا : ربط الصوفية بين المقام والعلم

يذهب الصوفية إلى أن العمل الذي يقوم به العبد لا بد فيه من العلم ، على أساس أن الله تعالى امتدح العلماء به ، والعلم نور ، والمقام الذي يكون العلم طريقه يصل بصاحبه لأعلى الغايات ، وأكمل الدرجات ، وفضل العالم على العابد أكبر بكثير من العبادة المجردة ذاتها (١) .

ويستدلون على هذا الرأي بأدلة كثيرة ، منها قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (٢) .

وقوله ﷺ فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب ، واقتران العلم والعمل الصالح في كثير من الآيات القرآنية (٣) ، إلى غير ذلك من الدلائل التي امتلأت بها المؤلفات الصوفية .

ولما كانت المقامات عمادها الكسب ، فلا بد فيها من عمل مشمول بالعلم ، مستضيء بنور الشرع ، حتى يمكنه الإطلاع على عالم الملكوت من حيث أن الصوفية يقسمون العوالم إلى قسمين :

الأول : عالم الملك

وهو الذي يمثل الكائنات المعروفة ، سواء أكان لها وجودات مادية ، وصور ذهنية ، وهو الوجود في الذهن والخارج ، أو كانت لها وجودات في الذهن دون الخارج ، أو كان لها

---

(١) هذه المبررات كلها مقبولة ، لقيامها على اقتران العلم بالعمل ، وجعلهما معا في طريق واحد .

(٢) سورة المجادلة : الآية ١١

(٣) ذلك مما يؤكد أن التصوف يقوم على العلم الذي يثبت أدلته ، وهم بالأخص يلزمون الكتاب والسنة وإجماع الأمة ، وهم أصحاب التصوف المشروع .

وجودات في الخارج ولم يصل إليها العقل بعد ، لكنها واقعة في نطاق إدراكه على ناحية من النواحي [(١)] ، وكل من وقف بعلمه على مجرد العقل فإنه يحظى بعلوم الكائنات التي هي من عالم الملك ، على أساس أن عالم الملك ظاهر الكائنات .

الثاني : عالم الملكوت

وهو الذي يمثل باطن الكائنات المعروفة ، كما يدخل فيه الكائنات القائمة في عالم الغيب ، مما أخبر الله تعالى به ، فمن استضاء عقله بنور الشرع ، وتأيد بالبصيرة ، فأطلع على الملكوت ، الذي هو باطن الكائنات وغائبها ، واختص بمكاشفته أرباب البصائر والعقول ، دون الجامدين على مجرد العقول دون البصائر [(٢)] .

ويعتقد الصوفية أن كل مقام لا يقوم إلا على علم ، ويستدلون على ذلك بأدلة كثيرة ، منها ما روى عن عائشة - رضي الله عنها - قالت أن النبي ﷺ قال :أن دعامة البيت أساسه ، ودعامة الدين المعرفة بالله، واليقين ، والعقل القامع فقلت بأمي وأمي يا رسول الله ما العقل القامع ، قال الكف معاصي الله ، والحرص على طاعته جل علاه [(٣)].

ويستدلون كذلك بما روى عن نبي الله داود عليه السلام من أنه قال يارب لماذا خلقت الخلق ، قال الله له كنت كنزا مخفيا ، فأحببت أن أعرف ، فخلقت الخلق لأعرف [(٤)] .

كما يرى الصوفية أن المقام لا بد فيه من علم ، والعلم يحتاج العقل ، وقد قال البعض أن العقل عقلان :

---

(١) هذا كله يمكن اعتباره من عالم الشهادة على ناحية من النواحي ، راجع كتابنا : الإيمان بالغيب وأثره على الفكر الإسلامي ، صـ ٤٣ - ٩٨ .

(٢) راجع للعلامة / السهروردي ، عوارف المعارف : صـ ٤١٤ .

(٣) قال العلامة / الحافظ العراقي الحديث لأبي سعيد ، وقال لكل شيء دعامة ، ودعامة المؤمن عقله ، رواه ابن المحبر ، وعنه الحارث .

(٤) راجع للعلامة / ابي بكر عبد الله بن شاهاور الرازي : منارات السائرين ومقامات الطائرين ، صـ ٤٥ ، وهو ليس من الأحاديث النبوية ، إنما هو مما أثر على أنه من كلام سيدنا داود عليه السلام

أحدهما : عقل الهداية

ومسكنه القلب الذي له اتصال بالملأ الأعلى ، ومن ثم فإنه يكون للمؤمنين الموقنين، ومكانه في الصدر بين عيني الفؤاد ، وبه يدبر أمور الآخرة [١] .

ثانيهما : عقل الدنيا

ومسكنه في الدماغ ، ومتعمله في الصدر بين عين الفؤاد ، ومهمته تدبير أمور الدنيا ، ولا بد له من معارف تتعلق بها وظائفه [٢] .

والذي أميل إليه تغليبا لآراء جمهرة الصوفية أن العقل واحد ، من حيث هو ، فإذا تأيد بالبصيرة ، دبر أمري الدنيا والآخرة ، وإذا تفرد بعيدا عنها دبر أمرا واحدا ، يقول العلامة السهروردي : أن الدلائل قائمة في الإنسان على كونه عقلا واحدا ، مؤيدا بالبصيرة تارة ، ومنفردا بوصفه تارة [٣] .

أجل ـ اختلفت الناس في عدد العقل ، فمنهم ذاهب إلى أن العقول ثلاثة ، ومنهم ذاهب إلى أقل ، أو أكثر ، وبعضهم ذكر ذلك نثرا ، وبعضهم تناوله نظما ، إلا أن الصوفية انتهوا إلى اعتباره واحدا ، والذي يتعدد هو وظائفه .

ثم ربطوا بين هذه الوظائف ، والمقام من ناحية الكسب والاجتهاد في التحصيل ، وربطوا بينه والحال من ناحية الاستعداد لتلقي الفيوضات التي تجيء من ناحية الله تعالى [٤] .

---

(١) هذا العقل مما يرد لدى الصوفية كثيرا ، وبنفس الاصطلاح راجع للعلامة / السهروردي ، عوارف المعارف : صـ ٤١٤ .
(٢) هذا العقل باعتبار المهام التي يطلب منه القيام بها ، ومن ثم جاء التصنيف عليه .
(٣) راجع للعلامة / السهروردي ، عوارف المعارف : صـ ٤١٤ .
(٤) هذا الربط تبدوا مظاهره في نظرية المعرفة لدى الصوفية ، راجع / للشيخ شاهاور : منارات السائرين ومقامات الطائرين ، حيث يعتبر هذا الكتاب حديثا عن نظرية المعرفة في الفكر الصوفي وارتباطها بالمقامات .

من الواضح إذن إهتمام الصوفية بالعلم ، وجعلهم إياه مع المقام في عناق تام ، بحيثلا ينفصل أحدهما عن الآخر، إلا في الاستعمال اللغوي ، أو من الناحية الاصطلاحية، بناء على أن صحة العبادة لا تكون مع التقليد ، وإنما تجيء مع العلم السديد ، وأن كمال الأخلاق لا يكون بالترديد ، وإنما بالعلم الرشيد .

أما العقيدة ، وهي رأس الأمر كله ، وسنامه ، فإنما تكون بالفطرة السليمة ، وأدلة العقل ، وهما أساس العلم ومعياره (١) ، ومن أشعارهم التي تبين قيمة العلم ، وأنه أعلى من العقل في كثير من المواقف ، قولهم :

علم العليم وعقل العاقل اختلفا
من ذا الذي منهما قد أحرز الشرفا

فالعلم قال أنا أحرزت غايته
والعقل قال بي الرحمن قد عرفا

فكشف العلم عن بعض محاسنه وقال
بأينا الرحمن في قرآنه اتصفا

فبان للعقل أن العلم سيده
فقبل العقل رأس العلم وانصرفا (٢)

ومن ثم ، فإن إتجاه الصوفية في ربط المقام بالعلم يقوم على أسس نقلية وهم في ذات الوقت يؤكدون على أن العلم الذي يجعلونه العماد هو علم الكتاب والسنة ، ثم يأتي

---

(١) تلك الجوانب يمكن الرجوع إليها في كثير من المؤلفات الصوفية ، منها : اللمع للعلامة / الطوسي ؛ وكشف المحجوب للعلامة الهجويري ، بجانب الفتوحات المكية لأبن عربي ، وكثير غيرهم .

(٢) راجع للعلامة / السيوطي : النظائر والأشباه ، في فروع فقه الشافعية ، صـ ٣١٥، ط. المكتبة القدسية

بعدهما ما يرتبط بهما ، أو يقوم عليهما ، لأنه إذا سلم أساس البناء في قيامة من خلال النصوص الصحيحة ، فإن كل ما يجيء بعد ذلك ينال نفس الصحة ، والسلامة ، ولذا فإن علماء الصوفية يقولون دائما علمنا مقيد بالكتاب والسنة [(١)] •

خامسا : ربط الصوفية بين الحال والمعرفة

عرفنا أن الحال لدى الصوفية ، هو ما يرد على القلب من غير تعمد أو اجتلاب ، وإنما يجيء من منح الواحد الوهاب ، في أغلب مظاهره ، وأكثر نتائجه ، وأن هذا الحال يحتاج دعما نورانيا على الدوام ، وكلما جاءه الدعم النوراني ، انفتح أمام القلب ما كان خافيا عليه [(٢)] ، ومن ثم كان اتجاه الصوفية في المحافظة على الحال حتى يبقى داخل وضعه الأمثل ، وهو نوع من المحافظة على الفرد الواعي ذاته •

ولما كانت الأحوال مواهب ، والمعارف منها كسبي ، ومنها وهبي ، فقد ربطوا بين الحال والمعرفة ، من خلال جملة تصنيفات تتعلق بمتلقي المعرفة أنفسهم، أو الذات العارف الذي هو محور الاهتمام الصوفي الصحيح ، من حيث أن الشرائع ما جاءت إلى لصالحه [(٣)] ، والصوفية ما يقومون إلا بغرض تحقيق المصالح المشروعة•

أقسام المعرفة

من الواضح أن الصوفية قسموا المعرفة من الناحية التصنيفية إلى أقسام ، بغرض الوصول إلى بيان علاقة المعرفة بالأحوال ، ويمكن بيان تلك الأقسام من خلال ما يلي :

---

(١) تكررت هذه العبارة في الرسالة القشيرية ، وعوارف المعارف ، والفتوحات المكية ، وذلك للتأكيد على أنهم يلتزمون أصول الدين ، ويقومون عليها باستمرار

(٢) الصوفية يعتبرون الوصول بالفرد الإنساني إلى حيث الرضوان هو شاغلهم الأول ، ومن ثم تأتي محاولاتهم العديدة حول هذا الإتجاه ، ويركزونها لبلوغ تلك الغاية •

(٣) راجع للعلامة / الشاطبي : الموافقات في أصول الشريعة ، الجزء الثاني ، صـ ٥٨ - ٧٤ ، حيث ذكر مظاهر مجيء الشريعة لمصالح العباد •

القسم الأول : معرفة العوام (١)

وهي معرفة عقلية ، يتساوى فيها المسلم والكافر . اليهود والنصارى ، المجوس والملاجدة ، الفلاسفة والطبائعية والدهرية من حيث أنهم جميعا شركاء في العقل ، بل أن العقل أعدل الأشياء قسمة بين الناس ، وهذه المعرفة ليست بمنجية من النار . إلا أن يكون الاستدلال العقلي مؤيدا بنور الإيمان ، ومؤكدا بالأعمال الصالحة (٢) .

ثم أن هذا القسم من المعرفة واقع في نطاق الكسب ، وبالتالي يكون ارتباطه بالمقام أقوى من ارتباطه بالحال ، من حيث اعتماد المقام على الكسب المباشر ، ومجيء الوهب إنما يكون في مرحلة تالية، وبدرجة تناسب طبيعة المقام ، ولا تزيد عليه . نظرا لارتباط ذلك ببعض المصالح الدنيوية بالنسبة لغير المسلم (٣) ، وهذا مما تشهد به الوقائع الحياتية ، وتجيء عليه الدلائل العقلية ايضا .

القسم الثاني : معرفة الخواص

وهي التي تجيء مع أهل البصائر واصحاب اعمال الروية من ارباب القلوب السليمة الذكية ، فإنهم ينظرون من روزنة القلوب في ملكوت الأشياء ، كما قال الله تعالى ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٤) .

---

(١) وهم يعتبرون المعرفة مقاما من المقامات الصوفية ، على أساس أن لها دورا هاما في البناء المعرفي ، وبهذا يردون على من يزعمون قيام الصوفية في بناء قضاياهم على غير معرفة صحيحة .

(٢) راجع للشيخ / شاهاور : منارات السائرين ومقامات الطائرين ، صـ ٤٩ , ٥٠ ، ثم يقول " والمعرفة العقلية المقبولة ما يكون أمرها ثابتا بالدليل الواضح على وجود الصانع الباري ، وحدانيته في الإلهية جل جلاله .

(٣) من الشواهد عليه في الامور الحياتية أن تجد غير المسلم يهتم بالقضايا العلمية في المجال العلمي من ناحية الدواء ، وأساليب العلاج والتقدم التكنولوجي الذي يستفيد منه المسلم ، كما يستفيد غيره طبقا لظروف كل منهم واحتياجاته .

(٤) سورة الأعراف : الآية ١٨٥ .

وهؤلاء حينما ينظرون في ملكوت السماوات والأرض يرون الآيات المودعة في كل شيء ، بحيث تدل تلك الآيات كلها على معرفة الله تعالى ، ووحدانيته ، وقديما قال أبو العتاهية .

وفي كل شيء له آية ... تدل عليه أنه الواحد (١)

يقول الشيخ / شاهاور : أن القلب إذا سلم عن الآفات ، وأعرض عن الدنيا ، وأقبل إلى المولى ، وصقل بمصقل الذكر ، وانتفت عنه كدورات صفات البشرية ، تنور بنور الذكر ، وهو كلمة لا إله إلا الله ، وهي مركبة من نفي وإثبات ، فبنفيها تنفي شواغل القلب وظلماتها ، وبالإثبات تثبت شواهد أنوار المذكور فينكشف الغطاء عن بصر بصيرة القلب ، فيرى بها جمال آيات الحق تعالى ، كما قال الله جل شأنه ﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ﴾(٢) .

ويؤكد الشيخ / شاهاور على أنه إذا كانت معرفة العوام تتم بدلائل المعقول ، فإن معرفة الخواص تقوم في شواهد المدلول ، ومن ثم صح القول القائل ما نظرت في شيء إلا ورأيت الله فيه ، نظرا لقيامه في شواهد المدلول(٣) .

ثم يقول : فأين من يعرف الحق تعالى بآراءة العقل ، ممن يعرف الحق بآراءة آياته في مرآة الأفاق ، وقبله (٤) .

---

(١) معرفة الخواص لها في الفكر الصوفي منزلة ، ومن ثم كان الاهتمام بها في كافة المظاهر والأشكال ، وهو من الشواهد على أن مفهوم الخواص عندهم له منزلة كبرى ، ولها غاية سامية أيضا .

(٢) سورة النجم : الآية ١١ .

(٣) شواهد المدلول يراد بها عمل البصيرة المستنيرة بنور الله ، البعيدة تماما عن الاشتغال بغيره جل علاه .

(٤) راجع للشيخ / شاهاور : منارات السائرين ومقامات الطائرين ، ص ٥٥ , ٥٦ ، وهو يتحدث عن آراءة العقل وآراء ة الحق ، من ناحية الأصطلاح المعرفي الذي يفرق بينهما على نواح عديدة .

كما قال الله جل وعلا ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ أَلا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاء رَبِّهِمْ أَلا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ﴾(١) .

وعلاقة هذه المعرفة بالحال واضحة . من حيث أنها عمل البصيرة ، وطبيعة الأحوال تلقى المواهب القادمة إلى البصيرة ذاتها ، فكأن كلا من الحال ومعرفة الخواص يتكامل مع الآخر بما يحقق مصالح الفرد والجماعة ، من ناحية الاهتداء إلى الله تعالى (٢) .

غير أن معرفة الخواص لا تتوقف على مجرد أراءة شواهد المدلول ، وإنما تمتد لما قبل ذلك كله ، متى وقع لها الوهب الإلهي ، ثم انها تخترق الحواجز ، وتقفز فوق السدود ، حتى ترى سلوتها في مرآة الآفاق العلوية ، انها متعطشة لمعرفة الماورانيات كلها ، نظرا لارتباطها بالوهب الذي لا مغلق له ، وإذا انفتحت أبوابه على العبد ، وانفتح لها قلبه لم يعد للعبد لذة إلا به (٣) .

القسم الثالث : المعرفة أخص الخواص " المعرفة الشهودية "

وهي التي تتعلق بمشاهدات الجمال ، التي تجيء أرباب بالمكاشفات للجلال ، الذين اختصهم الله تعالى بهذه السعادة ، كما اصطفاهم لذات السيادة بلا هم ، وهم في كتم العدم محبوسون من عهد القدم (٤) .

---

(١) سورة فصلت : الآيتان ٥٣ , ٥٤ .

(٢) هذه العلاقة من ذات الجانب واضحة في دلالتها ، وبالتالي يعلق عليها الصوفية أهمية كبرى .

(٣) يستدل على هذه العلاقة الرابطة بين الحال ومعرفة الخواص بالسلوكيات التي يمارسها الصوفية الأعلام أينما كانوا ، ومن خلالها حققوا العديد من النتائج الايجابية، راجع كتابنا : أنسام حبية في الأفكار الصوفية ، صـ ١٤٧ .

(٤) راجع للشيخ / شاهاور : منارات السائرين ومقامات الطائرين ، صـ ٥٧ ، حيث يصف أصحاب هذا القسم من المعرفة ، ويؤكد امتيازهم عن غيرهم في كافة المراحل التي تتعلق بهذا النوع من المعرفة .

إنها معرفة جاءتهم منذ كانوا فكرة في ضمير الغيب ، وربما تلاقت معهم عند عتبات عالم الذر ، الذي أخذ الله فيه العهد على بني آدم ، أن يعرفوه وحده ، ويعبدوه جل علاه دون سواه ، قال تعالى ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (١) .

إن أصحاب هذه المعرفة قد سبق لهم العلم الإلهي بها ، وتحققهم من خلالها ، فهم مرتبطون بها منذ الأزل ، وفي ذات الوقت قد ارتبطت بهم منذ ذلك المقام ، وقد عبر الشيخ / شاهاور عن ذلك في صورة صوفية رائعة ، حيث يقول :

أن هذه المعرفة قد تمت لهم عن طريق خياط القضاء بخياطة القدر (٢) ، وخيط المشيئة على حانوت الأزل ، بيد العناية ، وقوة القدرة ، وصناعة الحكمة ، لقد كان يخيط لهم خلعة المعرفة على مقدارهم ، من ثوب قد نسج من سدى يحبهم ، ولحمة يحبونه (٣) ، كما قال الله تعالى فأحببت أن أعرف ، فخلقت الخلق ليعرفوني (٤) .

ولا شك أن المعرفة الشهودية ، أو معرفة أخص الخواص ، لها ارتباط بالحال منذ مراحله الأولى ، حينما كان الإنسان في عالم الغيب ، فكأنهما معا قد خلقا مرة واحدة ،

---

(١) سورة الأعراف ، الآيات ١٧٢ - ١٧٤ .

(٢) فيه إشارة إلى أن القضاء علم وكتابة ، وأن القدر تنفيذ ما في تلك الكتابة ، وهو الإتجاه الغالب في الفكر الكلامي لدى كل من الماتريديه ، والأشاعرة ، بجانب السلفية وغيرهم .

(٣) فيه استشهاد واضح من خلال قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ سورة المائدة : الآية ٥٤ .

(٤) راجع للشيخ / شاهاور : منارات السائرين ومقامات الطائرين ، ص ٥٧ ، وهذا القول منسوب إلى سيدنا داود عليه السلام ، وليس حديثا نبويا ، ولا قدسيا ، وإنما مما ذكرته الكتب السابقة ، ويحكي عنها .

بحيث يمكن القول بأنهما معا قد جاءا معا ، نظرا لهذا الارتباط القائم في الماضي البعيد ، وقبل أن يكون هناك ماض وحاضر ومستقبل ، لأن ذلك قد تم في الزمان المقدر في علم الله الأزلي [(١)] ٠

إن معرفة أخص الخواص تقوم مع الحال في إطار المحبة ، ومن المعلوم أن المحبة بغير المعرفة لا يمكن وصولها ، والمعرفة بغير المحبة لا يمكن حصولها ٠

وإذا أمعنت النظر الثاقب ، والتفكير الواعي ، تبين أن المعرفة صدف درة المحبة ، والمحبة من صفات الله تعالى ، والمعرفة من صفة العبد ، ولهذا سبقت محبة الله على معرفة العبد ، يدل عليه قوله تعالى فأحببت أن أعرف [(٢)] ٠

ولا شك أن المحبة الإلهية قديمة ، والمعرفة الإنسانية حادثة ، والقديمة أولى بالدرية ، والحادث أحرى بالصدفية ، وقد كشف القناع عن وجه هذا المعنى قول النبي محمد ﷺ أن الله تعالى خلق آدم فتجلى فيه [(٣)] ، وقوله ﷺ أن الله خلق آدم على صورته وصفته [(٤)] ٠

وقد تحقق من ذلك كله أن العالم صدف ، ودرته أدم عليه السلام ، وآدم صدف ، ودرته محمد ﷺ ، وشخص محمد صدف ، وقلبه درته ، وقلب محمد صدف ، والمعرفة الإلهية

---

(١) الزمان المقدر في علم الله الأزلي عليه شواهد كثيرة ، منها قوله ﷺ قدر الله مقادير الخلائق قبل أني السماوات والأرضين بخمسين ألف سنة ، راجع كتابنا : الإيمان بالغيب وأثره على الفكر الإسلامي ، أثناء الحديث عن أنواع الزمان ٠

(٢) المحبة هنا راجعة إلى الله تعالى ، على ما يليق بذاته جل شأنه ، من غير احتياج لتشبيه أو تعطيل ، أو تجسيم ، والمعرفة راجعة للعبد وبالتالي جاءت نسبتها إليه ٠

(٣) راجع صحيح الإمام البخاري : كتاب الاستئذان ، والإمام / مسلم في كتاب البحر ، وراجع كتابنا : التعصب في فهم السنة بين القبول والرفض ٠

(٤) المراد الصورة التي نرى آدم وأبناءه فيها ، فلم يحدث عليه تطور كما يزعم الكذابون ، وإنما هي ذات الصورة الأولى ، راجع صحيح مسلم ، ومسند الإمام أحمد جـ ٣ ، صـ ٢٤٤، وكتابنا : التعصب في فهم السنة ، صـ ٧٨ - ٧٩ ، حيث ذكرت الحديث ورواياته وأراء العلماء فيه ٠

درتـه، والمعرفة صدق ، والمحبة الربانية درتـه ، ولهذا سمي محمد ﷺ حبيب الله ، واختص بهذا القسم دون سائر الخليقة من الملائكة المقربين ، والأنبياء ، والمرسلين [(١)] .

من الواضح أن الصوفية يربطون بين الحال التي هـي مواهـب إلهيـة ، وبـين هـذه المعرفة الشهودية ، لكنهم يجعلون الشـهودية أعلـى مـن الأحـوال العاديـة ، وهـي في ذات الوقت قرين الحال الامتيازية ، التي يغيب فيهـا الإنسـان عـن ذاتـه ، ولا يبقـى لـه إلا الشهود ، الذي يأخذه للاستغراق التام في جلال المعبود .

وهذا مما يكشف عن عقلية منظمة معرفيا ، تنطلق من العام للخاص ، ثم تـرتفع منه إلى المقام الأعلى ، حيث لا يكون هناك أحد سوى خالق الوجود وهوالإله الباقي الواحد الأحد المعبود [(٢)] .

والذي يبدو لي أن الصوفية كانوا على وعي تام بضرورة قيـام الأحـوال والمقامـات على نهج علمي ، وارتباط ذلك بالمعرفة النظرية والعملية ، مما يؤدي لتحصيل منـافع ذات ارتباط قوي بالإنسان الواعي ، والواقع المعـاش، وذلـك ممـا يهـدف لتحصـيل السـعادة في الدنيا ، وبلوغ الغاية لدى المقام الأمين بالنسبة للدار الآخرة .

سادسا : الانتقال بين المقامات والأحوال

يرى كثير من الصوفية أن الفرد الواعي يمكنه بالاجتهـاد الكسـبي الانتقـال مـن مقام إلى مقام ، فإذا كان في مقام الرضي مـثلا ، أمكنـه الانتقـال إلى مقـام المحاسـبة ، ثـم الارتقاء إلى ما بعدها من مقامات حتى يبلغ المشاهدة ، وكما أمكنـه الانتقـال التصـاعدي ،

---

(١) هـذا الاختصـاص لسيدنا محمـد ﷺ نـراه فـي المؤلفـات الصـوفية القديمـة والحديثـة ، وأدلتنا على هذا الشأن كثيرة ، وتجيء على التوالي ، راجع لأبي طالب المكي : قوت القلوب ، جـ ٢ ، صـ ٧٩ .

(٢) راجع للشيخ / شـاهاور : منـارات السـائرين ومقامـات الطـائرين ، وراجـع لأبـي طـالب المكي : قوت القلوب ، وراجع للشيخ / محمـد علـى الخيـاط : الصـوفية الأعـلام ، صـ ١٣٤ ، وراجع لأبن الجوزي : صفة الصفوة .

فقد يقع له الانتقال التنازلي ، طبقا لما يقوم به من أعمال الطاعة ، والعبادة ، وقدرته على الإنفراد بنفسه مع السيطرة عليها من ترجحه بين هذه وتلك(١) .

وقد ذكر العلامة السهروردي أن أصول المقامات أربعة ، ومكملاتها أربعة أخرى ، وكل مقام له حال وثمرة ، ومن ثم فكل من المقامات والأحوال لها أصول ، ومكملات ، بجانب ما لها من فوائد وثمرات ، ويمكن الانتقال بين المقامات بالكسب لقيامها عليه ، كما يمكن الانتقال بالوهب لارتباطها به ، واعتمادها عليه (٢) .

أصول المقامات ومكملاتها

يرى العلامة / السهروردي أن أصول المقامات ومكملاتها ثمانية على وجه الإجمال

الأول : مقام صحة الإيمان

ذلك أن الرسول ﷺ لما سئل عن كمال الأمر ، فقال : رأس الأمر وكماله الإيمان بالله تعالى ربا ، وبالإسلام دينا ، وسيدنا محمد ﷺ نبيا ورسولا ، وبالقرآن الكريم دستورا، وبالسنة المطهرة مبينا ، وموضحا ، ومرشدا .

كما أن تمام الإيمان إنما يكون بصحة الاعتقاد في أجزائه الواردة في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، من قوله ﷺ الإيمان ، أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره(٣) .

---

(١) الانتقال من مقام إلى مقام قد يستغرق وقتا ، بينما الانتقال من حال إلى حال قد يقع في ذات اللحظة ، وبالتالي فالاتفاق بشأن الانتقال قائم ، لكن الحركة التي تجيء معه هي التي يقع الخلاف بشأنها .

(٢) راجع للعلامة / السهروردي : عوارف المعارف ، صـ ٤٢٨ ، وهذا الاتجاه ليس غالبا، لأن البعض ذكران المقامات كثيرة ، ولكنها متناهية ، أما الأحوال فهي كثيرة ، وغير متناهية من ناحية الحصر ، وهذا الفرق بينهما جوهري لارتباطه بالعديد من الجوانب المختلفة .

(٣) وفي رواية ، بزيادة حلوه ومره ، وبالتالي فالإيمان يقوم في أجزاء ستة هي المعبرة عنه ، ولا يتم الإيمان إلا بها جميعا .

يقول العلامة / السهروردي : أني بمبلغ علمي ، وقدر وسعي وجهدي ، اعتبرت المقامات والأحوال وثمرتها فرأيتها يجمعها ثلاثة أشياء بعد صحة الإيمان ، وعقوده وشروطه ، فصارت مع الإيمان أربعة (١) .

ثم رأيتها في إفادة الولادة المعنوية الحقيقية ، بمثابة الطبائع الأربعة التي جعلها الله تعالى بإجراء سننه مفيدة للولادة الطبيعية ، ومن تحقق بحقائق هذه الأربعة يلج ملكوت السماوات ، ويكاشف القدر والآيات، ويصير له ذوق ، وفهم لكلمات الله تعالى المنزلات ، كما يحظى بجميع الأحوال والمقامات (٢) .

ومن ثم فإن جميع المقامات يمكن أن تخرج من هذه الأصول ، كما أن الأحوال يصح أن يرتد بعضها إليها في صورة من الصور .

الثاني : <u>مقام التوبة النصوح</u>

ذهب البعض في تعريفها بأنها الخوف من الجليل ، والعمل بالتنزيل ، والرضا بالقليل ، والاستعداد ليوم الرحيل (٣) ، والتوبة في مبدأ صحتها تحتاج إلى الأحوال التي تقود الإنسان الواعي لطرق باب التوبة .

وإذا صحت هذه الأحوال ، وتمت التوبة النصوح ، فإنها تشتمل على مقامات أخرى، وأحوال لاحقة ومتممة ، إذ لا بد في ابتدائها من وجود زاجر ، ووجدان الزاجر حال لصاحبه (٤) ، لأن الزاجر موهبه من الله تعالى ، وحال الزاجر مفتاح التوبة ، بل هو أيضا

---

(١) هي : ١ - صحة الإيمان بعقوده وشروطه ، ٢ - التوبة النصوح ، ٣ - الزهد في الدنيا ، ٤ - تحقيق مقام العبودية .

(٢) راجع للعلامة / السهروردي : عوارف المعارف ، صـ ٤٢٨ , ٤٢٩ .

(٣) وهذا التعريف مما ينسب قوله للإمام / على بن أبي طالب - كرم الله وجهه - وهو اتجاه قد يكون له ما يعضده .

(٤) اعتبار الزاجر من حيث أن صاحبه ينزجر به فتقع له به مواهب دافعة للقيام به ، والتصرف معه ، وهذا دور الحال ، ومنزلته .

المبدأ الذي تقوم عليه ، وتتمدد فيه [(١)] .

المثال التطبيقي نراه هنا حيث قال رجل لبشر الحافي ﷺ : مالى أراك مهموما ؟ ، قال : لأني ضال ومطلوب ، قال له الرجل : كيف ذلك ؟ ، قال : ضللت الطريق والمقصد ، وأنا مطلوب به [(٢)] ، ولو تبينت كيف الطريق إلى المقصد لطلبت ، ولكن سنة الغفلة أدركتني [(٣)] ، وليس لي منها خلاص ، إلا أن أزجر فأنزجر ، وبالتالي فالزاجر حال يقوم به الواهب حتى يرتدع الموهوب ، وإلى ربه يسارع بالتوبة النصوح ، فيتوب الله عليه حين يتوب .

يقول العلامة / السهروردي : فالزاجر في الباطن حال يهبها الله تعالى ، ولا بد من وجودها للتائب ، ثم بعد الانزجار يجد العبد حال الانتباه ، والقائمة هي أن من لزم مطالعة الطوارق انتبه ، وعلامات الانتباه خمس : إذا ذكر نفسه افتقر إلى الله ، وإذا ذكر ذنبه استغفر مولاه ، وإذا ذكر الدنيا اعتبر بحالها مع سواه ، وإذا ذكر الآخرة وقربها استبشر ، وإذا ذكر الموت وما هو لاقيه اقشعر [(٤)] .

أحوال ما قبل التوبة النصوح

يرى الصوفية أن مقام التوبة يسبقه وهب إلهي يعيد المرء إلى وضعه الأساسي ، ويستدل عليه بآدم لما نسي ولم نجد له عزما ، القي الله إليه كلمات كانت بمثابة المهدات للتوبة ، فقبل الله تعالى منه توبته ، يدل عليه قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴾ [(٥)] ، وقوله تعالى ﴿ ثم اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾ [(٦)] .

---

(١) راجع للشيخ / محمود بن على الزربي : المكاشفات والبوارق ، صـ ٧٣ , ٧٤ ، ط. دار التقدم ١٣١٥ هـ .

(٢) المراد بالطريق هنا طريق التوبة ، والعبادة ، لقوله تعالى ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ سورة الذاريات : الآيات ٥٦ - ٥٨ .

(٣) سنة الغفلة هذه مما يقع فيه كثير من الناس ، وقد لا يستطيع الانتباه حتى إلى الوقوع فيها .

(٤) راجع للعلامة / السهروردي : عوارف المعارف ، صـ ٤٢٩ , ٤٣٠ .

(٥) سورة طه : الآية ١١٥ .

وقد صورت الآيات من سورة البقرة هذا الحال والمقام في صورة رائعة ، قال تعالى﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَـذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْظَّالِمِينَ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾(٢) .

ومن ثم فإن هذه الأحوال يمكن الإلتفات إليها من خلال بيان كل من :

أ ـ حال الزجر

وهو الذي يقف في باطن العبد داعيا إياه إلى التفكير فيما فعل ، ويسعى به للخروج مما هو فيه ، ومن ثم عرف الصوفية الزاجر بأنه حال يهبها الله تعالى العبد حتى يكون ممهدا له في مقام التوبة (٣) .

ب ـ حال الانتباه

وهو الذي يقوم في العبد بعد الانزجار ، بحيث يوقظه من غفلته ، ويقيمه من رقدته ، ولذلك قيل الانتباه أوائل دلالات الخير ، وأول علامات الرشد ، وغاية درجات الانزجار (٤) .

ومن الواضح أن الانتباه حال يقوم فوق حال سابق عليه ، وهو الزجر، فما لم ينزجر العبد لم يقع له الانتباه ، وبالتالي كان كل منهما ممهدا لما بعده ، ومعه ارتباط به.

---

(١) سورة طه : الآية ١٢٢ .
(٢) سورة البقرة : الآيات ٣٥ ـ ٣٧ .
(٣) راجع للشيخ العارف بالله / محمد نور الدين بن على الأزارقي : التصوف والمكاشفات الربانية ، صـ ١٣٣ , ١٣٤ .
(٤) راجع للشيخ / زكريا بن على الغاسي : التصوف الجميل ، صـ ٤١ , ٤٢ ، ط. دار الفاس .

جـ - حال اليقظة

وهو الذي يقوم في العبد دافعا إياه للتوبة ، من حيث أنه مسبوق بكل من الزجر والانتباه ، وبالتالي فهو الذي يأتي بعده مقام التوبة ، يقول الشيخ / محمود بن على العلواني : أن التيقظ يكون من غفلة أعقبها انتباه ، لأن كل انتباه إنما هو راجع إلى التيقظ ، الذي يلزم صاحبه طلب طريق الرشد، وحينئذ يطلبه ، ويظل به حتى يصل به إلى باب التوبة (١).

ولقد كثرت عبارات القوم حول حال التقظة ، ومنها أن اليقظة ، إذا صحت كان صاحبها في أوائل طريق التوبة ، فإذا تمت يقظة العبد على وجه صحيح ، نقل إلى مقام التوبة.

وبالتالي فهذه الأحوال الثلاثة سابقة على مقام التوبة ، من حيث وجودها مع العبد ، وممهدة له ، وهو المراد من قولهم أن الأحوال تتداخل مع المقامات ، بحيث تكون ممهدة لها (٢).

أحوال ما بعد التوبة النصوح

مادامت هناك أحوال تسبق مقام التوبة ، وتمهد لها ، فإن الصوفية يرون ضرورة وجود أحوال بعد التوبة ، تكون علامة على صدقها ، كما تمهد للمقام الذي يأتي بعدها ، باعتبار أن كل مقام يسبقه حال ، أو تمهد له جملة أحوال ، ومن أبرز أحوال ما بعد التوبة ما يلي :

---

(١) الشيخ / محمود بن على العلواني : رحلتي مع التصوف ، صـ ٧٤ , ٧٥ ، ط. دار المبارك ، سنة ١٣١٥ هـ .

(٢) راجع للشيخ / سعد بن محمد أبو ضيف : الاتجاه الصوفي وعلاقته بالحقيقة والشريعة ، صـ ١١٤ .

أ - حال المحاسبة

وهو داع يقوم في الباطن ، يدفع صاحبه إلى تأكيد موقفه من مقام التوبة ، واضعا في حسبانه ما نقل عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - من قوله : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوها قبل أن توزن عليكم ، وتزينوا للعرض الأكبر على الله تعالى ، وتذكروا قوله جل شأنه ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾[(١)] .

والمحاسبة إنما تكون بحفظ الأنفاس ، وضبط الحواس ، ورعاية الأوقات ، وإيثار المهمات ، والمتفقد المحاسب يهيئ الباطن للقيام بما يجب عليه في ضبط الجوارح ، حيث يحقق مقام المحاسبة فيكون عند ذلك لصلاته نور يشرق على أجزاء وقته ، من الصلاة إلى الصلاة الأخرى ، فلا تزال صلاته منورة تامة بنور وقته ، ووقته منورا معمورا بنور صلاته[(٢)] .

ب - حال الرعاية

وهو واع في القلب ، ينهض مع العبد ، لينعقد معه عقد التوبة ، حتى لا تنفرط حياته ، ولا تضيع معالمه ، باعتبار أن المراقبة عمل الباطن ، قال الجنيد: من حسنت رعايته دامت ولايته ، وسئل الواسطي أي الأعمال أفضل ، قال : مراعاة السر ، والمحاسبة في الظاهر ، والمراقبة في الباطن ، ويكمل أحدهما بالآخر ، وبهما تستقيم التوبة[(٣)] .

لا شك أن الرعاية حال شريف يتم القيام به ، حتى يتمم ضرورة صحة التوبة ،

---

(١) سورة الحاقة : الآية ٨ ، وكان بعض المحاسبين يكتب الصلوات الخمس في قرطاس، ويدع بين كل صلاتين بياضا في القرطاس ، وكلما ارتكب خطيئة من كلمة غيبة ، أو أمر أخر خط خطا ، وكلما تكلم أو تحرك حركة فيما لا يعينه نقط نقطة ليعتبر ذنوبه وحركاته فيما لا يعنيه ، حتى تضيق المحاسبة مجاري الشيطان .

(٢) راجع للعلامة / السهروردي : عوارف المعارف ، صـ ٤٣٠ , ٤٣١ ، وحال المحاسبة يصلح أن يكون مقاما أيضا ، ومن ثم فهو حال ومقام معا ، ومن أقوالهم من حسنت محاسبته ، كملت مراقبته .

(٣) راجع للشيخ / محمد علي النمرسي : بوارق الصوفية ودلائل الخيرات ، صـ ١٢١ .

وبالتالي جاء متأخرا عنها ، لاحقا بها ، كالجند الحماة الذين يأتون خلف الأمير حتى يحفظوه من خلفه ، ويمنعوه في ظهره ، بحيث لا يتسلل الشيطان إلى مقام التوبة النصوح أبدا ، لأن من شرائط قبولها ، وتحققها ، الندم على ما فات ، والعزم على عدم العودة إلى الذنب ، ثم الإنابة إلى الله تعالى على الدوام [(١)] .

جـ- حال المراقبة

وهو قيام الفرد الواعي بمتابعة أحوال نفسه من داخلها ، أنه لا ينظر للظاهر ، ولا يكتفي بالمظاهر ، وإنما هو قائم على ذاته بذاته ، ولذلك اعتبر الصوفية الإنسان الواعي هو المراقب لنفسه ، دليلهم عليه قوله تعالى ﴿ بَلِ الإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ ﴾ [(٢)] .

ثم أن حال المراقبة فيه التماس الحق على كل ناحية ، ولذا يقول الصوفية أن المراقبة هي مراعاة السر ، لملاحظة الحق في كل لحظة ، ولفظة ، يدل عليه قوله تعالى ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴾ [(٣)] .

وكل قائم على نفسه ، مراقب لها ، ضابط أعمالها ، إنما يكون متلبسا بحال المراقبة الذاتي لنفسه ، فكأنه يراقب ذاته أمام ذاته ، كما يراقب ذاته أمام تعاليم مولاه ، وقد نتج عن هذا الحال علمان :

---

(١) حال الرعاية فيها ضبط لقوى النفس الإنسانية ، من حيث أن القائم بها هو الفرد ذاته ، وكلما أتقن القيام بهذه المهام تحقق له بلوغ المرام .
(٢) سورة القيامة : الآيتان ١٤ , ١٥ .
(٣) سورة الرعد : الآيتان ٣٣ , ٣٤ .

أحدهما : علم القيام

حيث يتولى فيه المرء توجيه نفسه ، ومراقبة جميع أحوالها ، وصرفها عما فيه ضررها ، والدليل عليه قوله تعالى كل نفس بما كسبت رهينة ، فالله هو القائم بها خلقا ، والعبد قائم بها مراقبة ومراعاة (١) .

ثانيهما : علم الحال

وهو إدراك الفرد الواعي معيار نفسه ، فيما بينه وبين الله تعالى ، من حيث الأوامر والنواهي ، ومن ناحية الالتزام طبقا لما جاءت به نصوص الالزام على الدوام ، وكان الشيخ الجريري - رحمه الله - يقول : أمرنا هذا - التصوف - مبني على فصلين ، وهو أن تلزم نفسك المراقبة لله تعالى ، ويكون العلم على ظاهرها قائما (٢) .

مما سلف بيانه ، اتضح أن مقام التوبة ، يسبق بأحوال ثلاثة تكون بمثابة المقدمات له ، الممهدات للقيام به ، وهي : الزجر ، والانتباه ، واليقظة ، وثلاثة أحوال تسبقه تكون بمثابة التأكيد عليه ، وهي : المحاسبة ، والرعاية ، ثم المراقبة ، وكل منها يصلح أن يكون مقاما لغيره باعتبارات مختلفة .

المقام الثالث : مقام الزهد في الدنيا

وهو ممارسة العبد كافة الأعمال التي تناط به ، وأن يأخذ من الدنيا طيبياتها، بحيث تكون في يديه ، ولا تتمكن من قلبه ، ولذا كان الدعاء الصالح : اللهم أجعلها في أيدينا ، ولا تجعلها في قلوبنا ، ومن حيث أ ن المرء ينظر للدنيا بنظرة المسافر رأى شجرة ، يجلس تحت ظلها ، حينا ثم يتركه ليواصل السفر ، ويستدل عليه بقوله تعالى ﴿ الْحَجُّ

---

(١) علم القيام له دلائل كثيرة من النصوص النقلية التي وظفها الصوفية على أحسن ما يكون التوظيف .

(٢) راجع للشيخ / محمد بن حسن الصفاقسي : فوائد جليلة ، جـ ٢ ، صـ ١٧٤ ، ط. دار القدس سنة ١٣٠٣ هـ .

أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللّهُ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ ﴾ (١) .

كما أن العاقل ينظر إلى الدنيا فلا يراها قد أعطت إلا وأخذت ، وحتما سيفارق المرء ما جمع ، وما لم يجمع ، وأنها إذا ضحكت صباح يوم ، أبكت مساءه ، فكيف يكون عاقلا ذلك الذي يتعلق بها ، ويقاتل فيها ، ومن أقوال الحكماء عنها :

هي الدنيا تقول بملء فيها ∴ حذار حذار من بطشي وفتكي

فلا يغرركموا مني ابتسام ∴ فقولي مضحك والفعل مبكي

ومن الحكم المأثورة : كن في الدنيا كأنك غريب لا وطن له ، أو عابر سبيل لا أهل فيه ، بحيث يكون المرء الواعي على يقين من أن ساعاته فيها محدودة ، وإقامته بين جنباتها محكومة بمقدار ما جعل الله تعالى له من عمر ، وكل ذلك إلى وقت ليس طويلا (٢) .

ليس الزهد المشروع انصرافا عن الحياة ، حتى يتحول الإنسان الواعي إلى مريض نفسي ، تطارده الهموم ، وتستولي عليه الهواجس ، وإنما الزهد في الدنيا هو عدم العبادة لها بحيث لا يكون المرء مشغولا بها إلا في حدود ما تأمر به الأمور ، وتنقضي الأحوال ، لسان حالهم يقول :

إن لله عبادا فطنا ∴ طلقوا الدنيا وخافوا الفتنا

أيقنوا أنها ليست لمقيم وطنا ∴ فاتخذوها لجة وصالح الأعمال فيها سفنا (٣)

---

(١) سورة البقرة : الآية ١٩٧ .

(٢) ومن الأقوال المشهورة : الدنيا كسوق قام ثم انفض ، ربح فيه من ربح ، وخسر فيه من خسر ، فالعاقل من أخذ من دنياه لأخراه ، ومن ممره لمقرة ، ومن غناه لفقره ، ومن صحته لمرضه ، ومن شبابه لهرمه .

(٣) العلامة / أبو الحسن الماوردي : كتاب أدب الدنيا والدين ، صـ ١٨٢ .

إن الصوفية اعتبروا مقام الزهد مترتبا على المقامات السابقة عليه ، يقول " السهروردي " إذا صحت التوبة النصوح ، وتزكت النفس ، انجلت مرآة القلب ، وبان قبح الدنيا فيها ، فيحصل الزهد [(١)] ، والزاهد يتحقق فيه التوكل ، لأنه لا يزهد في الموجود ، إلا لاعتماده على الموعود ، والسكون إلى وعد الله تعالى هو عين التوكل ن وكلما بقى على العبد بقية في تحقق المقامات كلها بعد توبته ، فإنه يستدركه بزهد في الدنيا [(٢)] .

قد فهم البعض أن الزهد تعطيل لحركة الحياة ، وابتعاد عن المشاركة في أنماطها الإيجابية ، وربما نسبوا ذلك إلى الصوفية ، وهو إتجاه غير سديد ، بجانب أنه فهم لا توجد أدله تدعمه ، لأن الصوفية بقدر ما نهوا عن التعلق بالدنيا بقدر ما دعوا للمشاركة الإيجابية في أعمار الأرض ، واستزراعها ، ومازالوا على ذلك قائمين [(٣)] .

إنهم زهدوا في الدنيا ، فلم تقع منهم موقع القيادة لها ، أو الاحتفاء بها ، وإنما تعاملوا معها بما يجب عليهم القيام به، وما ينبغي التعامل الهادف من خلاله ، بدليل أنهم تزوجوا ، وأنجبوا ، واستزرعوا ، وزرعوا ، كما عملوا في الربط والأسبلة ، وتاجروا ، وما أخبارهم الصحيحة عن العقل الواقعي أمرها ببعيد [(٤)] .

لقد فهموا مقام الزهد في الدنيا من قوله تعالى ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ [(٥)] ، ومحل الشاهد في هذه الآية الكريمة أن الله تعالى خلق الأرض ، ثم جعل لها زينة ، وخلق الخلق وأمرهم التعامل

---

(١) فالزهد ناتج عن معاينة ما في الدنيا من قصور بجانب العوز .

(٢) العلامة / السهروردي : عوارف المعارف ، صـ ٤٣٥ .

(٣) راجع كتابنا : أوراق مطوية في التصوف والصوفية ، صـ ٢١٣ - ٢١٧ ، حيث تبين أنهم يشاركون في كافة الأنماط الحياتية ، ويتقاسمون الأوجه الحضارية بكل ما لديهم من طاقة ، وما وسعهم من جهد

(٤) راجع لأبي عبد الرحمن السلمي : طبقات الصوفية ، وللعلامة / القشيري : الرسالة القشيرية ، وللشيخ الشعراني : لواقح الأنوار ، ولأبى نعيم " حلية الأولياء ، وكثير غيرها .

(٥) سورة الكهف : الآيتان ٧ , ٨ .

مع هذه الزينة ، فمن قبلها وتمسك بها ، وانشغل بحبها ، وبات شاغله الشاغل هو القيام عليها ، فقد وقع في دائرة الافتتان بها ، ومن صرف نفسه عن غيها ، وتمسك بما هو الأصلح له ، وزهد في الدنيا ، بحيث لا يقع منها استعباد له ، فقد نجا منها (١) .

والتطبيق العملي من فعل الرسول ﷺ ما روى عن عبد الله بن بريدة ، قال : قدم رسول الله ﷺ من سفر ، فبدأ بفاطمة - رضى الله عنها - فرآها قد أ حدثت في البيت سترا (٢) ، وزوائد في يديها.

فلما رأي ذلك رجع ولم يدخل ، ثم جلس ، فجعل ينكث في الأرض ويقول : مالي وللدنيا ، فرأت فاطمة أنه إنما رجع من أجل ذلك الستر ، فأخذت الستر والزوائد ، وأرسلت بهما مع بلال ، وقالت له : أذهب إلى النبي ﷺ فقل له قد تصدقت به ، فضعه حيث شئت (٣) .

فأتي بلال النبي ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، قالت فاطمة قد تصدقت به ، فضعه حيث شئت ، فقال النبي ﷺ : بأبي وأمي قد فعلت ، اذهب فبعه (٤) .

الرابع : مقام تحقيق مقام العبودية

وهو أن يظل العبد مداوما على العمل فيما يرضى الله تعالى ، ظاهرا بأعمال الجوارح كلها ، وتسمى الأعمال القلبية ، نظرا لارتباطها بالصورة الظاهرية للإنسان ، التي تمثل القالب العام له ، الذي يرتبط فيه الجسم بالنفس ، والعقل بالروح (٥) .

---

(١) وبالتالي فالزينة هنا يقع بها الابتلاء ، أيهم أحسن عملا ، في تعلق بالدنيا وانصراف إليها ، أم من زهد الدنيا وانصراف عنها .

(٢) الستر جمع ستار ، وهي ما يحجب رؤية العين ، بحيث لا ينكشف ما بالداخل ، وربما اعتبر ذلك من باب الكمالات ، أو لزوم لما يلزم لستر البيوت .

(٣) كأنها تريد إخبار الرسول ﷺ بأن ما فعلته قد رجعت عنه ، وأنها لم تحتفظ به ، وإنما جعلته صدقة .

(٤) راجع للعلامة / السهروردي : عوارف المعارف ، صـ ٤٣٥ ، وسئل الأمام / على بن أبي طالب - كرم الله وجهه - عن الزهد ، فقال : هو أن لا تبالي بمن أكل الدنيا ، مؤمن أو كافر .

(٥) هذه الأعمال الظاهرة يشترط في صحتها وتمامها أن تكون متوجهة إلى الله تعالى بالكلية ، ففي الخبر من عمل عملا اشترك فيه غيري تركته وشركه .

كما يستمر العبد قائما في العمل الذي يرضي الله تعالى باطنا ، وهو الأعمال القلبية ، من حيث أن الله تعالى لا ينظر إلى صوركم ، ولا إلى أجسادكم ، ولكن ينظر لقلوبكم وأعمالكم ، وكل عمل قلبي يتعلق بإثبات العبد ذاته أمام رضوان الله تعالى ، فإنه يعتبر من مظاهر تحقيق العبودية لله رب العالمين (١) .

تلكم كانت أبرز أصول المقامات من الناحية الإجمالية ، وهناك مقامات تكميلية ، يمكن إجمالها فيما يلي :

الأول : مقام قلة الكلام

وهو الذي ينبعث في باطن المريد ، بحيث يحول بينه والاسفاف، كما يصرفه عن الانشغال بغير الذكر ، على أساس أن من كثر كلامه كثرت أخطاؤه ، كما أن الكلام الكثير ينسى بعضه بعضا ، من حيث أن الكلام أعراض سيالة. تنقضي بمجرد النطق بها ، والصوفية يرون أن الكلام وسيلة للتعبير عن المرء ، وليس هو ذاته المرء الواعي ، ومقام قلة الكلام يساعد على استقرار مقام التوبة (٢).

الثاني : مقام قلة الطعام

وهو الذي يحول بين المرء وشهواته الجنسية والغضبية، ويصرفه عن هذه وتلك، كما أن قلة الطعام تعطي المريد السالك فرصا عديدة في إتمام ما يريد القيام به ، من العبادات والمعاملات ، أما كثرة الطعام فإنها تورث البطنة ، وتؤدي إلى التخمة ، كما تنيم الذاكرة ، وتؤدي إلى ثقل الروح .

---

(١) الظاهر قد يكون مما يغري الناس ، ويخدع الخلائق ، أما الباطن فذلك ما لا يطلع عليه إلا الله جل علاه ، وقديما قيل :

ومهما يكن عند أمرئ من خليقه ... وإن خالها تخفى على الناس تعلم

(٢) راجع للشيخ / محمد ناصف فوزي : التصوف الإسلامي ، صـ ١٢٧ ، ط. دار التقوى سنة ١٩٥٧ .

كما تهبط بالنفس إلى العمليات الشهوانية[١] ، بدل أن تصعد بها إلى العلميات العلوية حتى أن النفس تظل آخذة في التدني ، والهبوط دون أن يحصل لها أي ارتقاء علوي ، ومن ثم فإن مقام قلة الطعام يساهم في استقرار مقام الزهد في الدنيا[٢] .

الثالث : مقام المنام

النوم نعمة من أنعم الله تعالى ، بدليل أنه جل شأنه أمتن على عباده بأن جعل لهم الليل ليسكنوا فيه ، كما جعل النهار للسعي ، وطلب المعاش ، فقال تعالى ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ [٣] ، وقال تعالى ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [٤] .

فإذا كثر منام الفرد الواعي أضاع الكثير من عمره في طلب ما لا يطلب ، ولا يتحقق بالطلب ، إما إذا كان في مقام قلة النوم ، فإنه يحقق أنواعا كثيرة من التعاون ، ومصالح العباد ، بجانب تيسير حركة الحياة ، وهذا في حد ذات كاف فيما يحقق المنافع المشتركة ، بالنسبة لكل من التصوف والصوفية على السواء .

الرابع : مقام الاعتزال عن الناس

لا شك أن الاقتراب من الناس لا بد أن يكون في حدود ما تسير به الحياة ، لا أن يتخذ صورة من التلهي بها ، لأن الإنسان ملك لخالقه ، ويجب أن تكون حياته كلها في حدود خدمة هذه الملكية الربانية ، فإذا انخرط في الناس ساؤه ، وربما لعرضه التاثوه ، ولما له أضاعوه ، ولعمره أهلكوه [٥] .

---

(١) راجع للشيخ / محمد على سالم : التصوف حركة روحية ، صـ ١٥٧ .
(٢) مقام قلة الكلام ساعد على استقرار مقام التوبة ، وبالتالي فمقام قلة الطعام يساعد على الزهد في الدنيا .
(٣) سورة الروم : الآية ٢٣ .
(٤) سورة القصص : الآية ٧٣ .
(٥) هذه المسائل تشهد بها وقائع الحياة ، ومن ثم فقد حرص الصوفية على تأكيد مبدأ هام ، وهو ضرورة الاعتزال عن مشاركة الناس في لهوهم وغيهم ، أما المشاركة في الجوانب الإيجابية فذلك مما أمرت به الشريعة ، ونبهت عليه .

يقول العلامة / السهروردي : اتفق العلماء الزاهدون ، والمشايخ العارفون على أن هذه المقامات الأربعة التكميلية ، بها تستقر المقامات الأصلية ، وتستقيم معها الأحوال ، وبها صار الابدال ابدالا ، بتأييد الله تعالى ، وحسن توفيقه [١] .

وإذا كنا قد فرغنا من تقديم نبذة عن علاقة المقامات بالأحوال ، فقد بقي لنا إلقاء الضوء على ترتيب المقامات والأحوال من خلال نظرة سريعة ، ربما ساعدت في تحقيق مصلحة منشودة ، والعلم النافع رحم الله بين أهله ، وكفى بالله عليما .

---

(١) راجع للعلامة / السهروردي : عوارف المعارف ، صـ ٤٣٩ .

أهم المصادر والمراجع

حسب ورودها بهوامش الصفحات

١ - القرآن الكريم

٢ - رسالة في اصطلاحات الصوفية — السيد / الشريف الجرجاني .

٣ - الرسالة القشيرية — الإمام / القشيري .

٤ - عوارف المعارف — العلامة / السهروردي .

٥ - مفاتيح الغيب — الإمام / فخر الدين الرازي .

٦ - التصوف الإسلامي — الشيخ / سعيد محمد الخياط .

٧ - أوراق مطوية في التصوف والصوفية — الدكتور / محمد حسيني موسى الغزالي .

٨ - الاتجاهات الصوفية — الشيخ / محمود النوري .

٩ - نظرات في الأفكار الصوفية — الشيخ/ سعيد الفاسي .

١٠ - التصوف والصوفية — الشيخ / حسن المنوفي .

١١ - تنوير الأذهان من تفسير روح البيان — الشيخ / إسماعيل البروسوي .

١٢ - السنن — العلامة / الحافظ ابن ماجة .

١٣ - السنن — الإمام / الترمذي .

١٤ - المسند — الإمام / أحمد بن حنبل .

١٥ - ذكريات مع الصوفية — الشيخ / محمد على السيد .

١٦ - التصوف الإسلامي — الشيخ / السيد عبد الفضيل .

١٧ - التصوف راحة قلبية — الشيخ / محمد بن أسعد الحنفي .

١٨ - الإيمان بالغيب وأثره على الفكر الإسلامي — الدكتور / محمد حسيني موسى الغزالي .

١٩ - منارات السائرين ومقامات الطائرين — الشيخ / أبو بكر بن شاهاور .

٢٠ - الموافقات في أصول الشريعة — العلامة / الشاطبي .

٢١ - أنسام حبية في الأفكار الصوفية — الدكتور / محمد حسيني موسى الغزالي .

٢٢ - قوت القلوب — العلامة / أبو طالب المكي .

٢٣ - التعصب في فهم السنة بين الفرض والرفض — الدكتور / محمد حسيني موسى الغزالي .

٢٤ - الصوفية الأعلام — الشيخ / محمد على الخياط .

٢٥ - المكاشفات والبوارق — الشيخ / محمود بن على الرازي .

٢٦ - التصوف والمكاشفات — الشيخ / محمد نور الدين الأزارقي .

٢٧ - التصوف الجميل — الشيخ / زكريا بن على الفاسي .

٢٨ - رحلتي مع التصوف — الشيخ / محمود بن على العلواني .

٢٩ - الإتجاه الصوفي وعلاقته بالحقيقة — الشيخ / سعد بن محمد أبو ضيف .

٣٠ - بوارق الصوفية — الشيخ / محمد على النمرسي .

٣١ - فوائد جليلة — الشيخ / محمد بن حسن الصفاقسي .

٣٢ - صحيح مسلم — الإمام / مسلم النيسابوري .

٣٣ - التصوف الإسلامي — الشيخ / عبد العظيم عبد الوهاب .

٣٤ - التصوف الإسلامي رجال وأفكار — الشيخ / سعد الدين مرسى .

٣٥ - التصوف الإسلامي والأصول العلمية — الشيخ / محمود سعيد القشاش .

٣٦ - التصوف الإسلامي وحركة الحياة — الدكتور / عبد العزيز الخياط .

٣٧ - أوراق منسية في التصوف والصوفية — الدكتور / محمد حسيني موسى الغزالي .

٣٨ - حاشية على السمر قندية في علوم البلاغة — الشيخ / إبراهيم الباجوري .

٣٩ - التعريفات — السيد / لشريف الجرجاني .

٤٠ - الحثيث في المنطق الحديث — الدكتور / محمد حسيني موسى الغزالي .

٤١ -	التصوف الإسلامي حكمة ربانية	الشيخ / زكريا أبو الأنوار .
٤٢ -	النزعة الصوفية والأحكام العقلية	الشيخ / عبد العزيز الطوبجي .
٤٣ -	التصوف ومشكلاته المعرفية	الدكتور / حسن صابر .
٤٤ -	التصوف ومشكلات الصوفية	الدكتور / على عزت فرج الله .
٤٥ -	التصوف والصوفية	الشيخ / عبد العظيم الديب .
٤٦ -	أدب الدنيا و الدين	العلامة / الماوردي .
٤٧ -	الأخلاق الإسلامية	الشيخ / محمود البرمكي .
٤٨ -	الأدب العربي القديم	العلامة الشيخ / عبد البصير حسن رضوان .

الفصل السادس

قضية الترتيب

بين

المقامات والأحوال

تمهيد

الإنسان الواعي هـو المخاطـب بالشـرائع الإلهيـة ،حيـث أن التكـاليف الشـرعية جميعها ما جاءت إلا إليه ، يدل عليه قولـه ﷺ رفـع القلـم عـن ثلاثـة ، النـائم حتـى يستيقظ ، والصبي حتى يبلغ ، والمجنون حتى يفيق (١) .

وذلك الإنسان الواعي المخاطب بالتكاليف متى اتبع ما جاء من عنـد الله تعـالى ، رضي الله تعالى عنه ، وأرضاه ، وقربه منه وناجاه ، في السراء وفي الضراء ، خفـف عنـه وهداه ، ورفع عنه ضره ، وحقق له ما تمناه ، لقوله تعالى ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ (٢) .

ثم أن هذا الفرد الواعي ، إذا تمكن الإيمان في قلبه ، تحول من عبودية الشيطان الرجيم لعبودية الرحمن الرحيم ، ومن ثم تبقى له مع ربه ارتباطات ، ومناسبات ، تجيء معها خواطر والهامات ، فإذا استقر في وضع منها فترة صار له مقاما ، وإذا سارع بالانتقـال منها باتت معه أحوالا (٣) .

وقد اصطلح علماء التصوف على أن ما يأتي العبد من فيوضات ربانية، إما أن يكون بطلب من العبد ، وتوفيق من الله تعالى ، على مراد هذا العبد ، معترفا ببذل ما في طاقته من نشاط ، وجد واجتهاد ، ويستقر لديه فترة، وينهض الفرد الواعي معه بـذات الفـترة ، حينئذ يسمى مقاما (٤) .

---

(١) وفي رواية أخرى عن الصبي حتى يحلم ، والبلوغ دليل الاحتلام ، وبالتـالي فالقاسم المشترك بين الروايتين واحد .

(٢) سورة إبراهيم : الآية ٧ .

(٣) كل من المقام والحال اعتباري من ناحيـة التسمية ، لأن الحقيقية في علم الله ، ولا يعلمها إلا هو جل علاه ، وكل ما يجيء من الناحية الاعتبارية لا يمكن النظر إليـه إلا بهذا الاعتبار .

(٤) المقام هو ما يستقر عليه العبد بتوفيق الله تعالى ، مـع كسب ذات العبد واجتهاده ، ولذا فالمقامات مكاسب، من حيث أن الفرد الواعي يكسبها بالجد ، والعبادة ، ومزيـد الطاعة، ومنـها مقام القوية ، راجع كتابنـا : أوراق مطويـة في التصوف والصوفيـة ، صـ ١٧٧ , ١٧٨ .

وأما أن تأتي الفرد الواعي تلك الفيوضات الربانية من غير طلب العبد ، ولكنها تجيء تحقيقا لإرادة الرب ولحكمة لا يعلمها إلا هو ، من حيث أن الله تعالى قد جرت سنته في خلقه توفيق الطائعين ، وخذلان العاصين ، وأهل الطاعة يمدهم بأنوار من عنده ، قد تبقى مع ذات الفرد زمنا يسيرا ، أو طويلا ، وقد لا تبقى ، وتسمى أحوالا [١] .

في نفس الوقت ، فإن المقامات تكون لكل من المريد والسالك ، كما تكون للشيخ لما هو ، من حيث أن المقامات في الأصل ناتج عمل متواصل ، بجانب عبادة مستقيمة ، وأخلاق نبيلة ، ويتوقف حال المقام على توفيق الله تعالى ، وبمقدار إخلاص العبد يجيء توفيق الله تعالى له [٢] .

والأمر في الأحوال يقوم أساسا على الوهب الإلهي ، نظرا لوجود استعداد كمالي داخل العبد ، بحيث يكون مهيئا لاستقبال المواهب الإلهية التي تجيء من أنوار الله جل علاه ، وبالتالي فعمادها قائم على الوهب [٣] .

ثم يجيء بعد ذلك دور العبد باعتبار الذات الواقع عليه هذا الوهب ، ومن ثم فالفرق بين المقامات والأحوال هو ذاته الفرق بين المكاسب الإنسانية والمواهب الربانية .

ولما كانت المقامات والأحوال مما هو ناتج الفكر الصوفي ، فقد ظهرت بينهم مسألة الترتيب بالنسبة للمقامات والأحوال ، وقد اعتبرها البعض قضية جدلية تعبر عن نوع من

---

(١) الحال ما يأتي العبد بتوفيق من الله تعالى ، دون طلب له من الله تعالى ، وهو لا يستقر طويلا ، ومجيئه عن طريق الفيض الرباني ، والوهب النوراني ، ولذا يقولون الأحوال مواهب ، راجع للشيخ / عبد العظيم محمد عبد الوهاب : التصوف الإسلامي، صـ ١٧٧ .

(٢) لا بد في كل مقام من توفيق الله ، لأن الصوفية يقولون أن الله تعالى هو الخالق لكل شيء ، وعلى العبد الأخذ بالأسباب في الاجتهاد ، والطاعة ، راجع كتابنا : الموسوعة الغزالية في التصوف والصوفية - المقدمات ، صـ ٢٣٧ .

(٣) الصوفية ركزوا في مؤلفاتهم على عبارة محددة هي أن المقامات مكاسب ، نظرا لدور العبد ، والأحوال مواهب لأنه لا دخل للعبد فيها .

الترف العقلي ، بينما نظر إليها البعض الآخر على أنها أمر مهم ، وضروري أيضا ، لأنه يرتبط بالفكر الصوفي ، والمناهج التي يجب مراعاتها ٠

وقد نظر إليها آخرون على أنها قضية من قضايا التصوف الإسلامي ، ليست مشكلة و مسألة ، وفي نفس الوقت قرر فريق آخر النظر إليها على أنها داخل في نطاق مراعاة الأولى [١].

وها أنذا أحاول بحث الأمر من جديد ، قائم عل منهج علمي موضوعي ، بعيد عن الميل لرأي لم تغلب أدلته ، أو التجني علي آخر ثبتت موضوعيته ومعياري في ذلك ما يحقق المصلحة للتصوف والصوفية ، وما يرتبط بالفوائد من الناحية السلوكية والتربوية ٠

على أن يكون المنهج الذي أراعيه مرتبطا بنوع من التطبيق العملي ، على أساس أن القضايا النظرية قد تفقد قيمتها في بعض الأحيان ، إذا لم تكن لها صورة في الخارج ، أو لم يتم التطبيق عليها من الناحية العملية المقبولة ، لما قيل أن التجربة السليمة دليل صدق الفكرة إذا كانت صحيحة [٢] ، وهاك الآراء في المسألة :

الفريق الأول : أصحاب الترتيب الاعتباري

أ - عرضه

يرى أصحاب هذا الرأي أن المقامات مكاسب ، والأحوال مواهب ، ومن ثم فإذا جاءت المقامات سابقة والأحوال بعدها لاحقة ، فإن التقدم للمقامات والتأخر للأحوال يمكن أن يقع فيه التبدل للمواقع ، حينئذ قد تأتي الأحوال سابقة ، ثم تجيء المقامات في عقبها ، على أساس أن كل مقام يسبقه حال ، وكل حال يأتي بعده مقام [٣] ٠

---

(١) هذه الاختلافات تمثل صورا عديدة لجملة من الاعتبارات ، يمكن تحقيق التلاقي بشأنها، ويعود الناس جميعا أخوة متحابين بدل أن يكونوا أعداء متصارعين ٠

(٢) راجع كتابنا : التفكير الإنساني أصوله ومستوياته ، صـ ١٧٧ , ١٧٨ ٠

(٣) راجع للشيخ / سعد بن محمد الديدموني : التصوف الإسلامي رجال وأفكار ، صـ ٧٤, ٧٥ ، ط الدار العلية ، سنة ١٣٢٥ هـ ٠

ويعتقد أصحاب هذا الاتجاه أن التقدم لأي منهما لا يترتب عليه تغييرا في شيء في الحقيقة المعرفية ، كما لا يؤدي الأمر فيهما لشيء مخالف لما هو معتاد عرفا ، يستوي ذلك الأمر في المقامات ذاتها ، أو الأحوال ذاتها ، أو بينها وبين بعضها أحوالا ومقامات ، والحقيقة قاضية بأن ما لا يترتب عليه صحة حكم أو فساده ، فإنه يكون واقعا في نطاق الترتيب الاعتباري لا غير (١) •

كما أن التأخر لبعض المقامات على بعضها ، والأحوال فيما بينها ، أو جاء هذا التقدم والتأخر بين الأحوال والمقامات ، فإن الأمر لا يعدو الصورة التي سلف بيانها ، والحديث بشأنها ،والاعتبارات المشتركة مازالت قائمة (٢) •

ومن ثم ظهرت عملية التقدم والتأخر الاعتباري من خلال وجوه - أو مظاهر - ثلاثة تجيء مع كل من التقدم تارة ، والتأخر أخرى : .

أ - مجمل الوجوه في التقدم ، ما يلي :

١ - تقدم المقامات عن الأحوال في الترتيب الاعتباري •

٢ - تقدم الأحوال عن المقامات في ذات الترتيب •

٣ - تقدم بعض المقامات على بعض الأحوال

٥ - تقدم بعض الأحوال على بعض المقامات (٣) •

ب - مجمل الوجوه في التأخر ، ما يلي :

١ - تأخر المقامات عن الأحوال في الترتيب الاعتباري •

---

(١) راجع فكرة الاعتبار داخل المؤلفات المنطقية والفلسفية ، بجانب علم الأصول ، على أساس أن الاعتبار معنى من المعاني ، وليس حقيقة قائمة بذاتها •

(٢) راجع كتابنا : مناهج البحث بين التقليد والتجديد ، حيث بينت أن فكرة الاعتبار يؤخذ بها من ناحية الإدراك للمعاني •

(٣) هذه الوجوه الثلاثة قائمة باعتبار التقدم ، دون النظر إلى التأخر ، ومن ثم كانت العناية بها في ذات الاتجاهات فقط •

٢ ـ تأخر الأحوال عن المقامات مع مراعاة ذات الترتيب ٠

٣ ـ تأخر بعض المقامات عن بعض الأحوال بذات الاعتبار٠

٤ ـ تأخر بعض الأحوال عن بعض المقامات بذات الاعتبار[١] ٠

ب ـ مناقشته

ذكر كثير من الباحثين أن هذا الرأي يعبر عن نظرية سطحية لتأثير كل من المقامات والأحوال على نفسية المريد والحركة الصوفية [٢] ، مما يجعل المصطلح الصوفي أقرب الأشباه إلى الشيكات البنكية التي فقدت قيمتها المالية ، نظرا لانكشاف غطائها النقدي من البنك المركزي ، ووقوعه في دائرة الأموال المنعدمة ، أما لماذا ؟ فلما يلي :

١ ـ أن الترتيب الاعتباري للمقامات يفقد كل مقام طبيعته ، والوظيفة التي يقوم بها ، إذ لا يقبل أن يكون مقام الإيمان مثلا متأخرا عن مقام التوبة ، لأن الإيمان في الأصل الشرعي ما وقر في القلب ، وصدقة العمل ، ومقام التوبة صورة من صور العمل التي تؤكد انطباق العلم مع العمل ، وتوافقهما معا على قاعدة شرعية [٣] ٠

٢ ـ أن الترتيب الاعتباري مصطلح ، أو عبارة واسعة من حيث الدلالة على المعنى ، طالما أن المراد هو الاعتبار لا غيره ، فإذا أدركنا أن مفهوم الاعتبار تراعي فيه الأوليات كان الأمر مقبولا ، وإذا لاحظنا أن مفهوم الاعتبار ينصب أساسا على الجانب الصوري من التقدم والتأخر ، كان ضربا من الخيال ، أو على الأقل يمكن القول بأنه اتجاه لغوي لا يؤيده الواقع العملي [٤] ٠

---

(١) هذه الوجوه فيها مفهوم التأخر من حيث أنه الوجه الثاني في العلمية ذاتها ، إذ كل تأخر يسبقه تقدم ، ولو من الناحية الاعتبارية ٠

(٢) راجع للدكتور عبد العزيز صالح الخياط : التصوف الإسلامي وحركة الحياة ، صـ ١١٤ , ١١٥ ٠

(٣) راجع كتابنا : أوراق منسية في النصوص الفلسفية ، صـ ٣٧ ـ ٣٩ ، طـ السابعة ، حيث بينت هناك أن العمل لا يكون مشروعا إلا إذا كان على وفق العلم الإلهي ٠

(٤) راجع كتابنا : أنسام حبية في الأفكار الصوفية ، صـ ١٠٤ ، وللشيخ / محمود سعيد القشاش : التصوف والأصول العلمية ، صـ ١٤٥ ٠

٣ - أن فكرة الترتيب الاعتباري إتجاه فلسفي ، وليس من المصطلحات الصوفية ، ولا بد في كل علم من العلوم ، أو فن من الفنون التزام المصطلحات الخاصة به ، إذ ليس من المعقول العلمي استعمال مصطلحات فلسفية للتعبير عن مفاهيم أو مصطلحات صوفية ، وإلا كان ذلك خرقا لقاعدة ثابتة عمادها ، أنه لا مشاحة في الإصطلاح (١) .

وإذ تم الخرق لقاعدة مشهورة بين الباحثين ، وهي بمثابة الأصل الأصيل ، والركن الركين بالنسبة للمنهج العلمي، بانت العلوم كلها مهددة في مناهجها ، وموضوعاتها ، بل مهددة أيضا في مقدماتها وخواتيمها ، ولذلك من النتائج الخطيرة ما لا يمكن علاجه ، أو استدراك أخطائه إن تم (٢) .

٤ - أن فكرة الترتيب الاعتباري وجريانها بين المقامات والأحوال ، يخرج الأمر بالمقامات والأحوال عن مالها من خصوصية ، لأن الترتيب الاعتباري معنى ذهني مجرد ، لا وجود له في الخارج ، بينما المقامات مكاسب لها وجود واقعي ، يبدو من خلال المقدمات والنتائج .

وليس الأمر كذلك في الاعتبار ، وهذا مما يترتب عليه وجود فجوة كبيرة من المقامات ، من حيث أنها مكاسب ، والترتيب من ناحية أنه أمر اعتباري على رأي القائلين به (٣) .

٥ - إن الاعتبار في المفهوم الصوفي هو أن يرى العبد الدنيا ذاهبة للفناء ، والعاملين فيها للموت ، وعمرانها للخراب ، من حيث أن المعتبر يرى نفسه على حرف من

---

(١) لا مشاحة في الاصطلاح معناه انقطاع التنازع في المصطلحات الخاصة انقطاعا تاما ، وإلا كان الأمر ضربا من الجدل .

(٢) هذا مما يغلب عندي ، لأن كل علم له قواعد يقوم فيها ، ومناهج من خلالها يتم البحث فيه ، وموضوعات ومسائل تمثل اللب بالنسبة له ، وبالتالي فالإنكار لطبيعة هذا المصطلح فيه إهدار للجميع .

(٣) الاعتبارات متعددة نظرا للجهات التي تجيء منها ، وكل اعتبار له معنى بذاته ، وقيامه لا بد أن يكون من الناحية الوظيفية للمعنى المقصود .

مقامات الدنيا [١] ، وهي غير المقامات التي يتعامل بها الصوفية ، والفرق بينهما يسمح بالتجاوز في الاستعمال اللغوي ، رغم أن اللغة المفهومة هي الأصل بالنسبة للحقيقة اللغوية [٢] .

ومن ثم يكون القول بأن الترتيب بين المقامات والأحوال اعتباري قول يحتاج أدلة تدعمه ، فإذا لم تكن هذه الأدلة ممكنة ، فلصاحب القول التنازل عن الرأي [٣] ، إذا كان يريد بلوغ السلامة ، وذلك أمر يسعى الكل إليه ، ويحاول التمسك به ، والتعويل عليه .

٦ - أن الاعتبار في اصطلاح متأخري الصوفية ، قد يفهم على انه رؤية فناء الدنيا كلها ، باستعمال النظر في فناء جزئها [٤] ، ومتى حصل الفناء الجزئي فإن الكل ، واقع في الفناء ، وهذا أمر حاصل لا محالة .

بناء على قاعدة هامة وهي أنه مادامت جزئيات العالم فيها شيء من الفناء ، فإن العالم كله سيفنى ، ولا يبقى إلا وجه الله القائل ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [٥] .

وليس الاعتبار المراد بين المقام والحال في الترتيب ، هو المراد لدى الصوفية من ناحية الفناء للعالم على ناحية كلية ، أو جزئية ، لأن المأخذ الاستدلالي ليس واحدا ، كما

---

(١) راجع للعلامة / السيد الشريف الجرجاني : التعريفات ، باب الهمزة ، صـ ٢٤ .

(٢) الحقيقة أنواع ، منها : ١ - الحقيقة اللغوية ، ٢ - الحقيقة الشرعية ، ٣ - الحقيقة الاصطلاحية ، ٤ - الحقيقة المجازية ، ٥ - الحقيقة العرفية ، وكل حقيقة منها لها تعريفها وموضوعها ، راجع للعلامة لشيخ الإسلام / الباجوري ، حاشية على شرح السمرقندية في علوم البلاغة ، صـ ٧ .

(٣) في الحديث : الكلمة الحكمة ضالة المؤمن ينشدها أنى وجدها ، لا يبالي من أين جاءت، وكل حكمة مشروعة يكون البحث عنها ، والتمسك بها ، أمرا مشروعا ، نظرا لما يترتب عليها من مصالح وفوائد .

(٤) راجع للشريف الجرجاني : التعريفات ، باب الهمزة ، صـ ٢٤ .

(٥) سورة القصص : الآية ٨٨ .

أن كلا منهما ليس هو الآخر [١] ،وهذا مما يشجع على القول بأن الرأي الأول يفتقد الأدلة العلمية ، كما لا تنهض معه مقدمات صحيحة.

ثم أن المعطي الدلالي لدى الصوفية من ناحية الاعتبار ، هو قيام اللفظ على جانب لغوي هام ، وتطبيقه من الناحية العملية ، أما كيف ؟ فلأن لفظ الاعتبار والعبر في الأصل اللغوي هو شق النهر والبحر ، ثم نقل استعماله إلى حيث يرى المعتبر نفسه ، على حرف من مقامات الدين ، وهو استعمال مشروع من جانب اللغة ، ولا يمكن الأخذ به في التصوف ، نظرا لاستقلال كل من اللغة ، والتصوف بتعريف وموضوع ، ومنهج وغاية ونتائج[٢].

أخلص مما سلف إلى أن الترتيب بين المقامات والأحوال ليس ترتيبا اعتباريا ، على وجه من الوجوه ، التي تمسك بها أصحاب هذا الاتجاه ، ويدعم هذا الاستنتاج أن من معاني الاعتبار الاصطلاحي النظر في الحكم الثابت ، بحيث يستدل على المعنى الذي منه نبت ، ثم إلحاق نظيره به [٣].

يقول الشيخ / زكريا محمد أبو الأنوار : أن الترتيب بين المقامات أمر حقيقي ، يدرك ذلك الصوفية أنفسهم ، وليس أمر اعتباريا إلا عند من لم يذق التجربة الصوفية ، لأن الانتقال من مقام إلى مقام لا يكون من خلال فوضى ضاربة ، وإنما يتم بناء على منهج علمي صحيح [٤].

---

(١) معيار قبول الدليل العلمي قيامه على مقدمات صحيحة ، والوصول إلى نتائج سليمة ، فإذا فقد ذلك المعيار لم يعد دليلا علميا ، راجع كتابنا : الحثيث في المنطق الحديث ، صـ ٢٧ - ٢٩ .

(٢) الغيرية بين اللغة والتصوف بما يستدل عليها من خلال قوانين الفكر الأساسية ، وهي : ١ - الذاتية ، ٢ - الغيرية ، ٣ - الثالث المرفوع .

(٣) العلامة / الشريف الجرجاني ، التعريفات ، باب الهمزة ، صـ ٢٤ ، والاعتبار بهذا المعنى يكون عين القياس في علم الأصول

(٤) راجع للشيخ / زكريا أبو الأنوار : التصوف الإسلامي حكمة ربانية ، صـ ١٩٧ - ١٩٩، وراجع للشيخ / عبد العزيز حسن الطوبجي : النزعة الصوفية : والأحكام العقلية ، صـ ٤٥ , ٤٦ .

من ثم يكون الترتيب بين المقامات بعضها مع بعض ، والأحوال فيما بينها ، وبين المقامات ، والأحوال يعتمد على ما يبذله المريد والسالك من ناحية المقامات التي تمثل المكاسب ، ثم يأتي الفيض الإلهي الكامل عن طريق المواهب ، ولا مانع من تخلل المقامات والأحوال بعضها البعض الآخر ، مادام ذلك يحقق المصالح الأساسية لكل من للتصوف والصوفية .

<u>الفريق الثاني</u> : <u>أصحاب الترتيب الاحتمالي</u>

<u>أ - عرضه</u>

ومعناه أن العلاقة بين المقام والأحوال لا توجد لها ضوابط ثابتة ، حتى أن البعض في طائفة أو جماعة بذاتها ، قد يسمى المقام بما يسمي به الحال لدى غيرهم ، ولو انعكس الأمر لتبين أن البعض يطلق على الأحوال ، ما يطلق لدى غيرهم في المقامات ، وبناء عليه فكل مقام لدى طائفة ، أو طريقة ، يمكن اعتباره حالا عند طائفة ، أو طريقة ، أخرى[(١)] .

ويتبنى أصحاب هذا الرأي القول بأن الخلاف في مفهوم المقام ، أو الحال ، من الناحية الحدية لم يستقر بعد ، وبالتالي فكل مقام حال ، وكل حال مقام، دون اعتبار شيء آخر .

يقول الأستاذ / عبد العزيز الدكر : أن الصوفية قد شغلوا الناس بجملة المصطلحات ، وقهروهم بسياط كثير من الأحكام ، ثم انتهوا إلى لا شيء يمكن الاعتماد عليه ، كما أنهم ضاعفوا من ضغوطهم على عقلية الآخر حتى يقبل فكرة تنازع المقامات والأحوال في الترتيب ، وهذا مما أصاب العقلية الصوفية بالجمود والتخلف[(٢)] .

---

(١) راجع للدكتور / حسن صابر : التصوف ومشكلاته المعرفية ، صـ ٢٢ - ٢٤ ، وهو يعول كثيرا على أقوال خصوم التصوف ، ولا يلتفت إلى أقوال الصوفية أنفسهم إلا في مواضع ، أو مواطن ، قليلة .

(٢) الأستاذ / عبد العزيز محمود الدكر : الصوفية والمشكلات العلمية ، صـ ١٩ - ٤٣ ، مطبعة النوال ، سنة ١٩٤٣ م .

بل أن أصحاب هذا الاتجاه يقولون أننا لا نرى فائدة في هذا الخلاف ، وسواء أجاء المقام في الترتيب أولا ، أو قدمت الحال فما الذي يحققه هذا الرأي من فوائد على التصوف ، أو يلحق به ركب الحضارة •

ثم يقولون إن ذلك من الجدل الذي يعبر عن فراغ فكري لدى الجماعة التي تزعم التصوف ، وتريد الاستعلاء عن الناس به ، رغم أنه لم يكن له وجود حال حياة الرسول ﷺ ، وإنما هو أمر مستحدث [١]•

في نفس الوقت ، فإن أصحاب هذا الاتجاه يقررون أن كل مقام يصلح أن يكون حالا، فما المانع أن يصلح كل حال حتى يكون مقاما ، هل سيتأثر المصطلح الذي وضعوه ، أم أنه سيهدم إذا أمكن تحميله معنى جديد ؟ [٢]•

وإذا كان أصحاب هذا الرأي يبنون مواقف عدائية من التصوف الإسلامي والصوفية ، فقد باتت عملية إنكارهم قيمة الترتيب من باب تحصيل الحاصل ، نظرا لهذه الخصومة المعلنة ، حتى وإن لم يقولوا بها ، ومن ثم فالناحية المنهجية توصي بالتخلي عنهم ، وإهمال آرائهم ، وما انتهوا إليه ، حيث أنه يفتقد القيمة [٣] ، على آية ناحية •

ب ـ مناقشته

غير أن المنهج العلمي الذي أسير عليه ، يستلزم مناقشة الرأي طالما عرضته ، وإلا كنت كمن يذكر أراء الخصوم في غيبة الآخرين ، ثم يولي هاربا ، حتى يظهر الرأي كأنه

---

(١) راجع للدكتور / على عزت فرج الله : التصوف ومشكلات الصوفية ، صـ ٣٧ , ٣٨ ، ط دار الورديان ، سنة ١٩٤٥ م •

(٢) راجع للشيخ / عبد العظيم حسن الديب : التصوف والصوفية ، صـ ٩٤ ، ط الثانية سنة ١٩٤٥ م •

(٣) يعرف هذا في عرف محاكم مجلس الدولة المصرية ، برفض الدعوى شكلا ، لأن خصومتهم للتصوف تجعل كل الآراء التي قالوها غير صالحة كما تعتبر غير مقبولة•

له ، أو انه الوحيد المعتبر في المسألة ، مع أنه لم يكن سوى وجهة نظر غير مقبولة ، وبناء عليه سأحاول مناقشة هذا الرأي طبقا لما يلي :

١ - أن هذا الرأي قام على عدم وجود فكرة ضابط حول مفهوم كل من المقام والحال ، وهو اتجاه غير صحيح ، لأن الصوفية أصحاب الفن نفسه عرفوا المقام بأنه استيفاء حقوق المراسم على التمام [(١)] .

وأكدوا أنه يجيء بالاجتهاد في العبادة ، مع مزيد من الطاعة ، بحيث يقع للفرد الواعي كسبا ، يستوي في ذلك المريد والسالك ، والشيخ ، من حيث أنهم جميعا واقعون في هذا النطاق .

كما عرفوا الحال بأنه ما يرد على القلب من غير تعمد ، ولا اجتلاب [(٢)] ، وإنه مصدر تلقي الأنوار الإلهية ، والفتوحات الربانية من حيث أن الأحوال مواهب ، وليست من المكاسب ، وهذا في حد ذاته كاف في الرد على المنكرين تحديد مفهوم المقال والحال .

عرفنا أن الصوفية قد أكدوا مرارا على أن المقام ما يتحقق به العبد بمنازلته من الآداب ، وبما يتوصل إليه بنوع تصرف ، ويتحقق به بضرب تطلب ومقاسات تكلف ، وأن المريد ، أو السالك لا يترقى من مقام إلى مقام آخر ما لم يستوف أحكام ذلك الختام [(٣)] .

وتبين بجلاء أن كل مصطلح لديهم محدد ن واستعماله على ذات الناحية يحقق النتائج الارتباطية ، ذات الامتياز المتعالي ، وهو ما يعرف بالمكاسب التي تجيء عباراتهم كاشفة عنها ، ومن أقوالهم المقامات مكاسب ، ومن ثم تكون فكرة عدم تحديد المصطلح من وحي خيال المفكرين لوجود التصوف الإسلامي .

---

(١) العلامة الشيخ / ابن عربي : رسالة في اصطلاحات الصوفية ، الملحق بالتعريفات للجرجاني ، صـ ٢٣٤ .
(٢) الشيخ / ابن عربي : رسالة في اصطلاحات الصوفية ، صـ ٢٣٤ .
(٣) العلامة / عبد الكريم القشيري : الرسالة القشيرية ، صـ ٥٣ , ٥٤ .

أكد الصوفية على أن الحال معنى يرد على القلب من غير تعمد لصاحبه ، ولا سعى اجتلاب له ، ولا اكتساب من طرب أو حزن ، أو قبض ، أو شوق ، أو انزعاج ، أو هيبة ، أو احتياج ، ثم انتهوا إلى قاعدة أساسية هي أن الأحوال مواهب ، حيث تأتي من غير الموجود ، بينما المقامات تحصل ببذل المجهود (١).

وما دام الصوفية قد حددوا المراد بالمقام والحال عندهم على ناحية الاصطلاح الخاص ، فإن الرأي القائل بعدم وجود فوارق بينهما غير مقبول علميا ، كما لا يلتفت إليه من الناحية المنهجية •

٢ ـ تبني هذا الرأي المواقف المضادة للتصوف الإسلامي ، حتى صار ناقلا لها ، معبرا عنها ، مع أن واحدا منهم لم ينبه في القيام بهذه المهام ، كما لم ينتدبه لها ، وإنما هو متطوع بها ، وهذا مما يكشف عن تبرعه وأصحابه بخصومة التصوف والصوفية معا ، والقاعدة أن المتبرع بعداوته لا تسمع حجته ، لأنها قامت في علته ، وقديما قيل من عرف معابة فلا يلم من عابه (٢) ، ومن الحكم القديمة ما نقله أبو ثابت النحوي عن أحد الشعراء، قوله :

ومصروفة عيناه عن عيب نفسه •• ولو بان عيب من أخيه لأبصرا

ولو كان ذا الإنسان ينصف نفسه •• لأمسك عن عيب الصديق وقصرا (٣)

٣ ـ كرر هذا الرأي فكرة تردد الصوفية في إطلاق لفظ المقام على الحال، والحال على المقام ، وهذا من دلائل عدم معرفته بمصطلحات القوم ، وطرائق التعامل بها ، أنهم لم

---

(١) راجع للعلامة / عبد الكريم القشيري : الرسالة القشيرية ، صـ ٥٤ •

(٢) تبني الرأي المعيب يعبر عن قصور معرفي ، وامعه عقلية ، فإذا ضم إلى ذلك ما يجيء معه من عداوة صارت المسألة متعددة في جوانبها •

(٣) راجع للعلامة / الماوردي : أدب الدنيا والدين ، صـ ٤٢٦، تحقيق محمد فتحي أبو بكر، ط. الدار المصرية اللبنانية ، ط. أولى سنة ١٤٠٨ هـ •

يقولوا أن المقام حال ، أو الحال مقام ، وإنما قالوا أن المقامات مكاسب ، والأحوال مواهب ، فإذا بقي الفرد الواعي في نطاق التوبة صارت مقاما له ، إما إذا انفصل منه إلى مقام آخر ، فإن عملية الانفصال هذه تمثل حالا للفرد أثناء ذلك الانفصال [١] .

وهذا مما يدل على أن خصومة هؤلاء للتصوف فرضت عليهم الخروج من إطار الفضل والموضوعية إلى غيره ، والهرب من مقام التجمل إلى دائرة الانغماس فيما هو غير مقبول ، وقديما قيل :

هي النفس ماحملتها تتحمل ✧ وللدهر أيام تجور وتعدل

وعاقبة الصبر الجميل جميلة ✧ وأحسن أخلاق الرجال التفضل

ولا عار أن زالت عن الحر نعمة ✧ ولكن عارا أن يزول التجمل [٢]

٤ - اتهم أصحاب الرأي الصوفية بأنهم قهروا الناس بسياط كثير من الأحكام ، وفي هذا كثير من الظلم لهم ، والقسوة عليهم ، أما لماذا ؟ فلأنه لم يثبت في التاريخ الإنساني العام أن الصوفية أجبروا أحدا على شيء ، بل وقع العكس من ذلك ، أنهم الذين يتم الاعتداء عليهم ، ويقابلون السيئة بالحسنة [٣] .

أنهم أيقنوا أن شرف النفس يكون في قبول التأديب ، واستقرار التقويم بالتهذيب، لأن النفس ربما حجبت عن الأفضل ، وهي عارفة به ، ونفرت عن التاديب ، وهي له مستحسنة ، لأنها عليه غير مطبوعة ، وله غير ملائمة ، فتصير منه أنفر ، ولضده

---

(١) هذا الفهم يمكن الانتقال به إلى المصادر الكثيرة ، على أساس أن الحال معنى من المعاني ، فهو فاصل بين المقام الذي كان عليه العبد ، والمقام الذي يحاول الوصول إليه ، وليس هو الحال الذي يقابل المقام .

(٢) نسبت هذه الأبيات لعلي بن الجهم ، في الحديث عن التجمل المشروع ، وأنه إذا زال وقع صاحبه في حرج شديد من حيث أن الآخرين لا يأمنون على أنفسهم منه .

(٣) راجع كتابنا : المقدمات في التصوف الإسلامي ، صـ ٢١١ ، ترى كيف كان الآخرون يمارسون الضغوط عليهم ، ومع هذا لم يقع من الصوفية اضطهاد لأحد .

الملائم أثر ، والنفس إذا شرفت كانت للآداب طالبة ، وفي الفضائل راغبة ، وقد حرصوا على ذلك كله ، فباتت صفحات تاريخه ناصعة، وسطورها مقروءه [١] .

لقد عرفوا أن حكمة النفس في شرفها ، وشرفها في مرضاة ربها ، وأن شرفها مع صغر الهمة ، أولى من علو الهمة مع دناءة النفس ، لأن من علت همته مع دناءة نفسه كان متعديا إلى طلب ما لا يستحق ، ومتخطيا إلى التماس ما لا يستوجبه ، ومن شرفت نفسه مع صغر همته فهو تارك لما يستحق ، مقصر عما يجب له ، وقديما قيل :

إذا أنت لم تعرف لنفسك حقها ... هوانا بها كانت على الناس أهوانا

فنفسك أكرمها وأن ضاق مسكن ... عليك لها فاطلب لنفسك مسكنا

وإياك والسكني بمنزل ذلة ... يعد مسيئا فيه من كان محسنا [٢]

٥ - تصور صاحب هذا الرأي أن الصوفية كان لهم في يوم من الأيام سلطان دنيوي ، ومن خلاله مارسوا على بعض العقول أنواعا من الضغوط ، وتناسى أن ذلك لم يحدث على الإطلاق ، أنهم تجار مع الله ، يعيشون داخل أذواق وأشواق ، ومواجيد ، رائدهم في ذلك قول الحق جل وعلا ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [٣] .

---

(١) راجع كتابنا : أنسام حية في الأفكار الصوفية ، صـ ٩٦ ، كما أن الوقائع شاهدة بأن الطرق الصوفية ذات الطابع الإسلامي لم تخرج عن هذه القاعدة في حال من الأحوال، ووقت من الأوقات .

(٢) راجع للعلامة / محمود بن على البرمكي : الأخلاق الإسلامية ، صـ ٤٥ ، وراجع للعلامة / الماوردي : أدب الدنيا والدين ، صـ ٣٨٣ .

(٣) سورة الصف : الآيات ١٠ - ١٣ .

ومن عادات القوم الصمت الكريم ، مع مراعاة جوانب التخلية والتحلية وكان أبو نواس يقول :

خل جنبيك لرام ... وأمض عنه بسلام
مت بداء الصمت خير ... لك من داء الكلام
إنما السالم من الـ ... جم فاه بلجام
ربما استفتح بالمز ... ح مغاليق الحمام
والمنايا آكلات ... شاربات للأنام (١)

لقد حرص الصوفية الأعلام على عدم النزول إلى مدارك غيرهم ممن حاولوا الإيقاع بهم ، وكان ردهم العملي دائما هو الصبر ، وكان لسان حالهم يقول لمن يقعون فيهم :

إذا لم تخش عاقبة الليالي ... ولم تستح فأصنع ما تشاء
فلا والله ما في العيش خير ... ولا الدنيا إذا ذهب الحياء
يعيش المرء ما استحيا بخير ... ويبقى العود ما بقي اللحاء (٢)

لقد بات الخلق الفاضل ، الأدب العالي ،طبعا لهم ، وعادة فيهم ، وقديما قيل :

أحب مكارم الأخلاق جهدي ... وأكره أن أعيب وأن أعابا
وأصفح عن سباب الناس حلما ... وشر الناس من يهوى السبابا
ومن هاب الرجال تهيبوه ... ومن حقر الرجال فلن يهابا

---

(١) راجع للعلامة / الماوردي كتاب : أدب الدنيا والدين ، صـ ٣١٧ ، وللأستاذ / عبد البصير حسن رضوان : الأدب العربي القديم ، صـ ١٧٧

(٢) من الواضح أن خصوم الصوفية خرجوا عن الإطار العام لقضية الترتيب بين المقامات والأحوال ، فخرجنا معهم من باب المشاكلة حتى لا يظن أحد أن أهل الله فيهم ما يعجزهم عن منازلة غيرهم ٠

٦ - ظن أصحاب هذا الرأي أن الترتيب بين المقامات والأحوال لا قيمة له ، ولا فائدة منه ، بل اعتبروه ضربا من الجدل الذي يعبر عن فراغ فكري لدى هذه الجماعة التي تزعم التصوف ، وتريد به الاستعلاء على الناس ، وهذا عين القصور ، أما لماذا ؟

فلأن أصحاب أي علم ،أو فن إنما يرتبون علومهم على قواعد لديهم ، فهل يمكن أن يقدم النحوي الفاعل على الفعل الظاهر الذي لا يجيء مع التنازع والاشتغال ، ويقول العقلاء أنه تصرف سليم ، أم سيقولون له أنك خالفت القواعد الثابتة[١] .

ونفس الحال في المنطق ، هل يمكن أن نقول أن تقديم النتيجة ، أو تأخيرها لا قيمة له ، وبخاصة أن النتيجة لا بد أن تكون مادتها اللغوية موجودة في إطار المقدمتين حتى تكون صحيحة .

بل إذا انتقلنا الى علم الحساب - وهو من الكم المنفصل ، فهل تستطيع أن تقدم النتائج في العلميات الحسابية على المقدمات التي تجب أن يقوم فيها[٢] .

ولهذا - استقر في كل العلوم وجود مقدمات هي المبادئ ، ثم الموضوعات وهي الأواسط ، وأخيرا تجيء الخواتيم وهي النهايات ، وهو ما يعبر عن ضرورة علمية ليس من الصواب تجاهلها .

والصوفية لما قرروا وجود علاقة بين المقامات والأحوال ، ثم نظروا إلى الترتيب بينهما ، إنما كانوا سائرين على المنهج العلمي الذي يعتبرا لخروج عليه مغالطة علمية ، لقد تمثل الصوفية قول الحكيم :

---

(١) الحال في النحو كالحال في الصرف والفقه ، وباقي العلوم الأخرى ، من حيث أن كل علم يقوم في قواعد ثابتة ، ولا يمكن اتهام أفراده بأنهم شغلوا الناس بقضايا جدلية لا قيمة لها .

(٢) هل يصح مثلا أن نقول ١٢ = ٣ + ٣ + ٣ + ٣ فتكون البداية من النتائج والنهاية مع المقدمات ، أم أن ذلك يعتبر من قبيل المغالطات الرياضية ، هل يمكن أن نقول أن ٢ق يساوي مجموع زوايا المثلث ! .

أني ليثنيني عن الجهل والخنا ∴ وعن شتم ذي القربى خلائق أربع
حياء وإسلام ، وتقوى وأنني ∴ كريم ، ومثلي من يضر وينفع [(١)]

لقد ذكرت المصادر العلمية حال الصوفية ، بقول الأحنف بن قيس : ما عاداني أحد ألا أخذت في أمره بإحدى ثلاث خصال ، إن كان أعلى مني عرفت له قدره ، وإن كان دوني رفعت قدري عنه ، وإن كان نظيري تفضلت عليه [(٢)] ، وكان الخليل بن أحمد رحمه الله يقول :

ألزم نفسي الصفح عن كل مذنب ∴ وأن كثرت منه إلى الجرائم
فما الناس إلا واحد من ثلاثة ∴ شريف ، ومشروف ، ومثل مقاوم
فأما الذي فوقي فأعرف قدره ∴ واتبع فيه الحق والحق لازم
وأما الذي دوني فأحلم دائما ∴ أصون به عرضي وإن لام لائم
وأما الذي مثلي فان زل أو هفا ∴ تفضلت أن الفضل بالفخر حاكم [(٣)]

إما اتهام الصوفية بالاستعلاء على الخلق ، فرغم أنه بعيد عن قضية الترتيب بين المقامات والأحوال ، إلا أنه في ذات الوقت يعبر عن قصور معرفي ، لأن الصوفية الأعلام عاشوا بالتواضع لا بالاستعلاء ، ولخدمة الناس لا أن يخدمهم الناس ، وكانوا أصحاب ضمير

---

(١) من المظاهر على ما نحن بصدده بيان أن الصوفية الأعلام اتهموا في دينهم وأخلاقهم وزهدهم ، وباقي صفاتهم ، ويم يتهموا أحدا بمثل ما أتهمهم به .

(٢) هذه الخصال تراها في الصوفية الأوائل ، وللمزيد راجع للدكتور / محمد مصطفى حلمي : ابن الفارض والحب الإلهي .

(٣) لقد فهم الصوفية أن العداوات توسع دائرة الشقاق ، والتجاوز عنها يضيق الخلافات ، واعتبروا ذلك من البر الذي قال الله تعالى فيه ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ سورة الحشر : الآية ٩ ، ومما قاله أبو الحسن الهاشمي :

الناس كلهم عيال الله تحت ظله
فأحبهم طرا إليه أبرهم بعياله

راجع للعلامة / الماوردي : أدب الدنيا والدين ، صـ ٢٢٥

ذاتي يوجه للمصالح العليا ، طبقا لما جاءت به الشريعة الإلهية ، ولم يكونوا أبدا من ذوي المطامع[(١)] ، ومن ثم تكون هذه الدعوى على غير بابها ٠

٧ ـ تصور أصحاب هذا الرأي أن كل ما قالوه على الصوفية صار مقبولا ، وأمسى دليلا ،حتى إذا اطمأنوا لما تصوروه، ذكروا على سبيل السخرية ، وسألوا من باب الاستهزاء، ماذا يضر لو أن الحال صار مقاما ، والمقام صار حالا ، هل إذا انهدم المصطلح ، انهدمت الدنيا فوق رؤس التصوف والصوفية[(٢)] ٠

وبنفس المنهج التساؤلي أقول : ماذا يضير هؤلاء لو بقى الحال في مفهومه الصوفي بنفس المصطلح الذي وضعوه له ، وكذلك المقام ، هل ستقف الحركة الكونية عن الإستمرار، وماذا يضير هؤلاء الذين وقفوا من التصوف موقف الخصم المتبرع بعداوته ، لو أنهم تركوا القوم في مقاماتهم ، وأحوالهم ، يرتبونها كما هو قائم عندهم ، فالمسألة من شأنهم وليست من شئون خصومهم لكنها نوائب الدهر[(٣)] ، ومن أقوال عبيد الله بن سليمان بن وهب :

نوائب الدهر أدبتني	وانما يوعظ الأديب
قد ذقت حلوا وذقت مرا	كذاك عيش الفتى ضروب
لم يمض بؤس ولا نعيم	إلا ولي فيهما نصيب
كذاك من صاحب الليالي	تغدوه من درها الخطوب[(٤)]

---

(١) الذين يمارسون الاستعلاء هم الذين ينسبون إلى الصوفية ، وليسوا منهم ، وكل علم من العلوم ، أو فن من الفنون يوجد فيه أصحاب الاتجاه السليم ويجوارهم أصحب الإتجاه غير السليم ، ألا ترى ثمار الفاكهة من نوع واحد ، وفي سلة واحدة ، بعضها سليم صحيح جميل ، وبعضها مريض قبيح ذميم ٠

(٢) راجع ناتج هذه التساؤلات عند الدكتور / حسن صابر : التصوف ومشكلاته المعرفية، صـ ٣٧ ـ ٤٥ ، وللأستاذ / عبد العزيز الدكر : الصوفية والمشكلات العلمية ، صـ ٣٨ ـ ٤٥ ٠

(٣) الواضح أن خصوم الصوفية يسارعون إلى تصور قضايا وهمية ضدهم ، فإذا لم يسعفهم ذلك انتحلوه ، وهو ما يفسد عليهم أمورهم ، ولو أحسنوا لاعتدلوا ٠

(٤) هذا من الشواهد على أن نوائب الدهر متعددة ، وإن ما يجيء معها قد يبقى وقد يزول، والعاقل هو الذي يتصرف في الأمور بحكمة الإنسان الواعي البصير ٠

على أن ما أنوه إليه هو ، أن ترتيب المقامات والأحوال من طبيعة الموضوعات التي قال بها الصوفية ، وهم أكثر الناس معرفة بها ، وغيرهم تبع لهم فيها ، فمن جار عليهم ، أو قسا ، خرج عن القاعدة المنهجية المرسومة ، وأعلن مرات عديدة عن ضرورة رفض العقلاء لما يتبناه ، وكان الخطفى جد جرير يقول :

عجبت لازراء العيي بنفسه ∴ وصمت الذي قد كان بالقول أعلما

وفي الصمت ستر للعين وإنما ∴ صحيفة لب المرء أن يتكلما (١)

كما أنبه إلى أن أصحاب القول بالترتيب الاعتباري كانوا أخف وطأة من أصحاب الترتيب الاجتماعي ، رغم اشتراك الفريقين في الهجوم على التصوف والصوفية ، وتبني كل منهما قضايا ومشكلات لم يقل بها الصوفية ، وليس لها وجود في التصوف الإسلامي ، علما ، أو ممارسة ، وسلوكا (٢) ، وهذا مما يؤكد أن خصومتهم المسبقة للقوم دفعت بهم إلى الوقوع فيهم ، دون أن يكون هناك داع ، أو مبرر لذاك الوقوع .

وقد التزم الصوفية حسن الخلق في كل حالاتهم ، لأنه متى حسنت أخلاق الإنسان كثر مصافوه ، وقل معادوه ، فتسهلت عليه الأمور الصعاب ، ولانت له القلوب الغضاب ، وفي الأثر حسن الخلق ، وحسن الجوار ، يعمران الدنيا ، ويزيدان في نائج الأعمار ، ومن ثم لم يقابلوا خصومهم بمثل دعاواهم ، ولا بقريب من خصوماتهم ، وإنما تعاملوا معهم

---

(١) لقد كان صبر الصوفية على غيرهم بمقدار صبرهم على الابتلاء ، وربما كان ذلك مما شجع غيرهم على الوقوع فيهم ، أو النيل منهم ، وكان محمد بن بشير يقول :

أن الأمور إذا انسدت مطالبها ∴ فالصبر يفتق منها كل ما ارتتجا

لا تيأسن وأن طالت مطالبه ∴ إذا استعنت بصبر أن ترى فرجا

أخلق بذي الصبر أن يحظى بحاجته ∴ ومدمن القرع للأبواب أن يلجا

(٢) راجع للدكتور / محمد حسن صابر : التصوف في كتابات خصومه ، صـ ٢٥ - ٤٧ ، وللأستاذ / عادل أحمد الدكش : التصوف مسائل ومشكلات ، صـ ٩٥- ١١٧ ، وكتابنا: التصوف المفترى عليه ، صـ ١٨ - ٣٥ .

بمنهج عام هو : اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن[١] ، وفي الحكم يقولون :

وما شرف أن يمدح المرء نفسه ∴ ولكن أعمالا تذم وتمدح
وما كل حين يصدق المرء ظنه ∴ ولا كل أصحاب التجارة يربح
ولا كل من ترجو لغيبك حافظا ∴ ولا كل من ضم الوديعة يصلح

الفريق الثالث : أصحاب الترتيب التبادلي

أ ـ عرضه

وهم الذين يذهبون إلى أن المقامات مكاسب ، والأحوال مواهب ، ولا مانع لديهم من أن يكون المقام مقاما ، ثم يكون حالا ، ولا مانع من أن يكون الحال حالا ، ثم يكون مقاما ، ويستدلون على ذلك بأن التوبة مقام من المقامات الأربعة الأساسية ، وهي : الإيمان بالله تعالى ، والتوبة النصوح ، والزهد في الدنيا ، وتحقيق العبودية لله تعالى بدوام العمل الصالح ، ظاهرا وباطنا ، من غير فتور أو تقصير[٢] .

كما يؤكدون أن كل مقام أصلي يجيء معه مقام أخر تبعي ، بحيث يستوي القلب والقالب ، الظاهر والباطن ، دون الحاجة لشيء آخر ، وحجتهم في ذلك ما يسميه الصوفية بمقامات الاستعاضة[٣] ، ومقامات الأصول ، وبالتالي فكل من هاتين المجموعتين يمكن أن يقع فيه تبادل نوعي على ناحية من النواحي ، والمجمعتان هما :

---

(١) راجع كتابنا : تأملات غزالية في الأخلاق النظرية ، صـ ٧٧ .
(٢) أشار العلامة / السهروردي إلى هذه الأربعة ، وأكد أنها الأساسية ، وما بعدها يأتي تبعا لها ، راجع : عوارف المعارف ، صـ ٣٢٩ .
(٣) مجموع المقامات يمكن الرجوع إليها في الرسالة القشيرية ، وعوارف المعارف ، بجانب منارات السائرين ومقامات الطائرين وغيرها .

المجموعة الأولى : مقامات الأصول وهي :

١ ـ الإيمان بالله تعالى بما له من صفات الجلال ، والجمال ، والكمال ، والإكرام ، ولا يتم ذلك المقام إلى باستكمال أجزائه القائمة في أجزائها كلها ، وهي : أن تؤمن بالله وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره ، حلوه ومره [١] ٠

وهي ليست أركانا بحيث إذا عجز المكلف بها عن القيام بأحدها ـ أو بعضها ـ دخل في نطاق الرخص ، أو أصحاب الأعذار ، وإنما هي أجزاء متكاملة مع بعضها في المفهوم والعطاء الأدائي ، ولا يصح إيمان الفرد إلا بها جميعا [٢] ٠

٢ ـ التوبة النصوح بشروطها ، وأركانها ، وحقوقها ، وفي الأثر التوبة النصوح تجب ما قبلها ٠

٣ ـ الزهد في الدنيا ، بحيث تكون هذه الدنيا في اليد لا في القلب ، لأنها إن كانت في اليد أمكن التخلص منها ، أما إذا كانت في القلب فتكون هناك صعوبة كبيرة عندما يراد التخلص منها ، ولا بد من تخلية وتحلية [٣] ٠

٤ ـ مقام العبودية لله تعالى ، بحيث لا يكون في القلب أحد سواه ٠

وهذه المجموعة تحتاج إلى جملة من الأحوال حتى تكون مقامات صحيحة ، يقول العلامة / السهروردي : إن التوبة في مبدأ صحتها تفتقر إلى أحوال ، وإذا صحت تشتمل على مقامات وأحوال ، ولا بد في ابتدائها من وجود زاجر ، ووجدان الزاجر حال ، والحال

---

(١) هذه الأجزاء الإيمانية هي التي تتكامل مع بعضها ، ولا يكون إيمان المرء كاملا إلا إذا استوفاها جميعا ٠

(٢) حديث الإيمان وارد في صحيح البخاري ، وصحيح مسلم ، وبالتالي فهو مما اتفق عليه الشيخان ، راجع كتابنا : الإيمان بالغيب وأثره على الفكر الإسلامي ٠

(٣) مفهوم التخلية قائم على الاستفراغ للقلب من الدنيا وزخارفها ، وملاذاتها ، ومفهوم التحلية قائم على إدخال آداب وقيم سليمة على القلب ، بحيث يكون فيه التأثير الواعي ٠

موهبة من الله تعالى ، وحال الزاجر مفتاح التوبة ، ومبدؤها [(١)] .

المجموعة الثانية : مقامات الاستعانة

وسميت مقامات استعانة من حيث أنها يستعان بها على إتمام مقامات الأصول الأربعة ومن هنا تكون مقامات الاستعانة هي التمام والقوام ، وعن طريقها تستقر المقامات، وتستقيم الأحوال ، وبها صار الإبدال أبدالا بتوفيق الله تعالى وتأييده [(٢)] ، وهي :

١ ـ قلة الكلام .　　　　٢ ـ قلة الطعام .

٣ ـ قلة المنام .　　　　٤ ـ الاعتزال عن الناس .

وإذا كان الأمر كذلك ، فقد بان أن انحصار المقامات الأصلية والاستعانية في هذا مما يعبر عن القواعد العامة لدى الصوفية ، ثم يندرج تحتها ما هو داخل فيها [(٣)] .

ويذهب أصحاب هذا الرأي إلى انه لما كان كل مقام يحتاج أحوالا سابقة عليه ، تمهد له ، وأحوالا لاحقة له تتممه، فمن الممكن تبدل المواقع على ناحية من النواحي ، وصورة من الصور ، بحيث يصير المقام حالا لغيره ، مع مراعاة دور علم القيام ، وخواطر الفضول .

كما يذكرون أن التوبة مقام ، والمراقبة حال ، ثم تأتي المراقبة مرة أخرى على أنها مقام ، وتكون المحاسبة بالنسبة لها حال ، وبالتالي فكل ما يصلح أن يسمى مقاما في وقت من الأوقات ، أو ظرف من الظروف يصلح أن يكون حالا في وقت آخر على سبيل التبادل [(٤)] .

---

(١) العلامة / السهروردي : عوارف المعارف ، صـ ٤٢٨ ، وبالتالي فالحال داخل في مفهوم المقام بمعنى من المعاني .

(٢) وجه التسمية بمقامات الاستعانة قد يكون مقبولا عند طائفة بذاتها ، ولكنه قد لا يكون مقبولا عند غيرهم .

(٣) كل مقام يحتاج حالا ، وكل حال يحتاج زاجرا ، وكل زاجر يحتاج توفيقا من الله تعالى وتأييدا ، وبناء عليه ترتد الأمور إلى الفعل الإلهي .

(٤) التبادل هنا واقع في نطاق الاسم والتسمية ، وليس على الحقيقة ، وهي مسألة مهمة في البناء الصوفي ، ولها اعتبارها أيضا بالنسبة للمعرفة الصوفية ، راجع للشيخ / عبد المعز بن على الأسيوطي : التصوف والمعرفة ، صـ ١٥٧ .

ثم أن ارتباط كل مقام بأحواله السابقة عليه ، مما يؤكد إمكانية تبادل المواقع بينهم ، بدليل ما ذكره السهروردي نفسه ، حين قال : إن ترتيب التوبة مع المراقبة ، وارتباط أحداهما بالأخرى ، قائم في أن يتوب العبد ، ثم يستقيم في التوبة ، حتى لا يكتب عليه صاحب الشمال شيئا [(١)] ٠

ثم يرتق من تطهير الجوارح عن المعاصي ، إلى تطهير الجوارح عما لا يعني ، فلا يسمح بكلمة فضول ، ولا حركة فضول ، ثم ينتقل للرعاية والمحاسبة من الظاهر إلى الباطن ، بحيث تسولي المراقبة على الباطن ، وهو التحقق بعلم القيام ، بمحو خواطر المعصية عن باطنه ، ثم محو خواطر الفضول [(٢)] ، فإذا تمكن من رعاية الخطرات عن طريق الزواجر عصم عن مخالفة الأركان والجوارح ، بحيث تستقيم معه توبته [(٣)] ٠

وبناء عليه ، فهم يرون أن كلا من المقامات والأحوال يمكن أن يتبادلا المواقع المكانية من ناحية تسمية المقام تارة باسم الحال ، وتسمية الحال تارة باسم المقام ، ويترتب عليه أن المريد والسالك يظل أخذا في التردد بينهما ، بحيث لا يكون له من سبيل في الخروج عليهما [(٤)] ، وهذا أرقى ما يمكن تصوره في البناء الصوفي ، وطريقة تربية المريدين ٠

الفرق بين المقام والحال

يرى أصحاب هذا الفريق أن المقام قد يطول ، بينما الحال لا يطول ، بناء على أن

---

(١) المقصود بصاحب الشمال كاتب السيئات من حيث أن كل فرد مكلف معه ملك ، يسجل له حسناته ويسمى كاتب اليمين ، وآخر يسجل عليه سيئاته ويسمى كاتب الشمال ٠

(٢) خواطر المعصية تقابلها زواجر ، فإذا أمكن للخواطر الانفلات من قبضة الزواجر ، وقع العبد في المعصية ، وإذا تمكنت الزواجر من القبض على الخواطر لم يقع في المعصية ٠

(٣) راجع للعلامة / السهروردي : عوارف المعارف ، صـ ٤٣٦ ٠

(٤) يلاحظ أن أصحاب هذا الرأي من الصوفية أنفسهم ، وان اتجاههم يقوم على التربية والتعليم ، لكل من يسلك الطريق ، بغية تحقيق الأهداف المرجوة ، وهو اتجاه حسن محمود ٠

المريد لا يكون مريدا حتى لا يكتب عليه صاحب الشمال شيئا مدة عشرين سنة [١] ، من حيث انه يراقب ذاته على الدوام ، وفي داخله حال الندم قائم ، كما أن زاجره مستمر معه .

وهذا مما يجعل الزاجر صاحب سلطان على الباطن ، وبالتالي فلا يكتب صاحب الشمال عليه شيئا ، وفي الحديث يقول الرسول ﷺ : إذا فعل العبد حسنة بادر ملك الحسنات بكتابتها ، وإذا فعل سيئة قال ملك الحسنات لملك السيئات لا تكتبها الآن ، فإذا تاب محيت عنه ، وإذا مضت ساعة ولم يتب ، قال ملك الحسنات لملك السيئات أكتبها فقد أراحنا الله تعالى منها [٢] .

أما الحال فإنه واقف في طابور طويل من أنواعه ، داخل الفرد الواعي ، ولا يبقى العبد في حال واحدة ، وإنما تتبدل عليه الأحوال بتبدل الثواني والدقائق [٣] ، لأنها مرتبطة بعقله الواعي ، وضميره الذاتي ، وفكره الذي لا يتوقف ، وطالما هو في حال اليقظة ، فإن الأحوال عليه متبدلة .

واستدلوا على أن الأحوال متنقلة ، ومتبدلة على الدوام بأن الزاجر الداخلي هبة من الله تعالى ، ولا يتوقف عملها ، لأن الواهب ـ وهو الله تعالى ـ جعلها في حال اليقظة ، وعاملة على الدوام ، وقالوا أن العبد إذا خالط وعيه الذنب ، فإنه يرى من نفسه حالا داعية للتوبة النصوح ، لأن الحياة دقائق ، وثواني ، ولا يأمن مع الأيام بقاء ، بل هي إلى

---

(١) ليس معناه أن المريد معصوم ، ولكنه محفوظ ، وفي ذات الوقت هو صادق في حياته ، ولذا فإنه إذا وقع في الابتلاء بذنب فإنه يندم في الحال ، وينمحي الذنب في ذات اللحظة قبل أن يسجله صاحب الشمال عليه .

(٢) في هذا دليل على أن ملك الحسنات له نوع ولاية من الله تعالى على ملك السيئات ، بما يفتح باب التوبة والندم لكل العصاة ، ويكشف عن الرحمة الإلهية التي تفتح أبوابها لكل التائبين على الدوام ، لقوله تعالى ورحمتي وسعت كل شيء

(٣) لقد فهم الفلاسفة أن الحال لا يبقى زمانين ، ومعناه أن الثانية التي تمر إنما هي معبرة عن حال زماني له ارتباط كمي من ناحية ، وكيفي من ناحية ثانية .

الانقضاء أسرع ، وهذا ما جعله يسارع إليها ، فلا يكتب صاحب الشمال عليه شيئا (١) ، وقديما قال الحكيم :

دقات قلب المرء قائلة له .. أن الحياة دقائق وثواني

خلد لنفسك قبل الممات ذكرها .. فالذكرى للإنسان عمر ثاني

لا شك أن هذا مما يشجع الفرد الواعي على مراقبة ذاته ، في حال الدقائق ، وأحوال الثواني ، بما يجعل البناء النفسي الإرادي متصاعدا من ناحية الأحوال ، منضبطا باعتبار المقامات ، والمثال التطبيقي من التربية الصوفية قائم في حال الزهد والقناعة ، إذ كل منهما يمكن أن يكون مقاما وحالا في نفس الوقت (٢) ، فالعبد إذا داخله الذنب على سبيل الابتلاء والاختبار ، كأن يفكر في رزقه مثلا ، أو يأمل في غده ، أو يطلب حاجة ليست له ، فإنه يشعر بوقوعه في ذنب ، وهذا الشعور حال زاجر ، فماذا يفعل ؟

أنه يسارع في الحال إلى التوبة النصوح تلبية لسلطان الزاجر الداخلي ، وهو الندم ، فإذا ندم تاب توبة نصوحا، ومن ثم يترتب عليه الزهد في الدنيا التي جاءه الذنب من جهتها ، حتى لا يهتم في غذائه لعشائه ، ولا في عشائه لغذائه ، ولا يرى الادخار قائما ، ولا يكون له هم في التعلق باللحظة المقبلة (٣) .

ومن ثم فإنه يجمع بين حالين ومقام واحد ، أما الحالان فهما : الندم والمسارعة إلى

---

(١) دور الزاجر في البناء الصوفي يحتاج كتابة مستقلة ، بحيث يظهر أثره في التربية الصوفية ، ولذا أمل أن تقوم رسالة جامعية حول أثر الزواجر في التربية الصوفية ، لأن الزواجر ذاتية ومواهب ربانية .

(٢) نظرية التبادل الموقعي يمكن أن يكون لها دور كبير في التربية الصوفية ، ولذا أود الإلتفات إليها من الزملاء الباحثين ، لأن قضايا التصوف مازالت بحاجة إلى المزيد من الدراسة

(٣) هذه التربية عمادها المواهب اللدنية ، حيث لا يرى العبد من ذاته إلا أنه ضيف على ما هو مقيم فيه ولحظاته محددة ، وثوانيه معدودة ، وملك الحسنات وملك السيئات كل منهما في استقباله ، فأيهما يختار !

التوبة ، وأما المقام فهو الزهد ، فإذا وقف على الزهد قليلا أتاه حال الفقر ، كأنه يحاول معه من جديد الدخول إلى دورة الابتلاء ، لأن خوف الفقر قد يجذب صاحبه إلى التفكير في غذائه ، أو عشائه ، والزاهد افضل من الفقير ، لأن الزهد فقر وزيادة من ناحية ، كما أنه يمثل الحالة الاختيارية للزاهد نفسه من ناحية ثانية[١] .

يقول الشيخ / الطويل : أن الزهد مقام سنى ، وحال رباني ، من حيث أن الزهد اختياري فهو مقام ، ومن حيث الداعي إليه فهو حال ، والزاهد يحقق له زهده صحة توكله ، وتوكله يحقق له رضاه ، ورضاه يحقق له الصبر ، وصبره يحقق له حبس النفس ، وحبس النفس يحقق له صدق المجاهدة ، فكل منها يوصل للآخر ، وهو معنى المقام والحال[٢] .

ويقرر العلامة / الشنيطي : أن العبد إذا تنقل بين مقام التوبة والزهد ، فقد جمع جملة من الأحوال هي في ذاتها مقامات أولية ، فمثلا إذا زهد العبد كان زهده اختيارا، وهو مقام الزهد ، أما الاختيار من حيث ذاته فهو حال، وزهده يحقق توكله ، وتوكله يحقق رضاه ، ورضاه يحقق له الصبر ، وصبره يحقق حبس النفس ، وصدق المجاهدة ، وحبس النفس لله يحقق خوفه ، وخوفه يحقق رجاءه[٣] .

فإذا تمت مراعاة ما ذكره الشيخ / الشنيطي تبين وجود مقامين أساسيين ، ومقامات تبعية بينها جملة من الأحوال ، التي تعبر في ذات الوقت عن بعض المقامات التبعية[٤]

---

(١) الزهد عمل اختياري كسبي ، ومن ثم فهو مقام ، فإذا حصل الانتقال بين أنواع الزهد صار حالا لحظة الانتقال ، وليس ساعة الاستقرار ، وهو معنى قولهم مقام الزهد ، وحال الزهد .

(٢) راجع للشيخ / حسن محمود الطويل : التصوف الإسلامي حركة الحياة ، صـ ١٧٣ـ ١٧٥ ، ط. الأولى دار التوكل .

(٣) العلامة الشيخ / نصر الدين بن محمد على الشنيطي : التصوف أصول شرعية وقواعد جليلة ، جـ ١ ، صـ ١٥٣ , ١٥٤ .

(٣) المقامات الأصلية هنا هي : ١ ـ مقام التوبة ، ٢ ـ مقام الزهد ، وهما يجمعان كل المقامات التبعية ، أما المقامات التبعية فهي : ١ ـ التوكل ، ٢ ـ الرضى ، ٣ ـ الصبر ، ٤ـ حبس النفس ، ٥ ـ صدق المجاهدة ، ٦ ـ الخوف ، ٧ ـ الرجاء ، والأحوال الأصلية هي القائمة في الانتقال من حال الزجر إلى الندم إلى التوكل ، ومن التوكل إلى الرضى، راجع كتابنا : ألموسوعة الغزالية في التصوف والصوفية ، المقدمات ، صـ ٣١٥ ـ ٣٢٧ .

بما يجعل الناظر إليها يدرك لماذا ذهب أصحاب هذا الفريق إلى القول بتبدل المقامات والأحوال من ناحية التسمية.

والذي يرجح أدلة هذا الفريق لديهم ، هو أن المقامات الأساسية هي أربعة :
١ - صحة الإيمان وعقوده وشروطه ، ٢ - التوبة النصوح ، ٣ - الزهد المشروع ، ٤ - العمل الدائم في الطاعة ، وهذه الأربعة الأصلية تدور بينها أحوال يمكن اعتبارها مقامات تبعية على ناحية من النواحي ، أو صورة من الصور (١) .

يقول العلامة / السهروردي : إن كثيرا من الزهاد المتحققين بالزهد المستقيمين في التوبة ، تخلوا عن كثير من سني الأحوال (٢) ، لتخلفهم عن دوام العمل ، ولا يراد الزهد في الدنيا إلا لكمال الفراغ المستعان به على إدامة العمل لله تعالى .

والعمل لله تعالى هو أن يكون العبد لا يزال ذاكرا لله جل شأنه ، أو تاليا لآياته ، أو مصليا ، أو مراقبا ، لا يشغله عن هذه إلا واجب شرعي ، أو مهم على ناحية طبيعية لا بد منه طبيعي (٣).

فإذا استولى العمل على القلب مع وجود الشغل الذي أداه إليه حكم الشرع لا يفتر باطنه عن العمل ، فإذا كان مع الزهد والتقوى ممسكا بدوام العمل ، فقد أكمل الفضل ، وما آلي جهدا في العبودية (٤) .

---

(١) الترجيح هنا أردت به ترجيح الأدلة ، لا ترجيح الرأي ، لأن ترجيح الرأي نوع من الاعتقاد فيه ، أو هو اعتقاده في الجملة ، أما ترجيح الدليل فهو ترجيح لمقدمات عقلية بأدلة مقبولة .

(٢) سني الأحوال هو أكثرها جمالا ، وإشراقا في العبد ، وتأثيرا عليه ، وهذا المصطلح يحتاج توظيفه على ناحية صوفية عملية

(٣) في هذا إشارة إلى الواجبات الشرعية ذات الارتباط بالعلاقات الجسدية التي يأتي منها الذرية ، وفي هذا تأكيد على أن الصوفية لا يمارسون الرهبنة المبتدعة بحال من الأحوال .

(٤) راجع للعلامة / السهروردي : عوارف المعارف ، صـ ٤٣٧ .

ب ـ مناقشته

على أن هذا الرأي ، وأن كان ظاهره مسايرة الاتجاه العام في كثير من القضايا الصوفية ، إلا أنه يمكن أن يطلق عليه أسم مصطلح أصحاب التصوف المعرفي ، وتبقى مسألة ترتيب المقامات والأحوال قائمة ، أما لماذا، فلما يلي :

١ ـ أنهم راعو النظر إلى المفاهيم والمصطلحات ، ثم أهملوا جانب التطبيقات ، والتصوف علم وسلوك ، ومن ثم فإهمال التطبيقات ـ وهي عمل قلبي ، وجداني ، وسلوكي[(١)] ، وهذا مما يترتب عليه وجود كثير من جوانب القصور في الفكرة ذاتها •

٢ ـ أنهم أقاموا أنفسهم مقام الحكم في هذه القضايا من غير تجربة روحية ، بحيث يكون لديهم الشعور بحساسية الموقف ، ومن ثم كانت آراؤهم كالبناء المادي الأسمنتي ، خالية من اللاصق الروحي ، وهو القائم في التماسك ، ويعبر عنه من ناحية الفهم الصوفي بالزاجر ، أو الواعظ الداخلي[(٢)] ، مع أن له دورا مهما في الحياة الروحية •

٣ ـ أنهم فهموا التبدل المكاني على أنه عملية تلقائية ، فصار أقرب إلى الآلية منه إلى الإرادة ، والاختيار[(٣)] ، مع أن المقامات مكاسب ، فأين دور الفرد في عمليات الكسب حتى يصح اختياره •

٤ ـ أنهم تبنوا أحكاما سبقية ناتجة عن ملاحظات معرفية أمكن تفريغها من محتواها العادي إلى آخر توظيفي ، فجعلوها تبدو جامدة[(٤)] ، مع أن التصوف أذواق ومواجيد ، وأشواق وانطلاقات نحو الملا الأعلى•

---

(١) أرى ضرورة معالجة القضية من كافة جوانبها ، فإذا تم التصدي لجانب واحد منها كان هناك عوار يحتاج إلى الإصلاح وكسر يستدعي الجبر •

(٢) دور الزاجر يمكن الرجوع إليه في باب الندم ، وراجع كتابنا : المقدمات ، صـ ٢١٧ ـ ٢٢٥ •

(٣) إذا سلب عن الإنسان الواعي حقه في الاختيار فقدت المقامات دورها ، ولم يعد لها وجود أصلا لقيامها على المكاسب

(٤) التصوف علم وعمل ، فكر وسلوك ، عقل وروح ، فالثنائية فيه لها طابع خاص ، ولهذا كانت إمتيازاته أعلى من إمتيازات غيره •

٥ ـ أن هذا الرأي قد تبنى مواقف ، وإن لم تكن جيدية ، لكنها قد تكون مفيدة من ناحية البناء الصوفي ، كما تدعم عملية التربية الصوفية ، ومن ثم فهو يحتاج العناية، بحيث يمكن توظيفه من النواحي التي يفيد فيها ، فذلك خير وأبقى ٠

الفريق الرابع : أصحاب الترتيب الارتفاعي التصاعدي

أ ـ عرضه

ومعناه أن الصوفية الأوائل ، قد وضعوا نوعا من الترتيب بين المقامات والأحوال ، ساروا عليه منذ بداية عصر التصوف التأليفي ، وقد روعي فيه طبيعة العلم ، وحال الفرد الواعي ، دون إخلال بحال من الأحوال، أو مقام من المقامات ، وأن التعديلات التي طرأت لم تتجاوز المسموح به ، وكان المتأخرون يرون ضرورة التمسك بما قعد له المتقدمون من شيوخ الصوفية الأجلاء (١) ٠

كما يؤكدون على قاعدة هامة ، وهي أن البناء الصوفي لم يقم بين عشية وضحاها ، ولا طلعة شمس وغيبتها ، وإنما امتد العلم معه سنوات طويلة ، جاء ابتداؤها مع القرن الأول الهجري ، وامتد حتى عصر التأليف والتدوين ، ومازالت المعالجات فيه مستمرة من ذوي الاختصاص العالي ، بغية تقديم أفضل النتائج ، وأرقى الحلول (٢) ٠

ويعتقد أصحاب هذا الاتجاه أن الترتيب الاتفاقي يمضي قدما من خلال طريقين ، كل منهما يكمل الآخر ، على صورة من الصور ، أو ناحية من النواحي الابداعية٠

الفريق الأول : ترتيب المقامات التصاعدي

---

(١) هذا الاتجاه يمثل الرأي الصوفي ، وفي الأمثال القديمة : أهل مكة أدرى بشعابها ، من حيث عاشوا فيها ، وأقاموا بها ٠

(٢) راجع للشيخ / محمد عبد المنعم الجمل : التصوف حقيقة وشريعة ، صـ ١٢١ـ ١٢٣ .حيث تبنى الآراء في المسألة ، ودافع عنها من خلال وجهة نظر صوفية خالصة تحسب له٠

الفريق الثاني : ترتيب المقامات التنازلي

والأول : يقوم على أن المقامات تبدأ من التوبة ، بحيث يكون العبد معدا للانتقال البعدي لما يليها من ناحية التصاعد ، باعتبار أن كل مقام إنما يمهد لما بعده ، حتى يبلغ العبد درجة الإخلاص الرباني ، معياره عبدي أطعني تكن لي عبدا ربانيا ، تقول للشيء كن فيكون [١] .

بينما الترتيب الثاني : التنازلي يبدأ من الأعلى حتى ينتهي إلى الأدنى ، وقد رتب الشيخ / شاهاور المقامات الكلية في مجموعات بلغت عشرا ، ثم ضم بين جناحي كل مقام منها جملة من المقامات ، التي رآها تدور في فلكه ، وهاك جدولا يقربها إلى الأذهان [٢] .

المقام الأول : مقام المعرفة [٣] : وهو يضم ثلاث مقامات فرعية ، هي :

(١) مقام معرفة العوام

(٢) مقام المعرفة النظرية - الخواص

(٣) مقام المعرفة الشهودية - خواص الخواص

المقام الثاني : مقام التوحيد [٤] : وهو يضم ثلاث مقامات فرعية، هي :

(١) مقام توحيد العوام

(٢) مقام توحيد الخواص مقام المتوسط

(٣) مقام توحيد الأخص مقام المنتهي

---

(١) راجع للعلامة الشيخ / نصر محمد عبد الوارث : التصوف ومصادره الإسلامية ، صـ ٧٧ , ٧٨ ، ط. دار المتوكل سنة ١٣٩٥ هـ . .

(٢) هذا التصنيف الذي قام به الشيخ / شاهاور ، يعبر عن عقلية منظمة ذات ارتباط صوفي، مما يجعل حظ تصنيفه من القبول أعلى من سواه .

(٣) وقد روعي في تصنيف مقام المعرفة ما يتعلق بكل من الخواص والعوام ، وخواص الخواص ، مما يؤكد أن مصادر المعرفة ووسائلها ، ومقاصدها توفرت فيه على العديد من النواحي ، مما يؤكد قدرة المفكر على اختزال قضايا عديدة لصالح المقام الواحد.

(٤) يلاحظ على هذا التصنيف ما يتعلق بالعمليات الفطرية ، والعقلية ، والقلبية ، والوحدانية، وبينهما ينضبط الأمر في مقام التوحيد

المقام الثالث : مقام النبوة : وهو يضم عشر مقامات فرعية، هي : (١)

- (١) مقام ارتقاء الحواس
- (٢) مقام كيفية الوحي
- (٣) مقام أصناف الوحي
- (٤) مقام الفعل الملك المطاع
- (٥) مقام المنام الصادق
- (٦) مقام دلائل النبوة
- (٧) مقام الفرق بين النبوة والكهانة
- (٨) مقام الفورق بين المعجزة والكرامة والسحر
- (٩) مقام إثبات نبوة المصطفى
- (١٠) مقام بيان فضل نبينا محمد على سائر الأنبياء

المقام الرابع : مقام الولاية : وهو يضم ست مقامات فرعية ، هي : (٢)

- (١) مقام مراقب الولي
- (٢) مقام التقوي
- (٣) مقام الزهد
- (٤) مقام الصبر
- (٥) مقام الرضا
- (٦) مقام المحبة

---

(١) روعي في هذا التصنيف ظاهرة الفروق الفردية في اليقظة والمنام ، وكذلك ما يتعلق بخوارق العادات التي تجيء مع النبي ، وهي : خوارق التأنيب ، والتي تجيء مع غيره ، وهي ذات مسميات أخرى .

(٢) يلاحظ أن مقام الولاية يشمل العديد من المقامات ، وهو ما تنضبط به المسافات العملية ، والعملية ، والفكرية ، ويدل في نفس الوقت على وجود ضابط يجمع بين كل جملة مقامات ذات غايات استهدافية .

المقام الخامس : مقام الإنسان [١] : وفيه ثلاث مقامات فرعية ، هي :

(١) مقام الإنسان هو العالم الكبير بالروح

(٢) مقام الإنسان صغير عالم بالشخص

(٣) مقام تسوية التأليف وتعلق الروح به

المقام السادس : مقام خلافة الإنسان [٢] : وهو يضم ثلاث مقامات فرعية ، هي :

(١) مقام ما هية الخلافة

(٢) مقام الاختصاص الإنساني بالخلافة

(٣) مقام تفاوت الخلافة ودرجاتها

المقام السابع : مقام رجوع الإنسان إلى ربه [٣] : وفيه أربع مقامات،هي :

(١) مقام رد الروح إلى الغالب

(٢) مقام رجوع الروح إلى الحضرة

(٣) مقام العبور عن مقامات خواص الجواهر

(٤) مقام العبور عن خواص جواهر المركبات

---

(١) اعتمد هذا التصنيف الإنسان على أنه قيمة بذاتها ، ولم يعتمد على أنه فرد مشخص ، وهي فكرة جميلة ولها ارتباط عضوي يمكن التعامل به من الوجوه المختلفة .

(٢) هذا المقام يخالف سابقه من حيث أ نه يركز على وجود الإنسان في إطاره الذي يجب قيامه به ، وهو عملية الاستخلاف مع التعمير .

(٣) روعي في هذا المقام الجوانب التي تلازم الإنسان في دار الدنيا ، ثم ما يرتبط في الدار الأخرى ، فهو جامع بينهما على نواح متعددة .

المقام الثامن : مقامات النفس ومعرفتها : وفيه عشر مقامات فرعية ، هي:(١)

- (١) مقام معرفة النفس وماهيتها
- (٢) مقام تزكية النفس
- (٣) مقام علاج الكبر
- (٤) مقام علاج الحرص
- (٦) مقام صفة الحسد وعلاجها
- (٦) مقام علاج الشهوة بالعفة
- (٧) مقام علاج الغضب بالحلم
- (٨) مقام علاج البخل بالسخاء
- (٩) مقام علاج الحقد بسلامة القلب
- (١٠) مقام مراتب التوبة على حسب مقامات النفس

المقام التاسع : نظام معرفة القلب ومقاماته : وفيه أربعة عشر مقاما فرعيا ، هي :(٢)

- (١) الزهد
- (٢) الورع
- (٣) التوكل
- (٤) الرضا
- (٥) اليقين
- (٦) الصدق
- (٧١) الخوف
- (٨) الرجاء
- (٩) الاخلاص
- (١٠) المراقبة
- (١١) المحاسبا
- (١٢) الخلق
- (١٣) الذكر
- (١٤) الخلوة

---

(١) في هذا المقام تصنيف باعتبار قوى النفس ، وآخر باعتبار آفاتها ، وثالث بحسب كيفية علاجها والوصول بها إلى مراتب عليا ، ومقامات لها امتيازات كلها مترتبة على مجهود الإنسان ورغبته في الوصول إلى ما هو الخير العام له ، ولغيره .

(٢) هذا المقام بكل مقاماته الفرعية يعبر عن الجوانب القلبية ، ومن ثم اتسعت جوانبه ، فإن في ذلك الخير ، وهو مما جعل الاهتمام بالدراسات الصوفية يمثل جانبا مهما بالنسبة للسلوكيات العملية .

<u>المقام العاشر</u> : مقام معرفة الروح ومقاماته : وفيه أثنا عشر مقاما ، هي :[(١)]

(١) الاستقامة (٢) الحياء (٣) الحرية (٤) الفتوى (٥) المحبة (٦) المراقبة (٧) العبودية (٨) الفقر (٩) التصوف (١٠) الأدب (١١) الصحبة (١٢) السماع

وحيث أن المقامات الأصلية متعددة ، والتبعية هي الأخرى متعددة ومتنوعة ، فإني سأحاول تقديم نماذج تطبيقية لبعض المقامات ن بحيث يظهر أثر المقام الذي أقدمه في البناء الصوفي ، وكذلك دوره من ناحية التربية الصوفية ، وسيكون ذلك على النحو التالي :

---

(١) في هذا المقام ضبط عام لما يمكن حصره في مسألة المقامات ، ولذا فهو بمثابة النتائج الختامية التي يمكن التعويل عليها في المسألة .

الأول : مقام التوبة

أ ـ معناه

ومعنى التوبة في الفكر الصوفي أن يتوب العبد حتى من التوبة ، بحيث لا يعود للذنب أبدا ، كأنه يقول استغفر الله العظيم من قلة صدقي في قولي ، استغفر الله العظيم من قولي ، ويستدلون عليه بما أثر عن رويم ﷺ إذ قال : أن التوبة هي أن يتوب من التوبة [(١)] .

وبالتالي ، فمقام التوبة أول المقامات من ناحية البناء التصاعدي ، وهو الذي يعول عليه أصحاب الاتجاه الصوفي باعتبارهم أعرف الناس بأمورهم ، وأكثرهم قدرة على تفهم مصطلحاتهم التي اتفقوا عليها ، لكن ما هي أنواع التوبة ؟ والجواب ما سيأتي :

ب ـ أنواع التوبة

يعتقد أصحاب هذا الرأي أن التوبة أنواع ، باعتبار الذات العارف تارة ، واعتبار الموضوع المعروض للمعرفة ذاتها ، ونظرا لأن المنهج الذي أقوم عليه يتعلق بالذات العارفة ، من حيث بيان الأثر الصوفي على البناء الذاتي للفرد ، فإني سأعمل على إبراز النوع المتعلق بالذات العارفة بهذا الاعتبار[(٢)] .

١ ـ توبة الإنابة

وهي التي تقوم على أن يخاف العبد من الله عز وجل ، من أجل قدرة الله تعالى على هذا العبد ، وقيام الوعي الذاتي داخل العبد ، بأن الله تعالى قادر عليه في جميع

---

(١) راجع للشيخ / منصور محمد المليجي : القواعد الشرعية للتصوف ، صـ ١٥١ ، ط. الدار القومية ، سنة ١٣٠٤ .

(٢) الذات العارفة هي المحور الأساسي في التصوف الإسلامي ، لأن الفرد الإنساني هو المستهدف بكافة المعارف الصوفية ، حتى يمكن الوصول به إلى محل الرضا الإلهي .

أحواله ، وإذا فات منه شيء لم يتم استدراكه ، فإن الله سوف يحاسبه عليه ، ومن ثم فهـو يسارع بالتوبة حتى ينيب إلى الله تعالى (١) .

والدليل على توبة الإنابة قوله تعالى ﴿ وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ ﴾ (٢) .

قال العلامة / الفخر الرازي : إن قوله تعالى يا عبادي ، في هـذا المجـال، مشـعر بأنهم المؤمنون الذين وقع منهم نوع من الإسراف في المعاصي ، وظنوا أن باب التوبـة ربمـا لن يفتح لهم ، فبين لهم جل شأنه أن رحمة الله واسعة (٣) ، ومن ثم فالقنوط منها لا مبرر له ، لأنه تعالى يملك غفران الذنوب ، مهما كانت كثيرة ، إذ من صفاته العظمى أنه الغفور الرحيم .

ثم بين لهم أن توبة الإنابة تمثل حالة من حالات رجوع العبد سريعا إلى مـولاه ، مادامت قائمة على توحيده ، وإسلام الوجه له ، وطلب المغفرة منه ، بشروطها القائمة مـن قبل أن يأتيكم العذاب ، ولا تجدون لدفعه نصيرا (٤) .

فإذا تحققت توبة الإنابة بات الفرد الواعي أمنا على نفسه من غضب الله تعالى ، راجيا عفوه ورضوانه ، وهذا من أعلى ألوان التسليم ، وأفضل أنواع الإنابة ، لأن الله تعالى فتح باب التوبة حتى يكون بمثابة صمام الأمان لمن زلوا، إن رحمة الله قريب من المحسنين.

---

(١) راجع للشيخ / محمد بن علي البغدادي : أنوار القلوب ومشارق العقول ، صـ ١٣٥ , ١٣٦، وللعلامة / نصر الدين محمد بن عبد العظيم النقلي : التصوف بريقة شرعية ، صـ ٥٢ .

(٢) سورة الزمر : الآيتان ٥٤ , ٥٥ .

(٣) قال تعالى ﴿ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ سورة الأعراف : الآية ١٥٦

(٤) راجع للإمام / الفخر الرازي ، مفاتيح الغيب ، المجلد الثاني عشر، جـ ٢٦ ، صـ ٤٥٥ , ٤٥٦ .

سئل الحسن المغازلي عن توبة الإنابة ، فقال : أن تخاف من الله عز وجل قدرته عليك [(١)] ، ويقرر الإمام / الفخر الرازي أنه لا يجوز أن يظن العبد العاصي انه لا مخلص له من العذاب البتة ، فإن من اعتقد ذلك فهو قانط من رحمة الله ، إذ لا أحد من العاصين المذنبين إلا ومتى تاب زال عقابه ، وصار من أهل المغفرة ، لقوله تعالى أن الله يغفر الذنوب جميعا ، تفضلا من الله تعالى ورحمة [(٢)] .

ثم أن توبة الإنابة فيها تشجيع العبد الذي وقع في المعصية على المسارعة إلى الله تعالى رهبة منه ، وخوفا من عقابه ، وهذا مما يساهم في تهذيب النفس ، وإعادة صياغتها من جديد ، بحيث يكون استقبالها لما يجيء من عند الله تعالى أقدر على ما يأتيها من غمزات الشيطان وماكيده [(٣)] .

ومتى تحققت توبة الإنابة في حياة الفرد الواعي ، وتمكنت من قلبه ، وضميره ، استطاعت تحويله إلى إنسان فاعل في الحياة على ناحية إيجابية ، كما هو فاعل في أنماط الحياة من الناحية الإنتاجية ، وبالتالي يلوذ لجناح السعادة حيث يأوي إليه في ثقة واطمئنان .

٢ - توبة الاستجابة

وهي التي تقوم في استحياء العبد من الله تعالى ، نظرا لقرب الله جل شأنه من عباده ، ويستدل عليه بقول الله تعالى ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [(٤)] ، كما أن توبة الاستجابة لا

---

(١) العلامة / السهروردي : عوارف المعارف ، صـ ٤٣٩ .
(٢) راجع للإمام / الفخر الرازي ، مفاتيح الغيب ، المجلد الثاني عشر، جـ ٢٦ ، صـ ٤٥٥, ٤٥٦ .
(٣) راجع للعلامة / ابن القيم : إغاثة اللهفان من مكايد الشيطان ، وراجع للعلامة / ابن تيمية : الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان .
(٤) سورة البقرة : الآية ١٨٦ .

تحتاج إلى ذنب يتم عمله ، بل مجرد مرور الخاطر حوله ، يشعر العبد بأنه ما كان له القيام به ، نظرا لقرب الله تعالى ، وهو معكم أ ينما كنتم ٠

ذكر أهل العلم في سبب نزول الآية الكريمة ، أن إعرابيا قال لرسول الله ﷺ : أقريب ربنا فنناجيه ، أم بعيد فنناديه ؟ ، فقال تعالى إيماء إلى سرعة الإجابة للدعاء فإني قريب ، والمعنى فقل لهم إني قريب بالعلم والاحاطة ، فهو تمثيل لكمال علمه تعالى بأمثال العباد وأقوالهم ، وإطلاعه على أحوالهم ، بحال من قرب مكانه منهم (١) ٠

قال أبو موسى الأشعري ﷺ لما توجه رسول الله ﷺ إلى خيبر ، أشرف الناس على واد فرفعوا أصواتهم بالتكبير قائلين " لا إله إلا الله ، الله أكبر لله، فقال ﷺ أربعوا على أنفسكم في الدعاء ، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبا ،إنكم تدعون سميعا قريبا ، وهو معكم (٢) ٠

قال العلامة / البروسي: إن الله طلب من عباده سرعة الاستجابة للإيمان والطاعة، وسرعة التخلص من الذنوب متى وقعوا فيها ، مع الثبات على الحق ، وهذا مما يدل على أن العبد لا يصل إلى نور الإيمان وقوته إلا بتقديم الطاعات ، وأنواع العبادات ن حتى يصل إلى إصابة الرشد ، والاهتداء إلى مصالح الدين والدنيا (٣) ٠

وسئل الحسن المغازلي ـ رحمه الله ـ عن توبة الاستجابة فقال : أن تستحي من الله

---

(١) هذا من باب التشبيه التمثيلي ، لأنه يعبر عن حال هيئة بحال هيئة أخرى ، والتشبيه التمثيلي يقوم على تشبيه حال الهيئات بالهيئات لعلاقة قائمة بينها ،راجع للعلامة الشيخ / محمد بن على الصنعاني : أسرار البلاغة القرآنية ، صـ ١٣٥ ، وراجع للشيخ / الباجوري : حاشية على السمرقندية في علوم البلاغة ، صـ ١٩ ٠

(٢) الحديث مما اتفق عليه الشيخان ، وأخرجه أحمد في مسنده ، ومعنى أربعوا على أنفسكم في الدعاء : ترفقوا وتمهلوا ، ولا تلحفوا على أنفسكم ٠

(٣) راجع للعلامة / إسماعيل حقي البروسوي : تنوير الأذهان من تفسير روح البيان ، المجلد الأول ، الجزء الثاني ، صـ ١٤٢ , ١٤٣ ، الطبعة الأولى ، دار الصابوني سنة ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م ٠

لقربه منك، وإذا تحقق العبد بتوبة الاستجابة ، ربما تاب في صلاته من كل خاطر يلم به، سوى الله تعالى ، ويستغفر الله منه، وهي لازمة لبواطن أهل القرب (١) .

إن توبة الاستجابة ترفع العبد الواعي لمقام دل عليه قول الرسول ﷺ استحيوا من في الله حق الحياء ، قالوا : أنا تستحي والحمد لله ، فقال ﷺ : الحياء أن تحفظ الرأس وما وعي، والبطن وما حوي ، وأن تذكر الموت والبلى ، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله تعالى حق الحياء (٢) .

وفي نفس الوقت ، فإن توبة الاستجابة تكون بمثابة الترجمة العملية للحياء ، من الناحية النظرية ، على معنى انه كلما كان الحياء أمرا واقعيا ، فإن نتائجه العملية تقدم امتيازات متعددة ، للفرد الواعي ذاته ، حيث تجعله في مقام الحياء من الله عز وجل ، وفي الخبر الحياء لا يأتي إلا بخير ، والحياء من الإيمان (٣) .

على أن ما يمكن الإلتفات إليه هو أن توبة الاستجابة أحد أنواع مقام التوبة ، وبالتالي فهي مقام فرعي ، أو تبعي لمقام أصلي ، وأساسي من ناحية الذات العارفة ، وليس من ناحية الموضوع - والمعروف - نظرا إلى أن الذي يسارع إليها ، ويتمثلها هو ذات الفرد الذي يهتم الصوفية به ، ويؤكدون على ضرورة وجوده ، وإمكانية إصلاحه، وتهذيبه (٤) ، وذلك داخل في مقام من المقامات التي يرتبط الصوفية بها ، من الناحية النظرية والعملية.

---

(١) راجع للعلامة / السهروردي : عوارف المعارف ، صـ ٤٣٩ .
(٢) راجع للشيخ / محمد عبد العظيم النابلسي : من أنوار السنة في الأخلاق ، صـ ١٥٣، ١٥٤ ، وقد ذكر نماذج عديدة مما يجيء فيها الحياء .
(٣) راجع للشيخ / عبد القادر حسن أبو ذنومنة / السنة المطهرة ، صـ ١٧٤ ، وراجع للشيخ / على محمد : سنة الرسول في الحياء ، صـ ١٥٧ - ١٥٩ ، حيث شرح الحديث بالآثار المترتبة عليه ، وراجع للإمام / الغزالي / أحياء علوم الدين .
(٤) التصوف جامعة للتدريب والتهذيب ، بجانب التربية والتعليم ، ومتى قام التصوف الإسلامي على قواعده الصحيحة فإنه يحقق أعلى النتائج .

٣ - توبة العوام من المؤمنين

وهي التي يقوم بها الفرد الواعي من عوام الصوفية ، أو من عوام الناس ، إذا وقع في ذنب مهما كان صغيرا ، وسميت بذلك من حيث أن الذي يقوم بها ليست له أرصدة معرفية كما أنه لم يدخل الطريق الصوفي حتى يكون عالما فيه ، أو متمكنا منه ، أو قادرا على بلوغ الغاية فيه ، وكل مقلد لغيره في الفروع فإنه يكون من العوام بالنسبة لما قلد فيه[١].

ويستدل عليها بآيات كثيرة ، منها قوله تعالى ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[٢].

ويعتقد أصحاب هذا الرأي أن العاصي قد يفهم معناه على أنه من ليست له خبرة بالطريق الصوفي ، حتى لو كان حاصلا على أعلى الدرجات العلمية ، بناء على أن المقابل للعاصي هو العارف ، والعارف هو من أشهده الله تعالى ألوهية ذاته ، ولم يظهر على حال ، والعلم حالة[٣].

ثم أن توبة العوام قد يقع معها التكرار الذنبي ، الذي تاب منه ، من حيث أنه قد ارتبط فهمه برباط التوبة ، لا برباط الإقلاع عن الذنب ، مع العزم على عدم العودة إليه ، إذ لو ارتبطت التوبة برغبة العودة إليه لم تكن توبة ، وفي الخبر التائب من الذنب

---

(١) هذا مما يؤكد حرص الصوفية على الفهم الواعي ، والعقل الانضباطي القائم في أصول صحيحة ، راجع كتابنا : أنسام حيية في الأفكار الصوفية ، صـ ٨٧ .
(٢) سورة النور : الآية ٣١ .
(٣) راجع للعلامة / ابن عربي : رسالة في اصطلاحات الصوفية طبقا لما هو مقرر في الفتوحات المكية ، صـ ٢٤٣ ، ملحق بالتعريفات للجرجاني .

مع العودة إليه كالمستهزئ بربه [(١)] ، يدل عليه قوله تعالى في بني إسرائيل ﴿ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ وَحَسِبُوا أَلاَّ تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ [(٢)] .

وقوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ [(٣)] .

سئل ذا النون ـ رحمه الله ـ عن توبة العوام ، فقال : هي التوبة من الذنوب ، كما تكون بترك المنهيات ، والقيام بالمأمورات ، وقضاء الفوائت ، ورد الحقوق ، والاستحلال عن المظالم ، مع الندم على ما جرى ، والعزم على أن لا يعود إلى ما منه انتهى [(٤)] .

سئل أبو محمد سهل ، عن الرجل يتوب من الشيء ويتركه ، ثم يخطر ذلك الشيء بقلبه ، أو يراه ، أو يسمع به ، فيجد حلاوته ، فقال أبو محمد : إن الحلاوة طبع البشرية ، ولا بد من الطبع ، وليس له حيلة ، إلا أن يرفع قلبه إلى مولاه بالشكوى ، وينكره بقلبه ، ويلزم نفسه الإنكار له ، ولا يفارقه ، ويدعو الله أن ينسيه ذلك ، ويشغله بغيره من ذكره ، وطاعته [(٥)] .

---

(١) الأخبار في هذا الشأن كثيرة ، وهي مفيدة ، أن التوبة لا تكون نصوحا إلا إذا اقترنت بنية عدم العودة إلى ذات الفعل ، وعقد التوبة مرتبط بشروط صحتها ، وهو الذي عليه تأكيدات الندم ، وينهض داخل مؤلفاتهم العلمية .

(٢) سورة المائدة : الآيتان ٧٠ , ٧١ .

(٣) سورة النساء : الآيات ١٣٧ ـ ١٣٩ .

(٤) راجع للعلامة الشيخ / أبو بكر عبد الله بن شاهاور الرازي ، منارات السائرين ومقامات الطائرين ، صـ ٤٣٧ .

(٥) يكون هذا الدعاء بمثابة الدواء النافع ، على أساس أن كل داء له دواء ، وأن الداء إذا فضل عنه الدواء فإنه يزيله من أساسه .

وإن غفل عن الانكار طرفة عين ، أخاف عليه أن لا يسلم ، وتعمل الحلاوة في قلبه ، ولكن مع وجدان الحلاوة ، يلزم قلبه الإنكار ، ويحزن ، فإنه لا يضره ، وهذا الذي قال سهل كاف بالغ لكل طالب صادق يريد صحة توبته ، أما العارف القوي الحال، فإنه يتمكن من إزالة الحلاوة عن باطنه ، ويسهل عليه ذلك(١) .

أنها توبة عن الأفعال والأقوال ، وكل ما يرتبط بهما على ناحية إجمالية، بحيث تقع تفصيلاتها في صورها المتوالية ، وتحقق في ذات الوقت نتائج استبقائى .

على أن مما يلفت الانتباه هو أن مقام التوبة في المعنى العام يمكن أن يحتوي من داخله مقامات تبعية وزواجر ، وأحوالا تتحرك معه حتى تغطي كافة جنباته ، وهو معنى شمول المقام الأصلي ، مقامات تبعية هي أحوال متغيرة .

٤ ـ توبة الخواص من المؤمنين

وهي التي يخرج الإنسان بها من طريق الغفلة ، على أساس أن المفروض في العبد الواعي استمرار الذكر لله تعالى على الدوام ، بحيث لا يشغله عن ربه شاغل ، وفي هذه الحال يكون قلبه ذاكرا ، ولسانه شاكرا ، وجسده على كل البلايا صابرا ، لأنه بذكر الله تطمئن ، ولكل ما يأتي من عنده جل علاه راض ، يدل عليه قوله تعالى ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ ﴾(٢) .

فإذا فارق العبد الواعي الذكر ، ولم يحتفظ بالشكر ، وخرج عن نطاق التخلي بالصبر ، صار غافلا ، وهذا مما يستوجب التوبة ، كما يستعدي داعي الندم ، حتى يخرج من الإطار الذي حبس نفسه بداخله وألزمها عدم الخروج عليه ، وهو محبس الغفلة .

---

(١) راجع للعلامة / السهروردي : عوارف المعارف ، صـ ٤٣٩ .
(٢) سورة الرعد : الآيتان ٢٨ , ٢٩ .

يقول الشيخ / شاهاور : إن توبة خواص المؤمنين من الأولياء هي الأنابة إلى الله تعالى بترك الدنيا ، والزهد في ملاذها ، وتهذيب الأخلاق ، وتطهير النفس بمخالفة هواها، والمداومة على جهادها ، لقوله تعالى ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ (١) .

ثم يقول : أن التوبة بتطهير النفس عن دنس الأوصاف الذميمة من نتائج محبة الله الأزلية ، المشار إليها بقوله تعالى يحبهم ، ومحبة الله قديمة ، لأنه جل علاه القديم الذي لا أول لوجوده ، وقد سئلت رابعة العدوية - رضى الله عنها - في هذا الشأن ، حين قال لها رجل : يا رابعة أني قد أكثرت من الذنوب والمعاصي ، فلو تبت هل يتوب الله عليّ؟ فقالت له رابعة - رضى الله عنها - : لا بل لو تاب عليك لتبت ، وذلك لأن العصيان من صفات الإنسان ، لقوله تعالى ﴿ فَأَكَلا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴾ (٢) .

والتوبة من صفة الحق الديان ، قال تعالى أنه كان توابا رحيما ، وقال جل شأنه ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ (٣) .

كما يطلق على توبة الخواص أسم الأنابة ، أما لماذا ؟ فلأن الله تعالى قال فيها ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ ﴾ (٤) ، وقال جل شأنه ﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ مَنْ خَشِيَ

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٢٢ .
(٢) سورة طـه : الآية ١٢١ .
(٣) سورة النصر: الآية ٣ .
(٤) سورة الزمر : الآيات ٥٣ - ٥٥ .

الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ وَجَاء بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ لَهُم مَّا يَشَاؤُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ (١) .

قيل لأبي حفص ﷺ ماذا في التوبة من ناحية العبد ؟ فقال : ليس للعبد في التوبة شيء ، لأن التوبة لله لا منه ، كما أن الله عز وجل نسب العصيان إلى آدم ﷺ ، فقال ﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴾ (٢) .

ويقول الشيخ / شاهاور : أوحى الله تعالى إلى آدم ﷺ يا آدم ورثت ذريتك التعب، والنصب (٣) ، وورثتهم التوبة ، من دعاني منهم بدعوتك ، لبيته كما لبيتك (٤) ، يا آدم أحشر التائبين من القبور مستبشرين ،ضاحكين ، ودعاؤهم مستجاب ، إذ من المعلوم أن النفس إذا تجلت بالأنابة ، دخلت في مقام القلب ، واتصفت بصفته ، لأن الأنابة من صفات القلب (٥) .

أجل ، إن مقام توبة الخواص من المؤمنين يرفع صاحبة مرتبة فوق مرتبة ، كما يعليه درجة بعد درجة ، وكلما ارتقى الدرجات فتحت له أبواب الجنات ، وهو بين هذه الدرجات يرقى إنما يمر بأحوال ، ويترك أحوالا ، لأنه في كل تنقلاته ومقاماته واقف أمام مولاه ، لا يرجو سواه (٦) .

---

(١) سورة ق : الآيات ٣١ - ٣٥ .
(٢) سورة طه : الآيتان ١٢١ , ١٢٢ .
(٣) كان هذا من آدم ﷺ على أساس أنه الذي وقع في المعصية سهوا ، لقوله تعالى فنسي، ولم نجد له عزما .
(٤) قال جل شأنه ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ سورة البقرة : الآية ٣٧ ، وقال جل شأنه ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ سورة الأعراف : الآية ٢٣
(٥) راجع للشيخ / شاهاور : منارات السائرين ومقامات الطائرين ، صـ ٣٤٨ , ٣٤٩ .
(٦) العبد الرباني يظل في موقف العبودية ينتظر أن تفتح له أبواب الرحمات الإلهية ، فإذا استوفاها بابا بعد باب وصل إلى باب أني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري .

وهذا المقام مفيد في تهذيب قوى النفس ، كما يدفع للتعاون الإيجابي ، ويعين على تدعيم دوافع الخير في الإنسان ، بل يجعله مرتاضا لنفسه ، مهتما بترويض غيره ، حتى يتحقق الخير للجميع ، وتسود المحبة بين الناس ، فيجيء الاستخلاص طبقا للمعنى المشروع.

٥ ـ توبة خواص الأولياء

الأولياء هم أهل الله تعالى ، وخاصته ، هم والوا الله بالطاعات فوالاهم الله جل شأنه بالكرامات ، وذكرهم في أعلى الدرجات ، قال تعالى ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾(١) .

قال العلامة / الفخر الرازي : أما الولي فقد دل عليه القرآن الكريم في قوله تعالى ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ ، إشارة إلى كمال حال القوة النظرية ، وكانوا يتقون إشارة حال كمال القوة العملية ، وفيه مقام آخر ، وهو أن يحمل الإيمان على مجموع الاعتقاد والعمل ، ثم نصف الولي بأنه كان متقيا في العلم والعمل معا(٢) .

ثم يقول : أما التقوى في موقف العلم فلأن جلال الله أعلى من أن يحيط به عقل البشر ، فالصديق إذا وصف الله سبحانه بصفة من صفات الجلال ، فهو يقدس الله عن أن يكون كماله وجلاله مقتصرا على ذلك المقدار الذي عرفه ، ووصفه به ، وإذا عبد الله تعالى فهو يقدس الله تعالى عن أن تكون الخدمة اللائقة بكبريائه متعددة بذلك المقدار ، فثبت أنه أبدا يكون في مقام الخوف والتقوي(٣) .

---

(١) سورة يونس : الآيات ٦٢ ـ ٦٥ .

(٢) كمال العلم ، وتمام العمل من مظاهر الحكمة ، حيث ذهب العلماء إلى أن الحكمة هي ـ العلم والعمل ـ بمقتضاه .

(٣) راجع للعلامة / الفخر الرازي : مفاتيح الغيب ، المجلد الثامن ، جـ ١٦ ، صـ ٤١٠ ، ط دار الغد العربي بالقاهرة .

والله عز وجل يقول ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

لا شك أن في هذه الآيات دلالة على أن أولياء الله هم المتقون ، أصحاب النفوس الملهمة ، وهو مقام خواص الأنبياء ، وأصحاب الأوبة إلى الله جل جلاله ، لأنها من آثار الشوق إلى لقائه ، فمن تاب خوفا من عقابه فهو صاحب توبة ، ومن تاب طمعا في ثوابه فهو صاحب أنابة ، ومن تاب شوقا إلى لقائه فهو صاحب أوبه (٢) .

ثم أن النفس إذا تحلت بالأوبة كمرحلة عالية دخلت في مقام الروح ، وهو مقام العبودية الملكية الخالصة ، الوارد ذكرها في قوله تعالى ﴿ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴾ ، ولا يكون عبدا لله إلا من وقف في المقام الأعلى ، ونال الشرف الأسمى (٣) .

وكان أبو يزيد البسطامي - رحمه الله - (٤) ، يقول : إمارات الآداب المشتاق أن يستدل المخالطة بالعزلة ، ومنادمة الأخوان بالخلوة ، واستوحش عن الخلق ، واستأنس

---

(١) سورة الأنفال : الآيات ٣٠ - ٣٤ .

(٢) كل من الثلاثة يختلف موقفه عن الآخر ، وهذا الاختلاف مما يدعم ، أو يعضد القيمة ، كما يجعل الفائدة أعم .

(٣) لا شك أن النفس الأوابة صاحبة توبة ، وكذلك النفس صاحبة الأنابة ، ومن ثم فمقام العبودية يتسع لها جميعا ، وهم معنى قول الصوفية أن المقام حمال .

(٤) هو أبو يزيد البسطامي طيفور ابن عيسى ، من أجلة المشايخ حالا ، وأكثرهم وهبا ، قال الجنيد : أن أبا يزيد منا بمنزلة جبريل من الملائكة ، كان والده من أعيان بسطام، وكان أبو يزيد يقول خلع الله النعم على العبيد ليرجعوا بها إليه ، فإشتغلوا بها عنه ، توفى رحمه الله عام ٢٦١ هـ ، أنظر كشف الظنون ، صـ ٦٣٢ ، والطبقات الكبرى ، جـ ١ ، صـ ٦٥ .

بالحـق ، وجاهـد نفسـه في سبيل الله حـق جهـاده ، سـاعيا في قطـع تعلقاتهـا عـن الكونـين(١) •

وكان أبو يزيد ـ رحمه الله ـ يقول أيضا : كنت ثنتي عشر سنة حـداد نفسي ، وخمس سنين كنت مرآة قلبي ، وسنة أنظر فيما بينها ، فإذا في وسطي زنـار ، فعملت في قطعه اثنتي عشر سنة ، ثم نظرت فإذا في باطني زنار ؛ فعملت في قطعـه خمس سنين ، أنظر كيف أقطع ، فكشف لي ، فنظرت إلى الخلق ، فرأيتهم موتى ، فكبرت عليهم أربـع تكبيرات (٢) ، وهي صلاة الجنازة •

إن توبة خواص الأولياء مقام عال رفيع ، كيف لا وهم قد وصـفهم رسـول الله ﷺ فيما رواه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ بقوله ﷺ هو قوم تحابوا في الله تعالى ، علـى غير أرحام بينهم ، ولا أموال يتعاطونها ، فو الله أن وجوههم لنور ، وأنهم لعلي منـابر مـن نور ، لا يخافون إذا خاف الناس ، ولا يحزنون إذا حزن الناس ، ثم قرأ ألا أن أولياء الله لا خوف عليهم ، ولا هم يحزنون ، الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشـرى في الحيـاة الـدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله ، ذلك هو الفوز العظيم •

٦ ـ توبة الأنبياء والمرسلين

وهي التي تكون قائمة في شعورهم بعجزهم عن بلوغ ما ناله غيرهم ، وعليه يحمـل كـل ما يجيء في هذا الباب ، كما يدخل فيه ما ورد بشأن جميع الأنبياء والمرسلين ، فهم لم يقعـوا في ذنب حتى يتوبوا منه ، كما لم تقع لهم الغفلة حتى ينتبهوا ، وإنما هو شـعور داخلي ، ودافع قوي ، يلوح لكل واحد منهم بأنه ربما كان عجزه عن بلوغ ما نالـه غيره ، ولعل ذلـك

---

(١) هذا مما يؤكد أن طبيعة توبة خواص الأولياء ممتازة عن سابقها ، وأنها تحتوي من المقامات التبعية ما يعبر عنها •

(٢) راجع للشيخ / شاهاور الرازي : منارات السائرين ومقامات الطائرين ، صـ ٣٥٠ •

مما يمكن الوقوف عليه من قوله ﷺ أن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي [(١)] .

قال أحد الناس لذي النون ـ رحمه الله ـ ممن تكون توبة الأنبياء ، وهم لم يعصوا الله تعالى حتى يتوبوا ، أو يستغفروا ، حتى أن الله تعالى قال لحبيبه ومصطفاه سيدنا محمد بن عبد الله ﷺ ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾ [(٢)] ، فقال ذو النون : أن توبة الأنبياء ، إنما تكون من رؤية عجزهم ، عن بلوغ ما ناله غيرهم [(٣)] .

وهي توبة النفس المطمئنة التي تتعلق بالأوبة ، ويستدل عليها بقول الله تعالى ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [(٤)] ، وقوله تعالى ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾ [(٥)] .

يقول الشيخ / شاهاور : أن هذه التوبة تتعلق بالأنبياء ، فإن قوله تعالى ﴿ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ ﴾ فيه صورة جذبة العناية الربوبية إلى نفوس الأنبياء ، والأولياء ، تجذبها أنانيتها إلى هوية ربوبية راضية ، متطلعة تلك النفوس شوقا إلى لقاء ربها مرضية ، من حيث طريقة مقبولة في السير ، كما قال تعالى للسماء وللأرض ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى

---

(١) كان ذلك من دعائه أثناء عودته من الطائف ، وقد رفضوا الاستجابة لدعوة الحق ، راجع : السيرة الحلبية ، وراجع : الروض الآنف ، وراجع : الحقبة المثالية ، والعرب وظهور الإسلام ، وتاريخ الرسل ، وتاريخ الإسلام ومشاهير الأعلام جـ ١ السيرة النبوية .

(٢) سورة الفتح : الآيتان ٢ , ٣ .

(٣) راجع للعلامة / السهروردي : عوارف المعارف ، صـ ٤٣٩ .

(٤) سورة ص : الآيات ٤١ ـ ٤٤ .

(٥) سورة الفجر : الآيات ٢٧ ـ ٣٠ .

السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ (١) .

ويفرق بين نفوس الأنبياء والأولياء التي تجذبها أنانيتها ، وبين نفوس الكافرين، بأنها نفوس تجذب بالقهر وهي كارهة ، غير راضية على طريقة مكروهة من ا لكفر ، والفسق ، والجحود ، وفي في ذات الوقت غير مرضية لربها ، كما قال عليه الصلاة والسلام، من أحب لقاء الله ، أحب الله لقاءة ، ومن كره لقاء الله ، كره الله لقاءه (٢) .

ثم يقول : فمن تاب مجذوبا ، فهو صاحب رجوع بالجذبة ، لأن النفس إذا تحلت بتخلية الجذبة في صورة الرجوع ، أدخلت في مقامات الروحانيات ، بقوله تعالى ﴿ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴾ ، ثم أخرجت عنها بالعبور عليها مجذوبة عن أنانيتها ، ثم أدخلت في جنة هويته المخصوصة ، المضافة إليه بقوله تعالى ﴿ وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾ ، دخولا خالدا ، لا خروج منها أبدا (٣) .

ثم إن توبة الأنبياء ، وخواص الأولياء ، إنما هي تعبير خالص عن توبة متواصلة نحو قيمة عليا ، لها ارتباط متواصل بما يجب أن يكون الأمر عليه ، وهذا في حد ذاته كاف لإفادة ، أن مقام التوبة متسع يشمل الكثيرين ، وأنه في الفكر الصوفي يمثل الصورة الراقية من مقامات الابتداء من ناحية الطريق التصاعدي (٤) .

وإذا كنت عرضت لمقام التوبة ، وذكرت أنواع التوبة التي هي في الأصل مقامات تبعية ، فقد بات اهتمام القوم واضحا ، والتأكيد على أنها قضية صوفية ليس من السهل

---

(١) سورة فصلت : الآية ١١ .

(٢) أخرجه الإمام البخاري في كتاب : التوحيد عن أبي هريرة ﷺ قال : يقول الله عز وجل، وأورده أيضا في الرقاق عن قتاد بسند عن أبي موسى الأشعري ، وأخرجه مسلم في صحيحة في الدعوات عن عائشة - رضي الله عنها - وقد تكرر ذكره في الأحاديث القدسية .

(٣) راجع للعلامة الشيخ / شاهاور : منارات السائرين ومقامات الطائرين ، صـ ٣٥١ .

(٤) الطريق الصوفي من ناحية المقامات يبدأ من مقام التوبة ، ولذا عده الكثيرون مقاما أوليا ، وهو في ذات الوقت المقام الأول .

التخلي عنها[١].

يقول الشيخ / شاهاور : أن التوبة تدور مع السائر إلى الله تعالى ، حيث يدور السائر نفسه من منزل من إلى منزل ، من منازل الرجوع إلى ربه في جميع المنازل والمقامات على حسب كل مقام ، بمعنى مناسب لذلك المقام ، وهذا يمتد إلى أبد الآباد ، لا بد له منها في كل ساعة ولحظة ، يقول ﷺ يا أيها الناس توبوا إلى الله تعالى ، فأني أتوب إليه في كل يوم مائة مرة [٢].

الثاني : مقام الورع

يعتبر الورع من مقامات معرفة القلب ، وما يتعلق به من ناحية التصفية، وقد تبنى الحديث عنه الصوفية ، على أحسن ما يكون ، وهذا يدعونا لتناوله على النحو التالي :

أ - تعريفه

لما كان التعريف هو ما يوضح المعرف ، ويبينه بالحد والرسم ، فقد عرفوا الورع بأنه ترك ما فيه الشبه بغض النظر عن نوعها ، ودليلهم عليه ما روى عن أبي عبد الله النعمان بن بشير - رضي الله عنهما - قال :

سمعت رسول الله ﷺ يقول : أن الحلال بين ، وأن الحرام بين ، وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي ، يرعى حول الحمى ، يوشك أن يرتع فيه ، إلا وأن لكل ملك حمى ، ألا وأن حمى الله محارمه ، ألا وأن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح

---

(١) التخلي عن آية قضية صوفية فيه تنازل عن التصوف كله وقضاياه ، ومن ثم فأني التمس التمسك بقضاياه جميعها ، مع الدفاع عنها .

(٢) راجع صحيح مسلم ، من حديث الأغر المزني ، والبخاري من حديث أبي هريرة ، أني لأستغفر الله ، والبيهقي من شعب الإيمان .

الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب [(١)].

وقد فهم الصوفية أن الحلال الخالص بين واضح ، لا شبهة فيه ، وأن الحرام الخالص هو الآخر لا شبهة فيه ، كما لا اشتباه حوله ، ولكن بين كل من الحلال والحرام أمور تشتبه على كثير من الناس ، أهي من الحلال ، أم من الحرام ، وبخاصة إذا لم يكونوا من الراسخين في العلم ، ومن ثم وجب عليهم سؤال أهل العلم حتى لا يعصوا في الحرام ، إن هم مارسوا المنهي عنه ، والحرام إن هم نهوا عن ما أحله الله [(٢)].

أما الراسخون في العلم فهم الذين لا تشتبه عليهم تلك الأمور أبدا ، من حيث أن الله تعالى منحهم العلم بها ، فصاروا من أهل الذكر الواردة الإشارة إليهم في قوله تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [(٣)]، ومما اشتبه الناس فيه من ناحية الحل والحرمة أنواع :

أحدها : ما يتعلق بالأعيان

كالخيل ، والبغال ، والحمير ، والضب ، وشرب ، ما اختلف في تحريمه من الأنبذة التي يسكر كثيرها ، فإنها مما وقع الاشتباه فيها ، ومن الورع تركها [(٤)] ، حتى لا يحوم المرء حول الحمى ، فربما وقع في محرم ، من حيث يتصور أنه حلال من ناحية الأعيان التي برز فيها .

---

(١) الإمام / البخاري : صحيح البخاري ، جـ ١ ، صـ ٥٢ ، والإمام / مسلم : صحيح مسلم، جـ ٣ ، صـ ١٥٩٩ ، وسنن أبي داود ، جـ ٣ ، صـ ٢٣٢٩ ، وفي بعض الروايات زيادة لبعض الألفاظ ، لكن المعنى متقارب .

(٢) كل من الوجهتين يظهر وقوع المرء في حرمة ، لأن الأول أحل المحرم ، وهو عمل غير مشروع ، والثاني حرم الحلال ، وهو إتجاه منهي عنه ، ومن ثم فكلاهما وقع في المحرم شرعا .

(٣) سورة الأنبياء : الآية ٧ .

(٤) يراد بالأعيان ما هو مقوم ، ويمكن التعامل معه على حالته التي ظهر مقوما فيها .

ثانيها : ما يتعلق بالمكاسب المختلف فيها

وهي المسائل التي تتعلق بعمليات الكسب ، كالعينة ، والتورق ، فإن بعض العلماء قد رأي دليل العمل بها قائما فأباحها ، ورأي غيره الدليل غير ناهض فيها فلم يقل بحلها ، وربما صرح بحرمتها (١) .

والورع هو ترك هذه كلها واجتناب أسبابها ، لقوله ﷺ أني لأنقلب إلى أهلي فأجد الثمرة ساقطة على فراشي ، فأرفعها لأكلها ، ثم أخشى أن تكون من الصدقة فألقيها (٢) ، مع أن وجودها في فراشه دليل على أنها من بيته الشريف .

وعرفه إبراهيم ابن أدهم بأنه كل شبهة ، وترك ما لا يعنيك هو ترك الفضلات ، وهو الحلال ، وما لا تدعو إليه حاجة دينية (٣) ، وحكى عن أبي بكر الصديق ﷺ أنه كان يقول : كنا ندع سبعين بابا من الحلال ، مخافة أن نقع في باب من الحرام ، ومن ثم يمكن القول بأن التعريف الضابط للورع على ناحية المعنى هو أن تتورع عن كل ما سوى الله تعالى .

ب ـ قيمته

الورع له قيمة كبيرة ، والتي دلت عليها الأخبار الصحيحة منها قوله ﷺ : ملاك دينكم الورع ، وعن أبي الدرداء ﷺ أن رسول الله ﷺ توضأ على نهر ، فلما فرغ من وضوئه أفرغ فضلاته في النهر ، وقال يبلغه الله عز وجل قوما ينفعهم (٤) ، وفي هذا أمران ، كل منهما له دلالة ذات مغزى :

---

(١) راجع هذه المسائل في كتب أصول الفقه ، وبخاصة المستصفي للإمام / الغزالي ، وبداية المجتهد لأبن رشد ، والورقات للجويني ، والموافقات والاعتصام للشاطبي

(٢) الإمام / البخاري : صحيح البخاري ، جـ ١ ، صـ ٢٣٢ ، وللإمام / مسلم : صحيح مسلم ، جـ ٢ ، صـ ١٠٦٩ ، وراجع للعلامة / ابن رجب الحنبلي : جامع العلوم والحكم ، صـ ٨٩ .

(٣) راجع للعلامة / القشيري : الرسالة القشيرية ، صـ ٩٠ .

(٤) راجع للعلامة / السهروردي : عوارف المعارف ، صـ ٤٤٠ .

أحدهما : أن الإسلام دين التربية والتوجيه ، مع الاقتصاد ، كما هو دين النظافة والمحبة ، وحسن التدبير ، والاحترام لكل ما أنعم الله تعالى به ، ونعم الله عز وجل تستلزم الشكر مادامت في السراء ، وقد جرت سنة الله في خلقه أنهم إذا حافظوا على نعمه وسع عليهم فيها ، قال تعالى ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَآئِمُونَ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللّهِ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاء أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ ﴾ (١) .

ثانيهما : أن الورع قيمة إيجابية ، ومقام سام ، لأن ترك المرء الحلال مخافة الوقوع في الحرام ، يمثل زاجرا قويا ، من داخل الإنسان نفسه يصرفه للهدى ، ويرده عن الردي ، ومتى استقام الأمر على هذا الإتجاه فقد صح له كل ما يتعلق به (٢) .

وإذا كان مقام الورع له قيمة كبرى دلت عليها الأخبار المنقولة ، فإن رسول الله ﷺ بين أن هذه القيمة كما تكون في ترك بعض المطعومات الحلال مخافة الوقوع في الحرام ، فقد جاءت توجيهات الرسول ﷺ حول هذه القيمة في عبارات جامعة ضابطة ، منها قوله ﷺ من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه (٣) ، وقال أبي هريرة ﷺ كن ورعا تكن أعبد الناس (٤) .

---

(١) سورة الأعراف : الآيات ٩٦ - ١٠٠ ، فالإسلام يحدد واجب الفرد الواعي في مقابله ما أنعم الله تعالى عليه ، حتى لا يضل ويشقى .

(٢) راجع كتابنا : لماذا انتشر الإسلام ، جـ ٢ ، صـ ١٧٧ .

(٣) رواه ابن ماجة في سننه من حديث أبي هريرة ﷺ ، ورواه الترمذي في سننه ، ورواه أحمد في مسنده ، والطبراني في الكبير عن الحسن بن علي ، ورواه في الصغير عن زيد بن ثابت ، وصححه الإمام السيوطي في الجامع الصغير ، حديث رقم ٨٢٤٣ .

(٤) رواه ابن ماجة في سننه من حديث أبي هريرة ﷺ ، وللحديث شواهد كثيرة .

جـ - المتورع

عرف الشيخ / شاهاور المتورع بأنه من يتورع في الطعام والشراب ، واللباس ، والمنطق ، والنظر ، بجانب الخواطر ، والأفعال الظاهرة ، والأحوال الباطنة ، حتى لا يتحرك في الظاهر إلا لله ، ولا يقصد في الباطن إلا لله ، كما يتورع عما سواه (١) .

وقد نبه معروف الكرخي إلى قيمة المتورع من الناحية العملية ، فقال : أحفظ لسانك من المدح ، كما تحفظه من الذم ، على أساس أن المدح قد يفضي إلى النفاق ، والذم قد يؤدي إلى الخصومة (٢) ، وكل منهما منهي عنه شرعا ، كما نبه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلي قيمة المتورع بين الناس ، وكيفية توظيف ما لديه ، فقال : لا ينبغي لمن أخذ بالتقوى ، ووزن بالورع ، أن يذل لصاحب دنيا ، وغايته التأكيد على دور الورع في تثبيت صاحبه على الحق، ودفعه لكل ما عداه (٣) .

د - أنواع الورع

يتنوع الورع لدى الصوفية من ناحية الفكرة ذاتها ، وهي مقام الصوفي ، كما يتنوع من ناحية الفرد الواعي ذاته ، وهو المتورع ، ومن ثم يمكن الإلتفات إلى هذه الأنواع من خلال ما يلي :

النوع الأول : ورع الظاهر

وهو أن يكون العبد في كل حركاته راغبا وجه الله تعالى ، فإذا ابتعد العبد عن المشتبهات كان راجيا ما عند الله جل علاه ، وهو ما يعرف لدى الصوفية بالتخلية ، من حيث أن العبد يخلى ظاهره عن كل شبهة ، كما يخليه عن الوقوع في الرياء والنفاق ، وأن يكون

---

(١) راجع للشيخ / شاهاور : منارات السائرين ومقامات الطائرين ، صـ ٣٦١ .
(٢) الذم قائم من حيث أن الفاعل لما يفضي به للنفاق ، أو الخصومة يقع في مذمة ، والمسلم يحتاج أن يعيش في أمن وأمان .
(٣) راجع للعلامة / السهروردي : عوارف المعارف ، صـ ٤٤٠ .

رائده في ذلك كله رضوان الله جل علاه ، وكان يحي بن معاذ ﷺ يقول فيه أن لا يتحرك إلا لله تعالى [١] .

ولا شك أن ورع الظاهر يصرف الإنسان عن مخالطة كل ما فيه شبهة ، أو الاقتراب منه ، حتى لو بذل في سبيل ذلك الكثير ، يدل عليه ما حكى أن عبد الله بن مروان وقع منه فلس [٢] في بئر قذرة ، فأكترى عليه بثلاثة عشر دينارا حتى أخرجه ، فقيل له لم فعلت ذلك ، فقال لقد فعلت ذلك لأن الفلس كان عليه اسم الله تعالى [٣] .

فالورع الظاهر دفع الرجل الورع ، حتى يدفع مالا كثيرا لا لإنقاذ الفلس، وإنما لإنقاذ اسم الله تعالى من البئر القذرة ، وماذا يقول فينا ونحن نكتب من الأسماء الحسنى على كثير مما نستعمل في الأماكن غير الشريفة ، وكأننا غبنا عن الورع، أو غاب عنا [٤] .

يقول الشيخ / الأنصاري : فيما فعله عبد الله بن مروان تنبيه على كمال تعظيمه لربه ، حتى عظم ما عليه اسمه ، ومن ذلك ما حكي أن بشر بن الحارث إنما رفعه الله على أقرانه لكونه ، وجد رقعة فيها اسم الله تعالى فأشترى طيبا وطيبها ، ورفعها في موضع عال، فرأى في منامه أنه قيل له لأطيبن اسمك في الدنيا والآخرة [٥] .

---

(١) راجع للشيخ / عبد العظيم محمد فوزي ، التصوف الإسلامي والظواهر الاجتماعية ، صـ ١٩٥ ، وراجع للإمام / السهروردي : عوارف المعارف ، صـ ٩ .

(٢) الفلس وحدة مالية صغيرة القيمة ، وكانت مضروبة من غير الذهب والفضة ، وكانت تقدر بسدس الدرهم ، وهي تساوي اليوم جزءا من ألف جزء من الدينار في العراق ، إذ كان التعامل يتم من خلالها ، على أحد وجهيها اسم الله تعالى ، راجع المعجم الوجيز ، باب الفاء ، صـ ٤٨٠ .

(٣) راجع للعلامة القشيري : الرسالة القشيرية ، صـ ٩١ ، فليست العبرة بالفلس ، إنما الورع الذي راعي ما هو مكتوب على الفلس .

(٤) من ذلك أن البعض يكتبون أسماءهم ، وقد تكون فيها من أسم الله شيء على دبل الخطوبة ، ثم يستعمل كل دبلته التي عليها اسم من يحب في إزالة النجاسات والقاذورات ، فبئس ما يفعلون .

(٥) راجع للشيخ / زكريا الأنصاري : هوامش على الرسالة القشيرية ، صـ ٩١ .

مظاهر ورع الظاهر

لا شك أن مظاهر ورع الظاهر التطبيقية متعددة ، وكثيرة ، منها :

١ - أن أخت بشر الحافي - رضى الله عنهما - جاءت إلى أحمد بن حنبل ﷺ وقالت له يا إمام ، أنا نغزل على سطوحنا ، فتمر بنا مشاعل الظاهرية ، ويقع الشعاع علينا ، أفيجوز لنا الغزل في شعاعها (١) ، فقال لها الإمام : من أنت عافاك الله ، فقالت : أخت بشر الحافي ، فبكى أحمد ، وقال : من بيتكم يخرج الورع الصادق ، لا تغزلي في شعاعها (٢).

٢ - إن مالك بن دينار ﷺ مكث بالبصرة أربعين سنة ، فلم يصح له أن يأكل شيئا من تمر البصرة ، ولا من رطبها ، حتى مات ، ولم يذقه ، وكان إذا انقضى وقت الرطب قال يا أهل البصرة هذا بطني ما نقص منه شيء ولا زاد فيكم (٣) .

٣ - إن الحارث المحاسبي ﷺ كان إذا مد يده إلى طعام فيه شبهة ، ضرب على رأس إصبعه عرق فعرف أنه غير حلال ، ومن ثم لا يقربه ، فكان الورع بالنسبة له عاملا هاما ،كأنه يكشف له الحرام حتى يبعده عنه (٤).

النوع الثاني : ورع الباطن

وهو أن لا يدخل قلب العبد سوى الله جل علاه ، كأنه يقول يا رب أنت خالقي ورازقي ، وأنت وكيلي ومصوري ، فلا تشغلني إلا بك ، وكان يحي بن معاذ يقول : ورع

---

(١) وماذا نقول لمن يسرقون الدعم بأنواعه المختلفة عيانا نهارا جهارا ، وهم يأكلون أموال الناس جميعا ، وماذا نقول لبعض الموظفين المرتشين الذين باتت أيديهم شاهدة ، وبطونهم ناعقة من الحرام ومن على شاكلتهم .

(٢) راجع الرسالة القشيرية ، صـ ٩١ ، وراجع لأبي طالب المكي : قوت القلوب ، وراجع للشيخ / نصر محمد سالم : التصوف الإسلامي الأصيل ، صـ ١٥٧ .

(٣) لم يأكل من رطب البصرة خشية أن يكون الماء الذي سقى به مغصوبا ، أو أن النخل ذاته واقع في نطاق مصالح المسلمين .

(٤) هذه السلوكيات مما يمكن النظر إليه على أنه منح ربانية ، حتى لا تسمح بدخول ما هو محرم إلى جوف العبد الورع .

الباطن أن لا يدخل قلبك سواه تعالى ، فمن نظر إلى الدقيق من الورع لم يصل إلى الجليل من العطاء [١] .

ثم أن ورع الباطن لا يحتاج إلى دليل عليه ، بل هو ذاته دليل نفسه ، لأنه يفرض على صاحبه نوعا من الاغتراب عن المشاركات التي فيها شبهة من ناحية المجالس وما يتبعها ، دليله قول الله تعالى ﴿ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَكِن ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ [٢] .

ثم أن الذي يفقد ورع الباطن يفلت منه ورع الظاهر ، حتى يصير بين الناس محل الهزؤ والسخرية ، حكى الإمام على العطاء ﷺ قال مررت بالبصرة في بعض الشوارع ، فإذا مشايخ قعود ، وصبيان يلعبون ، فقلت للصبيان أما تستحيون من هؤلاء المشايخ ، فقال صبي منهم هؤلاء المشايخ قل ورعهم فقلت هيبتهم [٣] ، كما أن الورع الباطن يمثل بالنسبة لصاحبه نوعا من الحفظ، حتى إذا أوشك على الوقوع أنقذه الله بحفظه ، يدل عليه ما يلي :

١ ـ دعي بشر بن الحافي ﷺ إلى دعوة ، فوضع بين يديه طعام ، فحاول أن يمد يده إليه فلم تمتد ، وقد أجهد نفسه ، وحاول مرات ثلاث ، وفي كل مرة لا تمتد ، فقال رجل يعرف ذلك منه ، أن يده لا تمتد إلى طعام فيه شبهة ، ما كان أغنى صاحب الدعوى ، أن يدعو هذا الشيخ [٤] .

---

(١) راجع للعلامة / القشيري : الرسالة القشيرية ، صـ ٩١ .
(٢) سورة الإنعام : الآيتان ٦٩ , ٧٠ .
(٣) راجع للشيخ / على بن محمد البركوي : التصوف الإسلامي ، جـ ١ ، صـ ٢٧١ ، وللعلامة القشيري : الرسالة القشيرية ، صـ ٩١ .
(٤) لقد أنجاه الله تعالى ، وفضح به صاحب البيت الذي كان يبتغي خداع الناس ، بأن بشر الحافي أكل عنده ، أو شرب ، فما باله لو رأي الناس في الولائم ، وعلى الموائد لا يتورعون أن يأكلوا الحرام كله ، المهم أن تمتلئ بطونهم بما لذ لأفواههم دون أن يسألوا عن مصدره .

٢ ـ حكي أن أبا بكر الصديق ﷺ ، وهو خليفة للمسلمين ، لم يكن لديه مال يأكل منه ، وإنما كان يعمل في الأسواق بمال الغير ، ثم حدث أن افتقد الطعام في بيته ثلاثة أيام ، وهو أمير المؤمنين .

وكان له غلام يخدمه ، عز عليه أن يرى سيده والجوع يهلكه ، فاشترى طعاما من مال كان له في الجاهلية (١) ، فلما حضر الصديق ﷺ ، قدم له الغلام الطعام ، فقال الصديق ﷺ باسم الله الرحمن الرحيم ، ثم مد يده ، وأخذ لقمة ، ووضعها بين شفتيه غير متعجل لإدخالها .

فقال له الغلام يا أمير المؤمنين ما قدمت لك طعاما إلا سألتني عنه ، فلماذا لم تسألني هذه المرة ؟ (٢) ، فتوقف الصديق ﷺ عن الطعام ، وأخرج اللقمة من فمه ، ثم قال ﷺ له قل يا غلام من أين أتيت به ؟ .

فقال الغلام : يا أمير المؤمنين لك ثلاثة أيام لم تذق أي طعام ، فعز عليّ أن أراك في هذه الحال ، وكنت ادخرت مالا مما كنت أتكهن به في الجاهلية (٣) ، فأخرجته ، واشتريت به الطعام الذي بين يديك ، فقال الصديق ﷺ أحمله من بيتي يا غلام ، وأغربه عني ، ثم وضع يده في فمه ويظل يتقيأ حتى كاد أن يهلك .

فقال ﷺ له الغلام : كفى يا أمير المؤمنين ، حسبك أنك لم تأكل شيئا (٤) ، فقال أمير المؤمنين : يا غلام والله لو لم تخرج ر يقها من فمي إلا بخروج روحي لفعلت .

---

(١) كان هذا الغلام ممن دخلوا دين الإسلام محبة فيه ، على أساس أنه دين يفتح للعبد الواعي الآمال كلها ، ويطبقها له في أشكال عملية .
(٢) هذا الناصح الأمين مما جاء به الحديث الشريف في قوله ﷺ إذا أراد الله بالأمير خيرا جعل له وزير صدق أن نسي ذكره ، وإن ذكر أعانة ، وإذا أراد الله بالأمير شرا جعل له وزير سوء إن نسي لم يذكره ، وإن ذكر لم يعينه .
(٣) حيث كان الغلام يقوم بأعمال الكهانة ، والتنجيم في الجاهلية ، ويتكسب من ورائها أموالا كثيرة ، وهو مما شجع الكثيرين على ممارسة هذه اللعبة المحرمة في قوله ﷺ من أتى عرافا ،أو كاهنا ، أو منجما فسأله عن شيء فصدقه فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ
(٤) كان هذا من باب الإشفاق عليه ، لأنه فعلا لم يكن قد ابتلع طعاما قط ، وإنما كانت اللقمة بين شفتيه .

أما علمت أن رسول الله ﷺ قال : كل لحم نبت من حرام فالنار أولى به ، وقال ﷺ ما من مسلم يلقم لقمة من حرام ما يتقبل الله تعالى منه صلاة أربعين يوما (١) .

إنه الورع الباطن الذي تصرف فيه على نحو لا يعطي آية فرصة للاحتمالات ، أو الظنون ، كما يصرف عن صاحبه الوقوع في المشتبهات من آية ناحية ، أنه الدرع الواقي له، والحصن المتين ، والركن الشديد الذي يأوي إليه ، لقد عرف الله تعالى ، وأحبه لذاته ، فرفع الله تعالى عنه ما يمكن أن يقع فيه سوء ، وذلك من أنعم الله جل علاه (٢).

نقل أن بشر ابن الحارث كان يقول : أشد الأعمال ثلاثة : الجور في القلة ، والورع في الخلوة ، وكلمة الحق عند من يخاف منه ويرجى ، وسئل سهل بن عبد الله عن الحلال الصافي ، فقال : هو الذي لا يعصى الله تعالى فيه (٣) ، ومن ثم كان الورع الباطن حصنا يلوذ إليه صاحبه، ويأوي إليه طالبه .

٣ - نقل أهل العلم أن الله تعالى أوحى لموسى ﷺ أنه لم يقترب إليّ المتقربون بمثل الورع والزهد ، ومن ذلك ما حكي أن كهمس قال : أذنبت ذنبا أبكي عليه أربعين سنة، وذلك أنه زارني أخ لي في الله ، فاشتريت بدانق سمكة مشوية ، فلما فرغ من أكلها ، أخذت قطعة طين من جدار جاري حتى أغسل يده ، ولم أستحله .

ومن ثم فقد كان بكاؤه على أخذه له مع علمه بتحريمه ، وترك الاستحلال من صاحبه قبل أخذه (٤) ، وفي ذلك أدلة على غاية الاحتراز من الذنوب المستحقرة عند الناس .

---

(١) راجع ما كتبناه عن الزهد في حياة الصحابة والتابعين ، ضمن الموسوعة الغزالية في التصوف والصوفية ، وراجع للمحب الطبري: الرياض النضرة في مناقب العشرة ، صـ ٥٩ - ٦١ .

(٢) حفظ الله لأهل الورع أمر قائم ، وله مظاهر عديدة ، وفي نفس الوقت يعلن عن طبيعة هؤلاء الأفراد الذين لهم امتياز خاص بين الناس ، فضلا من الله ونعمة .

(٣) الورع الباطن يجتمع فيه الزاجر والدافع ، كما يتحرك بداخله الحال حتى يقوم بذلك كله على خير الوجوه .

(٤) راجع للإمام / القشيري : الرسالة القشيرية ، صـ ٩٢ .

النوع الثالث : ورع الخلوة

وهو الذي يكون للفرد الواعي بعيدا عن الناس ، حيث لا يطلع عليه أحد إلا الله ، وسمي بالخلوة لاختلاء المرء لنفسه ، بحيث تكون في مواجهة معه ، فكأنهما شخصان ، أو صورتان ، نفسه الصورة الأولى ، وشخصه الصورة الثانية (١) ، ومن ثم كان ورع الخلوة له قيمة كبيرة في البناء الصوفي ، والتربية الروحية ، ويستدل عليه بقوله ﷺ ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه .

مظاهر ورع الخلوة

ولهذا النوع مظاهر عديدة ، قد ألمح إليها الصوفية في كثير من مؤلفاتهم، وأغلبها منقول عن الصحابة والتابعين ، وأهل العلم الموثوق بهم ، منها :

١ - أن الإمام ، أبا حنيفة ﷺ كان قراؤه ينفثون عليه حب شيخة له ، وعلم الشيخ ، فأراد أن يخبرهم عن أسباب حبه لهم من ناحية عملية ، فانتدب ثلاثتهم ، وضم إليهم أبا حنيفة ، ثم أعطى كل واحد دجاجة منهم ، وقال له اذبحها في مكان لا يراك به أحد مهما كان شأنه (٢) .

فلما انصرفوا أوى كل إلى مكان ظن أنه لن يراه فيه أحد ، ثم ذبح دجاجته ، وخرج بفعلته ، وفي اليوم التالي حضروا ومعهم ذبائحهم ، وحضر أبو حنيفة ومعه دجاجته ، وسألهم الشيخ عن كيف تصرف كلٍ في دجاجته .

قال أحدهم : انتظرت حتى دخل الظلام ، وتأكدت أنه لم يرني أحد فقمت بذبحها

---

(١) الحديث وارد في صيغ متعددة ، وروايات بعضها أطول من بعض ، ومنها عينان لا تمسهما النار : عين بكت من خشية الله ، وعين باتت تحرس في سبيل الله .

(٢) هذا الدرس العملي مما يؤكد أن النزعة الصوفية ، ذات إتجاه تجريبي عملي ، يصلح أن يكون منهجا معياريا ن ولم ينحصر في حالات فردية على ما يزعمه خصوم التصوف من المستشرقين وغيرهم .

كما أمرتني سيدي[١] .

وقال الثاني : دخلت إلى جوف البيت ، واخترت غرفة مظلمة لا يراني فيها أحد ، ثم ذبحت دجاجتي ، وبالتالي نفذت التعاليم التي أمرتني بها [٢] .

وقال الثالث : وأنا دخلت إلى جوف بئر عميق في الليل البهيم ، ولما تأكدت أن أحدا لن يراني ذبحت دجاجتي ، ونفذت ما أمرتني به [٣] .

قال الشيخ لأبي حنيفة : وأنت لـِمَ لم تفعل ؟ فقال : شيخي أوصيتني أن يكون الذبح في مكان لا يراني فيه أحد ، فلما جن الليل رأيت الله يراني ، ولما دخلت الغرفة رأيت الله يراني ، ولما نزلت إلى البئر العميق أدركت أن الله تعالى يراني ، ولا يمكنني أن أخالف لك أمرا ، ومن ثم فلم أذبح دجاجتي ، فقال الشيخ لتلاميذه : عرفتم لماذا أحبه أكثر منكم ، أنه قد ملكه الورع فصار يتصرف فيه ، كما يتصرف به .

٢ - حكى أن رابعة العدوية - رضي الله عنها - خاطت شقا في ثوبها على ضوء شعلة سلطان ، ففقدت قلبها زمانا ، حتى تذكرت ما فعلت ، فشقت ثوبها كما كان ، فوجدت قلبها الذي كانت افتقدته [٤] .

٣ - حكى أن سيفان النوري - رحمه الله - رؤى في المنام ، وله جناحان يطير بهما في الجنة ، من شجرة إلى شجرة ، فقيل له بم نلت هذا ، فقال نلته بالورع [١] ، ومعه الفضل الإلهي ، حيث يكون العطاء الرباني .

---

(١) كان الشاب يتصور أن الظلام قد غطى كل شيء ، وأنه لم يعد أحد يتمكن من رؤيته ، وفاته أن الله تعالى يراه .

(٢) تناسى الشاب قول الله تعالى وهو معكم أينما كنتم ، ومن ثم تصور أن الغرفة المظلمة مانعة من رؤيته .

(٣) يتصور الشاب الثالث أن البئر العميق خفي في الأرض ، وبالتالي لن يتمكن أحد من رؤيته .

(٤) وهذا مما يدل على دور ورع الخلوة ، من حيث أن الواحد قد ينسى ما حدث له ، فيأتي هذا الورع ليعيده إليه ما كان قد نساه .

٤ ـ حكى أن حسان بن أبي سنان ، كان لا ينام مصجعا ، ولا يأكل سمينا ، ولا يشرب ماء باردا ، ستين سنة ، من باب الزهد والورع ، فلما مات رؤى في المنام ، فقيل له ما فعل الله بك ؟ ، فقال : خيرا ، أني محبوس عن الجنة بإبرة استعرتها فلم أردها [٢] .

إن العبد الواعي إذا خلا لنفسه ، وجدها تحدثه بفطرتها أن الله تعالى معك حيثما كنت ، وأنه جل شأنه لا يغيب عن شيء ـ صغر أو كبر ، في السماء أو الأرض ، أو في العوالم كلها ـ لأنه جل علاه الخالق لها ، وهل تغيب الصنعة عن الصانع ، وهو الحافظ لوجودها ، كما أنه الخالق لها ، وحديث النفس الواعية هذا يحرك الوجدان ، وينقل الإنسان من حال إلى حال ، ومن مقام إلى مقام ، والورع مقام وحال معا [٣] .

كما أن ورع الخلوة يمثل الدرع الواقي للإنسان من وساوس نفسه ، وهو أحسن أحواله ، ولذا فإنه يقبل على الطاعات ابتغاء مرضاة الله تعالى ، وهو في ذات الوقت على يقين من أن ما قدره الله تعالى سيكون ، وأن الأمور تجري بالمقادير ، وكل شيء عنده بمقدار ، ومن ثم يتمسك بقاعدة القناعة ، ويرتل على أسماع فؤاده قول الله تعالى ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴾ [٤] .

من ثم كان الورع مقاما من المقامات التي رتب عليها الصوفية نتائج عديدة ، بعضها جاء على ناحية عملية ، وبعضها برزت ملامحه من خلال القناعة الداخلية ، والرقابة الذاتية ، وبعض أخير جاءت مظاهره مما عبر عنها مقام الإحسان في قوله ﷺ أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك .

---

(١) الجنة بفضل الله تعالى وما فيها من نعيم ، لأنها دار الثواب التي أعدها الله للطائعين .

(٢) راجع للشيخ / محمد بن زكريا البهنسي : التصوف والصوفية ، صـ ١٣٩ , ١٤٠ ، وراجع للعلامة / القشيري : الرسالة القشيرية ، صـ ٩٣ .

(٣) راجع كتابنا : التفكير الإنساني أصوله ومستوياته ، صـ ٧٣ .

(٤) سورة القمر : الآيتان ٤٩ , ٥٠ .

لقد كان الورع بالمعنى العام ميزانا ثابتا ، ومعيارا قائما في كثير من صحابة رسول الله ، وكان أبو بكر الصديق ﷺ من أكثر الصحابة في هذا الجانب ، يدل عليه ما جاء في الأثر لو كنت متخذا خليلا غير ربي لاتخذت أبا بكر خليلا ، وأن صاحبكم خليل الله ٠

وقوله ﷺ ما فضلكم أبو بكر بكثير صلاة، ولا كثير صيام ، ولا زكاة ، وإنما فضلكم بشيء وقر في قلبه ، وهي عبارة بليغة ، وجميلة ،حمالة أوجه ، ويمكن فهمها على كافة الجوانب التي تجعل كفة أبي بكر ﷺ يقر راجحة ، أما يكفيه ما جاء في الخبر ، لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان الأمة لرجح ٠

وبهذا يتبين أن مقام الورع مما حافظ عليه الصوفية الأعلام ، وأقاموا حوله الكثير من الجهود العلمية والعملية ، وأنهم في كل الأحوال مارسوا ذلك في النواحي الامتيازية التي تبرز التصوف الإسلامي في صورته الصحيحة من خلال أصوله السليمة ٠

هـ - فوائده

كثرت عبارات القوم في بيان فوائدة الورع بالمعنى العام ، من الناحية الفردية والجماعية ، كما أكدت على إمكانية توظيفه في الحياة العامة بما يحقق المصالح المشتركة لبني الإنسان ، وفي ذات الوقت يقرر مقاصد الشريعة من حيث أنها ما جاءت إلا لمصالح العباد ، والقاعدة الأصولية أنه حيث كانت المصلحة فثم شرع الله (١) ٠

ومن الشواهد على تلك الفوائد ما نقل عن يحي بن معاذ ﷺ أنه قال : من لم ينظر في دقيق من الورع ، لم يصل إلى الجليل من العطاء (٢) ، وغايته أن يعلم الإنسان كيف ينظر في الحلال ، ثم يتمسك به ، وينظر للحرام فلا يقربه ، فإذا اشتبه عليه شيء كان الورع يفرض عليه الخروج من المسألة بتغليب قاعدة التنزيه ، وهي الابتعاد عن ذلك المشتبه فيه ، حيث لا يدري ماذا هو فاعل ٠

---

(١) راجع للعلامة / الشاطبي : الموافقات ، وللعلامة / ابن حزم : الأحكام في أصول الأحكام ، وللعلامة / الأمدي : الأحكام في الأحكام ٠

(٢) راجع للشيخ / شاهاور : منارات السائرين ومقامات الطائرين ، صـ ٣٦١ ٠

وكان الخواص ﷺ يقول : الورع أن لا يتكلم العبد إلا بالحق ، غضب أو رضي ، وأن يكون اهتمامه بما يرضي الله تعالى على أي نحو كان ، دون اعتقاد لشيء آخر (١) .

ولعل هذا المعنى المرتبط بالورع قد جاءت الإشارة إليه في قوله ﷺ أمرني ربي بتسع آمركم بها، أمرني بالإخلاص في السر والعلانية ، والقول في الرضي ، والغضب ، والقصد في الغنى والفقر ، وأن أعفو عمن ظلمني ، وأعطي من حرمني ، وأصل من قطعني، وأن يكون صمتي فكرا ، ونطقي ذكرا ، ونظري عبرة (٢) .

إن الورع يفرض على العبد الواعي الأداء العام مع كل الاهتمام بكل ما فيه مصالح مشتركة ، وبما يحقق مقصود صاحب الشريعة في أتم الوجوه وأوفاها ، ومن ثم فهو حين يمارس الورع إنما يحافظ على خصوصيات الناس بما يوفر لهم الأمن المجتمعي ، والأمان المعرفي ، يدل عليه قول الإمام / الحسن البصري ﷺ : مثقال ذرة من الورع ، خير من ألف مثقال من الصوم والصلاة (٣) .

صحيح أن الإمام حسن البصري كان يقرر واقعا ، ويذكر حالة لها امتياز خاص ، لكنه في ذات الوقت يكشف عن فائدة الورع ، ومرد الحالة ذات الامتياز ما نقله العلامة / القشيري من أن الحسن البصري ﷺ دخل مكة يوما فوجد غلاما من أولاد الإمام على بن أبي طالب - كرم الله وجهه - قد أسند ظهره للكعبة المشرفة ، وراح يعظ الناس (٤) .

فوقف الحسن البصري عليه ، وقال له : يا غلام ما ملاك الدين ، فقال الغلام الورع ، فقال ما آفة الدين ، فقال الطمع ، من هنا تعجب الحسن البصري ، وقال : مثقال ذرة من الورع السالم ، خير من ألف مثقال من الصوم والصلاة ، بلا ورع سالم (٥) .

---

(١) راجع للعلامة / السهروردي : عوارف المعارف ، صـ ٤٤١ .
(٢) هذا مما يمكن وضعه في ثلاث مجموعات، كل منها يتم توظيفها على جوانب كثيرة .
(٣) في هذا إعلان عن فائدة الورع ، بجانب الرغبة في التمسك ، به حتى يكون سمة مشتركة بين العقلاء من الناس جميعا .
(٤) لم يكن الحسن البصري ﷺ يعلم أن هذا الواعظ الصغير من أولاد الإمام / على بن أبي طالب - كرم الله وجهه - ومن ثم بادره بالسؤال .
(٥) راجع للإمام / القشيري : الرسالة القشيرية ، صـ ٥٩ ، ط. الثانية .

وحكي ان أهل العلم أن عبد الله بن الجلاء ﷺ كان يقول : أعرف من أقام بمكة ثلاثين سنة ، لم يشرب من ماء زمزم إلا ما استقاه بركوته ورشائه ، ولم يتناول من طعام جلب من مصر[١] ، وإنما كان طعامه مما يأكل أهل البوادي ، حتى لا يقع في لين ، ولا ينال منه الإسراف ، والبذخ ، إذ كانوا يرون طعام البوادي من الجاف الحلال الذي قد لا تكون فيه شبهة[٢] .

و ـ أثره في التربية الصوفية

يهتم الصوفية كثيرا بالورع ، من حيث هو ، لأنه خروج بالمرء الواعي عن آية شبهة ، يمكن أن يقع فيها غضب الله تعالى ، وهم في ذات الوقت حريصون على تقوية صلة العبد بالله رب العالمين ، ومن ثم يرون الورع هو الرابط القوي لهذه العلاقة ، كأن الفرد يقول لربه خلقتني ورزقتني ، وأمرتني ، فها أنذا كما أمرت ، ولا أرى نفسي إلا حيث أمرت[٣] ، وذلك مما يجعل الإنسان الواعي في مرحلة من المراقبة التامة لنفسه على الدوام أمام الله تعالى.

١ ـ تهذيب النفس وكمالها

من الواضح أن الصوفية الأعلام يفرضون على أنفسهم العدول التام عن كل ما أفتى به العلماء الموثوق بهم في تحريمه ، إذ العامي ليس مطالبا بالفتوى ، وفي هذا تهذيب لنفس العبد الواعي ، وتدريب لها على قبول نصح الناصحين ، وإرشاد المرشدين[٤] .

---

(١) راجع للعلامة / السهروردي : عوارف المعارف ، صـ ٤٤١ ، وللإمام / القشيري : الرسالة القشيرية ، صـ ٩١ .

(٢) وماذا لو اطلعوا على ما نعاني منه الآن ، من سرقات المؤلفات العلمية ، ووضع اللصوص أسمائهم عليها وبيعها ، وضم ناتج البيع لأموالهم ، وماذا لو رأوا من يأتمنهم الناس على أموالهم فيأكلونها ، وهم في كل ذلك يتبارون وللمال الحرام ، يجمعون وعلى ربهم غدا يعرضون ، فماذا يكون موقفهم ، وماذا يقولون ؟ .

(٣) راجع للشيخ / على حسن أبو بكر الصيرفي : الله في الإنسان ، صـ ٧٧ ـ ٩٥ .

(٤) راجع كتابنا : أوراق مطوية في التصوف والصوفية ، الجزء الأول ، المقدمات ، صـ ٢٧٣ .

فالإنسان الذي يطبق فتوى العلماء العاملين دون حاجة إلى تردد ، أو تشكيك ، وبخاصة إذا لم يكن هو من أهل البحث العلمي ، فإنه يعبر عن سلوك إيجابي يحسب له ، والصوفية يهتمون بهذا الجانب كثيرا .

كما أنهم يفرضون على أنفسهم التورع عن كل شبهة لا يجب اجتنابها ، وفي هذا تحصيل لكمال النفس الذي نبهت إليه السنة المطهرة ، من ذلك قوله ﷺ دع ما يريبك إلى ما لا يريبك ، وإذا أكملت النفس باجتنابها الشبهات صارت مستعدة لتلقي العديد من الفيوضات ، حتى تكون قابلة لأنوار العلم اللدني ، وفي هذا اتجاه معرفي صحيح (١) .

ومتى هذبت النفس بالعمل الصالح ، والتربية السليمة ، وكملت بالعلم ، فإن ذات الفرد يكون عنصرا خيرا ، وفاعلا ايجابيا ، ويدخل في نطاق مفتاح الخير ، وفي الخبر الصحيح من الناس من جعلهم الله مفاتيح للخير مغاليق للشر ، ومن الناس من جعلهم الله مغاليق للخير مفاتيح للشر ، فطوبى لمن أجرى الله الخير على يديه ، وويل لم أجرى الله الشر على يديه (٢) .

٢ - <u>القدرة على ضبط الذات</u>

حيث يذهب الصوفية إلى ضرورة الابتعاد عن بعض الحلال لا لشبهة فيه ، وإنما مخافة الوقوع في أمر تجيء معه الشبهة ، كالأكل إلى حد الثلث ، فهم لا يقتربون من الثلث في طعامهم ، مخافة أن يقعوا فيما بعده مع رغبة النفس في الطعام ، وهم يفعلون ذلك تطبيقا لقوله ﷺ بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه ، فإن كان لا بد فاعلا فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لهوائه (٣) .

---

(١) راجع كتابنا : أنسام حية في الأفكار الصوفية ، صـ ٥١ ، لأن كمال النفس بتحصيل العلم فيه دعوة لأن يكون المرء مشروع عالم ، حتى إذا استوفي درجاته بات عالما .
(٢) راجع للشيخ / نور الدين محمد الأنصاري : من هدى السنة ، صـ ١٧٧ , ١٧٨ .
(٣) راجع للشيخ / محمد حسن علام ، من آداب الإسلام في الطعام ، صـ ١٤٥ .

وإذا كان الطعام حلالا ، والنفس مقبلة عليه ، والحاجة شبه داعية إليه ، فإذا الصوفية يوقفون الإنسان عند دائرة إثبات ذاته ، وضبط رغباته ، بحيث يكون هو الفاعل الحقيقي ، والعامل الأساسي ، كما يدربونه عن طريق الورع على ضبط قواه ، بما يتناسب مع الأوامر الشرعية ، حتى وإن كان فوق الرغبات البشرية (١) .

٣ - القدوة المؤثرة

يحرص الصوفية على أن يكون أفرادهم ، وجماعاتهم بين الناس قدوة لغيرهم في كل ما جاءت به النصوص الشرعية ، وما تعلقت به الأحكام العملية ، لأن القدوة الفعالة طريق صحيح لرسم الحياة العامة ، وتحصيل المنافع المشتركة ، وهذا مما يستلزم قيام الفرد الواعي بوضع نفسه داخل إطار المقام الذي أمره الله تعالى به ، حتى يبلغ درجة ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ (٢) .

وهذا يتطلب منه الورع عن كل ما ليس لله تعالى ، ويسمى ورع الصديقين ، روي أن يحى النيسابوري - رحمه الله - شرب دواء ،فقالت له امرأته لو مشيت في الدار قليلا حتى يعمل الدواء ، فقال لها هذه مشية لا أعرفها ، وأنا أحاسب نفسي منذ ثلاثين سنة (٣) .

وبهذا يكون حديثنا عن قضية الترتيب بين المقامات والأحوال قد أعطى للقارئ فكرة مبسطة عن تلك الموضوعات ، بما يساعده على مزيد من البحث والدرس ، وما ذلك على الله بعزيز .

---

(١) هذا التدريب العملي يمارس داخل زوايا ومناطق الأسيلة وغيرها ، مما يعتبر مدارس صوفية ذات تأثير ارتباطي فعال .

(٢) سورة القمر : الآيتان ٥٤ , ٥٥ .

(٣) راجع للعلامة / ابن قدامة المقدسي : مختصر منهاج القاصدين ، صـ ٨٨ ، والرجل لم تحضره نية في هذه المشية تتعلق بالدين ، فلم يقدم عليها ، وهو في ذات الوقت يمثل القدوة الذي يتمسك بدقائق الورع ، لأن الشفاء من عند الله تعالى لا من الدواء الذي شربه .

أهم المصادر والمراجع

حسب ورودها بهوامش الصفحات

١ - القرآن الكريم

٢ - أوراق مطوية في التصوف والصوفية   الدكتور / محمد حسيني موسى الغزالي .

٣ - التصوف الإسلامي   الشيخ / عبد العظيم محمد عبد الوهاب .

٤ - المقدمات في التصوف الإسلامي   الدكتور / محمد حسيني موسى الغزالي .

٥ - التفكير الإنساني أصوله ومستوياته   الدكتور / محمد حسيني موسى الغزالي .

٦ - التصوف الإسلامي رجال وأفكار   الشيخ / سعد الدين موسى .

٧ - التصوف الإسلامي وحركة الحياة   الدكتور / عبد العزيز محمد الخياط .

٨ - أوراق منسية في النصوص الفلسفية   الدكتور / محمد حسيني موسى الغزالي .

٩ - أنسام حيية في الأفكار الصوفية   الدكتور / محمد حسيني موسى الغزالي .

١٠ - التصوف الإسلامي والأصول العلمية   الشيخ / محمود القشاش .

١١ - التعريفات   السيد / الشريف الجرجاني .

١٢ - حاشية على السمر قندية في علوم البلاغة   الشيخ / إبراهيم الباجوري .

١٣ - الحثيث في المنطق الحديث   الدكتور / محمد حسيني موسى الغزالي .

١٤ - التصوف الإسلامي حكمة ربانية   الشيخ / زكريا أبو الأنوار .

١٥ - النزعة الصوفية والأحكام العقلية   الشيخ / عبد العزيز الطوبجي .

١٦ - التصوف ومشكلاته المعرفية   الدكتور / حسن صابر .

١٧ - الصوفية والمشكلات العلمية   الأستاذ / عبد العزيز الدكر .

١٨ - التصوف ومشكلات الصوفية   الدكتور / على عزت فرج .

١٩ - التصوف والصوفية   الشيخ / عبد العظيم حسن الديب .

٢٠ -	رسالة في اصطلاحات الصوفية	الدكتور / على عزت فرج •
٢١ -	الرسالة القشيرية	الشيخ / عبد الكريم القشيري •
٢٢ -	أدب الدنيا والدين	العلامة / الماوردي •
٢٣ -	الأخلاق الإسلامية	العلامة / محمد البرمكي •
٢٤ -	تأملات غزالية في الأخلاق النظرية	الدكتور / محمد حسيني موسى الغزالي •
٢٥ -	التصوف في كتابات خصومه	الدكتور / محمد حسن صابر •
٢٦ -	التصوف مسائل ومشكلات	الأستاذ / عادل أحمد الدكش •
٢٧ -	التصوف والمعرفة	الشيخ / عبد المعز بن على الأسيوطي •
٢٨ -	التصوف الإسلامي حركة حياة	الشيخ / حسن محمد الطويل •
٢٩ -	التصوف أصول شرعية وقواعد جليلة	العلامة / نصر الدين الشنيطي •

الخاتمة

من المعلوم لدى الدارسين أن كل علم من العلوم ، أو فن من الفنون له مقدمات فيها مبادئه ، وأواسط هي موضوعاته ، وخواتيم تحمل نتائجه ، أو تعبر عنها ، ولما كانت المقدمة هي التلخيص لأبواب الكتاب ، ومباحثه ، فإن الخاتمة تكون رصدا لأهم النتائج التي أمكن الوقوف عليها ، وطبقا لهذه الثوابت من الناحية المنهجية ، فإني أقدم ما يلي :

أولا : أبرز النتائج

١ ـ أن الحياة الروحية في الإسلام قديمة قدم الإسلام نفسه ، لأن الإسلام دين شمل الدنيا والآخرة ، وحقق السعادة للإنسانية ، كما وفر لكافة الأفراد طرائق تحصيل السعادة المشروعة •

٢ ـ إن التصوف الإسلامي يقوم على مصادر أساسية هي :ا لقرآن الكريم ، والسنة النبوية الصحيحة ، وإجماع علماء الأمة ، وبالتالي فمصادره إسلامية ، ومن يجادل في ذلك إنما يخالف قواعد المنهج العلمي •

٣ ـ أن الحركة الصوفية العاقلة تقوم على تصفية القلب ، والعقل ، والروح ، والوجدان ، مع التسليم التام لله رب العالمين ، وفي هذا تزكية للفرد ، وإعلاء لقدره أمام ذاته ، وأمام الله تعالى •

٤ ـ إن فكرة التلقي الروحي قضية أساسية ، ولها أصول شرعية ، كما تقدم صورة وثائقية لما يمكن أن تكون عليه العلاقة الروحية والمعرفية في المحيط الإنساني ن بحيث تحقق الفوائد كلها في مظاهر عملية •

٥ ـ أن وجود الشيخ والمريد داخل إطار الحركة الصوفية يمثل حركة فاعلة في الأنماط الحياتية ، وذلك مما يقدم صور من التعاون الاجتماعي ، والتوافق الاقتصادي ، بجانب التربية السلوكية •

٦ - أن الخرقة في التصوف الإسلامي صورة من صور العلاج الوقائي ، من حيث أنها تدرب الفرد الواعي على كيفية السيطرة على نوازعه الذاتية ، وضبط توجهاتها ، بحيث تكون قائمة من الناحية الشرعية •

٧ - أن الولاية الربانية أمر مقرر جاءت به النصوص النقلية ، ومن ثم يكون القول بها نوعا من الإعلان عن التصديق بما جاء من عندا لله تعالى ، أما إنكارها فيترتب عليه إنكار ما هو وارد في الكتاب والسنة •

٨ - أن المقامات تقوم على كسب العبد ، وتوظيفه فيما يصلح له من ناحية إرضاء الله تعالى ، على أساس أن الإنسان الواعي لا بد له أن يقدم نفسه لله من خلال الطاعة الكاملة ، والتسليم التام •

٩ - أن الأصول التي ترد على الفرد الواعي إنما هي منح ربانية ، ومن ثم فلا بد من الاستعداد لها ، بجانب الفرح بها ، وهي لا ترد إلى العبد الصالح إلا إذا قام عليها ، وسعى لها ، ذلك الفضل من الله جل علاه ، وهذا مما يؤكد العبارة الصوفية المشهورة المقامات مكاسب -والأحوال مواهب •

١٠ - أن الترتيب بين المقامات والأحوال لا بد أن يرجع لقاعدة الفائدة المترتبة ، لأن الشريعة ما جاءت إلا لمصالح العباد ، وحيثما كانت المصلحة فثم شرع الله ، وحيثما وقعت المفسدة ، فذلك مما لا يرضي الله تعالى •

<u>ثانيا : أهم التوصيات</u>

١ - التأكيد على أن الحياة الروحية في الإسلام إنما هي من طبيعته التي تجمع بين متعة العقل والجسم ، الروح والبدن ، وبالتالي فهي حركة داخلية لا يمكن انتزاعها من الإسلام ، أو إبعادها عنه •

٢ - التأكيد على أن خصوم الفكر الإسلامي لا يعنيهم البحث عن الحقيقة ، إنما

تنصيب أمورهم على كيفية الإساءة له ، فإذا لم يجدوا ما يؤدي بهم إلى تلك الغاية سعوا إليها ، وتخيلوها ، وهم قد وهموا في كل ما ذهبوا •

٣ - إعلان أن المصطلحات الصوفية يجب أن تراعى ، لأن عملية التوظيف الخاطئة التي يقوم بها البعض ، والتعامل مع هذه المسائل بما هو ثابت في أفكار الآخرين يمثل نوعا من الخروج على القواعد المنهجية العلمية •

٤ - التأكيد على أن كل المعاني والمفاهيم التي يتناولها الصوفية ، أو يتعاملون بها إنما هي خاصة بهم ، ومن ثم فإن استعمالها بعيدا عن هذه الجوانب فيه نوع من القسوة غير المبررة ، وذلك مما يضر بقضية التصوف الإسلامي كله ، وربما امتدت إلى كافة العلوم الإسلامية ، وربما الإنسانية أيضا •

٥ - إعادة النظر في الأحكام المسبقة التي حاول أصحابها إدانة التصوف الإسلامي من خلال منهج علمي يراعي الخصوصية الذاتية لكل علم من العلوم ، والتصوف الإسلامي أولى بذلك من غيره •

ثالثا : أهم المقترحات

١ - التلقي الروحي بين الصوفية وعلم النفس العام - دراسة مقارنة •
٢ - أثر الشيخ لدى الصوفية في نظرية الفروق الفردية •
٣ - الإتجاه العلمي الصوفي وأثره على السلوك الإنساني •
٤ - ظاهرة الشيخ والمريد وعلاقتها بالقدرات العقلية •
٥ - أثر الخوف في التربية الصوفية •
٦ - علاقة الولاية الصوفية بالنظريات النفسية الحديثة
٧ - الإتجاه العلمي التجريبي وعلاقته بالولاية الصوفية •
٨ - علاقة الولي بخوارق العادات في الفكر الصوفي •
٩ - النتائج التطبيقية لترتيب المقامات والأحوال •
١٠ - دور الصديق في المنهج الصوفي العملي •

الفهرس